وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
إحياء التراث العربي
(١٣٠)



محافظة حلب

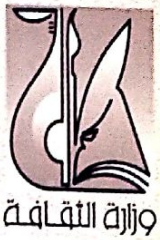

د. عبد الرحمن حميدة

محافظة حلب

المحامي محمد عدنان السيد

وزارة الثقافة
مديرية إحياء ونشر التراث العربي
إحياء التراث العربي
(١٣٠)

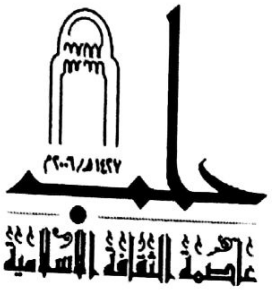

محافظة حلب

د. عبد الرحمن حميدة

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ٢٠٠٦

صدرت الطبعة الأولى

من هذا الكتاب

عام ١٩٩٢

وزارة الثقافة - دمشق

مقدّمة

قبل ربع قرن مضى صدر عن وزارة الثقافة والارشاد القومي الجليلة كتاب ((محافظة حلب)) ضمن سلسلة ((بلادنا رقم ٥)) والذي اضحى ، بسبب مرور تلك الفترة الزمنية المذكورة ، مرجعا في الجغرافيا التاريخية ، لانه يعجز عن تقديم لوحة صادقة عن الاوضاع الجديدة التي طرأت على هذه المحافظة في أيامنا بعد ان شهدت تطورا جذريا شمل مختلف الاصعدة .

ولا تزال هذه المحافظة التي تتمحور حول عاصمة الشمال السوري تؤلف بؤرة اقتصادية تتميز بديناميكيتها على الرغم من كل العقبات والمثبطات الناجمة عن انكماش مناطق نفوذها الاقتصادي والاداري التي كانت ((ولاية حلب)) والتي كانت تعادل أربعة أمثال مساحة رقعتها اليوم .

فقد استطاعت ان تتواءم مع حدودها الجديدة الحالية وان تطور زراعتها ، ولاسيما الزراعة المرواة بعد قيام سد الفرات الكبير فادخلت زراعة محاصيل جديدة كالقطن الامريكي والشوندر السكري على نطاق واسع مثلما لم تعد الصناعة الحرفية محصورة في قيسريات المدينة بل ساعدت شبكة الكهرباء منذ اواسط الثلاثينات من هذا القرن على تحديث الصناعة وتنويعها حسب مقاييس لم تكن معهودة في كثير من الاقطار العربية ، وقيام العديد من المصانع الكبرى في خارج اطار مدينة حلب ذاتها بفضل تحسين شبكة المواصلات المتنوعة من برية وحديدية .

بيد أن التحدي الديموغرافي يفرض خلق فرص عمل جديدة للشبان والشابات الذين يدخلون سوق العمل في كل عام وتكثيف الانتاجية الصناعية ولا سيما الزراعية عن طريق ((العقلنة)) واستصلاح

الاراضي الفقيرة ((الفراج)) بوساطة عمليات ((التنقيب)) اي اقتلاع القشرة الصحراوية و ((والتحجير)) لتمهيد السبيل لاستعمال الآلات الزراعة الحديثة ، وتجميل الملكيات الزراعية بالقضاء على نظام المشاع بحيث تقسر الارض على تقديم اقصى عطاءاتها .

ولا يسعني ، في بداية كتابي الا" ان اتقدم بواجب الشكر والعرفان لسيادة محافظ حلب محمد نور موالدي والعميد عمر حميده والاستاذ علي بدوي والدكتور ياسين السروجي ورؤساء سائر دوائر المحافظة والبلدية الذين تكرموا ـ مشكورين ـ بتقديم كل المعلومات الاحصائية اللازمة والمتعلقة بدرّة المحافظات السورية ، والتي لولاها لما جاء هذا الكتاب على الصورة التي يراها القارىء الكريم .

هذا كما اقر بالفضل للسيدة وزيرة الثقافة الدكتورة نجاح العطار التي منحتني ثقتها الغالية بتكليفي النهوض بهذه المهمة التي ارجو ان اكون على مستواها .

الفصل الأول

لمحة تاريخية

في غياهب الزمن :

لقد كانت سهول سورية الشمالية وهضابها مأهولة بالناس البدائيين خلال العصور المطيرة الاربعة التي تقابل الزحوف الجليدية في شمال أوروبا وأمريكا ، حيث كانت الغابات تستر معظم ارجائها ، وكذلك الحال في فترات انحسار الجموديات حيث كانت تسود سهوب شجرية تكثر فيها الطراد ، اي منذ ألف قرن على الاقل .

ويضم متحف حلب لقى صوانية تشبه آثار الصيادين المجهزين « بمصنوعات » حجرية وصوانية تماثل ادوات صيادي فيل الماموت في « الحقبة المونستيرية » من العصر الحجري القديم ، والتي زادوا في اتقانها في آخر حقبة جمودية ، وهي حقبة فورم .

وتعتبر سورية الشمالية مهد استئناس الماشية والزراعة . فلم تكن خلال الالف الرابع والخامس قبل الميلاد عبارة عن فيافي مقفرة مثلما لم تكن سهبا عديم الخضرة بل كانت تحوي بالاحرى على مشاجر ظليلة ، متفاوتة في كثافتها ، تشهد عليها بقاياها من اشجار السنديان والزعرور والسماق والتين البري التي تنمو بصورة عفوية وترفض الانقراض رغم فتك اسنان الماعز وفأس الحطاب .

وكانت المياه متوفرة فيها بفضل الينابيع والمياه الجارية ، من دائمة او على شكل سيول ، ولكنها ليست بالغزارة التي تحول دون ترويضها لان مواقع التلول الترابية ، التي تبلغ المئات عددا ، والتي تعود لهذه الحقبة ، تتناثر في محافظة حلب ولاسيما الى الشرق من خط طول حلب ذاتها ، والتي تتفاوت كثافتها وابعادها باختلاف الموارد المائية وخصب الارض ، فتكون متباعدة وصغيرة الحجم في المنطقة الشرقية ، في حين تكون ضخمة ومتقاربة نوعا ما في الغرب ، ويعود معظمها لحقبة ما قبل التاريخ ، والتي ظل بعضها مأهولا بالقرى حتى الازمنة الحديثة .

وهكذا يبدو لنا ان منطقة حلب كانت تستوطنها جماعات بشرية منذ فجر الازمنة ، اذ تقدم لنا آثار تل المريبط نموذجا لمستوطنة زراعية تعود للالف التاسع قبل الميلاد ، ومن المؤكد ان مغاور حلب الحوارية شهدت بدأيات العصور الحجرية .

في الأزمنة التاريخية :

لقد كان نطاق السهوب الواقعة بين قرني الهلال الخصيب ، أي النطاق الممتد من شمالي جبل سنجار وجبل عبد العزيز حتى منخفض نهر العاصي الادنى ، أقول كان خلال كل الازمنة التاريخية عبارة عن شريان المواصلات الرئيس بين الشرق والغرب ، بيد أن تساقط الامطار المضمونة نسبيا ، وتوزع مصادر المياه الدائمة ، ووجود الحجر والخشب بمقادير وفيرة ، وقرب مقالع الصخور الصوانية ، سمحت جميعا بقيام وبقاء وحدات اقتصادية صغيره ، قابلة للاستمرار والعيش رغم امكانياتها ، وحدات لم تخضع لذلك الضغط الدافع نحو تمركز السكان وتماسك الوشائج الاقتصادية والذي فرض وجوده كعامل مهيمن على توزع سكان مصر .

من الالف الثالث قبل الميلاد الى ٣٣٣ ق.م :

من العبث فصل تاريخ منطقة حلب عن تاريخ عاصمتها ، فقد دخلت هذه المدينة سجل التاريخ لاول مرة على مسلة الملك الاكادي نارامسين ،

التي اكتشفت في ديار بكر (آمد) في الالف الثالث قبل الميلاد ، تحت اسم آرمان ، ثم تكرر مؤخرا في كتابات ايبلا (تل مرديخ) ، اذ يذكر هذا الملك انه فتح في عام ١٤٥٠ ق.م مدينتين لم يسبق أن فتحها أحد من قبله وهما آرمان وايبلا .

وقد ظهرت مملكة يمحاض في منطقة حلب بعد أن استطونها العموريون أو الآموريون الذين وفدوا اليها من شبه جزيرة العرب في منتصف الالف الثالث قبل الميلاد ، واقاموا فيها المملكة المذكورة التي لعبت دورا مرموقا حتى أن ملكها ياريم ليم نهض لنجدة حمورابي مالك بابل حوالي العام ١٨٠٠ ق.م وكانت سلطته تمتد على عشرة ملوك تابعين كما تذكر النصوص .

وهكذا يظهر من مكتشفات ماري (تل الحريري) أن حلبو ، أي حلب ، كانت عاصمة مملكة يمحاض ، وهي مملكة قوية مترامية الاطراف، مجاورة لمملكة كركميش (جرابلس) من الشرق ، ومملكة قطنة (المشرفة) الواقعة بين حمص وسلمية من الجنوب . وقد خلف ياريم لين الملك حمورابي اليمحاضي المعاصر لحمورابي بابل ، وقد كانت هذه السلالة العمورية ، ذات الاصل الكنعاني ، قد حكمت منطقة حلب في ابتداء الالف الثاني قبل الميلاد .

واقدم ذكر تاريخي لحلب كان في عهد ريموش الاكادي (٢٥٣٠ ـ ٢٥١٥ ق.م) وقد خلف هذا سارغون الاكادي ، وذكر من ملوكها آنذاك لوكال . ويستنتج من ذلك أن حلب كانت عاصمة ذات مركز ديني عظيم قبل خمسين قرنا .

كما ورد ذكرها في اخبار رمسيس الاكبر ، وفي اخبار حمورابي في القرن ١٧ ق.م ، وفي اخبار شلمنصر (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) ، وقد جاء فيها ان شلمنصر الثالث ملك آشور ، فتح حلب سلما وصعد الى التل وقدم القرابين لإلهها حدد الذي يسميه رمّان ، كما ورد ذكر حلب في آثار الحثيين والعمالقة .

فقد حاول حاتوسيل ، ملك الحثيين ، الاستيلاء على مملكة حلب فعجز وجرح وهلك متاثرا بجراحه ، واحتلها ابنه مورسيل الاول ، من بعده ، ودمرها وسبى اهلهـا حـوالي سنة ١٨٠٦ ق.م وظلت في أيدي الحثيين حتى عام ١٦٥٠ ق.م .

وفي القرن ١٨ و ١٧ ق.م احتلها الميتانيون وحكموها بوسـاطة السلالات الحاكمة فيها . وفي عام ١٤٨٣ ق.م ضمّها فراعنة مصر لممتلكاتهم في عهد رمسيس الأول ، وفي منتصف القرن ١٥ ق.م احتلها ملك آشور شلمنصر الثالث وبقيت في أيدي الآشوريين الى سنة ٦١٢ ق.م .

وقد عثر على وثيقة تاريخية عنها اكتشفت بين ربائد (أرشيف) خاتوزا (بوغازكوي) ، وهي عبارة عن معاهدة بين ملك حلب وبين الملك الحثي مورسيل الثـالث ومكتوبة باللغـة البابلية ، يعود تاريخها لعام ١٣٣٦ ق.م ، ولكن هذه الوثيقة تسرد وقائع تاريخية عن الوضع التشريعي فيها الذي يعود للوراء حتى القرن ٢٠ ق.م .

وقد احتفظت عاصمة سورية الشمالية باسمها دون انقطاع ، تقريباً خلال ٤٠ قرناً من الزمن : فقد وردت بالوثائق الحثية تحت اسم خلبا ، وفي كتابات تل الحريري هلبا ، وفي المصرية الفرعونية خرب وخالوبو ، وفي الوثائق الاكادية الكلدانية الاسماء التالية : خلاّبة ، خَلَبو ، خلمان ، خلوان وأخيراً حلاب .

ولما كانت هذه الوثائق تشير اليها كعاصمة دولة على قدر لا بأس به من الأهمية فمن المنتظر أن يكون وراءها منذ ذلك التاريخ السحيق ، ماض عريق بعيد ، مما يدفعنا للقول أن أهمية هذه المنطقة تمتد في جذور التاريخ وبعبارة اخرى نحن بمعرض البحث عن اقـدم مدن العالم الحية التي لا تزال حاضرة منطقة عامرة ومزدهرة كان يطلق عليها منذ ذلك الحين اسم ناهارينا ، أي المنطقة المحصورة بين نهر العاصي والفرات ، وهو ما ينطبق تقريباً على حدود محافظة حلب الحالية .

فمدينة حلب التي عاصرت نينوا وبابل وممفيس ، والتي تعرضت مثل شقيقاتها ، للغزوات والحصـــار والفتـــح والتحرير عشرات المرات أو كانت تتداولها أيدي الحثيين والمصريين والآشويين والفرس والأرمن والسلوقيين والبيزنطيين والعرب المسلمين والفرنجـــة والمغول والأتراك والفرنسيين والانكليز لا تزال شامخـــة الراس ، رابضة ، فوق الهضبة السورية وكأنهـــا تهزأ بعوادي الزمن ، في وقت لم يبق فيه من زميلاتها الغابرة ، التي كانت عواصم امبراطوريات عظمى قديمة ، سوى الاسماء وأكوام التراب والأطلال ، لا تزال حلب تبرهن دائماً على حيويتها وخلود وظائفهـــا .

وتشير الوثائق الفرعونية التي تعود لحوالي عام ٢٠٠٠ ق.م الى هـــذه المملكة والى عاصمتهـــا خالوبو على أنهـــا احدى الممالك التـــابعة للميتانيين .

الاطـــار التـــاريخي :

بينما كان ذكر منطقة حلب يظهر في الوثائق التاريخية كان الوضع السياسي في الشرق يتعرض لتحول جذري . فقد ظهرت أقوام جديدة في شبه جزيرة البلقان ، واستقرت فيها ، مما ادّى لانطلاق تيارات من الهجرة حول البحر الأسود . فقد عبر الحثيون البوسفور باتجاه الآناضول حوالي ٢٠٠٠ ق.م ، كما تسلّل الخوريّون من القفقاس باتجاه الجنوب الغربي ، أي نحو الهضبة الأرمينية . وجاء الميتانيون في أعقابهم ، وهم أقوام انفصلت عن المجموعة الهندية ـ الأوروبية التي كانت زاحفة نحو الهند حينذاك .

وقد تمتع هؤلاء الغزاة الجدد بتفوق حربي ساحق على خصومهم بسبب استخدام الحصان فاخضعوا القسم الشمالي من منطقة ما بين النهرين « ميزوبوتاميا » وسائر المناطق السورية التي كانت تحت سيطرة شعب كنعاني عربي وفد من جزيرة العرب ، وسيطر عليها من الألف الثالث ق م ، وهم العموريون .

ـ **ظهور الامبراطوريات** : لقد تمت وحدة الحثيين منذ القرن ١٩ق م في وقت امتدت رقعة مملكتهم حتى سفوح جبال طوروس الجنوبية مما جعلهم يصطدمون ، بالتالي ، مع الدويلات التي أقامها العموريون في سورية ، فانقضّ ملكهم مورسيل على مملكة خلَب ، فدمر المدينة ونقل سكانها الى عاصمته خاتوزا كاسرى ، ثم تابع سيره الى بابل التي نهبها في عام ١٨٠٦ ق م .

وبعد فترة انحطاط انتابت الحثيين ظهر الميتانيون على مسرح الأحداث فسادوا على سورية بعد أن أزعجوا الخوريين عن منطقة حلب حوالي العام ٦٥٠ ق م ، وقذفوا نحو مصر بموجة بشرية اندمجت بطريقها بفئات كنعانية وغزت مصر تحت اسم الهيكسوس حيث استقرت في دلتا النيل قرابة قرن كامل . وعندما أفلح الفراعنة في التخلص من الهيكسوس لم يجدوا مناصاً من الاهتمام بشؤون الجناح الآسيوي لحماية حدودهم الشرقية وذلك بضم سورية ، فتقدم تحوتمس الثالث بقواته واحتل سورية الشمالية التي حكمها حتى أيام خلفه امنوفيس الثاني .

وفي ١٣٧٠ ق.م تقدم ملك الحثيين سوبيلو ليوما، وكسر ملك الميتانيين، واحتل حلب وكركميش اللتين أصبحتا عاصمتين حثيتين . وفي ١٢٩٥ق م وربما ١٢٨٨ ق م ، اشترك ملك منطقة حلب ، واسمه ريميشا ريما مع حلفائه في معركة قادش ضد المصريين بقيادة رمسيس الثاني ، وكان جيشه مجهزاً بحوالي ٢٥٠٠ عربة حربية ، كما دلّت على ذلك نصوص آثار كركميش .

وبعدئذ ظهر الآشوريون على مسرح حوادث سورية . وكان من أبرز ملوك الحكم الآشوري تغلات فلاصّر الذي دمر كركميش التي كانت تعتبر حصناً وثغراً حثياً هاماً على الفرات . وخلفه آشور ناصر آبلا الذي حكم بين ٨٨٤ و ٨٦٠ ق م والذي أخضع أقوام آسيا الصغرى المجاورة للفرات . وجاء ملك الحثيين سنغار وقدم له الهداية اعترافاً بسيادته عليه .

ولكن الحكم الآشوري لم يستتب نهائياً في سورية الشمالية الا بمجيء الملك سلمنازار في عام ٨٥٤ ق م ، زاحفاً على سورية ، فاخترق أراضيها بسرعة فائقة الى أن وصل الى الفرات وعبره على متن القرب المنفوخة . وعندما بلغ منطقة حلب لاقى استقبالاً حسناً من الاهلين فما كان منه الاّ أن قدّم لإلههم حدد القرابين .

وبعد فترات تقهقر وانحطاط ظهر أحد احفاد الملك « حدد نيراري » الثالث الذي عبر الفرات وأخضع هازار « اعزاز » التي كانت من أهم مدن باتان « سهل الجومة حالياً » التي كان يرويها نهر آبري « عفرين »، كما أخضع مدينة آرباد « تل رفعت » أو تلرفاد الواقعة الى الجنوب من اعزاز .

ولكن المدينة المذكورة ثارت كرة أخرى فوجّه الملك تغلات فلاصّر الثالث ، الذي حكم بين ٧٤٥ و ٧٢٧ ق م ، حملة ضدها ، لانها تعتبر حصناً للآراميين الذين اغتنموا فرصة انشغال ملوك الآشوريين بحروبهم ضد أرمينية واجتاحوا بلاد ما بين النهرين بقبائلهم العديدة، وكانت مدينة الليشاربه « الأتارب » تعدّ من المدن الشهيرة في تلك الحقبة من الزمن .

الحكم الفارسي : عندما انهارت بابل تحت ضربات كيخسرو في عام ٥٣٩ ق م أصبح هذا ملكاً يسيطر على مملكة فسيحة الأرجاء ، موحدة ، تضم بلاد فارس وميديا وكل الامبراطورية الكلدانية بما في ذلك منطقة حلب ، وبذلك فقدت سورية ملوكها الوطنيين الذين لم تتزعزع عروشهم تحت الحكم الكلداني . وهكذا أصبحت منطقة حلب تحت حكم عامل فارسي يأتمر بأمره حكام المدن المختلفة وقواعد الجند . وقد نال الذين أظهروا شجاعة فائقة خلال الفتح الفارسي اقطاعات من الأراضي كمكافأة، وتحول الفلاحون الى عبيد تحت هيمنة الجنود الفرس المتقاعدين ، وراحوا يزرعون الأرض لحساب سادتهم الجدد . وخضع سكان البلاد الضريبة ثقيلة وللسخرة لأن وصية كسرى تقول ـ وهذا نقلاً عن المؤرخ كزينوفون ـ « كلما كانت الرعية فقيرة كلما كان حكمها ميسوراً » .

ولكن سكان المدن لم يتعرضوا لنفس التعسف نظراً لحاجة الحاكمين للعمال المهرة ، اي كان سكان المدن يؤلفون طبقة وسيطة بين سكان الأرياف وبين الأريستوقراطية المتحدّرة من أحفاد الفاتحين . وعلى كل لم يهمل الفرس عمران البلاد تماماً ، فقد أكثروا من انشاء المحطات على طول الطرق واحتفروا القنوات الباطنية « سرابات » وأكثروا من خزانات المياه ، وأقاموا السدود والسكور على الأنهار الصغرى لتوسيع رقعة الري ، حتى انهم أوجدوا غابات اصطناعية كي يستمتع بها الحكام بالراحة والاستراضة وممارسة القنص أيضاً .

وما ان دخل الفرس منطقة حلب حتى وضعوا حداً للأهوال والفواحش التي كانت ترتكب باسم عبادة الإله مولوخ ، فحظر داريوس على السكان المحليين تقديم القرابين البشرية لآلهتهم . وهكذا جاء ، بدلاً عن الملوك المستبدين ، القدامى حكام أكثر اعتدالا وعقلاء . وقد عثر على كتابة تعود لذلك العصر تروي : « لقد قال داريوس الملك أعطيت حمايتي ورعايتي للرجل المجتهد وعاقبت الكسول بشدة » .

ولكن نظراً لقلة عدد الفرس الفاتحين نسبياً ، لم يكن تأثيرهم عميقاً بل سطحياً متقلقلاً مما اضطرهم لأن يتخلوا عن حكم البلاد أمام قلة من الرجال الأشداء الذين قادهم الاسكندر المقدوني فقضى على الامبراطورية الفارسية الشاسعة بعد معركة ايسّوس سنة ٣٣٣ ق م والتي فتحت أمام الشرق حقبة تاريخية جديدة كان من جرائها تحول غير منتظر في مسيرة تطوره .

الحكم الهيليني والروماني :

بعد أن دانت سورية بالطاعة للاسكندر الكبير على أثر انتصاره على جيوش داريوس في الموقعة التي نشبت قرب ميناء اسكندرون الحالية شهدت البلاد حملة نهب لا مثيل لها . وقد كتب المؤرخ الاغريقي بلوتارك يقول : « لقد حصل فرسان الاسكندر على غنائم عظيمة ، ولما كان هؤلاء قد تألقوا في معركة ايسّوس ، فقد كافأهم الملك بأن أرسلهم نحو بلاد

سورية المنخفضة(١) كي يفتح لهم باب الثراء ، وتصرف المقدونيون الذين ذاقوا لأول مرة طعم الذهب والفضة والنساء كما لو انهم تحولوا فجأة الى كلاب مسعورة تسعى خلف الحيوانات النافقة » .

لكن هذه الحقبة الهدامة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما انصرف الاغريق نحو العمران والتنظيم وانهمرت على حلب ومنطقتها موجة من المستوطنين المقدونيين الذين أبدلوا اسم حلب من خاليبون باسم جديد يذكرهم بعاصمتهم الأصلية ، فصار اسمها بيرهيه أو بيروا ، وبذلك لم يكتفوا بانتقالهم كأشخاص الى الأرض الآسيوية بل اصطحبوا معهم ايضا اسم المدينة التي ولدوا فيها .

وامتزجت الديانة السورية المتصفة بمرونتها مع العبادات الاغريقية، وهكذا تقمصت الآلهة المعبودة في ايميز « حمص » وفي هليوبوليس « بعلبك » شخصية الآلهة جوبتير ، كما امتزجت شخصية الآلهة الشهوانية « دير سيتو » التي كانت تتألف من نصف امراة ومن نصف سمكة بالآلهة فينوس ، كما اختلطت عبادة آدونائي بعبادة آدونيس . وبذلك تداخلت الأساطير القديمة ببعضها وطرأ الفساد على هاتين الديانتين الوثنيتين بصورة عميقة نتيجة هذا الاحتكاك المشؤوم .

وأكثر الفاتحون السلوقيون من إشادة الحصون ، ويبدو أن السوريين قاموا بثورة عنيفة ضدهم لم تلبث أن قمعت بالحديد والنار استتب بعدها النظام وبدأ انصهار الشعبين ببعضهما بصورة متزايدة . وقامت المدن في كثير من الأمكنة فوق أنقاض مدن سابقة ، وأحياناً قامت مدن جديدة بكل معنى الكلمة مثل انطاكية وميناءها سلوقية « السويدية » وافاميا على ضفاف العاصي والاوديسه ، وهي اللاذقية .

وأصبح اللسان اليوناني، بسرعة ، لغة المجتمع الراقي ، وكانت اللغة اليونانية لغة دارجة في المدن الى جانب اللغة الآرامية ، شقيقة

---

(١) ويقصد بها العمق ووادي العاصي ومنطقة انطاكية .

العربية . وتنم اطلال المعابد واجزاء التاثيل والتحف والنقود التي يعثر عليها في منطقتنا عن تطور الحضارة الاغريقية في هذه البقعة من سورية .

ونالت حلب ومنطقتها من انتصارات الاسكندر ، التي غزت قلب العالم حينذاك ، أجزل الفوائد ، فارتبطت الهند عن طريق الرافدين بآسيا الصغرى ، كما اتصلت آسيا بأعمدة هرقل « مضيق جبل طارق » وأصبح المجتمع واحداً رغم اختلافاته بالتفاصيل، خاضعاً لنفس الأوضاع العامة ، ممتداً من بلاد بكتريان « متابع سيراداريا وآموداريا » حتى جبال أرمينية فضلا عن آسيا الغربية وبلاد النيل وتوابعها الافريقية وقرطاجة وايطاليا الجنوبية واليونان . ولما كانت حلب واقعة في قلب هذا العالم فقد تحولت الى عنبر ممتاز لتجارة الترانزيت واحتفظت بذلك الامتياز منذ ذلك الحين خلال قرون عديدة ، وبعبارة أخرى أوجد الاسكندر امبراطورية عالمية هي ريحانة قلوب كل العاملين في ميدان التجارة .

سورية تحت سيطرة الرومان :

لقد كانت السنوات الأخيرة من حكم السلوقيين حافلة بمظاهر الفساد فكثرت الانقلابات والحروب الأهلية والنزاعات المحلية مما سمح بتسلل النفوذ الروماني. ولما سئم السوريون هذه الأوضاع طردوا حكامهم السلوقيين واستقبلوا تيغران الكبير ، ملك أرمينية ، كمحرر في العام ٨٣ ق م . ولكن لم يلبث الأرمن أن تعرضوا ، في عقر دارهم ، لهجوم الرومان ، فانسحبوا من سورية في عام ٦٩ ق م كي يفتحها القائد الروماني لوكولوس الذي خلفه في حكم سورية بومبيوس بين ٦٦ و ٦٣ ق م ، ثم كراسوس وكايوس في فترة ٥٤ ـ ٥٥ ق م وأصبحت سورية الشمالية مقاطعة رومانية تحمل اسم « سورية العليا » واحتفظت حلب باسمها الاغريقي بعد تحريف طفيف فصار اسمها بيروئيا .

وهكذا جاء الازدهار الروماني بعد الرخاء السلوقي كما يقول أحد المؤرخين . ولكن السنين الأولى من الحكم الروماني لم تكن منسجمة مع هذه اللوحة الباسمة ، إذ كانت شاقة على الأهلين ، لأن الحكام الجدد

لم يتصرفوا كحكام بل كجباة جشعين . فقد تصرّف القائد كراسّوس وكأنه تاجر أكثر من سلوك قائد جيش . فبدلا من أن يستعرض كتائب جيشه ويثابر على التمارين العسكرية ليجعلها على أهبة الاستعداد للنزال ، انشغل في احصاء اسلاب المدن وغنائمها ، فكان يزن بنفسه الكنوز المنهوبة من هيكل هيرابوليس « منبج » . وكان يرسل الى مختلف المدن آمراً بتجنيد عدد معيّن من السكان ثم لا يلبث أن يسمح باعفائهم من الخدمة مقابل مبالغ معيّنة من المال ، وهذا ما حدث فعلا في أواخر الحكم العثماني ، وقد عاش سكان سورية الشمالية الأهوال من حكام تلك الحقبة التعيسة من الزمن ولاسيما سكان المدن .

ومنذ أن قام الرومان باحتلال سورية رابط الفيلق الرابع الروماني في سورية الشمالية ولم يغادرها الا خلال فترة وجيزة في عام ٦٣ م ، في حملة ضد الأرمن والبارثيين ، وربما كان هؤلاء الأكراد ، وابتداءً من عهد نيرون أصبح هذا الجيش يحمل اسم فيلق فلافيا .

وفي خلال تلك الفترة كانت سورية منقسمة ادارياً الى منطقتين هما اوفراتيزيا وهي المنطقة الواقعة الى الشرق من حلب حتى الفرات ، وكالسيس وهي المنطقة الواقعة الى الشمال منها وجنوبها نسبة الى خاليس وهو نهر قويق ، أما منطقة عفرين فكانت تدعى سيريستيس نسبة الى سيريوس وهي « النبي هوري » اليوم على نهر الصابون رافد نهر عفرين من اليسار . فكانت حلب تابعة آنذاك لقنسرين ومعناها بالآرامية « قن النسور » وهي في موقع قرية العيس حاليا على أطراف المطخ الشمالية .

ظهور النصرانية :

لقد تميزت فترة الحكم الروماني بانتشار المسيحية في سورية . وقد لعبت منطقة حلب دورا دينيا مرموقا . فقد برز من أبنائها شخصيات شغلت مناصب دينية سامية . ففي ٣٢٥م استطاع أوستاثر ، مطران حلب أن يحتل الكرسي الانطاكي ، كما برز المطران آكاس برهيه الذي

ارتقى لمقام بطريرك في عام ٣٧٨ والذي ساند النساطرة في وجه القديس سيريل الاسكندري . وقد توفي في عام ٤٣٢ عن عمر ناهز ١١٠ سنين . ويذكر المؤرخ ميخائيل السوري ان المطران آكاس شيّد كنيسة كبيرة في حلب .

كما ظهر في هذه المنطقة القديس جيروم الذي عاش بين ٣٤٧ – ٤٢٠م والذي انصرف على الخصوص لدراسة العهد القديم وأقام في دير يقع بين حلب وقنسرين وتعلم من حبر يهودي ، حلبي الاصل ، اللغة العبرية، التي لولا اتقانه إياها لما وصلت الينا الترجمة اللاتينية للتوراة .

ونذكر من بين شخصيات ذلك العصر التي كان لها نفوذ عالمي القديس سمعان العمودي الذي يعتبره مسيحيو حلب سيدهم . وقد ولد في عام ٣٩١ وتوفي سنة ٤٥٩ ، واعتزل في مرتفع جبلي لايزال يحمل اسمه حتى اليوم . وأقام فوق ترس عمود عارضا نفسه لاقسى ضروب التعذيب الجسدي واقيم دير حوله فيما بعد . وتعود اطلال قلعة سمعان للقرن الخامس وتشهد على المكانة التي كان يحتلها ذلك القديس الزاهد، في قلوب الناس . وتذكر سيرة القديسة جنيفياف ، حامية باريس ، ان القديس سمعان كان ينشرح صدره عند الاستفهام عن احوال القديسة المذكورة من التجار السوريين الذين كانوا يترددون على أوروبا الغربية الرومانية وكان يوصيهم بنقل تحياته اليها .

وكان مطران حلب يتمتع بنفوذ كبير ، فيروى ان كيخسرو الاول هاجم سورية عام ٥٤٠ م على رأس قوات ضخمة فما كان من ميغاس ، مطران بيرهيه « حلب » الا أن توسط حقناً لدماء مواطنيه وأموالهم . ولكن شفاعته فشلت وتقدم كيخسرو على رأس ٩٠٠٠٠ جندي من هيرابوليس « منبج » وأحرق حلب وكان من الضحايا المطران ذاته الذي لم يشأ أن يتخلى عن رعيته في محنتهم بل آثر الموت بين ظهرانيهم .

وفي ٦٣٠ ارسلت بهران ملكة الفرس وفدا الى هرقل الذي كان حينذاك بحلب ، وفدا مؤلفا من كبار رجال الاكليروس المسيحي لعقد

سلم نهائي بين الامبراطوريتين المتخاصمتين وقدّم الكاثوليكوس ايزديابه، وهو فارسي الاصل ، لهرقل خشبة الصليب الذي نهبه الفرس على أثر استيلائهم على بيت المقدس عام ٦١٤م (١) .

ويبدو أن فترة السلم المتطاول الامد في عهد الرومان ، والذي تمتعت به سورية ، قد أدى لازدهار شامل تمخض عن عمران امتد الى اطراف البادية والتخوم Limes فظهرت مدن جديدة مثل « آنا سارته » أو « آنا سارتون » وهي خناصر اليوم منذ القرن الثالث الميلادي و « خاليس » أي قنسرين العربية و « باربالیسوس » وهي بالس أو مسكنة القديمة .

هذا كما قامت « المدن الحصينة » على تخوم البادية يقطنها رهبان محاربون ، وكانت محاطة بأسوار كان يلجأ لداخلها سكان المناطق المجاورة عند الضرورة اتقاء غارات البدو من اتباع المناذرة . وأهم هذه المدن الصغرى راهب ورويهب وزبد ورسم الحجل ورسم الفار والاندرين وأثرية وكلها تقع جنوب وشرق سبخة الجبول . ويغلب على الظن أن المسيحية انتشرت أيضا على نطاق واسع بين قبائل البدو العربية وانصاف الرحل وحتى الحضر المقيمين في ارباض حلب الجنوبيةالشرقية مثل حي الحاضر .

ثانياً ـ الفتح العربي الاسلامي :

بعد أن فرغت الجيوش العربية الاسلامية من فتح فلسطين بعد موقعة اليرموك ، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، احتشدت واتجهت نحو حلب وانطاكية ورابطت في السهل الواقع بجنوب المدينة . ولكن حلب الغنية ذات التجارة المزدهرة كانت تمقت الحرب تحاشياً للتدمير والخسائر والاضطرابات التي تنجم عن حصار طويل الأمد ، اذ كانت

---

(١) أي قبل ١٨ سنة من وفاة الرسول الأعظم وتقول الآية : « غلبت الروم في ادنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » لان المشركين الوثنيين استبشروا بانتصار الفرس امثالهم في الوثنية .

مستودعاتها تغص بسلع الشرق والغرب .. وكانت قلعتها حصينة منيعة كما كانت المدينة تضم ، فضلا عن تجارها الوديعين ، حوالي ١٢٠٠٠ محارب معظمهم من السكان المحليين الذين حذقوا الاساليب الحربية الرومانية .

وكان حكم سورية الشمالية مقسماً آنئذٍ بين يوكينا وحنا ، ولدي الحاكم السابق الذي كان يتمتع بتقدير كبير عند هرقل . وكان الأول شريراً مستبداً ، بينما كان اخوه بسيطاً ، هادئاً ، ميالا للعبادة وللتأمل .

وقد قرر يوكينا البدء بالهجوم فباغت الجيش العربي بعد خروجه من الاسوار وقتل ٢٠٠ رجل وجرح الكثيرين سواهم ورابط في ساحة القتال ذاتها. ولكن بعض سكان حلب الذين كان الدم العربي يجري في عروقهم غلبت عليهم عصبية الدم وتفوقت على العاطفة الدينية ، كانوا قد ارسلوا وفداً الى جند قنسرين ليفاوض ابا عبيدة بن الجراح ودهشوا من عدل ابناء عمومتهم المسلمين ، بعد ان راوا حكمهم في تلك المدينة ، فتعهدوا بتقديم الأقوات للجيش العربي الاسلامي بالإضافة للمساهمة المالية الضرورية . وعندما تسربت اخبار تلك الاتصالات الى يوكينا استشاط غضباً وطالب بتسليم الوفد المفاوض وإلا وضع حلب تحت حكم الحديد والنار . وهنا تدخل شقيقه حنا واعلن ان وثيقة الاستسلام قد جرى توقيعها ولا فائدة ترجى من الحرب ، فما كان منه إلا ان ضرب عنق اخيه بضربة من سيفه ، وهنا امر جنوده بشن حرب ابادة ضد الاهالي الذين استنجدوا بخالد بن الوليد . واستغل خالد الفرصة السانحة فاجتاح المدينة ولكن قلعتها امتنعت عليه بعد ان اعتصم بها يوكينا وجنده . وقام هذا خلال مدة الحصار بعدة غارات باغت فيها الجيش العربي وكان يرتد بعدها الى القلعة . واستمر حصار القلعة بضعة شهور دون طائل الى أن تطوع جندي بدوي اسمه دامس الذي استأذن ابا عبيدة بوضع ٣٠ محارباً تحت اوامره وتعهد باقتحام القلعة بعد ان ينسحب الجيش كي ينخدع الأعداء . واستطاع بجراته الخارقة التي هي أقرب للروايات الاسطورية ان يتسلق مع اعوانه اسوار القلعة عند

الفجر ، وكان التعاس يغالب يوكينا وجنوده بعد ليلة سكر وعربدة ، فاستسلم الاعداء بعد معركة خاطفة اشترك فيها خالد بن الوليد الذي زحف مع عساكره من سفح جبل الجوشن حيث كان يتربص هناك فاستسلم يوكينا الذي استأذن قبوله في دين الاسلام وذلك عام ٦٣٧ م اي بعد وفاة الرسول الأعظم بخمسة اعوام لا غير .

العهد الأموي : لقد استطاع العرب الفاتحون في مطلع العهد الاموي فرض لغة الضاد على سورية الشمالية التي كانت لغتها السريانية شقيقة العربية ، فضلا عن ان السكان من غير العرب لم يكونوا يجهلون العربية تماماً نظراً لاحتكاكهم اليومي مع القبائل العربية البدوية او المستقرة بضواحي حلب وبقراها الجنوبية الشرقية . وقد ازدادت اهمية حلب بعد أن أمر أبو عبيدة بهدم قنسرين عام ٦٣٩ واجلى سكانها الى حلب لأسباب غير واضحة تماماً . وقد طرأ تعديل هام على تجارة حلب اذ توقفت التجارة تماماً مع بيزنطة وموانىء البحر المتوسط فانهار اقتصاد منطقة جبل الزاوية والاعلا وباريشا « كتلة بيلوس » التي كانت تقوم على تجارة الخمور وزيت الزيتون ، واتجهت نحو العراق وفارس والهند وجزيرة العرب وافريقيا النيلية اي ظهرت سوق جديدة بديلة عن السوق الرومانية والبيزنطية .

وقد امتازت سورية الشمالية حينذاك بانتشار السلام والطمأنينة في ربوعها الى جانب النشاط الاقتصادي هذا في وقت كانت دمشق العاصمة لا تخلو من دسائس ومؤمرات البلاط الاموي لدرجة جعلت بعض خلفاء بني امية يهجرون عاصمتهم للاقامة في حلب أو في ضواحيها فسكن سليمان بن عبد الملك في معسكر دابق ، شمالي حلب ، كما سكن الخليفة عمر بن عبد العزيز خناصر ، بجنوبها الشرقي ، وتوفي في دير سمعان ، وسكن هشام بن عبد الملك الرصافة بعد ان رمّم بنيانها ، ومات فيها سنة ٧٤٣ م .

العصر العباسي : استطاع دعاة العباسيين في خلال بضعة اعوام أن يجعلوا بلاد فارس كلها منحازة لجانبهم ضد الحكم الأموي النائي . وفي

عام ٧٤٩م انفجرت الثورة وقهرت القوات الاموية دون عناء كبير فاكتسح العباسيون سورية واخضعوها ، وابادوا الامويين عن بكرة ابيهم في حين ظهر إمام عباسي لأول مرة . وهكذا استلم العباسيون قيادة الأمة الاسلامية واحتفظوا بها ، ولو بشكل نظري اسمي ، حتى القرن السادس عشر .

وقد تلا فترة تبدل الحكم العابرة حقبة هدوء وازدهار تفتحت فيها عبقرية الشعراء والأدباء ، ولكن هؤلاء العلماء والشعراء لم يأتوا من جزيرة العرب ، في هذه المرة، بل ظهروا بين صفوف العرب والمستعربين السوريين الذين سبق لهم أن تمثلوا المدنية الاغريقية واستفادوا من الرخاء السلوقي ، ومن النظام الروماني ، ومن تقاليد البيزنطيين الرفيعة .

ففي مدن سورية الشمالية الغنية ، ولا سيما في حلب ومدن حوض العاصي ، نشأت بؤرة ثقافية متفتحة عمدت لترجمة كتب الفلسفة والطب والتاريخ الطبيعي والفلك والجغرافيا والكيمياء من اللغة اليونانية الى العربية وبذلك احتفظت بثقافات المدنيات الغابرة ونقلتها الى كل العالم بعد أن اغنتها بنتائج ابحاثها ، كما ابدع ابناء المنطقة في صناعة الألبسة وبناء المساكن الفخمة والمساجد الشهيرة وطبقت شهرتهم الآفاق .

ولكن خطيئة العباسيين الكبرى كانت في فتح أبواب امبراطوريتهم امام الترك الذين ظهروا بجوار قصور الخلفاء كحرس ، وتصرفوا كمرتزقة مع احتفاظهم ببعض الاستقلال ، وبعد وقت قصير انقلب الخلفاء دمى بين ايديهم ، وأصبح رئيسهم هو الذي ينصب الخليفة ، ويعيّن خلفه ، أو يسمل عينيه اذا شاء ، أو يمثّل به او يشويه في التنور . وقد توصل احد زعمائهم ، وهو احمد بن طولون الذي حكم مصر ، الى أن يستأثر بسورية لنفسه ويؤسس فيها أسرة حاكمة ، وذلك في عام ٨٦٥ ، وهكذا عرفت سورية لأول مرة الحكم التركي وكانت تلك البادرة نذيراً بنهاية الحكم العباسي الفعلي .

وعندئذ ظهرت اسـرة عربية من قبيلة تغلـب ، التي كان بعض عناصرها قد استوطنت سورية قبل الفتح العربي الاسلامي ، تحت اسم بني حمدان ، واقتطعت من جسم الامبراطورية العباسية مملكـة أمتدت من الموصل على الدجلة حتى الرقة على الفرات ثم امتدت غرباً حتى البحر وضمت كل سورية الشمالية حتى سفوح طوروس وقد شهدت حلب في تلك الحقبة القصيرة ازهى ايامها واسوئها في آن واحد .

الحمدانيون : (٩٤٤ ـ ١٠٠٣ م) : عندما أصبح الامير سيف الدولة ، علي ابو الحسن الحمداني ، أميراً على سورية الشمالية حتى حمص ، بعد أن استخلصها لنفسه من ايدي الاخشيديين المصريين ، صارت حلب ، ولأول مرة ، منذ ايام الحثيين ، عاصمة لدولة قائمة بذاتها ، ثم اتسعت هذه المملكة كي تشمل كيليكية وملاطية وآمـد « ديار بكر » وانطاكية وتل باشر وترسوس وآضنة وروم قلعة الخ ... ولم يكد سيف الدولة يوطد دعائم حكمه في ممتلكاته السورية حتى اشهر الحرب ضد امبراطورية بيزنطة ، تلك الحروب التي شغلته تقريباً طيلة مدة حكمه وكانت سدى ولحمة مجده الاسطوري . فكانت قواته تتوغل في الأراضي البيزنطية في كل مرة تصبح فيها ممرات طوروس سـالكة بعد ذوبان الثلوج ، فتحرق المدن والقرى وتنهبها ثم تعود مسرعة مع غنائمها هذا فضلا عن الأسرى والسبايا . وبعد ان كانت هذه الغزوات خاطفة دون قصد في الاحتلال الدائم ، اتخذت هذه الحملات الفصلية « الصوائف » بقيادة سيف الدولة شخصياً شكل مغامرات بطولية عنيدة لم يقم بمثلها الأمويون والعباسيون ابداً في الماضي ، اذ كانوا يكتفون غالباً بالغزوات المعتمدة على خفة الحركة وسرعة الهجوم ، ولكن على سرعة الانسحاب أيضاً ، باستثناء الحملة على القسطنطينة التي استشهد فيها الصحابي الجليل ابو ايوب الانصاري ، وغزوة عمورية التي قادهـا المعتصم العباسي .

وقد امضى سيف الدولة معظم أيام حياته في المعسكرات اذ قام باكثر من اربعين حملة ضد الروم ، جيرانه الأقوياء في الشمال ، دون

ان ندخل بالحساب حملاته ضد القبائل البدوية التي كانت تعيث فساداً وتمعن في التخريب في اطراف المعمورة الشرقية .

ففي عام ٩٤٩ اراد سيف الدولة ان ينجد مرعش التي حاصرها الروم ولكنه انكسر وتقوم اعداؤه حتى طرسوس . وفي العام التالي توغل الروم حتى جوار انطاكية ، فقرر سيف الدولة ان يرد عليهم بضربة قاصمة ، فاجتا جبال طوروس واحتل قيصرية في قلب الاناضول ، واجتاز نهر هاليس « قيزيل ايرماق » وتقدم حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى سبع مراحل ، وظل ينهب ويحرق كل ما يجده في في طريقه وعاد بغنائم وفيرة جداً واقتاد اهم شخصيات الروم اسرى ، ولكن فلول الروم باغتته عند احد الممرات الجبلية بقيادة برداس ولم ينج من الأسر الا بقفزة رائعة فوق حصانه المطهم بتاريخ ٩٥٠/١٠/٢٠ ولكن شجاعته المذهلة في هذه الحملة اذهلت المؤرخين عن ذكر هزيمته في النهايــة .

وفي سنة ٩٥٣ استانف الروم هجومهم واتلفوا قرى وزروع في شمالي حلب وانطاكية ، وقد تمكن سيف الدولة من صدّهم وكسرهم عند نهر جيحان واسترد الغنائم واسر قسطنطين ابن القائد برداس ، الذي قضى نحبه في سجون حلب . ولكن سيف الدولة الفارس النبيل كتب بيده رسالة تعزية لوالده المفجوع وسلّم جثمانه لنصارى حلب الذين واروه التراب في احدى الكنائس .

وقام بعدئذ بشن حملات اخرى في عام ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ و ٩٥٨ تارة قرب دلوق وتارة في انحاء آمد ومرة قرب سميساط . ولكن الروم اخذوا يزحفون باتجاه حلب ذاتها وبلغت القلوب الحناجر عندما ظهر بالميدان على رأس قوات الروم قائد كبير هو نيسفور فوكاس المعروف عند المؤرخين العرب باسم نقفور .

وفي عام ٩٦٠ مني سيف الدولة بأشنع هزيمة عرفها خلال حياته العسكرية كلها ، فبعد ان بوغت في احد الممرات الجبلية خسر جيشــه

كله تقريبا حتى انه لم يدخل عاصمتهالا على راس ٣٠٠ فارس فقط . وكان من بين الاسرى البارزين عمه ابو العشائر الذي اقتيد الى القسطنطينة ومات فيها ، وابن عمه الشاعر الفارس الامير ابو فراس . وسقط قاضي حلب ابو الحسن الرقى صريعا . وكان الاسرى المسلمون من الكثرة لدرجة انهم كانوا يباعون في سوق النخاسة ، في القسطنطينية، بالجملة .

وفي عام ٩٦٢ تقدم نقفور بعد أن جهز حملة مدروسة بعناية فائقة ، وانقض كالصاعقة على كيليكية ، وفي خلال ٢٢ يوما احتل ٤٥ موقعا بين مدينة وثغر ، وبعد أن نشر الرعب في المنطقة انكفأ عائدا الى قيصرية . وما أن استراحت جيوشه واستردت انفاسها حتى عاد في خريف العام نفسه واجتاز جبال طوروس على راس جيش مؤلف من ٢٠٠٠٠ مقاتل قاصدا فتح طريق حلب ، وذلك في كانون الاول مع بدء الشتاء .

وهكذا اخذ سيف الدولة على حين غرة واستحال عليه الدفاع عن ممرات جبال آمانوس فانسحب نحو عاصمته وعبأ جيشه في حلب ذاتها ثم تقدم على راس ٤٠٠٠ فارس لملاقاة جيش الروم اللجب قرب اعزاز. ولما وجد أن المقاومة لا تجدي انكفأ وليس في راسه سوى فكرة واحدة وهي الاحتماء بحلب وانقاذها من السقوط مهما كلف الامر . ولكن سرعان ما احتل جيش الروم مرعش وعنتاب واندفع نقفور بجيشه نحو حلب التي كانت تمتنع بقلعتها الحصينة وبأسوارها المنيعة الممتدة على مسافة ٥ كيلو مترات وبحصون جبل الجوش .

واستطاع سيف الدولة أن يجعل عاصمته مستعدة للدفاع بعد ان حمل سكانها من الذين تجاوزوا سن ١٦ سنة السلاح . وارسل قائده نجا مع بضعة آلاف من الفرسان لمشاغلة جيش الروم من الخلف ولكن نقفور أدرك بوساطة جواسيسه هذه الخطة فاحتل أعزاز بينما خذل نجا سيف الدولة وسار بقواته نحو انطاكية .

وتخلى سيف الدولة موقتا عن معسكراته الواقعة فوق مرتفعات بانقوسا ، حيث تقع الثكنة الحالية ، وعسكر عند موقع الحسا على ضفاف قويق الشرقية ليدافع عن الممر حيث جرت معركة حامية الوطيس . ووجدت الخيالة البيزنطية مخاضة عبرت منها النهر وفتكت بالمشاة الحلبيين بالسلاح الابيض ودخل جون الى المدينة من باب النصر بحالة هرج ومرج .

ولم تكن لدى سيف الدولة فرصة كافية للالتجاء للمدينة ، فاندفع بحصانه السريع نَحو الشرق ولحقت به كوكبة من فرسان الروم دون أن تمسك به . ولما غاب عن انظارهم انكفأ نحو قنسرين الحصينة فوجدها خاوية على عروشها بعد أن فرّ سكانها من شدة الهلع . وعندها اخذ الروم بالتسلل لمدينة حلب المنكوبة فنهبوا ضواحيها بشكل شنيع ، وفي المساء اقتحموا قصر الحلبة نفسه ونهبوه ، وتحول بعد برهة وجيزة الى تل من الاطلال والرماد بعد ان نهبوا منه ٤ ملايين درهم من الفضة وآلاف البغال عدا كرائم الخيل العراب ، و ٦٠٠٠ درع ، و ٣٠٠ حمل من اقمشة الكتان الثمينة ، ومثلها من الاقمشة الحريرية ، و ١٠٠ حمل من الاسلحة وأواني الذهب والفضة وحوالي ٢٠٠٠ رأس من الابل .

ولم يتم اقتحام المدينة بشكل شامل الا في ٢٠ كانون الاول بعد حصار استغرق ٣ أيام . وبعد أن تقدم وفد من وجوه المدينة وشيوخها الى نقفور وتوسلوا اليه أن ينسحب لان سيف الدولة لم يعد بالمدينة ، ولما علم نقفور بهذا النبأ غير المنتظر قطع المفاوضات وأمر بالهجوم العام الذي حدث في مساء ٢٢ كانون الاول .

وبعد أن تعرضت الاسوار لضربات « الاكباش »(١) فتحت فيها عدة ثغرات ، ولما دخل البيزنطيون المدينة لاقوا مقاومة ضارية واضطروا للقتال متقهقرين . وفي الليلة التالية أفلح المدافعون في ترميم الثغرات

---

(١) نوع من المنجنيقات الافقية التي كان يستعملها الروم لدك الاسوار والحصون .

وسدها وفكر نقفور بالانسحاب فعلا لولا أن عيونه المترصدين فوق جبل الجوشن أنبأوه بأن ثورة اندلعت في المدينة المحاصرة . والواقع هو أن المرتزقة الجياع انضموا للدهماء وراحو ينهبون بيوت الميسورين ، فاقتتل الناس بالشوارع وترك حماة الاسوار مواقعهم ، وهنا سنحت الفرصة الذهبية لنقفور فحطم جنوده الابواب وفتحوا ثغرات عديدة بالسور ، وبدأت حرب ابادة لكل من عجز عن الالتجاء للقلعة . وحدثت مجزرة رهيبة اشترك فيها ١٠٠٠٠٠ جندي كانوا يقتلون وينتهكون الاعراض وينهبون الاموال . ولم ينج من سيوفهم سوى أجمل النساء والفتيان والفتيات الذين انضموا الى بقية سبايا المسلمين الذين بلغ عددهم ١٠٠٠٠٠ صبي وصبية استاقوهم من حلب وحمص وعرقا وطرابلس وجميع الساحل السوري . ولما ساقوا هؤلاء المساكين أمامهم ليأخذوهم الى القسطنطينية اشتدت انواء الشتاء وسدت مسالك جبال آمانوس وطوروس فاضطروا للوقوف بهم في قلعة بغراس . ولما كانت الاقوات ووسائل الايواء والتدفئة غير كافية هلك معظمهم من الجوع والبرد والامراض ودفنوا جماعيا في سهل العمق ، ثم سيق من بقي منهم حيا الى القسطنطينية وارسلت الفتيات الى قصور النساء ، والفتيان ليشكلوا فرقة في الحرس الامبراطوري ، واحرق الجند وخربوا عددا ضخما من الابنية الهامة .

وعندما اشتد البرد وتعب جند الروم رأى نقفور فوكاس أن الوضع سيكون خطيرا اذا طال به المقام بحلب في وسط منطقتها التي دمرتها المعارك ، بعيدا عن مناطق تموينه ، لذا قرر الرحيل والعودة بعد أن عرف جيشه طريق حلب وأذاق أهلها الاهوال .

وبدأ الانسحاب في يوم رأس سنة ٩٦٢ بعد اسبوع من دخوله حلب عنوة ، وبعد أن نشر الاعلان التالي على من بقي حيا في حلب وضواحيها على قيد الحياة : « ها أنا أنسحب كي أعود اليكم ثانية . اعتنوا بزراعة أراضيكم لانها ملكي ، سأعود في العام القادم لاجني ما زرعتموه ، اعملوا كيلا يخيب ظني فيكم » .

وعاد الجيش البيزنطي مثقلا بالغنائم الثمينة ، ومن بينها اجزاء من ثوب القديس يوحنا المعمدان نهبت من احدى كنائس حلب ونقلت فيما بعد الى دير كوربي في شمال شرق فرنسا على يد الصليبيين الذين غنموها بدورهم من القسطنطينية سنة ١٠٢٤ ، فضلا عن الارقاء الروم المحررين والاسرى المسلمين،بعد أن ترك حاميات في الحصون وفي الممرات الجبلية.

وعاد سيف الدولة بعد انسحاب نقفور الى مدينة حلب في كانون الثاني من عام ١٩٦٢ ليجدها خاوية على عروشها فنقل أهل قنسرين وكان ذلك آخر عهد بعمران هذه المدينة الاخيرة التي مضى على خرابها ١٠٢٦ سنة تماما وتدعى الآن قرية « العيس » واعاد بناء انطاكيةواصلح الاسوار ولكن القائد نجا ظل ثائرا عليه .

أما نقفور فلم يترك سورية الشمالية لتنعم بالهدوء ، اذ جهز حملة في عام ٩٦٤ واجتاز كيليكية في شهر تموز على رأس جيش مؤلف من أرمن وكرج واسبان وفرسان من البندقية وآمالفي . وكان شتاء ٩٦٤ ـ ٩٦٥ شديد القساوة على سيف الدولة اذ أصيب بمرض في القلب فضلا عن آلام النقرس . وجاءت نجدات من انحاء العالم الاسلامي لاغاثتـه ومعظمها من نيسابور ومرو وهراة الافغانية . ولم يندفع نقفور حتى حلب بل عقدت هدنة بين الطرفين تم فيها تبادل الاسرى كما قاد نجا حملة من انطاكية ضد سيده الامير الحمداني .

ورغم مقاومة قرعويه ، نائب سيف الدولة ، اسـتطاع المتمردون احتلال حلب بعد أن دخلوها من باب النصر في ٩٦٥/١/٢٠ . ولكن القلعة التي احتمى بها قرعويه استعصت عليهم واستمر الحصار ١٠٠ يوما . وفي ٩٦٦/٢/٩ خرج قرعويه من القلعة فجأة على رأس قوة كبيرةواستطاع انقاذ المدينة وطارد الثوار المهاجمين ولكن هؤلاء انكفؤوا وطاردوا الحلبيين واسروا قرعويه في القلعة ذاتها .

واخيرا عاد سيف الدولة من سميساط وطرد العصاة ووطد حكمه على حلب وانطاكية .

وفي هذه الاثناء ظهر نقفور من جديد ، في تموز ٩٦٦ ، على التخوم السورية من الشمال الشرقي عن طريق ديار بكر وماردين ونصيبين ورأس العين واورفة ومنبج وتوجه الى حلب ، بعد أن احتل وادي البطنان ، أي حوض نهر الذهب حاليا ، ولكنه لم يهاجم المدينة بل اكتفى بغزو ونهب ضواحيها وتخريبها خلال ٥٠ يوما . وما كاد ينسحب حتى فاضت روح البطل سيف الدولة الى بارئها على اثر اشتداد مرض النقرس (داء الملوك) عليه في ٩٦٧/١/٢٥ وختمت حياة رجل فذ من رجال الملاحم .

ولكن الشيء الذي يستحق الذكر ، من خلال معاركه العديدة التي خاضها طيلة ٣٠ عاما حول معابر الفرات وممرات طوروس ، لا يكمن في نتائج هذه المعارك ، بل في الروح التي كانت تحرضها ، واقصد بها روح الجهاد ، في وقت خمدت فيه هذه الروح بصورة شبه تامة ، بعد أن أخلدت بقية الامراء والملوك المسلمين للترف واصبحت كراسيهم الهشة أغلى عليهم من أوطانهم ، مما منح الامير شهرة طبقت الآفاق واشعلت روح الحماسة في العالم الاسلامي الشرقي حينذاك .

سعد الدولة : وخلف سيف الدولة ابنه سعد الدولة ، ولكن الحرب استمرت مع الامبراطورية البيزنطية . وفي عام ٩٦٨ عاد نقفور وسار نحو حلب وبعد معركة خرج منها الحمدانيون خاسرين ، تحاشى التعرض للمدينة وخرب المناطق الواقعة الى الجنوب منها ومنطقة الساحل واندفع نحو حمص وعاد وخلفه ١٠٠٠٠٠ أسير . أما سعد الدولة فقد اختفت آثاره في وادي الفرات مما سمح لنائبه قرعويه باغتصاب السلطة ونادى بنفسه ملكا على حلب ولكنه لم يلبث أن حوصر من قبل احد قواد نقفور واسمه بطرس فوكاس الذي احتل المدينة بعد حصار استمر ٢٧ يوما . ولما عجز الروم عن احتلال القلعة جنح القائد البيزنطي للتفاوض مع قرعويه . وقد وصل الينا نص المعاهدة بفضل المؤرخ كمال الدين وبموجبها تدفع المدينة جزية ضخمة لامبراطور الروم الذي اصبح له الحق بتعيين

مندوب له بحلب لتحصيل ضريبة عشر على كل بضاعة تدخل المدينة واصبحت امارة لها حدودها كتابعة للروم وضمت سائر المناطق التابعة لها الى بيزنطة ، فكانت حدودها الشمالية تمتد من عكس نهر العاصي عند انطاكية الى نهر الساجور ومن شمال هذا الخط تبدأ حدود الروم ، وكان وضع يماثل احوال ملوك الطوائف بالاندلس .

الحياة الأدبية في بلاط سيف الدولة

لقد عاش في بلاط هذا الامير الشهم عدد من نبغاء عصره جعل منهم سيف الدولة هالة توج بها هامته . فهو لم يقنع بأمجاد المعارك فحسب بل اضاف اليها حماية العلم والادب وسائر فنون عصره وكان سخيا على العاملين في هذا المضمار رغم كل الظروف الاليمة التي كانت تحيق به . فالى جانب الفارابي ، اكبر فيلسوف عربي قبل ابن سينا ، كان يعيش في بلاطه اكثر شعراء عصره شهرة ، وهو المتنبي . فأبو الطيب الذي ولد عام ٣٠٣ هـ وتوفي في ٣٥٤ لم يترك حاشية سيف الدولة الا لفترة قصيرة . فقد عاش زهاء ١٠ أعوام في بلاطه الصغير ، بين ٩٤٧ و ٩٥٨ م وكان يرافقه في المدن والارياف ، وفي حملاته ، وحتى في أيام اقامته بين البدو . ونجد بين قصائده العديدة ان اكثر من ثمانين منها نظمت في مديح أمير حلب . ولا تقل قيمة هذه القصائد الجغرافية والتاريخية عن قيمتها الادبية . وعن طريق هذه القصائد وصلنا الكثير من اخبار سيف الدولة ومواقفه فكانت نوعا من سيرة حياته كقول ابي الطيب :

وقفت وما في الموت شك لواقف كانك في جفن الردى وهو نائم
تمرّ بك الابطال كلمى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسم

كما أن مدح المتنبي لسيف الدولة هو الذي منح الامير شهرة تجاوبت لها سائر انحاء العالم الاسلامي .

فكان المتنبي يشيد بحملات سيف الدولة ضد البيزنطيين كما كان يمدحه في حملاته التأديبية ضد قبائل البدو التي كانت تعيث فسادا

في ارياف حلب الشرقية وفي اطراف المعمورة . وقد وصف احدى تلك الحملات التي شنها الامير ضدهم والتي طاردهم فيها حتى مشارف تدمر ، وكيف غنم سيف الدولة فيها ابلهم وقطعانهم وردم آبارهم ، وكيف دفعته نخوته وفروسيته الى الكف عن ملاحقتهم عندما راى ان نساءهم وأولادهم كادوا يهلكون من الظمأ والجوع .

هذا كما أطرى المتنبي روائع قصر الحلبة الذي شيده سيف الدولة خارج أسوار حلب على ضفاف النهر بين البساتين النضرة التي كانت ترتادها جماهير الحلبيين أيام الاعياد وفي الربيع وهي ترفل بالثياب الزاهية الالوان رجالاً ونساءً . وكان يحيط بالقصر سور يخترق نهر قويق من طرف لآخر ، كما كان مجموع الأبنية المختلفة من مقاصف ومنازل فخمة يؤلف مدينة حقيقية تجلت فيها كل منجزات الفن العربي الشرقي .

هذا كما عاش في قصره الخطيب الفذ ابن نباته والعالم اللغوي ابن خالويه والنحوي الشهير ابن جنّي والاصفهاني وابن خلكان وياقوت الحموي بالاضافة الى ٢٤ طبيباً كانوا يشاركونه مائدته الحافلة .

وهناك كلمة أخيرة وهي أن حروبه العديدة ونفقات بلاطه وكرمه كانت على عاتق رعيته التي أرهقتها الضرائب الثقيلة حتى قيل في عهده « كل من هلك فلسيف الدولة ما ملك » أي انه كان يحسد الشعب على ما في أيديه وأصبح الوريث الأوحد الشرعي لكل ثري يموت ، حتى أن جماعات من تغلب آثرت الهرب وعبرت الحدود الى بلاد الروم واعتنقت النصرانية هرباً من جوره .

الفاطميون : لقد كانت معركة ٩٦٨ م الضربة القاصمة بالنسبة لأمارة الحمدانيين وأصبح تاريخ حلب بعدها عبارة عن سلسلة من احداث الفوضى والاضطرابات الدامية الناتجة عن تدخل البيزنطيين ، أو البدو ، أو الفاطميين .

أما الفاطميون الذين أقاموا في القاهرة خلافة شيعية ، منافسة للخلافة العباسية ولخلافة الأندلس ، فكانوا يعتبرون سورية الشمالية دهليز العراق وامتلاكها يحقق لهم الهيمنة على ما ورائها من أقطار ، كما قال المؤرخ القلانسي ، وعن طريق حلب كانوا يطمحون في بلوغ بغداد المركز الروحي والسياسي لكل العالم الاسلامي .

وهكذا تقدم الفاطميون عام ٩٧٣ حتى أبواب حلب ، فما كان من حنّا تيميزيس ، الذي خلف نقفور فوكاس على العرش الامبراطوري ، إلاّ أن جرّد حملة ضدهم ، ومرّ من حلب كي يدفعهم حتى القدس جنوباً ، وفي ٩٧٦ استطاع سعد الدولة استرداد عاصمته بعد حملة خاطفة ولكن القلعة قاومته مدة عامين كاملين . واعترف بخليفة القاهرة وخطب بإسمه على المنابر ، وقام باعادة بناء الجامع الأموي الكبير وبترميم الاسوار التي كانت متداعية . ولما شعر بأنه يتمتع بآن واحد بالتأييد من قبل كل من خليفة القاهرة وخليفة بغداد ، حيث كان يتأرجح بسياسته بينهما ، حاول التخلص من نير النفوذ البيزنطي فتوقف عن دفع الجزية المفروضة عليه بموجب معاهدة ٩٦٨ .

ولكن برداس فوكاس لم يلبث أن ظهر على راس جيوش بيزنطة تحت أسوار حلب سنة ٩٨١ ونشبت معركة أمام باب النصر اذعن أهل حلب على أثرها واستمروا في دفع الجزية ، ولكن سعد الدولة استنجد بعد عامين بالفاطميين فجرد الروم حملة جديدة ضد حلب للاقتصاص منها وطرد المصريين ، وكانت معركة مريعة دارت رحاها في المدينة لا سيما في الساحة الواقعة أمام باب قنسرين وقد خرج الجيش البيزنطي مدحوراً . ولكن فوكاس انتقم في سنة ٩٨٥ إذ احتل كلّس وترك حلب جانباً ، وسار نحو افاميا ، ثم ارتد على حلب وقسر سعد الدولة على طلب الأمان وعلى دفع الاقساط المتأخرة من الجزية عن السنوات السابقة .

ولم يطل الأمر بعد ذلك بآخر امراء بني حمدان إذ توفي عام ٩٩١ مشلولاً لأنه « افرط في حب احدى النساء الاربعمائة اللواتي كنّ يؤلفن حريمه الخاص » . كما يروي المؤرخون .

المرداسيون : وعلى اثر ذلك خضعت بلاد الشام قاطبة لحكم الفاطميين . ولكن ضعف السلطة المركزية اثار اطماع اعراب البادية ، فاتفقت ثلاث قبائل على اقتسام بلاد الشام ، وكانت منطقة حلب من نصيب شيوخ قبيلة كلاب ، وهم المرداسيون الذين ملكوا منطقة حلب بدءاً من عام ١٠٢٤ حتى ١٠٧٩ وأول امرائهم صالح بن مرداس الذي استخلص المنطقة من أيدي الفاطميين . ولا مجال هنا لسرد حوادث تلك الفترة من الحكم البدوي لأنها كانت تجسيداً للفوضى إذ كانت عبارة عن مكائد ومؤامرات وخيانات ، ومواثيق موقتة لا يجف مدادها الا لكي تنقض . وكان المرداسيون نظرياً تحت سيادة الفاطميين وفي الوقت ذاته تحت حماية البيزنطيين بشكل أوثق . وكثيراً ما كان الأمراء الأشقاء يقتتلون فيما بينهم ويطلبون تحكيم الروم في خلافاتهم ، ويلتجئون لمعونة المرتزقة من أتراك وأكراد وأرمن وديلميين . فكانت حلب تنتقل من يد لأخرى إذ صدف مرة ان حكمها ثلاثة أمراء في ثلاثة أيام متتالية . ولكن على الرغم من هذه الفوضى استطاع المرداسيون أن يجتذبوا لبلاطهم المجهري بعض الشعراء والأدباء . ولعل أشهر هؤلاء هو أحمد أبو العلاء المعري ، الذي عاش بين ٩٧٣ و ١٠٥٧ م وأصبح كفيفاً في سن العاشرة بتأثير مرض الجدري ، وبدأ يقرض الشعر وهو في سن الحادية عشرة من عمره(١) .

الأتراك : لقد كان ظهور الأتراك على مسرح السياسة في منطقة حلب نذيراً ببلوغ قمة الفوضى والاضطراب ، وذلك أن بعض القبائل التركية ، الضاربة في بطاح ما وراء النهر ، اجتاحت بلاد فارس في مطلع القرن ١١ تحت ضغط قبائل أخرى أقوى شكيمة قدمت من تخوم الصين .

---

(١) لم يثبت تاريخياً أن أبا العلاء مدح الأمراء المرداسيين ، وانما قال أبياتاً يصف بها صالح بن مرداس ويرثي لنفسه لقبوله مهمة الوساطة بينه وبين أهل المعرة على أثر الاضطرابات التي نجمت عن اعتداء صاحب حانة على امرأة عربية مسلمة :

بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم راي فسد

واستطاع أحد رؤسائهم ، طغرل بك ، من اسرة السلاجقة ، أن يطرد من بغداد الأمراء الشيعة الذين وضعوا خلافة الأسلام تحت هيمنتهم . وتجاه هذه الخدمة منحه الخليفة رسمياً حق النيابة عنه ، مع كل الألقاب التي تثبت سلطته شرعياً على كل العالم الاسلامي ، وذلك في عام ١٠٩٥ م .

ولكن الأتراك لم يظهروا في سورية على شكل جيوش تعمل في خدمة حكومة نظامية بل دخلوها على شكل عصابات منعزلة تتجول باحثة عن الأسلاب . واعتمد المرداسيون على بعض هذه العصابات ، المؤلفة من أجلاف ، فحوّلت النزاعات بينها وبين الأهالي ، أو بين الأمراء أنفسهم الى معارك دموية . ونظراً للحرية التي تمتعت بها هذه العصابات ، فقد كان أعمالها أكثر هولاً في الأرياف لأنها ظلت خلال عشرة أعوام تتجول في أرياف حلب وهي تنهب وتبتز الأموال من السكان لدرجة قسرت الكثيرين من الفلاحين المستقرين للعودة الى البداوة .

سلاجقة حلب : ومع تزايد النفوذ التركي اضطر المرداسيون للاعتراف بسلطة السلطان السلجوقي وبالتالي بسلطة خليفة بغداد الإسمية ، وفي عام ١٠٨٦ استلم ملكشاه حلب وعيّن فيها حاكماً من طرفه وضمّها الى ممتلكاته . ولكن سورية الشمالية تخلصت نهائياً من نفوذ الروم وتهديداتهم المزمنة ، لأن سلاجقة الأناضول اقتطعوا لأنفسهم مملكة على حساب جسم الامبراطورية البيزنطية الى الشمال من منطقة حلب . وأخيراً تمّ اقتسام سورية بين اثنين من أمراء السلاجقة ، استقل أحدهما بدمشق ، والآخر بحلب عام ١٠٩٥ م .

ولكن هذه القسمة وضعت منطقة حلب في إطار سياسي ضيق جداً ، لأن انطاكية ومنبج وبعض مدن سورية الشمالية كانت بأيدي أمراء أتراك مستقلين في حين كان حوض العاصي الأوسط تحت سلطة أمراء عرب من آل منقذ في شيزر ، بينما كانت جبال طوروس تحت سيطرة الأرمن ، وكان وادي الفرات تحت سيطرة البدو ، وبعبارة ادق لم يكن امير حلب

السلجوقي يحكم سوى المدينة وضواحيها المباشرة ، وهـذه الظروف الغريبة هي التي تفسّر ، الى حد كبير ، نجاح الحملة الصليبية الأولى .

الفرنجة في سورية الشمالية : الواقع هو انه لم يكن بحوزة امير حلب السلجوقي رضوان ولا لدى اي من الأمراء المجاورين اية قوة كافية لصدّ الصليبيين الذين انهمروا من معابر جبال طوروس بعد عامين فقط من اقتسام بلاد الشام بين السلاجقة . ونظراً لسوء الظن والريبة المتبادلة بين الأمراء المسلمين ، فهم لم يقوموا بأي جهد مشترك ضد الغزاة الجدد ثم أصابهم الاحباط بسبب فشل حملة قدمت من العراق لنجدتهم ، فقبع معظمهم خلف أسوار عواصمهم تاركين للغزاة الفرنجة الطريق مفتوحة لاكتساح سورية الشمالية ، وهكذا استولى هؤلاء على انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ حيث استقر فيها الأمير بوهيمند في حين أصبح الكونت بودوان حاكماً على أورفة .

وقد دفعت منطقة حلب غالياً ثمن هـذا الوضع الجديد بعد أن استحوذ الصليبيون على انطاكية واعزاز وتل باشر وأورفة فطوّقوها من الشمال والغرب ثم راحوا ينقضّون على الثغور التي تحميها واحداً بعد آخر . وفي حزيران ١١٠٠ م هاجم بوهيمند مدينة افاميا وخرب ضواحيها . وفي ٥ تموز اشتبك مع رضوان الذي انكسر وتخلّى عن ٥٠٠ أسير بينهم عدة أمراء ، وتقدم امير انطاكية حتى قرية كفر حلب والحاضر . وفي أواخر العام ذاته تقدم الأمير بوهيمند والامير ريشار ، أمير الرها ، لمحاصرة حلب على رأس جيش رابط في حي المشارقة على ضفة نهر قويق تجاه باب انطاكية ، ولكنهما اضطرا الى رفع الحصار بسبب حصار آخر طرأ على مدينة ملاطية التابعة لأمارة الرها ، والذهاب الى هناك حيث انكسر بوهيمند وسقط بالأسر ولبث بالسجن ثلاث سنين .

ولكن ابن أخيه تانكرد انتصر على جيش رضوان في ٢٠ / ٤ / ١١٠٥ قرب قرية تيزين واجتاح اراضي حلب . وفي عام ١١٠٨ تنازل امبراطور بيزنطة الكسيس عن « حقوقه » في امارة حلب الى بوهيمند . وفي أواخر

العام نفسه تقدم تانكرد واحتل قلعة الأتارب الواقعة على طريق حلب انطاكية . وفي السنة التالية احتل حصن الاكراد وطوّق رضوان بحلب ، فاضطر الأخير الى عقد هدنة حصل عليها بشرط أن تقبل حلب بدفع جزية سنوية قدرها ٢٠٠٠٠ دينار ذهبي ، عدا اطلاق سراح الأسرى الافرنج ، والهدايا من الخيل والزرابي والمجوهرات والأقمشة الفاخرة .

وعلى أثر موت رضوان في أيار من عام ١١١٣ استطاع روجر بن تانكرد ، وخلفه ، أن يقسر ألب ارسلان ، ابن رضوان ، وخلفه ، على دفع جزية سنوية . هذا كما تحالف روجر في عام ١١١٥ مع أمير حلب وأمير دمشق على التصدّي لحاكم الموصل التركي بورساكي وكسروه ، وفي ١١١٧ تجدد التحالف بين أمير حلب وروجر وهاجما مدينة بالس «مسكنة القديمة » على الفرات ، وفي العام التالي طلب أهل حلب حماية روجر من هجوم أميري دمشق والموصل . وحصل روجر ، بالمقابل ، على مدينة اعزاز ، فضلاً عن جزية سنوية ، مع حق تملك كل المناطق المجاورة للمدينة من الشمال والغرب ، وظلت حلب تدفع الصليبيين نصف حاصلات بساتينها ، وكانت الحدود بين امارة انطاكية وأورفة تلتقي مع امارة حلب قرب قرية الاخترين الحالية .

ولكن استطاع أمير حلب الغازي ، في عام ١١١٩ ، أن يقتل روجر مما حدا بأمير الرها جوسلين بأن يتقدم لمعونة امارة انطاكية وأنجده بودوان دو بورغ ، ملك القدس ، فاحتل قنسرين ونقل أبوابها الى قلعة انطاكية ، كما تقدم بودوان فاجتاح الباب وبزاعة .

نور الدين زنكي : وتعاقبت المعارك بين أمراء المسلمين والصليبيين بين كرّ وفرّ الى أن ظهر في الميدان أتابك الموصل زنكي عام ١١٢٨ الذي استولى على حلب ودافع عنها ضد حلف مؤلف من أمير انطاكية ، وريمون دو بواتييه ، وكونت الرها ، والامبراطور البيزنطي ، وانتصر عليهم ولكن خرب حلب زلزال مروع في ٢٠ / ١٠ / ١١٢٨ .

وعندما تسلّم نور الدين زنكي حلب على اثر وفاة والده في عام ١١٤٦ عمد الى تثبيت دعائم المذهب السني ، واسس المدارس واوقف عليها الأوقاف الكافية ثم استانف الجهاد فقاتل امير انطاكية ريمون دو بواتييه وصرعه سنة ١١٤٩ .

وفي أيار ١١٥٩ انطلق الملك بودوان الثالث والامبراطور البيزنطي مانوئيل ورينودو شاتيّون امير انطاكية ، وطوروس ، حاكم ارمينية ، أقول انطلقوا جميعا من انطاكية في اتجاه حلب لمحاصرتها لأن حلب كانت تغض بأسرى من الروم والأرمن والفرنجة . ولما احس نور الدين بعجزه عن صدّهم فاوضهم ، واطلق سراح ١٠٠٠٠ أسير كان من بينهم برتران دو بلانكفورت ، والكونت برتران الذي أسر عام ١١٤٩ مع شقيقته التي تزوجها نور الدين . وكان الامبراطور البيزنطي راغبا في السلام وارتضى بما حصل عليه بالمفاوضة . ويقول المؤرخ غروسّيه بهذا الصدد : « لو ثبت الروم واللاتين في حصارهم حلب حتى النهاية لقضي على السلطة الأيوبية وهي بالمهد ولكان للمشرق اللاتيني امكانيات لا محدودة في البقاء » .

غير أن هذه النتيجة لم تعجب رينو دو شاتيّون ولم توافق مزاجه الشرير فاستمر بالحرب لوحده . ولكنه سقط في ١١٦٠/١١/٢٣ أسيراً بأيدي فرسان حاكم حلب الذين اقتادوه عاريا داميا ، مكتوف اليدين خلف ظهره ، على ظهر بعير ، الى حلب حيث ظل فيها ١٦ عام بالأسر سجينا بالقلعة التي مات فيها جوسلين الثاني كونت أورفه في ١١٤٧ ثم شاركه الأسر شخصيات كبيرة مثل بوهيمند الثالث في ١١٦٤ وريموند الثالث كونت أورفه ، وهوغ دو لوزينيان .

ولم يسترد رينو دوشايتون حريته إلاّ بعد أن دفع غرامة قدرها ١٢٠٠٠٠ دينار ذهب . واندفع هذا المغامر بعد أن خسر امارة انطاكية وزوجته ، فاقتطع لنفسه امارة الى الشرق من البحر الميت ، هي امارة الكرك ، ونقل فوق ظهور الابل وقطع اسطول بحري حتى خليج العقبة ،

وراح يغزو سواحل شبه الجزيرة العربية وصمّم على غزو مكة المكرمة ذاتها ، وراح ينهب قوافل الحجيج ، وتمادى في غيه حتى انه اسر شقيقة صلاح الدين التي كانت في قافلة عرسها ، وعندئذ جرد صلاح الدين عليه حملة كان من جرائها أن قتل في عشية معركة طبرية في ٤ تموز ١١٨٧ بعد أن احتزّ صلاح الدين راس هذا المغامر بيده .

وقام نور الدين على أثر الزلزال الذي دمر الكثير من أحياء حلب عام ١١٧٠ بأعمال عمرانية كبيرة في داخل المدينة وفي الاسوار واعيد بناء القلعة كما تراها اليوم على هيئتها الحالية تقريبا .

الملك الصالح : وعلى اثر وفاة نور الدين عام ١١٧٤ خلفه ابنه الملك الصالح وكان عمره ٣ أعوام مما سمح لقائد الجيش صلاح الدين أن يحتل كل سوريةويتخذ لقب سلطان وبذلك أصبح سيد منطقة حلب عام ١١٨٣ .

الملك الظاهر : وبعد وفاته خلفه ابنه الملك الظاهر الذي تحالف مع كونت انطاكية وارسل اليه جيشا ليساعده في طرد ليون الأول ملك أرمينية الذي اجتاح امارة انطاكية . والى عهد هذا الملك تنسب الكتابات الموجودة على باب القلعة الرئيس وبعض الابواب الحديدية فيها . وهو الذي كسا سفح القلعة ببلاط لا تزال بعض بقاياه على طرفي باب القلعة ، والذي اقتلعه المصريون في القرن الماضي لبناء ثكنة بانقوسا والمشفى العسكري في حي الرمضانية .

وبعد قليل أصبح الملك العادل ، عم الملك الظاهر ، سيدا على مصر وبسط سيطرته على حلب ودمشق .

عصر المماليك (١٢٦٠ ـ ١٥١٦) :

لقد سبق استتباب الامر للمماليك في سورية ظهور برابرة لا يقلّون خطرا عن الفرنجة ولكنهم قدموا ، هذه المرة ، من الشرق ، واقصد بهم المغول :

هولاكو : ففي عاه ١٢٥٨ قام خـان المغول هولاكو من بلاد فارس واستولى على بغداد وقتل الخلفية تحت سنابك خيله ، وذلك في العام ذاته الذي سقطت فيه أشبيلية في الاندلس بأيدي الاسبان ، وفي العام التالي اجتاح الجزيرة العليا وأباد المدن ، في طريقه ، الواحدة تلو الاخرى ناشرا الهلع مما حدا بالسكان لاخلاء البالاد هائمين على وجوههم .

وفي ١٢٦٠ اجتاح هولاكو سوريـة الشمالية بناء على طلب ملك أرمينية الصغرى هاتوم ، وفي ٢٤ كانون الثاني من العام نفسه اقتحم حلب بعد حصار دام عدة أيام واستباح المدينة خلال أسبوع كامل كانت خلاله عرضه للمجازر والنهب والحرائق . وتحقيقـا لرغبة زوجتـه خاتون النصرانية أمر بتحويل عدة جوامع الى كنائس وأديرة ، وتقدم المغول بقيادة كتبغا نحو فلسطين حيث انكسروا في موقعة عين جالوت التي تعد من المواقع الحاسمة في التاريخ الاسلامي .

وبعد انتصار بيبرس على المغول طمع بالسلطة على حلب فنادى بنفسه سلطانا عليها بعد أن كسر جيشا مغوليا ثانيا ، أرسله هولاكو ، قرب حمص ، ثم استولى على امارة انطاكية التي استخلصها نهائيا من أيدي الفرنجة عام ١٢٦٨ م .

كازان : وفي ١٢٩٩ زحف خان المغول كازان واجتاز الفرات على رأس جيش قوامه ٩٠٠٠٠ محارب انضم اليهم ٣٠٠٠ أرمني بقيادة ملكهم هاتوم ، وملك الكرج ، فاستولى على دمشق في عام ١٣٠٠ ولكنه فشل أمام حلب . وعاود المغول حملاتهم ضد منطقة حلب في ١٣٠١ ، و ١٣٠٣ و ١٣٠٤ م دون نتائج ذات بال .

سيف الدين ايشك : وبتاريخ ١٣٧٥/٤/١٣ استطاع حاكم حلب ، سيف الدين ايشك تيمور ، على رأس قوة مؤلفة من ١٥٠٠٠ محارب تركماني أن يستولي على سيس في كيليكية وعاد ظافرا الى حلب التي دخلهـا وهو يسـوق أسرى بارزين مثـل ليون الخامس دو لوزينيان ،

والملكة مرغريت دو سواسوّن واولادهما ، والكاثوليكوس بولس الاول ، والكثير من النبلاء . ولكن الملك ليون استطاع أن يفتدي نفسه سنة ١٣٨٢ بوساطة ملكي آراغون وقشتاله وعاد لاوروبا حيث مات ودفن في ضاحية سان دنيس ، قرب باريس .

تيمورلنك : ولكن ظهر الخطر المغولي من جديد على الرغم من دخول هذه الاقوام في الاسلام . ففي سنة ١٤٠٠ م انقض تيمورلنك من سيواس في قلب الاناضول ، كي يهاجم المماليك واستولى على حلب بعد معركة ضارية جرت قرب كلّس . وتعرضت حلب لأسوأ انواع التخريب الوحشي على يد هؤلاء المغول ونهب ثرواتها . واصطحب تيمورلنك عند خروجه من من سورية معظم الصنّاع المهرة واسكنهم في عاصمته سمرقند التي مات فيها سنة ١٤٠٥ م .

قايتباي : ثم حكم المماليك البرجية ، وهم من أصل شركسي ، منطقة حلب وكان أبرزهم قايتباي الذي حكم بين ١٤٦٨ و ١٤٩٦ والذي اشتهر باهتمامه بالعمران ، وترك آثاراً عديدة بحلب مثل جامع الفردوس وخان الصابون الخ .. ولكن كان على قايتباي أن يدافع عن نفسه في وجه الدولة العثمانية الفتية التي قامت في الاناضول واتّسعت على حساب البيزنطيين ، فأخذ زمام المبادرة بالتحرش بهم وحقق بعض الانتصارات في كيليكية ، ولكن الأتراك العثمانيين لم يتراجعوا هذه المرة إلا لكي ينقضّوا على سورية .

والذي يستحق التنويه به في أيام المماليك ، وحتى مطلع القرن ١٦ هو أن الفلاح تعرّض لأشدّ انواع الاستعباد ، وربما كان ذلك مقتبسا من الامبراطورية المغولية . فيروي المقريزي والجبرتي أن وضع الفلاح أصبح ، منذ ذلك الوقت ، أسوأ من وضع العبيد الارقاء ، لان الفلاح لم يعد يستطيع التمتع بالحرية ، ولا حقّ له في تبديل مهنته ولا وضعه بسبب جواز بيع الارض ومن عليها لمالك آخر ، كما لم يكن بمقدوره مغادرة أرضه بسهولة تماثل السهولة التي يترك فيها الرقيق سيده بعد

عنقه . فكان لصاحب الاقطاعية حق ضرب عبيده وبيعهم وسجنهم وحتى اعدامهم .

قانصوه الغوري : وكان آخر سلاطين المماليك قانصوه الغوري الذي استلم الحكم وهو في سن الستين . ولكن اذا لم تستطع السنون أن تقضي على حيويته ونشاطه ، فقد اثقلته بكل العيوب : اذ كان ظالما ، جشعا ، يبتز أموال رعيته . وكان عشقه للذهب يستفحل مع توالي السنين حتى انه فرض ضريبة على الذين يجمعون روث الدواب . وكسا جدران وسقوف قصوره برقائق الذهب ، وكان يكدس ثرواته في القلاع ، حتى غصت قلعة حلب بها . وكانت ثالثة الاثافي ان جعل الجندي يعيش على حساب الاهالي ، فطفح الكيل واصبح الناس يتطلعون متشوقين لقدوم حاكم جديد ، فكان أن اتصل خيري بك، نائب حلب، بالاتراك العثمانيين.

ثالثاً ـ نهاية حكم المماليك وظهور سليم الأول العثماني :

وعندما صمم سليم الأول على اهانة رسل قانصوه الغوري سار هذا على رأس جيش المماليك للقائه ، وعند مروره بحلب لم يغفل عن نهب أرزاق الناس . وتقدم قانصوه في ابهة كبيرة لمقاتلة خصمه ، فالتقى الجيشان في سهل دابق ، شمال شرق حلب ، على طريق عينتاب . وعندما حمي وطيس القتال خذله البدو والجنود السوريون وتركوا ساحة القتال بتشجيع من جانبرد الغزالي حاكم دمشق ، وخيري بك نائب حلب ، اللذين تواطئا مع السلطان سليم الأول .

ولاقي قانصوه الغوري حتفه في المعركة دون ان يكتشف أحد جثته في ١٥١٦/٨/٢١ مما جعل المؤرخ ابن اياس يقول : لم يظفر قانصوه بقبر وهو الذي انفق ١٠٠٠٠٠ دينار في بناء مدرسة كان يأمل أن يجد فيها مثواه الأخير .

واستقبل سكان حلب الفاتح الجديد بالاحتفالات والاعياد ، فدخلها سلماً وسط هتاف السكان والعلماء ، أما خيري بك الذي خان سيده .

فقد سماه سليم الأول « خاين بك » واعطى حكم حلب لوالٍ تركي وهكذا استتب الامر للاتراك الذين حكموا البلاد مدة اربعة قرون ونيف .

العصر العثماني : على الرغم من ان العثمانيين تركوا في الولايات الجديدة التي فتحوها نفس التقسيمات الادارية التي تركها لهم المماليك ، فقد عمدوا الى تعديل جهاز الادارة بشكل بارز ، فكان الباشا لا يعيّن الاّ لعام واحد ولم تكن له سلطة على الجيش ، وكان يعيّن الى جانبه قاضٍ ومدير مالية يوفدان من استانبول مباشرة مع الوالي ذاته . وكان الهدف البعيد من تلك السياسة اتقاء الثورات ، وذلك بمنع الباشوات من التمتع بسلطة واسعة في ولاياتهم . غير ان السلطان بتقليص اختصاصات الوالي كان ، من جهة ثانية ، يجعله عاجزا من الناحية الادارية . كما أن اختصار مدة حكم الوالي لعام واحد كان يحول بينه وبين القيام بأي مشروع عمراني طويل الامد يستدعي الاستمرار بالعمل . ومع الزمن أصبحت عادة اعطاء وظائف الدولة بما يشبه المزايدة موردا لا ينضب للولاة ، ووسيلة لابتزاز أموال المواطنين .

وهكذا نجد انه تقلب على حكم حلب خلال القرنين ١٦ و ١٧ أي بين ١٥١٧ و ١٦٨٨ ستة وسبعون واليا . وبلغ عددهم من الفتح العثماني حتى ١٨٣١ أكثر من ٢٠٠ والٍ ، أي بمعدل والٍ واحد كل عام ونصف . وقد صدف أن تعاقب على مدينة حلب تسعة باشاوات في فترة ثلاثة أعوام فقط .

الانكشارية : وكان السكان في صراع دائم ضد تعسف وجشع جند الانكشارية او « اليكرجية » كما كان يسميهم اهل حلب . وكان دهاء الباشا وحده هو الذي يستطيع ردّهم لجادة الصواب وتأمين الناس على اعراضهم وأموالهم ، ولكنها طمأنينة تكلف المواطنين ما يقابلها ، وعندها يبتز الباشا ما يستطيع من أموال تحت ذريعة خداعة وهي انقاذ الناس من جور الانكشاريين وبطشهم .

ويذكر الرحالة فواني ان عبدي باشا الذي حكم حلب في النصف الثاني من القرن ١٨ « تمكن من جمع اكثر من ٤ ملايين ليرة ذهبية في مدة ١٥ شهر وذلك بتغريم كل ارباب المهن بما في ذلك العاملين في تنظيف الغلايين » وفي ذلك ما يكفي لتصور مدى سوء الادارة والفساد اللذين كانا يخضع لهما سكان البلاد .

ولم يمر على حلب من الباشاوات الذين احتفظوا بسمعة نظيفة سوى القلائل ، مثل يوسف باشا الذي حكم حلب في مطلع القرن ١٧ والذي امتاز عهده بصون كرامة الناس ولم بتطلع الى اموالهم والذي ادت استقامته لاشاعة الرخاء .

الحالة الاقتصادية في مطلع الحكم التركي :

على الرغم من كل المصاعب والظروف العسيرة التي توالت على حلب فقد ظلت هذه المدينة تحتل مكان الصدارة بين مدن الشمال السوري حتى انها كانت تتفوق على دمشق في الاهمية الصناعية والتجارية .

ويذكر أ حد الرحالة وهو بلون Belon الذي زار المدينة في عام ١٥٣٧ « ان قوافل بلاد العجم والهند والعراق كانت تحمل اليهامحاصيلها وان كل المسافرين نحو هذه الاقطار المذكورة كانوا يجدون بحلب تجارا مستعدين لمرافقتهم . وكان الانسان يجد في هذه المدينة كل محاصيل الشرق ، وكان البنادقة يرسلون اولادهم اليها ليتقنوا لغة وعادات اهل سورية » .

وكانت البندقية تتمتع بحق حصر التجارة حتى قبل الامتيازات التي منحها السلطان سليمان القانوني (١٤٩٤ ـ ١٥٦٦) للفرنسيين ، وكانت قيمة تجارتهم تبلغ ٣ ملايين دوقة . وكانت حلب تستورد بضائع فرنسية بقيمة ١٠٠٠٠٠ دوقة تسدد قيمتها بضائع شرقية . وقد ازدهرت فيها صناعة نسج الاقمشة الحريرية بعد ان دمرها تيمورلنك

في دمشق ، وكانت تصدر منها ما قيمته ٢٠٠٠٠٠ دوقة ، وهي وحدة نقدية ذهبية ظهرت في البندقية في القرن ١٣ ، كما كانت زراعة القطن منتشرة بين حلب ومعرة النعمان .

غير أن البندقية تخلت عن امتيازاتها التجارية لفرنسا التي كانت تتمتع بعلاقات وثيقة مع الباب العالي الذي كان يري في فرنسا سندا معنويا ، على الاقل ، في كفاحه ضد المملكة النمسوية ، ففي عام ١٥٣٥ حصلت على اتفاق تجاري اسمه الامتيازات Capitulations تفتح بموجبه الموانىء التركية في وجه التجارة الفرنسية ، وتجددت هذه المعاهدة عام ١٥٦٩ وفي ١٥٨١ لمصلحة فرنسا دائما . وهكذا حلت مرسيليا وليون مكان البندقية .

وحصلت انكلترا ، بدورها ، على امتيازات مماثلة سنة ١٥٨٠ بفضل عدائها لملوك اسبانيا فانشأت الشركة الشرقية ثم تفوقت تجاريا على فرنسا التي انهمكت في الحروب الدينية .

وحصلت هولندا ، عام ١٦١٢ ، على مزايا تجارية مماثلة . وبذلك تبوأت بسرعة مكانة مرموقة في الشرق . واستردت فرنسا مكانتها في بلاد المشرق على أثر انشغال الانكليز والهولنديين في التنافس في بحر عمان واندونيسيا .

وعلى كل كانت تجارة سورية جميعها تقريبا بيد الفرنسيين واليونان والارمن . وكان المسلمون يعزفون عن ممارستها لا لسبب ديني او لجهل بأصولها بل كانوا يلاقون في سبيل تعاطيها عراقيل تضعها الحكومة العثمانية في وجههم باستثناء تجارة التجزئة والتوزيع ، لان سياسة الباب العالي رات ان منح الاجانب حق تعاطي التجارة والصناعة اكثر ربحا للدولة من اعطائها اياه لمواطنيها .

ويذكر فولني ان معظم تجارة حلب كانت بيد الفرنسيين وكان يقتصر استيرادها على خمسة اصناف رئيسية هي : اجواخ اللا نغدوق، وشرانق الحرير من قادس الاسبانية ، وصباغ النيل والسكاكر ، وقهوة جزر الآنتيل التي كانت تخلط مع قهوة اليمن المرتفعة السعر .

الصناعة في العهد التركي :

في الوقت الذي تم فيه الفتح العثماني كان الشرق الاسلامي واوروبا يتبادلان التجارة على قدم المساواة لان المستوى الحضاري كان متماثلا تقريبا . ولكن بعد قرنين من الزمن تبدل الحال تماما . فقد كانت اوروبا تتمخض عن نهضة وثابة كما كانت تضاعف مواردها الصناعية وتتقن اساليبها التقنية على اثر تحالف المخبر والمصنع . وابتداء من مطلع القرن ١٨ لم يعد الشرق اكثر من مستعمرات استغلالية ذات طابع استعماري اقتصادي ، أي مصدر مواد اولية وسوق لانتاج اوروبا الصناعية ، ولم يعد في المبادلات التجارية اكثر من دور سلبي واضطر الصناع والشرقيون الحرفيون ، تجاه اكتساح المصنوعات الاجنبية الاكثر جودة والاقل كلفة ، الى التخلي عن اساليبهم التقليدية ، التي لم تعد تتواءم مع روح العصر ، والى وضع انفسهم تحت تصرف الفرنجة كسماسرة وموزعين أي انهم تحولوا الى باعة ثانويين للبضائع المستوردة(١).

---

(١) من الطريف التعرف على المهن المندثرة من اسماء العائلات التي كانت تمارس مهنة معينة تلاشت تدريجيا منذ القرن ١٨ : دامرجي ، جليلاتي ، مصاصاتي ، كويفاتي، بوادقجي ، قصار ، دباغ ، اسكيف ، طرابيشي ، ماشطة ، شماع ، سكري ، كيخيا ، مهمندار ، سلحدار ، سنكري ، شطاف ، آلاجاتي ، آلاجه جي ، وراق ، زنابيلي ، صقال ، التونجي ، فتال ، دواليبي ، دقاق ، طحان ، مرادني ، مدراتي ، عكام ، زنبركجي ، شاشاتي ، برام ، عبجي ، غزال ، بيلوني ، جزماتي ، حماض ، قواف ، ابري ، مسلاتي ، تتان ، توتونجي ، خراط ، بيطار ، سياف ، حايك ، بلاذنجكي ، كحال ، قطان ، خوام ، صواف ، قباني ، ملقي ، موقت ، مقيد الخ..

وكانت لهذه الهيمنة الاقتصادية الاوروبية طبعا تأثيرها السياسي الاكثر سطوة ، اذ ازدادت سلطة القناصل بنسبة تزايد حجم المبادلات التجارية ، واستغلوها لتوسيع الامتيازات التي انتزعتها حكوماتهم من الباب العالي ، وبذلك تحولوا الى عملاء سياسيين فضلا عن كونهم عملاء اقتصاديين . ولكن نظام الحكم العثماني الذي دب فيه العطب بعد قرن واحد من توسعه الاقصى كان يحمل في ثناياه جراثيم فنائه . فقد كانت السلطات العثمانية تتقاضى رسوما على المواد الصناعية تبلغ ٥٠٪ من قيمتها . وظلت صناعة غزل القطن ونسجه تمارس بعض نشاطها لتلبية بعض حاجات السوق المحلية ، ولكنها اخذت تعتمد بصورة متزايدة على خيوط القطن المستوردة التي كانت ارخص اسعارا وافضل نوعية بما لايقاس من الغزل المحلي اليدوي . والى جانب الصناعة القطنية كانت هناك صناعة صوفية تستخدم مواد اولية خام محلية وكانت تنتج بعض الاكسية الخشنة كالعبي والزرابي واقمشة الخيام . والعقبة الكبرى كانت تنجم عن عدم توفر رؤوس اموال تحت تصرف ارباب الصناعة ، ولعدم وجود مصارف تدعمهم بسبب تحريم « الربا » الرسمي واللجوء للاستقراض بفوائد مرهقة تخرب مشاريع المستقرض اكثر من مساعدته لان المرابين انما كانوا يخاطرون بأموالهم تحت حكم لايحمي الاموال ولا الارواح .

بدء النهضة الادبية والفنية :

اذا كانت الحالة الاقتصادية تسير من سيء الى أسوأ في سورية الشمالية خاصة وفي سائر انحاء الامبراطورية العثمانية بصورة عامة ، فان القرون الاخيرة من الحكم العثماني ، الذي كان هو بحد ذاته واقعا تحت سيطرة شبه استعمارية فان الحركة التبشيرية ، الناتجة عن سياسة « الامتيازات » قد ادت بصورة غير مباشرة ، الى نهضة ادبية وفنية بدأت بين ابناء الطوائف المسيحية ، ولاسيما الكاثوليكية ، ثم مالبثت ان سرت الى سائر ابناء الطوائف الاخرى .

فقد اصدر جرمانوس فرحات ، الماروني ، بحلب ، اول كتاب في النحو والصرف العربي ، كما اصدر الاب نيقولا صايغ ديوان شعر . ثم نشر عبد الله زاخر ، الذي اسس اول مطبعة بحلب حفرحروفها بيديه ، نسخة من المزامير باللغة العربية فضلا عن اصداره عدة مؤلفات . ولما توفي في عام ١٧٣٥ قيل في رثائه : « انه كوكب الشرق ونموذج علمائه وفريد عصره ، ولامثيل له في قطره » .

وانجبت حلب نصر الله طرابلسي الذي نظم قصائد رائعة في اللغة العربية والفارسية والتركية .

اما من الناحية العمرانية فقد ظهر فن عمراني تزييني بلغ قمته في تلك الحقبة من الزمن ولاسيما في بيوت الوجهاء والاثرياء الواقعة في حي الفرافرة والصيليبة ، ونجد فيها بعثا للتقاليد الفنية السورية التي تعود للقرن الرابع والخامس والسادس الميلادي . وظهر ذلك على شكل باحات فسيحة ، جيدة البلاط ، مع حديقة صغيرة وبركة تتوسطها نافورات حجرية ، والايوان الجميل المتجه نحو الشمال والمحمي من اشعة الشمس المحرقة ، والصالون الكبير المتصالب والذي تعلوه قبة الخ ..

سورية الشمالية ابتداء من القرن الثامن عشر :

الانكشاريون : تتصف تلك الحقبة باحتدام الصراعات الدامية بين الانكشارية العديمي الانضباط والتهذيب ، والذين لا يشبعون من النهب ، وبين الاشراف المنسوبين الى فاطمة بنت الرسول الكريم . وقد ادى التنافس على النفوذ الى المذبحة التي حصلت في عام ١٧٩٧ والتي ذبح فيها الانكشاريون الاشراف الذين التجأوا الى الجوامع ، مثلما حاولوا دون دخول باشا حلب الجديد شريف باشا الى المدينة وممارسة سلطاته الرسمية ، مما اضطره للتفاوض معهم ولم يصل الى السرايا الا بعد ان اذعن لشروطهم . وراح يحابي الاشراف في بداية الامر ، ولكن ذلك التصرف استشاط حنق الانكشارية عليهم وبذلك مهد بسياسته الى ذبح ٢٥٠ شريفا في ليلة واحدة .

وهكذا جعلت هذه الطغمة المؤلفة من ضباط واغوات الانكشاريين كل حكم مستقر مستحيلا . ولكن اقبل وال جديد بتاريخ ١٨١٣/١/٢٠ وقرر أن يتخلص من طغيانهم فدعا رؤساؤهم الى السرايا الى وليمة حافلة أمر أثناءها بقتلهم دون رحمة في حين هاجمت الجماهير الحانقة والمتعطشة للانتقام على المجتمعين منهم للصلاة في جامع السنطانية المجاور وانتقموا لمذبحة الاشراف ، ثم طارد الباشا فلول الباقين منهم على قيد الحياة .

وفي هذه الفترة هاجر قسم كبير من دروز منطقة حلب الجنوبية الغربية بعد ان تقدموا بطلب الى الامير بشير الشهابي ، فساعد على اجلاء ٤٠٠ اسرة منهم الى لبنان ، ولكن عددا كبيرا من النسوة والاطفال لاقوا حتفهم في الطريق ولازالت بعض اسرهم تحمل اسم « الحلبي » .

هذا وقد تعرضت حلب حينذاك لزلزالين متقاربين في الزمن ، الاول في ١٨٢٢ ، والثاني في ١٨٣٠ ، وكانا على درجة عالية من الشدة لان الزلزال الاول قضى على ثلث السكان وعلى ثلثي الابنية وانهارت السرايا وجامع الاطروش وجامع السلطانية تجاه باب القلعة كما لحق الكثير من الاضرار مثلما انتاب التهديم بعض اجزاء السور . وفي ١٨٣٠ ذاتها زار الشاعر لامارتين حلب وسماها « اثينا الاسيوية » واثنى على سمو ونبل اخلاق اهلها وتصرفاتهم المستحبة ووقارهم(١) .

---

(١) كتب لامارتين في كتابه « رحلة في الشرق » الذي صدر عام ١٨٣٢ وعبر فيه عن المخطط الاستعماري كما تصوره :

« في حالة سقوط الامبراطورية العثمانية ستحصل كل من الدول الاوروبية الكبرى ، بموجب الحماية على قسم من الامبراطورية المخصص لها بموجب شروط المؤتمر !.. وهذا النوع من السيادة المكرسة بحسباتها حقا اوروبيا ، ينحصر بصورة رئيسة في حق احتلال اي قسم من البلاد او من السواحل لاقامة مدن حرة فيها ، او مستعمرات اوروبية ، او موانىء او مراكز تجارية ... وذلك ليس اكثر من وصاية مسلحة وتمدينية تمارسها كل دولة اوربية على محميتها » .

الحكم المصري : وبعد عامين من ذلك سقطت حلب بأيدي المصريين على اثر انتصار ابراهيم باشا على الأتراك قرب حمص ، وبعد حصول والده على حكم سورية مدى الحياة ، وقد تسلّم اسماعيل بك ، وهو ابن عم ابراهيم باشا ، حكم ولاية حلب اثناء فترة الحكم المصري وهو الذي بنى الثكنة الكبيرة فوق مرتفعات بانقوسا والمستشفى العسكري في الرمضانية .

ولكن الشعب شعر أن الحكم الجديد هو غول مخيف ، يعمد لرفع الضرائب ، ويلتهم كل شيء ولا يرتوي ولا يقنع ويحسد الناس على ما في أيديهم ، ويسعى الى سلبهم إياها ، بعد أن استبشروا خيراً بزوال الحكم العثماني ، فقامت ثورة شعبية قمعت بلا رحمة سنة ١٨٣٤ وتلتها أخرى بالعام التالي في كلّس . ولكن الأتراك عبروا الفرات في عام ١٨٣٩ واشتبكوا مع المصريين في موقع نزيب ، فاضطر محمد علي ، رغم فوز المصريين جزئياً، الى اخلاء سورية بموجب معاهدة لندن عام ١٨٤٠ . وعاد الحكم العثماني من جديد دون اي تغيير يذكر ودون أن يتّعظ بما حدث ، وعادت المساوىء السابقة تنوء بكلكلها على عاتق الشعب مما فتح الطريق لثورة عام ١٨٥٠ المصادفة لعام ١٢٦٦ هـ والتي عرفت تحت اسم « قومة حلب » .

« قومة حلب » : ويسميها بعض المؤرخين « فتنة حلب » وربما كان من المنطق تسميتها « ثورة حلب الشعبية » أو « انتفاضة حلب » والتي اختلفت الروايات في تبيان دوافعها والظروف والملابسات التي أحاطت بها .

بدأت الثورة ليلة اليوم الثاني من عيد الأضحى لعام ١٢٦٦ هـ واستمرت حتى اليوم الخامس عشر من المحرم . ولا تزال الأسباب الظاهرة التي فجرت هذه الثورة غامضة حتى ان البعض جعل سببها البعيد التنافس بين متسلّم حلب عبد الله البابنسي ، الانكشاري الأصل

وخصمه يوسف باشا شريف زاده ، من الأشراف . وكان عبد الله البابنسي متسلماً لحلب إبان حكم ابراهيم باشا ، واحتفظ بمنصبه خلال السنوات العشر الأولى من العهد العثماني الذي أعقب العهد المصري .

وكان البابنسي وخصمه السياسي من الشخصيات التي التزمت جمع الأموال الأميرية دون أن يسددا كل ما حصلاه لخزانة الدولة ، وتراكمت عليهما المستحقات الكثيرة فطالبتهما الدولة بالدفع ، وهدد الوالي بمصادرة ممتلكاتهما .

ورأى الخصمان ان من مصلحتهما الاتفاق واثارة فتنة تقسر الوالي ظريف باشا على التغاضي عن الأموال المتأخرة ، وتضطره بالتالي على الاعتماد عليهما وعلى أعوانهما لإخماد نار الفتنة العتيدة . وأشاعا بوساطة عملائهما بأن الدولة عازمة على جباية الضرائب العقارية وتجنيد الشبان. وكان الناس قد استخفوا بالدولة العثمانية في أعقاب اندحارها أمام المصريين وهزائمها المتوالية أمام الروس . كما كان الوضع الاقتصادي في غاية التدهور فضلا عن خدمة عسكرية تستنزف دماء الشباب من المسلمين في حروب لا نهاية لها . وكانت الأحياء الخارجية غاصة بجماهير الفلاحين البائسة التي وفدت على المدينة هرباً من ظلم الجابي والبدوي واللاوند « الدركي » والتي جاءت تبحث عن مورد رزق بعد أن اصبحت حياة الأرياف جحيماً لا يطاق بسبب انقطاع حبل الأمن ، اي كانت كل الظروف مواتية لاندلاع ثورة هوجاء ولم يتطلب الأمر سوى التذرع بسبب واهٍ كي يكون بمثابة الشرارة الأولى .

وثار الجمهور على الدولة وهاجم مخفر باب الحديد في مساء اليوم الأول من عيد الأضحى وفرّ الجند من وجههم وحضر الوالي ظريف باشا شخصياً لإخماد الفتنة وتهدئة الأحوال . غير أن شجاعته خذلته عندما رأى كثرة الجماهير الهائجة فهرب ، فازدادت ، تبعاً لذلك ، جرأة

الناس . وسارت الجماهير اثناء الليل باتجاه منازل الأعيان للانتقام منهم ، لأن هؤلاء لم يحاولوا حماية الشعب من ثقل الضرائب . فهرب الاعيان ، بدورهم ، ولجأوا الى الثكنة العسكرية دون ان يتعرض الثوار للنسوة والاطفال . وقصدت الجموع منزل عبد الله البابنسي واهانوا في طريقهم أحد العلماء . ودفعهم عبد الله بك عن نفسه بعد أن اظهر لهم عجزه عن الغاء الضرائب والجندية قائلا : انتم قوم فجار ، اذهبوا عني حيث شئتم ، ولكنه أوعز خفية الى اتباعه بالانضمام للجمهور ، فاتجه الناس الى حي الصليبة ليستمدوا من المسيحيين المال اللازم لشراء السلاح كي يكرهوا الدولة على التراجع والغاء الضريبة والتجنيد ، ولم يكن هدفهم اطلاقاً الاعتداء على المسيحيين ، بل اعتقد زعماء الثورة ان من مصلحة المسيحيين أنفسهم دفع هذه الأموال لأنهم كانوا عازمين على رفع الحيف عن الشعب برمته . وسارت الحشود هاتفة « عسكر ما نعطي ، فردي ما نعطي » . « ولما بلغوا مقر البطريرك مكسيم مظلوم ، بطريرك الروم الكاثوليك ، وكان مختبئاً في منزل الياس نعوم كبابة ، خاف على نفسه ، وخرج متنكراً بزي امرأة متحجبة والتجأ عند القنصل نيقولا مركوبلي الذي أخفاه في إحدى غرف مخزنه . ثم أرسل اليه ظريف باشا حرساً من الجند وتزيّا بزيّ جنرال أوروبي وأوصلوه الى بيروت. وكانت الجماهير ناقمة عليه لأنه كان يدور بشوارع حلب وهو راكب في ابهة زائدة وموكب حافل ، فتلقى منه المسلمون ذلك كارغام لهم وتعالٍ عليهم ، فكانوا ينقمون عليه هذا الصنيع » كما يقول الشيخ كامل الغزي المؤرخ . كما انضم الى الثوار بعض الدهماء الذين هاجموا بطريرك السريان الكاثوليك اغناطيوس جروة الذي نجح في الالتجاء لدار قنصل فرنسا دو ليسبس. وبلغ مجموع قتلى المسيحيين عشرة أشخاص وقدروا خسائرهم بحوالي ٢٨٠٠ كيس أو ١٤ مليون قرش أو ٣ ملايين فرنك .

وقد لجأ معظم المسيحيين الى الخانات والى منازل اصدقائهم من المسلمين ، كما انبرى الكثير من المسلمين لحماية بيوت المسيحيين بعد أن اخلاها سكانها ، ورفض هؤلاء دفع ١٠٠٠ ليرة ذهبية لعبد الله

البابنسي لقاء تعهده بحمايتهم وردوا عليه قائلين : « اذا أصابنا ضرر طلبنا تعويضه من الحكومة » .

وتكاثرت الجموع وتقدمها طبل لحشد الناس كما انضم اليهم البدو والفلاحون . واستمرت الفوضى طوال اليوم الثاني من العيد ثم تدخل الأعيان وتوقف النهب . وتبادل الثوار والوالي الرسل . وطالب الثوار بجعل عبد الله بك مفوضاً بالأمور واستثناء حلب من الضرائب والفردي، والكف عن مطالبة عبد الله البابنسي ويوسف الشريف بالضرائب والأموال المتأخرة ، ومنع المسيحيين من استرقاق المسلمين ، واذعن ظريف باشا الى مطالبهم بسبب عجزه عسكرياً ولكنه طالب بالنجدات سراً . وانتخب الثوار أحمد حميدة ، من وجهاء حي باب النيرب ، « سلطاناً » عليهم وجعلوا عبد الله البابنسي وزيراً له .

ولما تهيأت للوالي قوة كافية لضرب الثوار استدعى زعماءهم وعبد الله البابنسي ، المدبّر الاكبر للاضطرابات التي شوهت الثورة ، لمقابلته في السرايا القديمة الواقعة الى الشمال من القلعة ، فحضروا يوم الثلاثاء ٤ محرم ١٢٧٦ فاعتقلهم بالقلعة ، وأعلنت الثورة ثانية واطلق الثوار نيران بنادقهم باتجاه القلعة صباح الخامس من محرم ، وكان على راس المدافعين عنها المشير مراد باشا(١) .

فأمر مراد باشا جنود القلعة بالخروج منها كي يظهروا للناس بأنهم يطردون الثوار ثم يتقهقروا بسرعة كي يندفع الثوار في أعقابهم ليصبحوا تحت مرمى مدافع القلعة . ونجحت الخدعة وحصدت المدافع جموع الثوار . ثم خرج الجند وقصفوا حي باب النيرب بالمدافع . وسبق

---

(١) وهو الجنرال بيم البولوني الذي قدم لحلب سنة ١٨٤٩ ، وهو بطل استقلال بولونيا والثورة المجرية . وقد توفي بعد بضعة أشهر من ثورة حلب . ونقلت بقاياه الى بولونيا في ١٩٢٩/٢/٢٩ .

للثوار أن اقتلعوا رصاص قباب المساجد لاستعماله في بنادقهم . وفي المساء أقبلت جموع البدو الى حلب لدعم الثورة حيث أقبل حوالي ٤٠٠٠ رجل من قبائل عنزة والحديدين والعساسنة وغيرهم . ولكن المعارك استؤنفت صباح يوم الخميس فولّى الأعراب الادبار لائذين بأذيال الهزيمة وتقهقر الثوار بعد أن نفذت ذخائرهم .

وهجم الجند من القلعة وأشعلوا النيران في حي بانقوسا ، معقلُ عبد الله البابنسي ، وباب النيرب. ونهبوا البيوت والمخازن واحرقوا وقتلوا كل من وجدوه في طريقهم بما في ذلك العميان والأطفال . ووصل محمد باشا القبرصلي للتحقيق ، فنفى ٨٠٠ شخصاً من المتهمين ، من بينهم عبد الله البابنسي ويوسف شريف ، فمات الأول مسموماً في حين شمل العفو الثاني وانعم عليه .

وتشكلت لجنة لاسترداد منهوبات المسيحيين والتعويض عليهم وبوشرت أعمال التجنيد. ودفع للمسيحيين مقدار ٢٥٠٠ كيس كتعويض، وعفي عن الفارّين فعادوا لحلب في صيف ١٨٥٨ في وقت اشتد فيه التوتر مرة أخرى .

ويذكر القنصل البريطاني « اسكين » في تقرير له أن المسيحيين شرعوا في تموز ١٨٥٨ بشراء الاسلحة وان رجلا يدعى بطرس الطويل ، من طائفة الروم الكاثوليك ، وقف شاهراً سلاحه في السوق وحرّض المسيحيين على مهاجمة المسلمين . واتخذت احتياطات عسكرية لمنع فتنة وعززّت حامية حلب من /٢٠٠/ الى /١٠٠٠/ جندي . وسرت شائعات بأن المسلمين عازمون على مهاجمة المسيحيين انتقاماً لأحداث كريت وجدّة . وراجت أخبار مماثلة في ايلول ١٨٥٩ كما اشتد التوتر في نيسان من العام نفسه . واستمرت حالة القلق حتى أوائل الصيف حينما تسربت الى حلب أنباء أحداث دمشق وزحلة والتي ظهر منها ان الدور الأول يعود لقناصل فرنسا وانكلترا ، ولعب قناصل هاتين الدولتين في حلب دورهم من أمثال ادمون دوليسبس ، وبونيون ، وركفرييه .

وسيّر الوالي في تموز ، دوريات عسكرية في الشوارع ومنع السفر من والى حلب ، وأخيراً هدأت الحالة نسبياً بعد وصول الحملة الفرنسية الى بيروت وازدادت غطرسة القنصل الفرنسي الجديد وتعمّد اهانة رجال الحكومة والمسلمين اعتداداً بقوته واستفزازاً للناس وايقاظاً للفتن النائمـــة .

وهذه أحداث فريدة في تاريخ الشهباء ، اذ اشتهر مسلمو حلب ببعدهم عن التعصب الذميم وبحسن معاملتهم للقريب والغريب مما جعل مدينتهم مركزاً لنشاط الاجانب من المسيحيين الأوروبيين طوال العهد العثماني بشهادة الرحالة الفرنسيين أنفسهم .

فيقول قنصل فرنسا في حلب « دايفو » الذي عاش فيها عام ١٦٨٢ ما يلي : « ان مسلمي هذه البلاد يحبون الافرنج كثيراً وهم يختلفون بذلك عن كل الذين عرفتهم في سائر انحاء الامبراطورية العثمانية ، والحلبيون هم أكثر سكان الامبراطورية وداعة وأقلهم ايذاءً وأفضلهم معاملة . وهم أناس طيبون لا يستطيعون الحاق الأذى بمن جاورهم ، وهم يحبـــون الأجانب ولاسيما الفرنجة ، وهم مهرة في التجارة ولكنهم صادقون » .

وقال الرحالة « فولني » في أهل حلب : « ان الحلبيين يعتبرون بحق ، مسلميهم ومسيحييهم ، أكثر سكان تركيا ثقافة ولا يتمتـــع التجار الأوروبيون في أي مكان بمثل ما يتمتعون به هنا من حرية واعتبار، لهذا غدت مدينتهم ملجأ المضطهدين المسيحيين حتى فاق عددهم فيما بعد عدد السكان المسلمين. ولكن الحلبيين كانوا عنيفين أشداء في مواقفهم من السلطات العثمانية فتحدوها أكثر من مرة » .

وكانت ثورة ١٨٥٠ موجّهة في الواقع ضد السلطات العثمانية لا ضد المسيحيين من اخوانهم في الدم ومواطنيهم ، وسبق لسكان حلب أن ثاروا على الولاة والقضاة . وروى القنصل البريطاني في تقريره بتاريخ ١٨٥٩/٥/١٤ ان أهل حلب هاجموا الوالي والقاضي والأعيان والقوا عليهم تبعة المجاعة التي عانت منها المدينة ، وقامت فتنة مماثلة في عام ١٨٧٩ .

حلب في الحرب العالمية الأولى

لقد لعبت حلب ، بوصفها عقدة هامة ، فريدة ، للمواصلات ، في الامبراطورية العثمانية ، دوراً كبيراً جداً لتحكمها في طرق المواصلات بين الأناضول والعراق من جهة ، وبين بقية المناطق السورية والحجازية من جهة أخرى . فعن طريقها كانت تتوزع الجيوش والذخائر والمؤن وكانت بالنسبة للجيوش الألمانية والعثمانيةوالنمسوية كمرحلة تحفز واستراحة في الوقت ذاته . وقد اضطرت السلطات العسكرية لتأمين اقامة هذه الفرق العسكرية وأقواتها ، لمصادرة بعض الجوامع والكنائس والمدارس الخاصة والكثير من المساكن .

وفي خلال تلك الفترة كانت الحياة التجارية في وضع شاذ وغير مألوف لأن الأسعار كانت تتضاعف بين يـوم وآخر ، وكانت الأرباح فاحشة جداً ، بحيث استغنت الطبقة التجارية من السكان بشكل لم يسبق له مثيل ، فاستقطبت ذهب تركيا والمانيا بينما كان قسم من السكان والمؤلف من مهاجرين أو لاجئين، كالحجازيين والأرمن واللبنانيين والفلسطينيين ، وسواهم ، يتساقطون في الشوارع صرعى المجاعة ، عدا ابناء المدينة ذاتها ، وكانت جثث الضحايا تتبعثر في الأزقة أحياناً ، لأن أسعار البضائع والمواد الغذائيةكانتفوق متناول الفقراء. فتضاعف سعر القمح في عام ١٩١٧ حوالي ٣٣ مرة عما كان عليه في بداية الحرب إذ بلغ سعر الشنبل (١٢٥ كغم) ١٥ ليرة ذهبية ، وقيل ان الأسعار ارتفعت وسطياً بحوالي ٢٠ مرة بالنسبة لما قبل الحرب وكانت السلع تختفي من الاسواق بمجرد محاولة الدولة تثبيت الاسعار .

ونظراً للبؤس الأقصى الذي أصاب أكثر المواطنين انتشر التيفوس بحلب واصاب عدداً كبيراً من العائلات وارتفع عدد الأيتام الهائمين على وجوههم في الشوارع .

واستغل جمال باشا فرصة الحرب وانتشار الأمراض فانصرف لإجراء اصلاحات بلدية كتهوية الأحياء القديمة وتقويض البيوت المتداعية، كما بذل جهداً كبيراً في تمديد شبكة مياه عين التل النقية ، كما ساعد على نمو بغداد وازدهارها بإسراعه في تنفيذ حفر نفق طوروس .

وفي ١٩١٨/١٠/٢٠ حلقت في سماء حلب أوائل الطائرات البريطانية التي ألقت قنابلها فوق محطة بغداد فردّت عليها بعض المدافع المضادة للطائرات ولكن دون جدوى . وفي ذلك الوقت كانت غالبية الجيوش الألمانية والنمسوية قد انسحبت من حلب . وقيل ان مصطفى كمال باشا الذي كان يقود القوات التركية بحلب حاول الدفاع عن المدينة ولو ادى الأمر لدمارها ، ونقل فعلا بعض القوات حتى قرية الوضيحي الواقعة الى الجنوب من المدينة ، ولكن زمام الأمور كان قد افلت من يده امام أرتال الهاربين العزّل من السلاح والجياع الذين نجوا من معارك فلسطين وسورية الوسطى . وكانت المدينة تغص بهؤلاء الحفاة الذين أضناهم الارهاق والجوع ، كما تسربت للمدينة أفواج البدو المسلحين بالبنادق فوق متون خيولهم وإبلهم ، وراحوا يتجولون في المدينة املاً بالنهب . فأقفلت الأسواق وخلت الشوارع من المارة . وكانت طلقات نارية تدوي في انحاء مختلفة من المدينة بين حين وآخر تعقبها انفجارات مدوية . ومرت بضعة أيام من الفوضى الشاملة ، وكانت الادارة الحكومية معطلة تماماً ، وزاد الطين بلة انطلاق المساجين في الاسواق ينهبون ويحرقون ويمارسون « اليغمه » بعد ان حطموا ابواب سجونهم .

وبعد ظهيرة يوم ١٩١٨/١٠/٢٥ دوت في جنوبي البلدة طلقات مدافع وبنادق ورشاشات واحترقت مخازن الذخيرة قرب محطة بغداد وسمع الناس في الليل اصوات انفجارات هائلة وطلقات مدفعية وذلك ان الاتراك نسفوا كل جسور الخطوط الحديدية قبل انسحابهم . وفي اليوم التالي كان العلم الشريفي يرفرف فوق دار الحكومة . وظهرت طلائع القوات الانكليزية تتقدمها المصفحات والفرسان الهنود بقيادة الجنرال

ماك آندريو بعد ان لاقت بعض المقاومة على مسافة ١٧ كم جنوب حلب . وطاردت القوات البريطانية الاتراك المنهزمين فادركتهم قرب قرية بللير مون ودارت هناك معركة حامية تبعثرت القوات التركية على اثرها وخسر فيها الانكليز اربعة ضباط وحوالي ٤٠ من الخيالة .

الاحتلال البريطاني والحكم الشريفي : على اثر دخول القوات الشريفية تشكلت فوراً حكومة محلية برئاسة كامل باشا القدسي الذي سمّي حاكماً على حلب . ولكن ملامح اتفاق سايكس بيكو البريطاني ، الذي سبق له أن زار منطقة حلب في عام ١٩٠٩ ، مع جورج بيكو ، الدبلوماسي الفرنسي ، أخذت تظهر للعيان تدريجياً وبدأت تتجلى التناقضات بين الأقوال والأفعال ، اذ صرح الجنرال أندريو الانكليزي أمام عدد من الصحفيين الفرنسيين : قائلا « لقد استوليت على الناصرة وحيفا وعكا وزحلة ودمشق وحمص وحماه وحلب لحساب فرنسا » .

ثم وصل الأمير فيصل بصحبة نوري باشا السعيد وشكري الايوبي ، وفي شهر كانون الأول من العام ذاته صدر قرار بتعيين الايوبي حاكماً على حلب كما تولى أمور الشرطة لويس زيادة وعهد بإدارة الأوقاف الى صلاح حسين .

وفي الوقت ذاته كان بحلب ضابط ارتباط فرنسي ، هو الكابتين بيشون ، وضابط ارتباط انكليزي هو الماجور براين ، وكان التنافس بين الاثنين على اشدّه . ثم وصل الى حلب الكابتين ماسينيون ، الذي اصبح فيما بعد مستشرقاً شهيراً ، واستاذاً في الكوليج دو فرانس بباريس بعد حصوله على الدكتوراه عن الحلاج الصوفي ، برفقة جورج بيكو .

وفي ١٩١٩/٢/٢٨ دبرت المخابرات الأجنبية فتنة في سوق الجمعة جنوب القلعة بين اللاجئين الأرمن وبين سكان حلب، وسقط من جرائها عدد من الضحايا، وحاكمت السلطات الانكليزية بموجب القوانين العرفية عددا

من المشتبه بهم من أهل حلب واعدمت ٢٥ شخصاً من المسلمين في خان الشربتجي بجوار باب الجنان على الكرسي الكهربائي . والقيت تهمة التحريض على الصحفي سامي السراج صاحب جريدة « الراية » فتوارى عن الانظار .

ثم تولى جعفر باشا العسكري ولاية حلب في الوقت الذي كان فيه الجنرال غورو يتولى منصب المفوض السامي في بيروت . وبتاريخ ١٩١٩/١١/١١ جلا الجيش البريطاني تماماً عن منطقة حلب واصبح الحكم عربياً صرفاً وتولى زمام الشرطة نبيه العظمة . وفي الوقت ذاته كان الفرنسيون والمرتزقة الأرمن يخوضون معارك شرسه ضد الوطنيين الأتراك في مناطق أورفة ومرعش وعنتاب وفي كيليكية . ثم اسندت امور ولاية حلب الى رشيد طليع ، اللبناني ، وفي ١٩٢٠/٣/٨ جرى تتويج الأمير فيصل بين الحسين ملكاً على سورية وفي دمشق .

ثم أخذت العلاقات تتوتر بين الحكومة الشريفية وبين السلطة الفرنسية حتى أن الحرب صارت حديث الناس في شهر تموز من العام نفسه . وفي ١٥ أيار وصل انذار غورو الى فيصل ، وفي ٢١ منه كان الصحفي الوطني سامي السراج يتجول بسيارة في شوارع حلب داعياً الناس لحمل السلاح والذود عن حمى الوطن . وفي اليوم نفسه حلقت في سماء حلب طائرة فرنسية والقت منشورات تمهد الطريق أمام دخول القوات الفرنسية وتدعو السكان للهدوء ، والقت الاتهامات جزافاً على سلوك الحكومة العربية الناشئة وتهدد وتتوعد .

وفي ٢٢ من الشهر المذكور انفجر جامع المشهد على سفح جبل الجوشن « شيخ محسّن » نظراً الى انه استخدم كمستودع للذخيرة وتلا ذلك انفجارات رهيبة قتالية . وتولى ناجي السويدي ، العراقي ، حكومة حلب بدلا من جعفر العسكري الذي كان متغيباً عن المدينة .

الاحتلال الفرنسي : في يوم الجمعة ٢٣ تموز ، اي في اليوم السابق لمعركة ميسلون المجيدة ، دخلت قوات فرنسية بقيادة الجنرال غوبو مدينة حلب قادمة من قطمة بعد ان خاضت معركة مع القوات الشريفية قرب المسلمية ، ثم دخلت فرق من المصفحات حلال النهار وبعد الظهر كان الجنرال دولامونت يستعرض قواته في حلب نفسها .

وفي الاول من ايلول ١٩٢٠ اصدر الجنرال غورو أمراً يقضي بجعل حلب عاصمة لدولة منفصلة عن جسم سورية وتشتمل على سنجق الاسكندرون ودير الزور . ولكن الروح المعنوية المتقدة لم تستسلم للأمر الواقع لأن المجاهد ابراهيم هنانو كان معتصماً مع رجاله الأشاوس بالمناطق الجبلية الممتدة من جبل الزاوية حتى جوار انطاكية ، وينقض بين الحين والآخر ، على القوات الفرنسية ، ويقضّ مضاجعهم ، هذا في الوقت الذي كان فيه الشيخ صالح العلي ينازل الفرنسيين في جبال الساحل بالتنسيق مع ابراهيم هنانو .

دخول غورو الى حلب : في ١٩٢٠/٩/١٣ دخل غورو مدينة حلب لأول مرة ، وبذلك رات عاصمة الحمدانيين المجيدة اول غاصب أوروبي يجوس ديارها منذ أن وطئتها سنابل فرسان نقفور فوكاس البيزنطي عام ٩٦٣ م ، وتعاقب على حلب في فترة الانتداب عدة ولاة نذكر منهم كامل القدسي ، مرعي باشا الملاح ، نبيه المارتيني ، الامير مصطفى الشهابي .

ولكن ولاية حلب لم تعد واسعة كما كانت أيام العهد العثماني اذ انكمشت رقعتها كثيراً . فبعد أن كان باشاليك حلب في عام ١٨٤٦ يشتمل على ١٨ ناحية ، و ٣٠ مدينة او بلدة ومقدار ١٩١٧ قرية ، رغم قلة العمران في ذلك العصر ، تقلّصت الولاية الى حوالي الربع واصبحت تضم رقعة تقل مساحتها عن ٢٢٠٠٠ كم٢ .

وكانت الحقبة الواقعة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٦ فترة نضال مرير ، مسلح وسلبي ، ضد الفرنسيين الذين عجزوا عن التمييز بين الانتداب والاستعمار . واتخذ النضال شكلا حربياً في أرياف حلب كثورة هنانو في المناطق الجبلية الغربية الوعرة ، وثـورة عشيرة الموالـي في قضاء معرة النعمان ، او شكلا سلبياً في المدن كاللجوء للاضرابات في الاسواق والمدارس ، ومقاطعة البضائع الأجنبية ، أو التظاهرات الدامية التي البلاد الكثير من الدماء الزكية الطاهرة . وبرز في حلب زعماء سياسيون من الطراز الأول من امثال سـعد الله الجابري المتوفي سنة ١٩٤٧ ، والدكتورحسن ابراهيم باشا قاطر آغاسي ، والدكتور عبد الرحمن الكيالي وميخائيل اليان وادمون حمصي والدكتور ناظم القدسي وسواهم من زعماء الأحياء من امثال رحمون محوك والحاج فاتح المرعشي وعبدو المصري .

المعاهدة السورية الفرنسية : وهكذا وبعد نضال مرير ، وبعد بذل الدماء بسخاء تم توقيع المعاهدة السورية الفرنسية في باريس عام ١٩٣٦ ، والتي لم يصادق عليها البرلمان الفرنسي ، والتي منحت البلاد استقلالاً داخلياً محدوداً على نمط المعاهدة العراقية الانكليزية في ذلك الوقت واستقبل الوفد السوري بحلب استقبالا منقطع النظير . وفي ايلول ١٩٣٩ نشبت الحرب العالمية الثانية ولكن فرنسا خرجت منها في صيف ١٩٤٠ ذليلة مقهورة واصبحت هيبتها في الرغام في اعين سكان البلاد . وظلت سورية بمنأى عن اهوال الحرب ومخاطرها الى ان توترت الحالة نسبياً بسبب رغبة بريطانيا في السيطرة على سورية ولبنان متذرعة بوجود قوات المانية على شكل سرب طيران في مطار النيرب ، ولا سيما لوجود الجنرال دانتز مفوضاً سامياً عن حكومة فيشي الممالئة للمحور .

وفي شهر حزيران ١٩٤١ بدأت الطائرات الانكليزية تغير على حلب ليلاً ونهاراً ، وسقطت بعض القنابل على السجن الى الشمال من القلعة وقتلت عدداً من المساجين ، وفي حي محطة بغداد ، ولكن النزاع لم يطل أمده ، اذ دخلت قوات انكليزية واوسترالية وهندية وفرنسية ديغولية الى

حلب في تموز ١٩٤١ وما كادت تطأ اقدامها البلاد حتى احتدم التنافس بين الفرنسيين والانكليز وعرفت الحكومة السورية بفضل حنكتها وبفضل نضالها الدؤوب لانتزاع الاستقلال أن تجني اطيب النتائج من هذا النزاع الخفي والظاهر بين الدولتين الاستعماريتين .

وتمتعت منطقة حلب في هذه الفترة بازدهار اقتصادي قل ان شهدت البلاد له مثيلا ، اذ ارتفع الاستهلاك بسبب وجود قوات الحلفاء وازدهرت الصناعة بسبب شدة الطلب على منتجاتها ، ولا سيما صناعة النسيج الحديثة أو الحرفية ، وكثرت الصادرات نحو الاقطار المجاورة ولا سيما بعد انقطاع تيار الاستيراد من الخارج . ولكن في مقابل ذلك كانت هناك صعوبات محسوسة في التموين لا سيما في الحبوب والسكر ، بعد أن همينت الادارة الحليفة ، بوساطة دائرة الحبوب الصالحة لصناعة الخبز أو الميرة فيما بعد ، على انتاج الحبوب ، كما قل المتوفر من البن والشاي وحلت التمور العراقية والدبس كبديل عن السكر ، وانتشر مرض الجرب بين فئات السكان الفقيرة حتى ان اضطرت الدوائر الصحية لفتح حمامات خاصة مجانية لعلاجه .

الاستقلال المجيد : في اواخر عام ١٩٤١ أعلن الجنرال كاترو ، المفوض السامي الفرنسي ، باسم الحكومة الفرنسية الحرة ما يسمى « بالحدث السوري » او الوعد بالاستقلال بمجرد انتهاء العمليات الحربية وعلى أثر الانتخابات النيابية في تموز ١٩٤٣ تمتعت البلاد بقسط كبير من الاستقلال الذي لم يكن ينقصه سوى وجود القوات الأجنبية بالبلاد وهيمنتهم على بعض المصالح الحيوية ولا سيما الجيش . ولما وضعت الحرب أوزارها في أوروبا على أثر استسلام المانيا في عام ١٩٤٥ عادت فرنسا لسياستها التقليدية المتقلبة ، وحاولت النكث بمواعيدها فثارت البلاد في ٢٩ أيار من العام ذاته ، ولم تتراجع الى أن حصلت على الاستقلال الحقيقي الناجز . وجلاء القوات الأجنبية عن البلاد نهائيا في ١٩٤٦ . فكان استقلالها أول استقلال حقيقي يفخر به بلد عربي ، اذ لم يكن مقيداً باية شروط أو معاهدة ، وغدا مثلا يحتذى لأن سورية كانت اول قطر بالعالم يتمتع باستقلاله بعد الحرب العالمية الثانية .

ولكن المكائد الأجنبية من فرنسية وانكليزية وامريكية لم تترك البلاد لتنعم بخيرات الوطن اذ ظهرت مشكلة فلسطين في ١٩٤٨ ونشوء الدولة الصهيونية والتي كانت من نتائجها المباشره وغير المباشرة سلسلة من الانقلابات العسكرية(*) والاضطرابات السياسية الى ان حصلت الحركة التصحيحية في عام ١٩٧١ فاخذت تجني خيرات الاستقلال مما سمح بتحقيق اصلاحات اجتماعية واقتصادية وثقافية سنراها في الصفحات القادمة .

(*) انقلابات في ١٩٤٩ ، ثم في ١٩٥١ ، وفي ١٩٥٢ ، و ١٩٥٤

الفصل الثاني

الأهمية الآثارية
لمحافظة حلب

مما لا ريب فيه أن لسورية الشمالية اهمية اثرية من الطراز الأول، فهي من أوائل مواطن البشر على سطح الارض ، ففيها تم استئناس معظم الحيوانات الاهلية التي نعرف ، كما استنبط الانسان فيها الزراعة، واصطفى معظم الحبوب والنباتات الشائعة الآن في النطاق المعتدل ، والتي لاتزال تنبت هنا بصورة طبيعية . هذا كما أن توفر مادة صخر الصوان في أرض المنطقة ساعد على صناعة أوائل الاسلحة والادوات الحجرية . وتكفي زيارة واحدة لجناح آثار ما قبل التاريخ في متحف حلب الجديد لكي يتعرف الزائر على أنواع الادوات التي تعود للعصر الحجري القديم والحديث .

هذا كما تتناثر في مختلف بقاع المحافظة مرتفعات ترابية مخروطية ، قرب قرى حالية ، أو تحتها ، تبدأ أسماؤها بلفظة « تل » أو « كفر » أو « خربة » أو « رسم » أو « تبة » أو « هويوك » ، وهي ليست اكثر من مواقع قرى قديمة جدا كانت مبنية باللبن المجفف بالشمس . وكان يعاد بناؤها ، كلما تهدمت ، فوق أسس الجدران السابقة . ومع توالي العصور تشكلت تلك التلول الاصطناعية التي تختلف ابعادها باختلاف

غنى المناطق . فتارة نجدها ضخمة جدا في السهول الخصيبة ، كما في خان شيخون واعزاز ، وتارة اخرى نراها صغيرة في المناطق الاكثر قحولة ، وهذا شاهد على مدى استمرار العمران الزراعي . ولاتزال اكثرية هذه التلال تنتظر همة الباحثين عن الآثار بعد أن تكشفت عن كنوز اثرية هامة تزدان بها اليوم ردهات متاحف اوروبا ، مثل متحف اللوفر في باريس الذي يضم تحفا عديدة التقطت من تل السفيرة والنيرب الخ ...

ولم تبدأ أعمال التنقيب بصورة منهاجية ، علمية ، إلا في مطلع القرن الحالي على أيدي البعثات الاجنبية . فقد تمت حفريات تل حلف باشراف البارون اوبنهايم على مراحل : الاولى بين عام ١٩١١ و ١٩١٣ والثانية بين ١٩٢٨ و ١٩٢٩ حيث تم الكشف عن ادوات مصنوعة من الصوان وحجر الاوبسيديان وادوات فخارية تحمل رسوم حيوانات واشكال هندسية ، وبعض تماثيل ترمز لآلهة ولكائنات اسطورية مع رسوم ثانوية تمثل محاربين ، وحملات قنص ، وحيوانات متنوعة الخ..

تم جرت تنقيبات في موقعي ارسلان طاش ، وفي تل احمر تحت إشراف العلماء « تورو دانجان » و « دونان » و « الأب باروا » ادت لاكتشاف تماثيل حثية تمثل ثيرانا واسودا ، وصورا نافرة على الحجر، وتمثال الملك سلمناصر الثالث وقطعا من العاج الذي كان يزيّن الأثاث تمتاز بدقة وذوق سليمين . كما جرت حفريات في قرية النيرب التي التحقت بمدينة حلب اليوم ، تحت اشراف « كارير » و « باروا » ادت لاكتشاف جرار وتماثيل صغيرة الخ . هذا وادت حفريات تل رفعت « آربادا » التي اشرف عليها البروفسور « هروسني » الى اكتشاف اجزاء تماثيل متنوعة وكتابات ، وملعقة من البرونز ، وصنجات حديدية ، كما نتج عن التنقيبات التي جرت في تل مدينة السفيرة باشراف العالم « بروسيه » اكتشاف تمثال قديم جدا يشتمل القسم الامامي منه على كتابات مسمارية .

أما حفريات منبج فقد تكشفت عن تمثال جندي بيزنطي وتماثيل أخرى لحيوانات وبشر . وظلت الكنوز الثمينة المكتشفة مبعثرة بين المجموعات الشخصية لدى الهواة وبين ساحة مدرسة التجهيز الاولى « المأمون » بحلب وبين المتحف الموقت في حي الجميلية الى أن تم تشييد أول متحف وطني بين باب الجنان وباب الفرج في ١٩٣٣ ، والذي قام المتحف الوطني الجديد ، مع التوسعة الكبيرة ، فوق موقعه في خلال الستينات ، ولكن قسما كبيرا من هذه المكتشفات ، ولعل أثمنها ، تسربت الى أوروبا وأمريكا لتزدان بها ردهات متاحفها .

وفي خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية انتشرت بين الكثيرين حمّى التنقيب عن الكنوز في الاماكن الاثرية ، فكانت تجري تنقيبات عشوائية، بل وتخريبية، أدت الى تلف أشياء وتماثيل وموزاييك لا تقدّر بثمن لبيعها للهواة الاجانب بأثمان بخسة نسبيا ، ولكنها أدت، علىَ كل حال ، الى ثراء عدد من الذي مارسوا هذا النوع من الاعمال غير المشروعة .

أما بعد الاستقلال فكانت أعمال التنقيب تحت اشراف مديرية الآثار التابعة لوزارة الثقافة مثل أعمال حفريات « عين دارة » في وادي عفرين، ولاسيما حفريات تل مرديخ التي قام بها خبراء طليان وسوريين ، والتي أدت لاكتشاف مكتبة فخارية قائمة بذاتها في مدينة « ايبلا » جنوبي حلب . وأخيرا جرى استنقاذ آثار بالس القديمة بسبب تشكل بحيرة الأسد بعد بناء سد الطبقة الكبير على الفرات . وتمت حفريات تل مريبط في المنطقة التي غمرتها البحيرة فيما بعد .

وهكذا تشكلت مجموعات أثرية ثمينة خاصة كان معظم أصحابها من الهواة الاجانب المقيمين بحلب ، وكان علماء الآثار يتأملونها في بيوت أصحابها حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، مثل مجموعة الشيخ الترمذي ، ومجموعة فرانسوا مركوبلي التي كانت تشتمل على فسيفساء،

وتماثيل نصفية ، ورسوم حجرية ، وادوات خزفية واسلحة الخ ، ومجموعة الهارون غليوم بوخه وكانت تشتمل على نقود ، وآثار سلوقية رائعة ، ومجموعة هنري مركوبلي التي كانت تشتمل على نقود وأوعية وتماثيل صغيرة ، وسقفا اثريا ، ومجموعة حرم جورج مركوبلي وكانت تقتصر على أوانٍ زجاجية واوعية خزفية واشياء ثمينة أخرى .

وعلى كل يعتبر متحف حلب غنيا بمقتنيات العصر الحثي ، ومع الزمن سيكون من المستطاع ، وبفضل همة القائمين عليه ، اعادة تمثيل مدنيات وحضارات الشعوب التي عاشت خلال القرون الخوالي في أرض هذه المنطقة ، من أجل التعرف على انماط حياتهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية والعسكرية .

آثار محافظة حلب الشرقية :

لنوعية الارض ومستوى المدنية تاثير هام على الآثار التي خلفتها لنا الاقوام الغابرة . ولما كانت المنطقة الغنية بالحجر الكلسي الصلب واقعة غالبا في غربي خط طول حلب ، فإنا نجد أن الآثار الموجودة الى الشرق من هذا الخط قليلة نسبيا ومتباعدة ، أو لاتزال راقدة تحت آلاف الاطنان من الاتربة وتتطلب الجهد المضني والاموال الطائلة للبحث عنها . هذا ومما زاد الامر تعقيدا هو أن البقية الباقية من حجارة الابنية القديمة قد استعملت من جديد ، كليا ، كما في منبج ، حيث عثر العالم كيليوم راي في عام ١٨٦٠ على بقايا الهيكل ، وعثر على تمثال الربة « آتراكاتيس » فوق عربة تجرها السباع ، أو جزئيا كما في خناصر والاندرين ، في تشييد مساكن الذين استوطنوا هذه البقاع الفقيرة بحجارة البناء البناء الجيدة بعد أن كانت خرابا يبابا . وهكذا زالت اسوار منبج والاوابد القديمة فيها بعد أن استخدمت حجارتها في بناء منبج الحديثة حتى الحرب العالمية الثانية ، كما لم يبق من آثار خناصر سوى عضادات الابواب التي يعجز السكان الجدد عن زحزحتها عن اماكنها .

وفضلاً عن ذلك فقد لجأ السكان احيانا في المناطق الخاوية على تلول الى استخدام انقاضها الترابية في صنع اللبن « الطوب » الضروري لبيوتهم القبابية الترابية حتى الخمسينات كما حدث لتل السفيرة واعزاز .

ولهذا تكاد تقتصر الآثار الباقية هنا على التلول وعلى بعض القطع الحجرية الحاوية على كتابات اغريقية ورومانية سليمة كما في خناصر والراهب والرويهب ورسم الحجل وأم العمد وزبد ورسم الغار ، في جنوب شرق حلب مع بقايا « السرابات » وهي ما يدعى خطأ بالاقبنة الرومانية . وقد سبق أن قلنا أن هذه القرى كانت عبارة عن « رباطات » عسكرية على تخوم الامبراطورية الرومانية من غارات بدو الصحراء أو من غارات الفرس . ولاتزال حتى الآن بعض الآثار والتماثيل المصنوعة من البازلت محفوظة في حديقة منبج العامة . وتحتوي هذه المنطقة الشرقية على قلعة أيوبية جميلة تشرف من علٍ على الفرات من الضفة اليمنى لاتزال محافظة على روعتها وبهائها ، وهي قلعة نجم التي يحيط بها سور دائري وفيها غرف دفاعية وخزانات للمياه ومستودعات للطعام والعتاد .

وهناك آثار مدينة بالس ، أو مسكنة القديمة ، التي نقلت مئذنتها بجهود مديرية الآثار لموقع لا تدركه مياه بحيرة الأسد ، والمبنية من القرميد المشوي . ويظهر أن هذه المدينة هي التي مرّ بها أبو العلاء المعري في طريقه الى بغداد وكانت تستقي مباشرة من مياه الفرات الذي كان يمر على مسافة لاتزيد عن ١٠٠ م منها . وكان فيها سوق مغطاة بأقواس على نمط أسواق حلب القديمة ، وترقد حاليا تحت مستوى مياه البحيرة .

أما قنسرين التي جعلها سلوقوس نيكارتور مركزا لجنده ، ودعاها شاليس ، فلم تعد أكثر من موقع أثري . وقد زارها القديس جيروم عام ٣٧٣ م ، وتم بناء سورها في عهد الامبراطور جوستينيان بين ٥٥٠

و ٥٥٥ م . وقد فتحها أبو عبيدة بن الجراح عام ١٦ هـ واستوطنها فخذ من قبيلة تنوخ ويذكرها شاعرهم بقوله :

سقى الله اخواناً ورائي تركتهم بحاضر قنسرين من سيل القطر

آثار منطقة غربي حلب :

تعود معظم الآثار الهامة في المنطقة الغربية من محافظة حلب لمدنية معينة . فقد قامت في عصر الحكم الروماني والسلوقي في منطقة تصلح بشكل ممتاز لزراعة الكرمة والزيتون لانتاج الخمور والزيت ، بقصد التصدير للخارج ، ضمن نطاق امبراطورية فسيحة الارجاء ، لاسيما بعد انتشار الديانة المسيحية اذ كانت سورية تحتل مكان الصدارة بين مصدري الخمر الى أوروبا المتضرة حديثا لتناوله ضمن اطار خمر القداس ، وفي القصور .

لهذا نجد اطلال مدينة سيريوس « النبي هوري » الى الغرب من نهر عفرين بعد دخوله الاراضي السورية التي ازدهرت في عهد الامبراطور « اسكندر بالا » عام ١٥٠ م ، وتضم داخل اسوارها قلعة ومدرجا رومانيا هو الوحيد من نوعه في محافظة حلب ، وضريحا لاحد الملوك فضلا عن القصر الملكي . وكانت تتصل بإعزاز بجسرين رومانيين قائمين على قناطر .

وكذلك نجد في منطقة جبل سمعان اطلال مدن وقرى ومزارع خاصة منتشرة في كل المنطقة الجبلية الممتدة من جنوبي عفرين حتى جبل الشيخ بركات ، كما في سرمدا التي تشتهر بعمودها الذي يضرب به المثل ، وقوس باب الهواء ، والطريق الرومانية المبلطة التي لاتزال تحمل آثار العجلات الرومانية . وهذه الآثار الباقية عبارة عن انقاض مساكن وكنائس ومعاصر مبنية بالحجر الجاف المنحوت من الجهات الست دون ملاط ، بحيث تتماسك الابنية حسب قواعد التوازن لا غير وان كانت

لا تصمد للزلازل . وهذا الفن السوري الاصيل لايزال يثير اعجاب علماء الآثار لانه يدل على مهارة أهل البلاد القدامى وحذقهم للفن العمراني . واهم الآثار الباقية بلاشك تتمثل بدير القديس سمعان العمودي الذي تم بناؤه في أواخر القرن الخامس الميلادي والـذي يعتبر حسب رأي العالم الاثري « شارل ديبل » الجوهرة الاثرية لسورية الشمالية وأحد أروع مظاهر الفن المسيحي المحلي . وقد قامت مديرية الآثار بجهـود جبارة في سبيل ترميم بقايا كنيسة القديس سمعان . ويتألف البناء من ٤ كنائس تحوي في الوسط قاعة مثمنة الاضلاع . وفي وسطها ترس العمود الذي كان يتعبد عليه سمعان ويلقي من فوقه مواعظه . وقد بني الدير في عهد الامبراطور زينون تخليدا لذكرى القديس سمعان بين عامي ٤٧٦ ـ ٤٩٠ م وتحول فيما بعد الى قلعة دفاعية .

أما تل عين دارة فيقع على هامش سهل الجومة حيث تم الكشف عن المعبد الآرامي الذي يعود للقرن ٩ ق.م وأساسات جدرانه من حجارة البازلت التي تزدان برسوم لحيوانات اسطورية ، مثلما عثر فيه على آثار حثية وهلنستية وبيزنطية وعربية .

آثار مدينة حلب :

لقد سمح استعمال الحجر الكلسي في بناء حلب ، الى جانب البازلت : وهما صخران يصلحان للنحت ، بحيث تبدو صفحـات حجارة الأبنية وكأنها من المعدن ، أقول سمحا ببقاء آثار المدينة على مدى القرون ، على خلاف المدن المبنية بالطابوق « الطوب » كالقاهرة وبغداد والرقة . فعن طريق حلب انتقـل فن بناء المدارس والقبـاب والمقرنصات والكتابات النسخية الى سائر أرجاء العالم الاسلامي .

قلعة حلب : اذا كانت باريس تتميز ببرج إيفل وموسكو بالكرملين فإن قلعة حلب ، الرابضة في وسط مدينتها ، كانت ولا تزال رمز حلب على كرّ الدهور ، فهي تحمل آثار الشعوب التي اجتاحت الشمال السوري ،

فقد ترك الفرس والرومان فيها بعض آثارهم من نواويس وقناطر مبنيّة بالآجر المشوي الخ . وبعد أن تمّ تحرير حلب على أيدي العرب المسلمين عام ٦٣٧ م ، قام أبو عبيدة بإصلاح أسوارها الخارجيـة . وكان سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني أول من سكنها . كما أصلح المرداسيون أيضاً بعض جدران أسوارها وبنوا أبراجها الخارجية مع بعض القصور التي كانت تحمل اسم « بيت الذهب » و « بيت الأعمدة » و« بيت المجد » و « بيت الملك رضوان » وكانت تزدان بنقوش رائعة ومحاطة بحدائق غناء . وقد عمل نور الدين حول القلعة مرجاً جميلاً دعاه الميدان الأخضر . (شكل ١) .

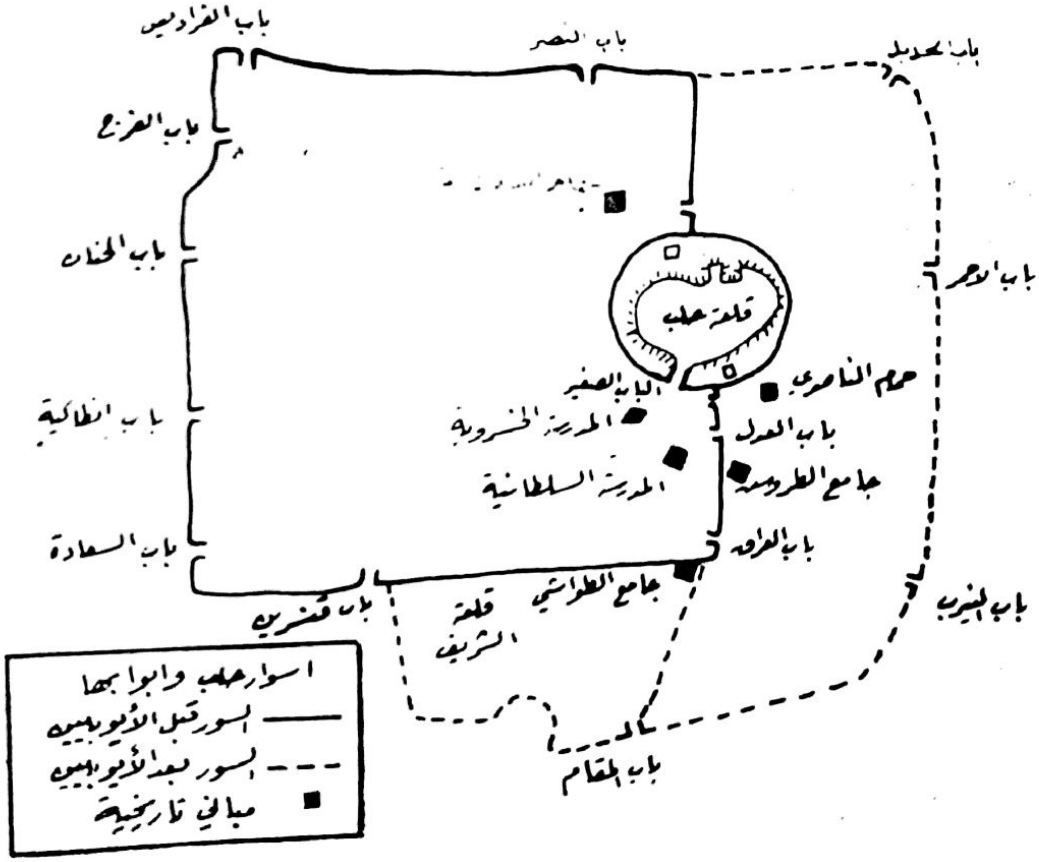

وقد أسكن صلاح الدين احدى زوجاته في القلعة ، وهي من أصل افرنجي ، واوصى بها شقيقه الملك العادل الذي شيّد في القلعة مدفناً لولده . ولكن الملك الظاهر هو الذي ترك أكثر الآثار الباقية في القلعـة ، لأن آثار هذا الملك المحب للبناء نجدها في كل مكان . فقد عمل على توسيع

تل القلعة الذي يحمل أسوارها ، وهو الذي كسا سفوح التل بالبلاط ودمج فيه حوالي ٨٠٠٠ عمود بشكل افقي كي تدعم البلاط وتحول دون انزلاقه . وبنى فوق الباب قاعة كبيرة وحوضاً للمياه هذا فضلاً عن عدة بيوت وحمامات ومراكز عسكرية .

وفي سنة ١٢١٣ م تزوج الملك الظاهر ضيفة خاتون ، ابنة عمه ، التي سكنت « بيت الأعمدة » الذي راح ضحية حريق ، فبنى الملك الظاهر قصراً آخر دعاه « بيت النظر » على مسافة قدرها ١٦٠ م والذي ألهب خيال كثير من الشعراء. وقد حفر فيها مغائر لحفظ مساجينه الذين كانوا يعجزون عن الهرب بسبب وجود المياه في الخندق الذي كان يستمد مياهه من قناة حيلان ، كما يقال . وقد أمضى هذا الملك معظم حياته في القلعة وخلفه في سكناها ابنه المستنصر . وقد شيد الملك العزيز من بعدهما قصراً آخر فيها . ولكن هولاكو الذي احتل القلعة سنة ١٢٦٠ م خرب أسوارها ، وبعدها أحرق الجامعين فيها وخرب أيضاً معظم بيوتها . وأعاد خليل بن قلاوون بناء كل ما تهدم فيها ، ولكن عاد تيمورلنك عام ١٤٠١ م فدمّر ما استطاع تقويضه فيها .

وبعد هذه الحقبة التعيسة التي نتجت عن الهجمات المغولية أصبحت القلعة في وضع بائس ، وقد عهد الأمير سيف الدين شبقال الى اجراء بعض الاصلاحات فيها واستعان بطريقة السخرة لتشغيل الناس حتى الوجهاء منهم . وهو الذي بنى القصر الموجود الى يمين القلعة والذي لا تزال بقاياه الفخمة تدل على ما كان عليه .

وأخيراً جاء السلطان قايتباي المملوكي في عام ١٤٧٣ وبنى القصر الموجود فوق باب القلعة كمسكن له وقد سكنه من بعده آخر المماليك قانصوه الغوري الذي يعود اليه آخر أثر فيها وهو البرج القائم من الجنوب في مواجهة دار الحكومة « السرايا الجديدة » الى يسار باب القلعة . وبعد ان لعبت دور ثكنة عسكرية أيام الانتداب الفرنسي تسلّمتها

مديرية الآثار التي اجرت اصلاحات هامة فيها ولا سيما سقف قصر قايبتاي . ويقصدها آلاف الزوار سنوياً من شتى اصقاع العالم .



اسوار حلب وابوابها : سور مدينة حلب (الشكل ٢) هو الفريد من نوعه في الوطن العربي ، بل والعالم الاسلامي . وكان يضرب المثل بحصانته ومنعته ، حسب قول العلامة الأثري جان سوفاجيه . ويحيط السور بالمدينة القديمة على شكل مربّع طول ضلعه ١٥٠٠ م ، وقد جدّده سيف الدولة ونور الدين زنكي كما شهد توسعة في عهد الملك الظاهر غازي من جهة الشرق والجنوب . وقد جرى هدم جزء منه نتيجة توسع المدينة كما تم الكشف منذ بضعة أعوام عن جزء من السور القديم قرب موقع باب الفرج ، من جهة شارع الخندق ، بالاضافة الى برجه الدائري الذي كان يسمى برج الثعابين . وكان سور المدينة يحوي على عدد من الأبواب التي اندثر بعضها مثل باب الفرج وباب الجنان وباب النيرب ، وهذا الأخير كان يشبه باب المقام وقد جرى هدمه في الثلاثينات من هذا القرن . اما الابواب الباقية المحافظة على كل رونقها فهي :

١ ـ باب قنسرين ، ويعد من اجمل ابواب حلب وقد جدده الملك المؤيد شيخ في عام ٨١٨ هـ ويمثل قلعة دفاعية مصغرة فريدة .

٢ ـ باب انطاكية : من اقدم ابواب حلب ، وهو الباب الرئيس للمدينة ومنه كان ينطلق الشارع الكبير ويمتاز بابراجه التي خرج منها سكان حلب للترحيب بالفاتحين العرب .

٣ ـ باب الحديد : ويتالف من بابين يعلوهما برج حصين ، وقد اشتهر بإسم باب القناية لمرور قناة حيلان منه وجدده السلطان قانصوه الغوري . ولا يزال بابه المصفح وذو المسامير الحديدية الغليظة ماثلاً الى ايامنا .

٤ ـ باب النصر : ويقع في السور الشمالي وله ابراج دفاعية جانبية . جدده الملك الظاهر غازي سنة ٦١٠ هـ .

٥ ـ باب المقام : ولا تزال قنطرته باقية ويماثل باب النيرب ، المندثر ، في طراز بنائه .

دور العبادة في حلب : تضم حلب جوامع وكنائس ذات قيمة اثرية مرموقة نذكر منها :

ـ المسجد الكبير (الاموي) : أكبر مساجد المدينة واكثرها بهاءً . بني في عهد الخليفة الاموي سليمان بن عبد الملك . وتقوم قاعة الصلاة على عضادات ضخمة وليس على شكل أعمدة شأن جامع بني امية بدمشق . وتحمل منارته المربعة الشكل ، والشبيهة بمنارة جامع معرة النعمان ، كتابات كوفية مورقة . وتم بناؤها في القرن الخامس الهجري . ويمتاز المسجد بمنبره المصنوع من خشب الأبنوس والمطعم بالعاج وهو مماثل لمنبر المسجد الأقصى الذي أحرقه اليهود . وصحن المسجد فسيح مبلط بديع جيد النحت وصقيل .

ـ جامع الأطروش : ويقع قرب القلعة ويتميز بواجهته المزخرفة الجميلة وبمئذنته السامقة ويعتبر في غاية الفن الزخرفي والنقش على الحجارة .

ـ جامع المهمندار : ويتصف بمنارته الفريدة ذات الطراز اللولبي وتعد من أجمل مآذن حلب وتعود للقرن ١٤ م .

ـ جامع الخاقان أو القيقان : في حي العقبة قرب باب انطاكية ويحمل جداره كتابة هيروغريلفية وحثية ويقع فوق تل العقبة .

وفضلاً عن ذلك تضم حلب مجموعة من اقدم الكنائس التي يعود بعضها للعهد البيزنطي ، وتشتهر بجمال الزخرفة والتناسق الفني . وأشهر هذه الكنائس هي : كنيسة الأربعين شهيداً ، وكنيسة الروم الأرثوذكس أو كنيسة السيدة العذراء وكاتدرائية مار الياس في حي الصليبة .

اسواق حلب وخاناتها : هي نسيج وحدها في الشرق العربي والاسلامي لأنها تمتد على قرابة ١٥ كم . ولا تزال تحتفظ بطابعها العمراني الجميل ، والمسقوفة بعقود حجرية تثقبها فتحات تمدها بالنور الذي يسطع مندفعاً على شكل حزم كالأنوار الكشافة في الأيام المشمسة . ولا تزال هذه تحتفظ بدورها الاقتصادي على الرغم من تلاشي وظائفها القديمة التي تدل عليها أسماؤها مثل : سوق الحبالين ، سوق الزرب ، سوق الجوخ ، سوق الدهشة ، سوق السقطية ، سوق العطارين ، سوق السراجين ، سوق البلستان .

وقد لعبت خانات حلب دور فنادق للتجار في الطابق العلوي ، ومخازن للبضائع ومؤسسات تجارية لتبادل وبيع المنتجات وصرافة النقود ، ومراكز للبعثات القنصلية والسفارات مثل خان الافرنسيين أو خان النحاسين الذي عاد منذ بضعة أعوام ليؤوي قنصلية فرنسا في حلب بعد أن تخلت عن مقرها في حي العزيزية ، وخان البنادقة . ويتألف الخان عادة من مدخل ذي غرف جانبية يسمح بدخول العربات وقوافل الجمال تعلوه واجهة تزخر بالزخارف مع باحة كبيرة وغرف عديدة من الجهات الأربع . وتحوي حلب أكثر من ٧٠ خاناً واهمها من حيث القيمة الأثرية : خان الجمرك ، خان الوزير ، خان الصابون ، خان النحاسين ، خان العلبية الخ . .

الفصل الثالث

الجغرافية الطبيعية

تحديد موقع المحافظة وامتدادها :

تقع محافظة حلب (الشكل ٣) في الزاوية الشمالية الغربية من الجمهورية العربية السورية ولكنها تنفصل عن البحر الابيض المتوسط بلواء اسكندرون ، الذي كان يؤلف الرئة البحرية الطبيعية لمدينة حلب ومصيفها ، وذلك بفضل الميناء الرائع الواقع في صدر خليج محمي وعميق . ويحدها من الشمال الاراضي التركية التي سلخت عن ولاية حلب في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، ومن الشرق محافظة الرقة ، ومن الجنوب محافظة حماه ، ومن الجنوب الغربي محافظة ادلب التي انفصلت اداريا عن محافظة حلب في مطلع الستينات . وتقع المحافظة بين خطي طول ٣٦ و ٣٩ شرقا وخطي العرض ٣٥ و ٣٧ شمالا ، أي انها تقع على نفس درجات عرض الموصل وطهران شرقا وجزيرة رودس والمورة باليونان ، وجزيرة صقلية في ايطاليا ، وشمالي القطر التونسي ، ومنطقة قسنطينة الجزائرية وبلاد الاندلس في اسبانيا ، أي انها تقع على الجبهة الشمالية للوطن العربي .

أما حدودها الطبيعية الوحيدة فهي التي تفصلها عن لواء اسكندرون بتأثير الحفرة الانهدامية التي يجري فيها النهر الاسود « قره صو » لان سهولها الشمالية تتمدد بشكل غير محسوس في تركيا بوساطة سهل عنتاب وكلس .

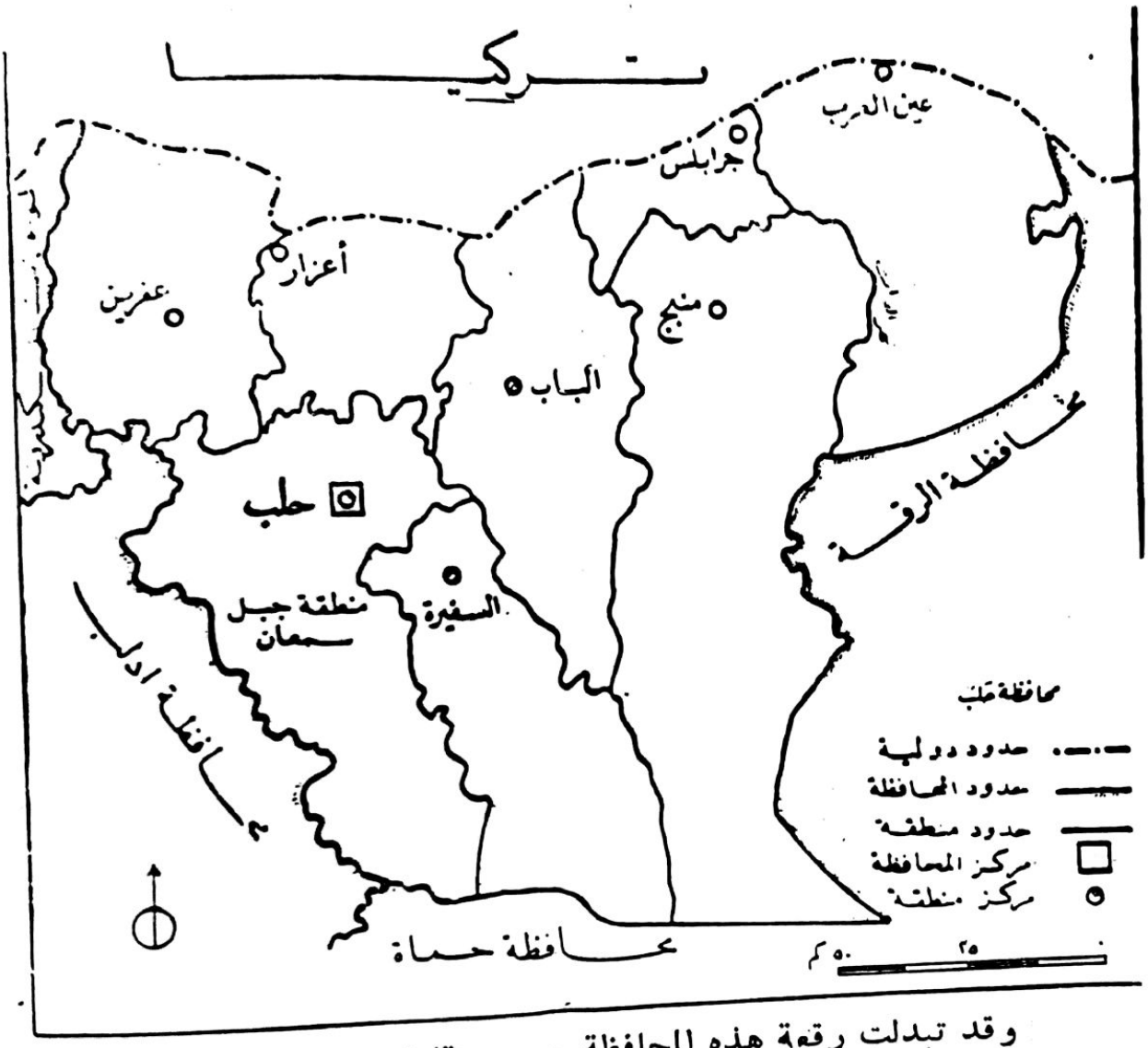

وقد تبدلت رقعة هذه المحافظة حسب تقلبات الظروف السياسية والادارية ، كما ان عدد قراها ومدنها تبدل حسب الظروف العمرانية وحالة الامن . فقد كانت ولاية حلب تضم في عام ١٨٨٨ ١٣ قضاء و ٣٢ ناحية و ٢٠٢٢ مزرعة او قرية . وبلغت مساحتها قبيل الحرب العالمية الاولى ٣٣٤٣٠ كم٢ او اكثر من ضعف مساحتها الحالية البالغة ١٦١٤٢كم٢ أو مرة ونصف بمساحة الجمهورية اللبنانية ، وبذلك تأتي بالمرتبة السادسة بين المحافظات السورية بعد محافظة حمص ودير الزور والحسكة والرقة ودمشق .

وبلغت مساحة المحافظة على اساس التنظيمات الادارية الجديدة التي تلت الحرب العالمية الاولى ٢٢٩١٩ كم٢ وكانت تشتمل على الاقضية (المناطق) التالية : جبل سمعان ، الباب ، منبج ، جرابلس ، اعزاز ،

كردطاغ ، حارم ، ادلب ، جسر الشغور ، ومعرة النعمان ، ولكن على اثر تشكيل محافظة ادلب عام ١٩٦١ التي ضمت المناطق التالية : معرة النعمان ، جسر الشغور ، حارم ، وادلب فقد انكمشت مساحتها كما ذكرت آنفا .

الوسط الطبيعي :

تضاريس المنطقة : تتصف محافظة حلب ، على العموم ، بقلة مرتفعاتها ، فهي أقرب الى شكل هضبة متموجة السطح ، تنحدر بلطف وبشكل غير محسوس ، نحو الشرق ، ولاسيما نحو الجنوب الشرقي ، بحيث تنسجم مع الركيزة العربية (الترس العربي) التي تتلاحم شمالا مع اقدام جبال طوروس ذات النمط الالبي .

فالمسافر الذي يجتاز التخوم الغربية لهذه المحافظة من الشمال للجنوب ، يجد على يمينه افقا مسدودا يرتد البصر دونه وهو حسير ، ويحرمه من التمتع برؤية أمواج البحر المتوسط اللازوردية ، مثلما يحرم محافظتنا من كثير من نفحات البحر الملطفة للحرارة والندية ، في أغلب الاحيان ، اللهم الا من خلال فتحتي نهر الكبير الشمالي ، ومجرى العاصي الادنى . فهذا الحاجز ، الذي يسمو في جبال آمانوس الى ٢٢٢٤ م ، ينخفض عند ممر بيلان الى ٦٠٠ م كي ينهض من جديد في الجبل الاحمر « قيزيل طاغ » الى ١٧٩٥ م ، ليهبط كرة اخرى ، لمستوى يسمح بمرور نهر العاصي الادنى ، في طريقه الى خليج السويدية . ثم تستأنف المرتفعات نهوضها ، فيبلغ ارتفاع الجبل الاقرع الكلسي ٧١٢٨ م ، ولكنها تتلطف قرب بداما حيث تصل هذه المرة الى ٥٠٠ م ، عند خط تقسيم المياه بين حوض نهر العاصي وبين حوض النهر الكبير الشمالي ، ومن ثم تظهر الجبال الساحلية « البهرة » التي هي عبارة عن خط من المرتفعات المستمرة التي تسمو منها قمة التبي يونس الى ١٥٨٣ الى الشرق من صلنفة ، والتي تطل على منخفض سهل الغاب . والى الشرق من هذه الوهدة التي كانت تدعى عن الرومان « سورية المقعرة » نجد ان الجبال، المقابلة للجبال الساحلية الآنفة الذكر ، تبدو متواضعة جدا لانها عبارة عن تعاقب متقطع لمرتفع يشرف على المنخفض الطولاني .

وأول هذه الجبال ، من الشمال للجنوب ، هو جبل « قره بل » في منطقة عفرين ، قرب الحدود التركية ، والذي يبلغ اقصى ارتفاع له ١١٢٥ م والذي يقع الى الجنوب من اعلى قمة في محافظة حلب ، وهي قمة دامر الكبير ١٢٦٩ م ، والمشرفة على بلدة بلبل . وبعد تعاقب سلسلة من الذرا المستديرة التي تتراوح بين ٦٠٠ و ٨٠٠ م في جبل الكرد ، اللهم الا عند جبل برصه داغ ٨٥٥ م ، تنحدر نحو نهر عفرين الذي يدخل سهل العمق عند الحدود الفاصلة عن لواء اسكندرون ،بعد أن يروي سهلا خصيبا عريضا يدعى سهل الجومة الممتد الى جنوب غرب مدينة عفرين والذي يتراوح ارتفاعه بين ١٦٠ و ١٣٠ م عن سطح البحر .

ونصعد الى الجنوب من نهر عفرين فوق هضبة تتألف من بطاح ونجود جرداء متموجة ترتفع احيانا الى ٨٧٠ م كما في جبل الشيخ بركات المطل على بلدة ديرة عزة . وتنخفض تدريجيا حتى حوض قويق ومنخفض المطخ . وابتداء من الضفة الشرقية للنهر المذكور تتبدل المشاهد الطبغرافية حيث تسود الاراضي المنبسطة الموائمة لتشكل ظاهرة السراب صيفا ، والتي تبعث على السأم لرتابتها ، وان كان يظهر فيها بعض المرتفعات المائدية الشكل والمؤلفة ، جميعا ، من مسكوبات بركانية تقوم فوق قاعدة حوارية ، واهمها جبل الاحصى الذي يبلغ اقصى ارتفاع له ٦٢٦ م وشبيث ٤٦٩ م ، ويقعان في جنوب وجنوب شرق حلب ، والى الشمال من ذلك تظهر هضبة الباب ، وبعدها هضبة نبغة البازلتية الى الشرق من محطة الراعي والتي ترتفع لاكثر من جبل الاحص بقليل ، اي الى ٦٣٤ م ، هذا كما تواكب الضفة اليمنى لنهر الفرات سلسلة من المرتفعات المتواضعة التي لا تلفت النظر :

وعلى العموم يقل ارتفاع المنطقة من الغرب نحو الشرق ، ومن الشمال نحو الجنوب ، واجمالا لا تتجاوز مساحة المناطق ، التي يزيد ارتفاعها عن ١٠٠٠ م ، مقدار ٩ كم٢ ، في حين تمتد رقعة ارتفاعهما المتوسط عن ٢٥٠ م فوق سوية البحر . وعليه نلاحظ ان منطقة محافظة

حلب تتخذ مظهر هضبة غنية بالتضاريس نسبيا في الشطر الغربي ولكنها تميل بهدوء نحو الشرق المنبسط منسجمة بذلك مع ميل السطيحة العربية نحو الخليج العربي .

التكوينات الجيولوجية

اذا تركنا جانبا مساحة تبلغ بضعة كيلومترات مربعة تظهر فيها تكشفات الصخور الكلسية الجوراسية على الحافة الشمالية الغربية من جبل الاكراد المشرفة على حفرة النهر الاسود ، فان كل التكوينات الجيولوجية الباقية والتي تستر اراضي محافظة حلب تنتسب للكريتاسي وللحقبتين الجيولوجيتين الثالثة والرابعة فضلا عن تكشفات الصخور الخضراء والبازلت ، اي الصخور الاندفاعية .

٢ ـ الكريتاسي : ويتألف من الكريتاسي الاسفل (الابثيان) ويمتد على مساحة ٤ كم٢ ويتألف من حجر رملي اساسي ، ومن صخر كلسي رمادي ، او جانح للخمرة ، ويتراوح سمكه بين ٢٥ و ٣٨ م . ويحتوي الكريتاسي الاسفل على فلزات حديدية متوسطة الغنى ، ولاسيما في منطقة راجو . وتعتبر هذه الخامات الثروة المعدنية الوحيدة المعروفة حتى الان في منطقة حلب . ولا تزال الدراسات جارية لمعرفة مدى امكانية استغلال هذا الحديد اقتصاديا ، شأن حديد منطقة الزبداني والعائد للعصر الجيولوجي ذاته .

اما الكريتاسي الاوسط فينتشر على مساحات شاسعة نسبيا بحيث تقارب ١٠٠٠ كم٢ في منطقة عفرين . وتتألف تكويناته من صخور كلسية قاتمة ، كريهة الرائحة عند تكسيرها ، ويزيد سمكها عن ٢٥٠ م في جبل الاكراد . ومن صخوره تتألف الالتواءات في كردطاغ الشمالي التي تتخذ شكل حدبات عريضا تسترها احيانا احراش السنديان والزيتون البري والبقص والصنوبر الحلبي الخ ..

هذا ويمكن التعرف على الكريتاسي الاعلى ، في المشهد الجغرافي ، عن طريق تضاريسه المتموجة . وتظهر القشرة الصحراوية غالبا فوق الحدبات بينما ينشب الحت اظفاره فيه في الوديان ، فيظهر على شكل

حوار ناصع البياض . وقد تحجبه احيانا تربة حمراء خفيفة ، كما يغطي الكريتاسي معظم المنطقة الواقعة في جنوب وشرق حلب . وتكون تكويناته رغم فقرها صالحة جداً لزراعة الاشجار المثمرة البعلية ، ولكنه يحوي في بطون المقعرات احيانا على بعض التكوينات من الصخور الخضراء.

ب ـ الصخور الخضراء : وهي صخور اندفاعية انبثقت في اواخر العصر الكريتاسي ، ويطلق عليها الجيولوجيون تسمية خضراء ، علما بأن ألوانها تتراوح بين الاخضر والسماقي والزيتوني الخ .. ولانجدها الا في منطقة محصورة في الزاوية الشمالية القريبة من جبل الكرد اذ تمتد في المنخفض الممتد بين راجو وبلبل ، وعلى رقعة صغيرة قرب قرية تشلقام وتمنح المنطقة لونا احمر قاتما ، وتؤلف الصخور الخضراء قاعدة ترتكز فوقها الصخور البازلتية في مائدتي دامر الصغرى ودامر الكبرى بجوار بلبل ، وتنبجس العيون الصغيرة عند المستوى الفاصل بين صخور البازلت المنفذة وبين الصخور الخضراء الكتيمة ، فتستقر القرى الصغيرة الى جانبها . واجمالا لاتتجاوز رقعة انتشار الصخور الخضراء مساحة قدرها ٥٦ كم٢ .

الحقب الثالث : تتصف صخور القسم الاسفل من الحقبة الجيولوجية الثالثة ، او النموليتي ، المنتشرة في شرق حلب برتابة مثيلتها الموجودة في جبل الاكراد ، لان صخور النموليتي الاسفل بمنطقة عفرين تتألف من مارن أزرق رمادي ثخانته ٧٠٠ م ، ثم نجد فوقه حوالي ١٥٠ م من صخر كلسي .

وتكون صخور هذه الحقبة في منطقة عفرين مستوردة احيانا باشجار الصنوبر والعرعر . ولكن هذه الصخور تتعرض هنا لحت عنيف اذا كانت عارية فتصبح محززة بالادوية الناصعة البياض . اما الايوجين الاعلى فيتألف من الاوليغوسين الذي ينتشر على مساحة ٧ كم٢ في جبل الاكراد ويتشكل من صخر كلسي وكلسي حواري سماكته ٢٠ م ويرقد بشكل متنافر فوق الايوسين الاعلى قرب ميدانكي .

هذا وتحتل صخور النيوجين رقعة هامة جدا في محافظتنا اذ تحتل حوالي ثلث مساحتها ولاسيما في جنوب غرب حلب وفي منطقة عين العرب . وتتباين سحنتها حسب ظروف الترسب القديمة ، فهي مارنية كلسية قرب عفرين تتحول عند بافليون ، قرب محطة قطمة ، الى صخر كلسي رصيفي ذي طبقات كما في جبل الاربعين طبقة او « فيرق باير طاغ » . ويبدو سطح الصخور الكلسية هذا منخورا بالحت الكارستي الى حد كبير كما في جوار جبل سمعان مما يجعل المنطقة شديدة الوعورة ، ولكنه يعود فيكتسي بالقشرة الصحراوية الى شرق الجبل المذكور بسبب انبساط الارض وتزايد الجفاف ولاسيما في هضبة عنجارة وجوار حلب . وتتداخل صخور الميوسين احيانا مع البازلت كما بجوار قطمة او تمتطي احيانا البازلت الاقدم كما في جبل الجوشن المشرف على حلب من الغرب ، او تتحول الى صخور كلسية ساحلية تسود فيها قواقع المحارات كما في جبل العظام وحي الصفا قرب جامع الشيخ ابو بكر الوفائي بحلب .

والى الشمال من جبل ليلون تصبح التكوينات الميوسينية عبارة عن رسوبيات انقاضية تؤلف صخورا تجمعية حاوية على عناصر من صخورخضراء وبازلت متصالبة مععدسات سميكة من غضار نقي يستثمر تحت اسم « بيلون » في مقالع قرب قرية كشتعار والذي يستعمل في حمامات حلب البلدية وفي الصناعة كمادة تمتص البقع الزيتية وفي المصانع والى الشرق من منبج يظهر صخر ميوسيني يسمى « كلس الفرات » لانه يظهر على نطاق واسع بمحاذاة النهر المذكور ويرقد فوق حوّار يعود للإيوسين الأعلى .

الحقب الرابع : تحتل التشكلات البحيرية المالحة والقارية العذبة مكانا لا بأس باهميته . فنصادف صخورا تبخرية كالجبس غير النقي الى الشرق من مملحة الجبول بين جبل الأحص وشبيث ، ولا سيما الى الجنوب منهما في منطقة الحمام وبجوار سبخة مراغة . وتغطي القشرة الصحراوية التشكلات الجبسية مما يشهد على مناخ متفاوت في تحولته منذ زمن قديم نسبيا . والى هذه الفترة تنتسب أيضا صخور

الطف (الترافرتان) التي تظهر في وادي عفرين ابتداء من قرية الباسوطة على الضفة اليسرى وتضم عناصر نباتية متحجرة . وتظهر الصخور هذه ذاتها في حوض أبو قلقل (شرق منبج) ولا سيما بجوار الجدول الذي يحمل الاسم ذاته .

وتمتد في حوض الدفتردار ، شمال المسلمية ، وفي حوض الجبول لحقيات ناعمة وغضارية ترسبت في خلال ازمنة طويلة وتشكلت طبقات واسعة من غضار أحمر كتيم تقريبا يحول دون تسرب المياه السطحية في اتجاه الأعماق . هذا ونجد في حوض المطخ ، حيث يضمحل نهر قويق، توضعات حديثة نسبيا مؤلفة من مخاريط لحقية واطئة جدا بتأثير السيول المتجهة نحو المطخ والتي تتلاقى فيه . وهكذا يتشكل قاع هذا الحوض من سلسلة معقدة من توضعات متنوعة من حيث مقاييسها الوفومترية ومنشئها وكتيمة نوعا ما تؤلف تربة خصيبة جدا اذا توفر لها الماء .

ونشير أخيرا الى المصاطب التي تواكب وادي الفرات بشكل متقطع وعلى ثلاثة مستويات ابتداء من جرابلس ، ومصاطب عفرين والساجور ، ومخروط الأنقاض المستغرب ، المؤلف من حصى وحصباء خشنة مستديرة ، والواقع على ضفة قويق اليسرى تجاه قرية العمارة والحويز، الى الغرب قليلا من قرية الوصيحي .

الثروة المعدنية :

١ ـ **البترول** : لقد قامت شركة البترول السورية ، وهي شقيقة شركة البترول العراقية المؤممة ، بعمليات تنقيب في المنطقة الواقعة بين اعزاز وعفرين ولا سيما في موقع بافليون . ولكن التحريات كانت عقيمة فتوقفت العمليات وتنازلت الشركة عن امتيازها .

٢ ـ **الحديد** : يوجد الحديد بشكل أكاسيد « هيماتيت » وبشكل حديد بيوضي في طبقات الكريتاسي الأدنى (أبسياني) في مناطق واجو وعلمدار وكرّي ووادي النشاب . وتنحصر هذه المواقع كلها في منطقة عفرين . وتمثل تداخل طبقات حديدية ضمن طبقات الصخور الرملية

والفضارية . وتبلغ السماكة الوسطية لهذه الساقات الحديدية ٦ م حتى ٨ م . ويقدر الاحتياطي الخام من هذه الفلزات بمقدار ٥٠ مليون طن ، ومعدل نسبة الحديد فيه وسطيا ٣٠٪ وهي نسبة منخفضة جدا اذا قورنت بفلزات الحديد الموريتانية التي تزيد نسبة الحديد فيها عن الضعف ولم تثبت حتى الآن جدواها الاقتصادية .

٣ ـ ملح الطعام : ويتوفر في السبخات الثلاث الواقعة الى الجنوب الشرقي من حلب وهي الجبول والخرايج ومراغة . وقد توقف استغلال الملح هنا تقريباً بسبب توقف نهر الذهب ومسيل أبو جبار عن ويسبب منافسة الملح الصخري في مناجم التبني بجوار الفرات .

٤ ـ حجارة البناء : تمتاز محافظة حلب عن سائر المحافظات السورية بتوفر حجارة البناء من النوعية الجيدة ، وهو الحجر الكلسي الميوسيني ، الذي يسهل اقتلاعه ونحته بالمناشر الكهربائية مما يساعد على الزخرفة والابداع في النقوش ، والذي يزداد صلابة مع الزمن ويكتسب لونا مائلا للحمرة الخفيفة مما يمنح الأبنية القديمة جمالا وسحرا فريدا لا سيما قبيل غروب الشمس . وله أنواع عدة تتراوح بين البياض والصفرة والحمرة . ومن هذا الصخر شيدت أبنية حلب والباب كما استخدم في الأبنية الأثرية جميعها كدير القديس سمعان ، ويستغل أيضا في صناعة الكلس ، وسابقا في رصف الطرق .

وفضلا عن ذلك يجيد أهل المنطقة نحت وصقل صخور البازلت التي تستعمل أحيانا في تزيين أبواب المنازل والخانات والجوامع بعد صقلها فتكتسب بريقا معدنيا جميلا . وقد ساعدت صناعة الرخام والنشر الكهربائي على صنع البلاط البديع والرخام من هذه الصخور المذكورة ولا سيما من النوع القوقعي (لوماشيل) .

٥ ـ المارن الحواري : وتكون معظم الصخور الرسوبية المارنية الحوارية العائدة للسينواني والايوسين الأسفل في محافظتنا صالحة كمادة أولية لصناعة الأسمنت . ولحسن الحظ تتوفر هذه المادة بكثرة قرب حلب مما ساعد على قيام مصانع الأسمنت في الشيخ سعيد والمسلمية التي ساعدت صناعة البناء والمشاريع الكبرى كالسدود في سائر مناطق

حلب واختفت تدريجيا البيوت الطينية القبابية التي كانت تشيد من اللبن المجفف بالشمس والمخلوط بالقش والتبن ، فتغيرت ملامح القرى القديمة وتلاشت الفروقات الاقليمية في نمط البناء واتخذت شكلا منسجما ، متماثلا ، وذات سطوح افقية تماما .

المناخ

من العبث دراسة مناخ محافظة حلب بمعزل عن المجموع الذي تنتمي اليه بصورة خاصة ومنطقة الشرق الادنى برمتها بصورة عامة . واستنادا الى تصنيف مناخات سورية بمعناها الواسع والذي قام به ، منذ نصف قرن ، شارل كومبييه ، نجد أن نموذجين من المناخ الرومي (المتوسطي) السوري يقتسمان رقعة هذه المحافظة ، ولكن بصوره غير متكافئة .

فالقسم الغربي ، الذي يضم منطقة عفرين والقسم الغربي من منطقة اعزاز وجبل سمعان حتى دارة عزة ، يتمتع بمناخ هيللني قاري ، في حين يخضع القسم الباقي ، او اربعة اخماس رقعة المحافظة ، للمناخ السوري شبه الصحراوي السهبي .

ولا ينعكس اثر هذا التصنيف المناخي على الأشكال الجيومورفولوجية والنبات فحسب ، بل نجد تأثير ذلك على مظاهر الجغرافيا البشرية . وتعمل درجات العرض واتصاف التضريس الى طرد المناخ السهبي الصحراوي أو « البادية » نحو الجنوب الشرقي اكثر من سائر المناطق السورية الأخرى . بيد انه لا يجوز التقيد حرفياً بهذا التحديد لأن عدم الانتظام الذي يتصف به المناخ السوري ، وهو أقرب مناخات البحر الابيض المتوسط للمناخ الصحراوي ، بين سنة واخرى ، يجعل المناخ الصحراوي يقتحم ابواب حلب ذاتها في السنين العجاف حسب دورة لم يمكن بعد تحديد معالمها بصورة دقيقة لحداثة فترة الملاحظات النوئية التي لم تتوسع شبكتها بصورة مقبولة إلا بدءاً من عام ١٩٥٦ .

ـ **الرياح** : اذا القينا نظرة على الجدول المتعلق بالمعدلات السنوية لاتجاه الرياح في مطار حلب نستنتج منه فورا تفوق الرياح القادمة من جهة الغرب والجنوب الغربي والتي تستحوذ لوحدها على نسبة النصف تقريباً أو ٤٦ر٨٪ من مجموع الرياح السنوية . هذا وتلعب التضاريس

الغربية دورا متفوقا في توجيه جريان الطبقات السفلى من الريح لأن السلاسل الجبلية الساحلية لا تؤلف حاجزاً لا يقهر ، بل تسمح ، وذلك بفضل الممرات المنخفضة ، مثل ممر بيلان ، وممر العاصي الادنى ، ووادي نهر الكبير الشمالي ، بمرور الرياح الغربية المباركة . ولكن — مع الأسف — لا نجد أي حاجز طبغرافي يخفف من وطأة الرياح الشمالية التي تجتاح المنطقة قادمة من الهضبة الأناضولية ، او من الرياح الجنوبية الشرقية والشرقية القادمة من الصحراء ، وهي رياح ضارة مزعجة على العموم .

هذا وتكون الرياح الغربية وأشباهها مرغوبة جداً لانها هي التي تسوق السحاب الحامل للأمطار والطقس الدافىء في الشتاء . ولهذا يرجح السكان توجيه فتحات ونوافذ مساكنهم نحوها . وفي خلال الربيع ، وهو فصل حرج بالنسبة للحبوب وللأشجار المثمرة ، فان هذه الرياح تلطف ، الى حد بعيد ، مفعول التبخر الشديد الذي يضخ رطوبة ثرى الأرض .

أما في الصيف فلا تكون هذه الرياح الغربية مرغوبة دوماً إلاّ في الصباح وفي المساء لأنها كثيراً ما تصل ساخنة مجففة الى منطقة حلب بعد أن تجولت فوق الهضبة الكلسية الملتهبة والعارية الواقعة الى الشرق من نهر العاصي . هذا وكثيراً ما تكون الرياح الشمالية وأشباهها سيئة لأن « الهوا الشمالي غيّر اللونا » كما تقول الأغنية المحلية . ففي الشتاء تهب مزعجة وقارسة جداً بعد انهمارها من فوق السفوح الثلجية في تركيا . وتستطيع تخفيض ميزان الحرارة بمقدار بضع درجات خلال عدة ساعات كما تؤدي شتاء الى تساقط الثلوج التي لا يكاد يخلو منها فصل شتاء تقريباً .

وكثيراً ما تؤدي الرياح الشمالية ، وهذا حتى في قلب فصل الربيع، الى اتلاف موسم الحبوب ، كما حدث في منطقة عفرين في نيسان من عام ١٩٤٢ ، وفي أواخر الربيع تهبط الرياح الشمالية من سلاسل جبال

طوروس عندما تستدعيها الضغوط المنخفضة العابرة لسورية الشمالية فيكون لها مفعول « الفوهن » مما يؤدي لأضرار كبيرة أحيانا بحقول القمح والمزروعات الصيفية ، هذا لاسيما اذا تحالفت مع هبوب رياح الخماسين القادمة من الجنوب بشكل عام .

وتتماثل الرياح الشرقية والقبلية من حيث أصلها القاري أو تكون معروفة بالشتاء بحسبانها رياحا باردة تتنازع السيطرة على الشمال السوري مع الرياح الشمالية بعد مرور المنخفضات الجوية وتتصف بطقس بارد تعجز أشعة الشمس الباهتة أحيانا عن تلطيف برودته . وتشبه الرياح القبلية رياح الخماسين في مصر أو الطوز في الكويت أو السموم في نجد الى حدّ ما ، وتتخذ شكلا مرهقا في نيسان وأيار اذ تعمل على اختصار فصل الربيع وتنتج عنها حرارة خانقة يأتي بها ريح قاري المنشأ ، مشحون بالرمال الدقيقة والغبار ، يجفف الشفاه والأنوف انه ريح غير مستقر يهب بهدوء خلال بضعة أيام ويسبب طقسا « حليبيا » يسمى الغتام أو السديمي ، يثير أعصاب الكائنات الحية ، ويشجع انتشار الطفيليات التي تجتاح مزروعات الحبوب كالسونة والتامباريللا ويمتد أثره الى الأشجار المثمرة فتضرر منه أشجار الفستق والزيتون ولا سيما المشمش واللوز وسائر البذريات . وعلى كل يجدر بنا أن نشير الى أن تفوق الرياح الغربية يظل هو العامل الأساسي في المناخ . فهذه هي التي تجلب الرطوبة بمختلف أشكالها في الشتاء ، أما في الصيف فمع انها لا تعطي أمطارا أكثر من زخة مرة كل ثلث قرن ، فهي تساعد بفضل رطوبتها على درء أذى الرياح القارية وتساعد على امتداد المزروعات الصيفية البعلية حتى حوض قوين شرقا .

درجات الحرارة : تدل الدراسات المتعلقة بدرجات حرارة شهري كانون الثاني وتموز ، لأول وهلة ، على فروق مفرطة في الحرارة لا مثيل لها في مناطق سورية المعمورة مما يشهد على قارية مناخ منطقة محافظة حلب .

فبينما لا يزيد الفرق بين متوسط اكثر الاشهر حرارة واكثرها برودة عن ١٦ درجة مئوية في اللاذقية وعن ١٧ر٨ في اسكندرون وعن ٢١ر٤ في جسر الشغور ، نجد هذا الفارق يصعد الى ٢١ر٨ درجة في اعزاز والى ٢٣ر٤ في حلب والى ٢٥ر٤ في الجبول ، والى ٢٦ر٤ في جرابلس في حين لا يزيد هذا الفارق عن ٢٥ر١ في الرقة وعن ٢٥ر٨ في تدمر الواقعة في قلب المناخ الصحراوي . بيد أن التأثير البحري يظهر جزئيا في محافظة حلب وذلك بزحزحة الحد الأقصى الصيفي . فيكون شهر آب « الشاوي » أو « آب اللهاب » هذا في حين يكون شهر تموز هو أكثر الشهور حرارة ابتداء من حلب وباتجاه الشرق . غير أن قارية المناخ تبدو صارخة جدا عندما نتفحص أرقام الفروق بين الحدود الحرارية القصوى المتوسطة وبين الحدود الحرارية الدنيا اذ تبلغ ٢١ر٩ في جسر الشغور في محافظة ادلب كي تصعد الى ٣٧ر٨ في الجبول .

ويظهر التأثير القاري أيضا « بقفزات » ميزان الحرارة خلال اليوم نفسه . فقد يبلغ الفارق بين أعلى وأخفض حرارة ١٠ درجات في كانون الثاني و ٢٢ درجة في يوم من أيام تموز أو آب بين الفجر وبعد الظهر .

ومن جهة أخرى تؤلف المنخفضات المغلقة بقاعا باردة شتاءً وبقاعاً حارة صيفاً في حالة الاستقرار الجوي مما يؤدي لحصول انقلاب حراري، كما حصل في شتاء عام ١٩٥٠ الذي أودى بالكثير من أشجار الزيتون في منطقة حلب في حين لم تتضرر كثيرا الاشجار الموجودة بالمرتفعات . والفروق القصوى المطلقة في درجات الحرارة تكون ملحوظة الاثر ، رغم تباعدها وندرتها ، ولاسيما في الحدود الدنيا اذ ينجم عنها حصول كوارث اقتصادية واجتماعية في المنطقة ولاسيما في الارياف (شكل ٤) .

	الحد الادنى المطلق	الحد الاقصى المطلق	الفرق المطلق
حلب :	ـ ١٩ في ١٦/١/١٩٥٠	٤٨ر٥ في ١٥\٧\١٩٤٢	٦٧ر٥ درجة
حلب :	ـ ٢٧ في كانون الثاني ١٩١١	٤٨ر٥ في ١٥/٧/١٩٤٢	٧٥ر٥ درجة
حلب :	ـ ١٢ في فترة ١٩٥١ ـ ١٩٦٦	٤٤ر٣	٥٦ر٣ درجة

أ- حلب

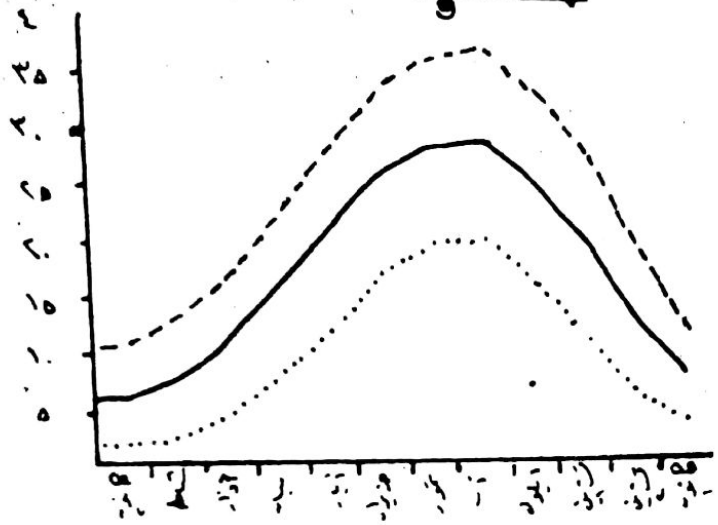

الفترة الزمنية ٩٥١ - ٩٦٤

الارتفاع عن سطح البحر ٣٩٢ م

الحرارة العظمى ٢٤,٢٩ درجة

ب- صنعا

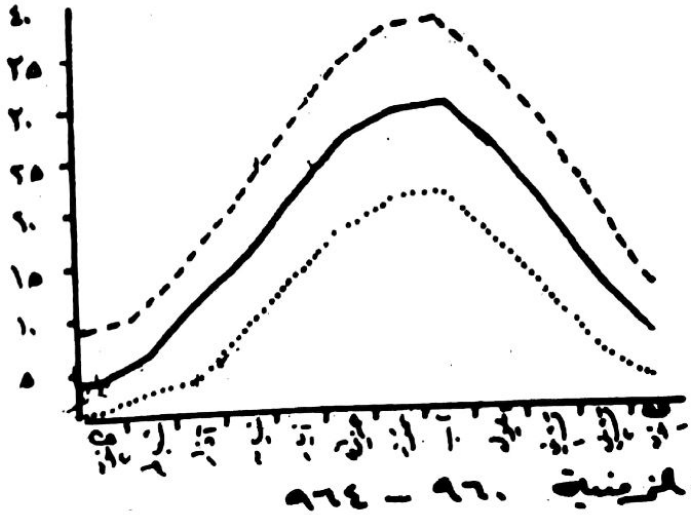

الفترة الزمنية ٩٦٠ - ٩٦٤

الارتفاع عن سطح البحر ٢٤٥٠

----- متوسط الحرارة العظمى ٢٣,٨٢ درجة

——— متوسط الحرارة ١٢,٠٠ "

..... متوسط الحرارة الدنيا ١٠,٢٩ "

ج- جرابلس

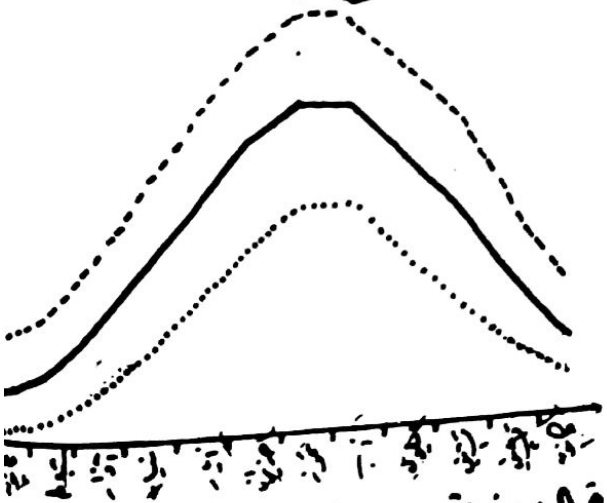

الفترة الزمنية ٩٥٧ - ٩٦٤

الارتفاع عن سطح البحر ٣٥٠

----- متوسط الحرارة العظمى ٢٥,٢٠ درجة

——— متوسط الحرارة ١٧,٨٥ "

..... متوسط الحرارة الدنيا ١٠,٥٠ "

وتنتج فصول الشتاء الشديدة في سورية ، في اغلب الاحيان ، عن وضع شاذ بارو متري ، ويعتبر شهر كانون الثاني في كل من عامي ١٩١١ و ١٩٥٠ نموذجا واضحا عنه . وينتج هذا الوضع عن اندماج آنتيسيكلون سيبيريا مع انتيسيكلون اقليمي في الاناضول والذي يدعمه آنتسيكلون اشعاعي مستقر فوق الصحراء السورية التي تكون مستورة بغشاء ثلجي[1] ، ووسطيا يهطل الثلج في خلال يومين كل عام .

ويبلغ عدد ايام الجمد وسطيا في منطقة حلب ٢٦ يوما وقد تمتد احياناً ، حسب السنين ، على الفترة الواقعة بين تشرين الثاني ونيسان مما يؤدي لالحاق الضرر بالمزروعات الصيفية ، اذا وقع مبكراً ، كالقطن والقثائيات والبطيخ .

ومن المفيد ان نقوم بموازنة مناخية بسيطة بين حلب وبين العاصمة دمشق . فقد كان متوسط الحرارة السنوي بحلب بين ١٩٥١ و ١٩٦٦ ١٧ر٦ درجة مع ان ارتفاع المدينة عن سطح البحر هو ٣٨٠ م وسطيا بينما كان بدمشق ١٧ر٤ وارتفاعها ٧٦٠ م ، والمسافة الفاصلة بينهما على خط مستقيم تعادل ٣ درجات عرض ، كما يكون معدل الحرارة في عمان مماثلا لدمشق وحلب مع ان ارتفاع العاصمة الاردنية ٨٥٠ م وتبعد عن دمشق قرابة درجتي عرض . كما هبطت الحرارة المطلقة الدنيا بحلب الى ـ ١٢ مقابل ـ ٣ر٦ بدمشق كما صعدت الحرارة المطلقة العظمى بحلب الى ٤٤ر٣ مقابل ٤٤ بدمشق مما يشهد على قارية حلب . وكان معدل حرارة حلب بين ١٩٨١ و ١٩٨٥ ١٧ درجة .

---

(١) يذكر المؤرخون حدوث موجات برد مماثلة . ففي عام ١٩١١ ظل الثلج يتساقط مدة ٤٠ يوما بصورة شبه مستمرة (سنة الثلج) . وقد تجمد كل من نهر العاصي والفرات جزئيا اذ هبطت الحرارة الى ـ ٢٧ . واضطر فقراء الناس الى اقتلاع السقوف الخشبية من الاسواق وحرقها اتقاء للبرد الشديد وكان فحم الخشب يعتبر هدية ثمينة . وقد هلك مئات الناس من النزلات الصدرية . ولكن البرد كان عنيفا جدا على البدو الذين افقدوا مواشيهم وتجمد الكثير منهم داخل خيامهم وتعرضت اشجار الزيتون لاضرار قاتلة . ويذكر المؤرخون موجات برد مماثلة حدثت في عام ٩٨٠ ، ١٧٥٦ ، ١٧٧٩ ، ١٨٦٢ ، ١٨٦٩ .

الامطار : اذا دققنا في خارطة الامطار السنوية لسورية الشمالية نلاحظ أن محافظة حلب تنتظم ضمن منطقتين مطريتين متميزتين :

١ ـ هناك منطقة مطيرة تخضع للمناخ الهيلليني القاري وتنال اكثر من ٥٠٠ مم من المطر سنويا وتضم منطقة عفرين بكاملها تقريبا ومثالها قرية ميدانكي التي تتلقى وسطيا ٥٣٠ مم سنويا .

٢ ـ منطقة شحيحة الامطار نسبيا تنتشر على باقي أراضي المحافظة وتنال كمية من المطر تتراوح بين ٥٠٠ و ٢٠٠ مم سنويا . وهكذا تنال عفرين ٤٨٥ مم وحلب ٣٧٥ ، الباب ٣٠١ مم ، الجبول ٢٩٥ مم ، منبج ٢٧١ مم (شكل ٥) . وتصنيف هذه المنطقة الثانية ضمن المناخ السوري شبه الصحراوي . وتنتهي شرقا عند خط المطر ٢٥٠ مم الذي يفصلها عن السهب الصحراوي بصورة غير محسوسة ، ويمر هذا الخط بدقة عند السفح الجنوبي لجبل شبيث .

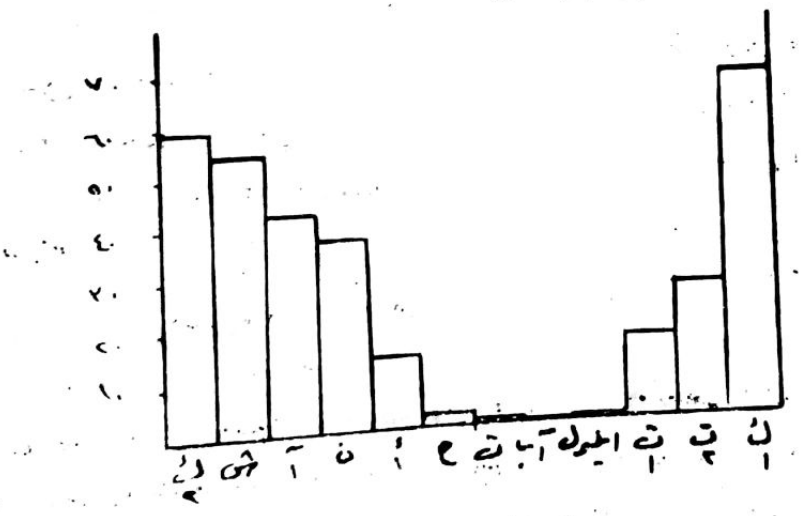

أسم المركز ـ حلب
المتوسط السنوي للأمطار : ٣٧٥ مم
فترة القياس : ١٩٥٠ ـ ١٩٦٤

وتشير خارطة المطر بوضوح لتاثير التضاريس التي تفرض على خطوط المطر المتساوية اتجاها يمتد من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ، اي ان هذه الخطوط تواكب مشارف جبال طوروس واتجاه الرياح الماطرة السائدة . وتشير دراسة متوسطات المطر السنوية الى أن كمية المطر لا تتناقص باتجاه الشرق فحسب ، اي كلما ابتعدنا عن البحر، مصدر الرطوبة ، بل وتتناقص ايضا ، في اتجاه الجنوب الشرقي .

وعلى كل يظل اتجاه الحاجز الجبلي الساحلي العامل الاساسي الذي يحتم وجود تناقص متسارع للامطار ، وتستطيع الرياح الرطبة ، وذلك بفضل الممرات الجبلية العرضانية ، ان تتسلل بعيدا نحو الداخل، وان تروي هذه المنطقة بأمطارها . ولا يظهر تناقص الامطار في اتجاه الشرق كميا فحسب بل يتجلى ، كيفيا ، اي من ناحية التوزع السنوي .

فمدينة انطاكية التي لا يفصلها عن البحر اي حاجز جبلي تنال ثلاثة اضعاف امطار حلب أو ١١٨٠ مم ، مع ان المسافة بين المدينتين لا تزيد عن ٩٠ كم على خط مستقيم ، وبينما لا تزيد فترة الجفاف في مدينة الاسكندرونة عن شهر واحد تبلغ ٤ أشهر في اللاذقية وتمتد على ٢٥٠ يوما بالعام في حلب التي يبلغ عدد ايام المطر فيها ٥٥ يوما ، والبرد ٤ أيام ، والضباب ٦ أيام .

ومما يزيد في حدة مشكلة قلة الامطار عموما هو أن كمية هذه الامطار تهطل في مدة تتراوح بين ٦٠ يوما في الغرب الاقصى من المحافظة و ٤٠ يوما في تخومها الشرقية ، وتكون معظمها في الشتاء ولاسيما في شهر شباط والباقي في النصف الاخير من الخريف والنصف الأول من الربيع ويبلغ عدد ايام المطر ٥٨ يوما في ميدانكي ، و٥٧ في اعزاز و ٣٨ يوما في الجبول ، وتتراوح في حلب بين ٧٦ يوما كما في ١٩٨٥ و ٥٠ يوما في السنوات العجاف و ٥٥ يوما وسطيا .

عدد ايام المطر

المركز	الخريف	الشتاء	الربيع	الصيف	المجموع
ميدانكي	١٢	٣٠	١٦	—	٥٨
اعزاز	١٠	٢٩	١٨	—	٥٧
حلب	١٠	٢٩	١٥	—	٥٥
الجبول	٧	٢٠	١١	—	٣٨

ويخفي توزع الأمطار الفصلي المذكور اعلاه ، والذي يمثل متوسطات حسابية ، اقول يخفي حقيقة لا يجوز اغفالها ، وهي عدم انتظام الفترة الممطرة بين الاشهر . فالامطار المنتظرة بفارغ الصبر من اجل الشروع بالحراثة التحضيرية في ايلول قد تنعدم احيانا . لهذا يفضل الفلاحون ، وذلك استنادا لخبرة تعود لعشرات القرون ، ان يبدءوا البذار في تشرين الثاني أو كانون الأول .

وينال كانون الاول والثاني وشباط ، حوالي ثلثي كمية الامطار السنوية(١) ، ولكن مهما كانت كمية المطر فان الوضع يصبح خطيرا اذا انحبست امطار آذار ونيسان ، أو كانت غير كافية لانطلاق النبات المتوقف عن النمو بسبب تتالي أيام الصقيع ويقول المثل : ان اقبلت آذار وراها وان أدبرت آذار رواها . ويقول المثل التونسي بالمعنى ذاته : مطر مارس ذهب خالص .

وتلعب الامطار المتأخرة دورا حاسما في جودة الموسم الزراعي اذ يكفي ان تهطل عدة زخات من الوابل في أواخر نيسان لكي تكتمل دورة

(١) كان توزع الامطار السنوية والشهرية الوسطى خلال فترة ١٩٥١/١٩٧١ في مدينة حلب على الشكل التالي بالميليمترات :

كانون الثاني ٦٣ر٨ مم ، شباط ٥٢ر٣ ، آذار ٤٢ ، نيسان ٣٧ر٢ ، ايار ١٨ر٥ ، حزيران ٣ر٢ ، تموز ١ر٠ ، آب ٨ر٠ ، ايلول ٣ر١ ، تشرين الاول ١٩ر٢ تشرين الثاني ٢٧ر١ ، كانون الاول ٧١ر٢ .

القمح الانباتية ولكي تختزن رطوبة كافيـة في اديم الأرض المزروعات الصيفية البعلية العتيدة .

هذا وتتفاوت مقادير الامطار بشدة بين عام وآخر حتى لقد تبلغ نسبة الاختلاف معدل واحد الى ثلاثة . واذا كان معدل امطار حلب الشتوي ٣١٧ مم فقد يهبط ما يهطل فيها من مطر الى ١٩٨ مم كما حدث في ١٩٣٢ وقد يصعد الى ٥٨٧ كمـا في ١٩٥٤ و ١٩٨٨ كمـا قد تتعاقب السـنوات العجاف كمـا في فتـرة ١٩٣٠ ، ١٩٣١ ، ١٩٣٢ ، ١٩٥٩ و ١٩٠ . (الشكل ٦) .

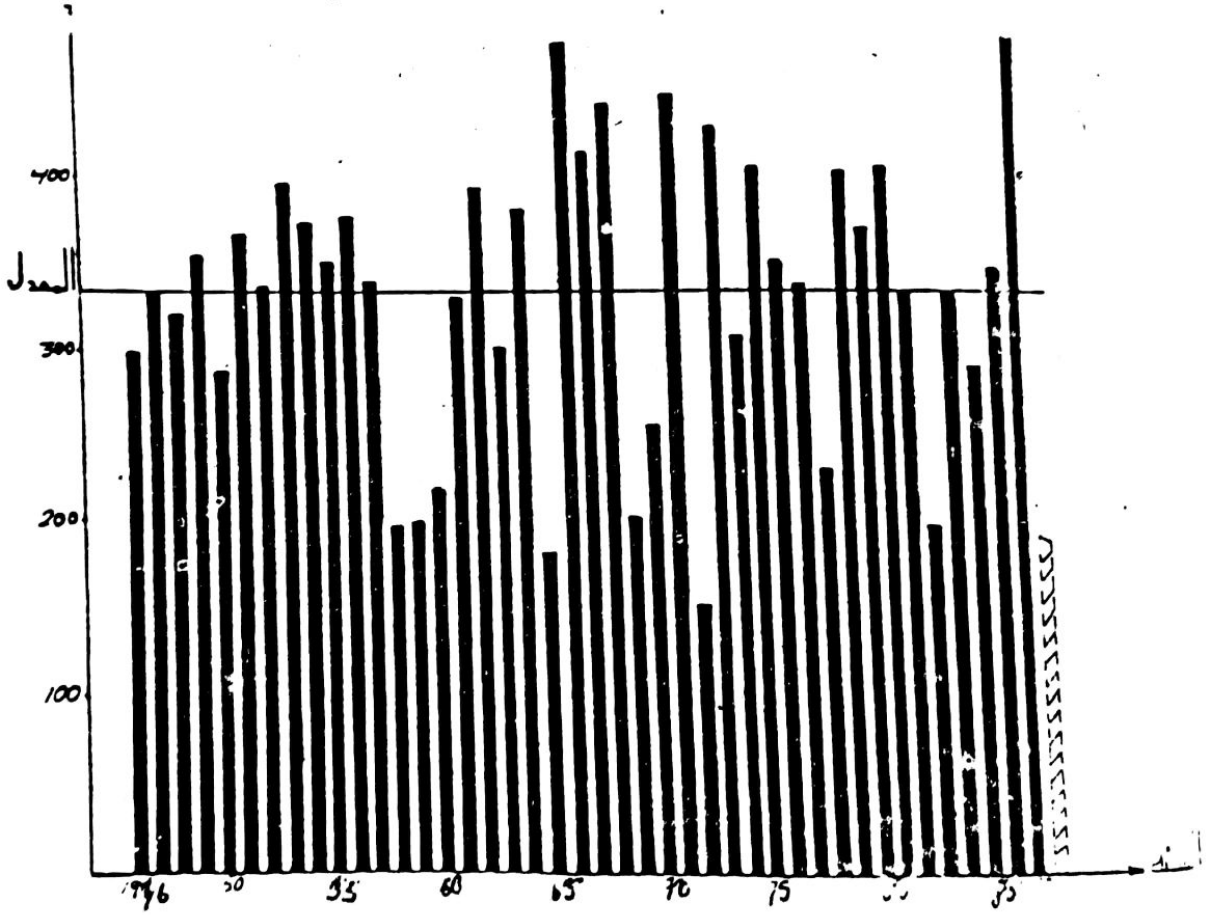

بيد أن دراسة الاختلافات بين الأعوام الزراعية تبدو أجزل فائدة لأنها هي التي تحدد السنوات العجاف وسنوات الخير .

واليكم الحد الادنى والحد الاقصى السـنويين في بعض محطات محافظتنـا :

المركز	الحد الأقصى	العام الزراعي	الحد الأدنى	العام الزراعي	عدد سني الملاحظة
ميدانكي	٩٦٦ مم	٥٢-١٩٥١	٢٤٤	١٩٤٤-٤٥	١١ سنة
اعزاز	٧٠٨ مم	٣٥-١٩٣٤	٣٠٠	١٩٣١-٣٢	١٦ سنة
حلب	٥٨٥ مم	٤١-١٩٤٠	١٩٣	١٩٣١-٣٢	٣٠ سنة
الجبول	٤٥٤ مم	٤٣-١٩٤٢	١٥٠	١٩٤٧-٤٨	١١ سنة

وهناك أيضا الطابع السيلي للأمطار الذي يضيف مشكلة أخرى الى قائمة المآخذ المناخية في منطقتنا ، ذلك الطابع الذي يسبب أضرارا كبيرة بالمزروعات وللمساكن الطينية مثلما تعمل على انجراف التربة الزراعية . فقد هطلت كمية ٢٠١ مم في قرية الجبول خلال يوم ١٢/٣/ ١٩٤٣ وكمية ٧٢ مم في يوم ١٠/٢/١٩٥٣ في اعزاز .

كما يجب التنويه بتساقط البَرَد الذي يحدث ٤ مرات وسطيا في كل عام والاسيما في مطلع الربيع . وقد يتساقط على اثر عواصف رعدية في فترة الحصاد ، كما حدث في أيار ١٩٥٦ ، حيث أوقع أفدح الخسائر بحقول القمح والشعير في منطقتي الباب ومنبج فجرف السيل أغمار القمح المحصود فضلا عن تهشيم الزروع الشتوية على سوقها أو اضطجاعها .

هذا واذا كان تساقط الثلج يجعل صدور مربي الماشية والرعاة وأصحاب الأشجار المثمرة حرجة ، فهو يستقبل بترحاب من قبل مزارعي الحبوب لأنه يؤلف « خميرة الأرض » حسب اعتقادهم . وأخيرا هناك العواصف الترابية الغبارية القادمة من الجنوب والجنوب الغربي وعددها ١٠ وسطيا في العام . أما معدل الرطوبة السنوية فيبلغ في حلب ٦٠٪ في حين يبلغ معدل التبخر السنوي ٢٢٧٤ مم أو ٧ أضعاف معدل المطر السنوي .

وختاما يصبح بامكاننا تقدير أهمية الرطوبة بمختلف أشكالها بالنسبة لحياة الانسان والحيوان في هذه البقعة القاحلة وشبه القاحلة

من العالم لأن صلاة الاستسقاء كانت ولا زالت معروفة في سائر انحاء الحوض الجنوبي والشرقي من البحر الأبيض المتوسط من اقدم العصور التاريخية ولدى مختلف الديانات .

الهيدرولوجيا

تتضافر الشروط البنيوية والمورفولوجية والمناخية على تحقق كل ضروب التصريف المائي في الشمال السوري أي الصرف الخارجي والداخلي واللاصرف . فالأنهار التي تدرك البحر الأبيض المتوسط او الخليج العربي هي انهار « أجنبية المصدر عربية المعبر » تدين بتغذيتها للمناطق البعيدة الغزيرة الأمطار الواقعة في تركية ، هذا بالاضافة الى الوضع البنيوي الذي يسمح لها باجتياز الأراضي السورية دون التعرض لمخاطر القحولة المحلية . تلك هي حالة كل من نهر عفرين ونهر الفرات .

أما في المنطقة الكلسية الميوسينية الممتدة من جنوبي عفرين حتى جوار حارم فان تعاقب النجود الناهضة مثل جبل العلا وسمعان وليلون والوهدات الانهدامية مثل سهل الداتا وترمانين ، يخلق نوعاً من تصريف كارستي باطني . غير أن الشبكة المائية تضطرب لأقصى حد في الداخل ، اي بين مجرى الفرات وعفرين لدرجة تدفع الدراسة الخرائط الطبغرافية ذات المقياس الكبير لتقدير عدد الأحواض الصغرى المغلقة التي تنتشر فيها الى حد كبير . هذا ويلعب نهر الفرات دور مستوى أساس محلي منخفض وبذلك « ينقذ » نهر الساجور ، ونهر أبو قلقل ونهر الحمر ونهر خان الشعر من مجال الصرف الداخلي رغم ضآلة تصريف النهرين الأخيرين .

الاغشية المائية والينابيع : اذا رجعنا الى قرائن الجريان المحسوبة بالنسبة للانهار العابرة لمحافظة حلب ندرك فورا ضخامة العجز الناتج عن حدة التبخر وعن التسرب .

المركز	كمية المطر السنوي	قرينة الجريان	العجز
عفرين عندميدانكي	٥٣٠مم	١٦٠مم	٣٦٥مم
عفرين عند باسوطة	٥٠٠مم	٨٥ مم	٤١٥مم
الساجور عند الدادات	٣٠٠مم	٤٨ مم	٢٥٢مم
قويق عند المسلمية	٣٨٠مم	٦ مم	٣٧٤مم

غير ان هذه الارقام المرتفعة نسبيا لايجوز أن تحجب عنا الحقيقة ، وهي ان شروط التسرب لاتكون مناسبة جدا الا فوق الهضاب الكلسية الكارستية التي تلعب دور اسفنجة تحول دون سيلان المياه سطحيا ، لذلك تدعى الكتل الخازنة .

أما في الداخل فيتعرض تسرب المياه لباطن الارض لمصاعب رغم شدة ضعف التضاريس وذلك لشدة انتشار القشرة الصحراوية الكتيمة مما يعرض مياه الامطار للتبخر خلال مدة طويلة ، وينتج عن تهشيمها اغناء كبير للغشاء المائي الباطني .

الينابيع الحارة والكبريتية والعادية : تحتوي محافظة حلب على بعض الينابيع الحارة والكبريتية التي تشهد على فعالية بركانية و « تكتونية » قديمة . ويطلق على مثل العيون اسم « حمّام » وأغزرها حي « حمام الجومة » الواقعة على الحدود الفاصلة بين منطقة عفرين ولواء اسكندرون والتي يبلغ صبيبها ١١ ل/ثا وذات حرارة قدرها ٤٢ درجة . ويحوي سهل الجومة حماما آخر أقل غزارة تبلغ حرارة مياهه ٣٠ درجة وهو كبريتي ايضا ويسمى « غول باير » ويقع قرب قرية تل سلور على الضفة اليسرى من نهر عفرين . هذا ونجد ينبوعا كبريتيا ثالثا عند الخشم الجنوبي لهضبة شبيث ، ومياهه غنية بكبريتات الكالسيوم والمغنزيوم ويسمى « بير حمّام » وتقارب حرارة مياهه ٣٦ درجة ويسبب شرب مياهه الاسهال الشديد ، لكنه يعتبر موردا هاما لماشية البدو العابرة ، ويقدر صبيبه ٥ ل/ثا . ونصادف آخر عين كبريتية حارة في محافظتنا عند حافة الجرف الحواري المشرف على زور الفرات في سافلة مقرن نهر الساجور ويسمى « حمام صغير » .

هذا ولا تكون شروط جريان المياه في المناطق البازلتية متماثلة في كل الامكنة بسبب اختلاف اعمارها الجيولوجية ودرجة تفسخ صخور البازلت وثخانتها . ولا نجد خطوط ينابيع صغيرة عند المستوى الاسفل للبازلت الا في مائدتي دامر ، في دامر طاغ الشمالي ، وذلك عند تماس البازلت مع قاعدته الكتيمة المؤلفة من الصخور الخضراء . وعند هذا الخط تنتشر القرى والبساتين المرواة بينما يكون سطح المائدتين شبه مغطى بالاحراش الوحشية .

وتغطي المخاريط البركانية الصغيرة في الجومة ، عند قاعدتها ، رشوحات مائية ضعيفة عند مستوى الرماد البركاني أو « السينيريت »، ولكن أغشية مياه المناطق البازلتية تصبح غنية عندما تكون هذه التكوينات الاندفاعية على درجة متفاوتة من حيث تفسخها ، فتتصرف ، عندئذ ، كطبقة كتيمة كحالة غشاء المياه الواقعة في صخور البازلت الميوسيني بجوار مدينة اعزاز . أما الهضاب البازلتية الداخلية مثل نبغه وشبيث والاحص فليس لها أية خصائص هيدروغرافية وتكون ، على العموم ، جافة الا في الادوية العميقة نسبيا والمنطلقة منها مثل وادي البياعية الذي يصرف مياهه في سبخة الخرايج .

هذا ولا تكون الهدروغرافية متماثلة في كل المناطق التي تسود فيها الصخور الكلسية . ففي جبل الاكراد وحيث تكون الطبقات الكلسية ملتوية ومكسرة أو شديدة الميل عندما تكون البنية معقدة بسبب وجود « الحراشف » فان مياه التسرب تغور لاعماق سحيقة . ولكن تظهر بعض العيون الصغيرة في قيعان الاودية التي يحفرها نهر زرافكة ، وهو الرافد الأيمن لنهر عفرين والذي قام عليه سد راجو .

وهناك ينابيع فوارة « فوكلوزية » تبنجس عند اقدام هضبة ليلون الى الشمال من دير سمعان ، والتي ترفد نهر عفرين . واهمها عين برج عبد الو وتقذف ٣٥ ل/ثا ، وعين الباسوطة ١٢٥ ل/ثا ، وعين داره ٨٠ ل/ثا . ولا يمكن تفسير وجود هذه الينابيع ، الغزيرة نسبيا ، بأن نعزوها للحوض الساكب او الحوض السفحي ، بل تعود ، على الارجح ، للكتلة

الخازنة الكلسية المستقلة عن الطبغرافيا . وقد اكدت هذه الملاحظة على اثر دراسة المهندس صبحي مظلوم الذي لاحظ : « ان عين قطمة التي يبلغ صبيبها ٧٢ ل/ثا تصرف قسما من المياه الهاطلة فوق حوض قويق الطبغرافي نحو نهر عفرين ، اي هناك عملية اسر كارستية .

أما في الهضبة الميوسينية الداخلية حيث تكون البنية مائديةتقريبا فلم يمكن العثور على الاغشية المائية الباطنية الا على اعماق كبيرة بفضل آلات السبر الحديثة من أجل تأمين مياه الشرب للقرى الكبيرة او للمدن الصغيرة . ويعثر على المياه العذبة في اغلب الأحيان فوق صخور مارنية على عمق بين ٧٠ و ٢٠٠ م ويرتفع صبيب بعض الآبار الى ١٦ ل/ثا مثل باب الهوا أو آبار قرية ترمانين التي اعطت مياهها على عمق يقارب ١٧٠م.

غير أنه عندما تكون الطبقة الكلسية المتطبقة بتنافر مع قاعدتها المارنية ، السليمة والكتيمة ، فان بعض الينابيع تظهر عند هذا المستوى وتجري المياه الباطنية في الاودية المستحاثة التي تملئها الصخور الكلسية الميوسينية مثل ينابيع عين التل التي روت مدينة حلب بالمياه النقية بين ١٩١٥ و ١٩٥٥ .

ويلعب محدب حلب « آنيتكلينال » الممتد من الشمال الشرقي نحو جنوب الغربي دور موزع للمياه الباطنية نحو الوديان المستحاثة المتجهة نحو الغرب والجنوب والشرق . وهكذا تغذي عيون خاصرته الغربية نهر قويق الاوسط شمال حلب مثل عيون بعيدين وينابيع حيلان التي تقذف ٢٥٠ ل/ثا في الربيع و ١٦ ل/ثا خلال الخريف . ونجد على خاصرته الجنوبية الغشاء المائي الذي يغذي قرية النيرب وعين العصافير التي تعطي ٢٠ ل/ثا . ونصادف في مجرى قويق ، عند زاوية عكس الوضيحي ، نبعا غزيرا يسمى عين مبارك ويبلغ صبيبه ١٢٠ ل/ثا وهو الذي كان يؤمن سقاية بساتين قرية العمارة والوضيحي والقراصي . ولا بأس من ذكر الينابيع الصغيرة المتولدة عند تماس صخر كلس الفرات مع طبقات الحوار السفلي ، ولا سيما الينابيع الواقعة على مسافة بضعة كيلو مترات جنوب غرب جرابلس .

اما في المنطقة الحوارية ، او الكلسية المارنية ، العائدة للإيوسين الاعلى او السينوني ، فتنعدم العيون تماما اللهم الا في الاودية العميقة نسبيا مثل عين الجحش في واد البطنان والذي اسعف مدينة حلب قبيل جر مياه نهر الفرات . غير ان الاقدمين عرفوا كيف يستغلون اغشيةبطون الاودية ، بوساطة « السرابات » او القنوات الباطنية الرومانية كما تسمى في أغلب الاحيان(١) .

جدول ينابيع محافظة حلب

حسب احصائية المناخ الزراعي (١٩٧٧) وغزاراتها

ينابيع حيلان	٢٥٠ /ثا	عين عبدالو	٢٠ ل/ثا
نبع التوني	١٠٠ ل/ثا	نبع الحرن	٦٥ ل/ثا
نبع ابو قلقل	٨٠ ل/ثا	عين اسكان	٥٥ ل/ثا
نبع قطمة	٧٢ ل/ثا	عين عواوية	٢٤ ل/ثا
عين مبارك	١٢٠ ل/ثا	عين ديبة	٧٥ ل/ثا
عين بطمان	٦٠٠ ل/ثا	عين البيضا	١٥٠ل/ثا
عين الدادات الكبيرة	٧٠ ل/ثا		

هذا وتختلف نوعية المياه في المنطقة حسب خط يمتد من جنوب المطخ حتى مسكنه ، فالى الجنوب من هذا الخط يؤدي استفحال القحولة وانعدام الجريان الى ارتفاع نسبة الاملاح في المياه الجوفية مثل كلور الصوديوم والكلسيوم والمغنزيوم وكبريتات الكلسيوم ، وبذلك تصبح المياه غير صالحة للشرب وتلعب الماشية دور مصفاة اذ يشرب الانسان البانها ولكن الماشية لا تتحمل شربها لفترة طويلة وتدعى « المياه المرة » .

(١) يطلق على مثل هذه القنوات اسم « سرب » في منطقة منبج ، وكهريز في ايران ، وكيريز في التركستان الشرقية ، وخطارة في المغرب ، وفجارة في الصحراء الجزائرية « مزاب » ، وفلج في حضرموت وبلاد عمان والواسط نجد وجمعها افلاج

وقد تعرض مزارعو القطن في هذه المنطقة لخسائر جسيمة خلال « حمى القطن » في أواخر الخمسينات بسبب اندفاعهم الحماسي في زراعة منطقة « المريات » نسبة لمرار مياهها الجصية . ولكن السهول اللحقية مثل سهل الدفتردار والمطخ والجبول ، وهي غضارية غالبا ذات تربة ثقيلة ، وتحتوي على مياه باطنية تتغذى من مياه السيلان السطحي ومن مياه الاودية التي تصب فيها خلال الفصل المطير ، فقد كانت الاغشية المائية الباطنية ، حتى عام ١٩٥٠ ، قريبة جدا من سطح الارض حتى انها كانت تؤدي لوجود عيون دائمة كالعيون التي كانت تسمى « بجة » والتي كانت تواكب نهر الذهب وهي تماثل مايدعى « حسو » في نجد الشرقية ، أي في منطقة الاحساء او مايسمى « حاسي » في الصحراء الجزائرية .

وقد كانت بلدة السفيرة تحوي على عين دائمة لا تقل غزارتها عن ٢٠ ل/ثا . ولكن زراعة القطن وما اعقبها من افراط في نتح الماء الباطني خلال الخمسينات ، ادى الى استنزاف المياه المخزونة وظهرت مشكلة مياه الشرب في مناطق كانت شبه مرزغية سابقا لكثرة مياهها ، كما يبست كروم العنب الشهيرة في منطقة السفيرة وتل حاصل وتل عرن والتي كانت اشجارها ترسل جذورها حتى مستوى المياه الجوفية لتستمد منها حاجتها من الرطوبة مباشرة .

وتلافيا للنقص في المياه عمدت وزارة الري لبناء عدة سدود «سطحية» في المنطقة واهمها سد أم جلود على نهر الساجور وطاقته التخزينية ٣ر٥ مليون م٣ ، ومساحة حوضه المائي ١ر٣ مليون م٣ ، وسد راجو شمال غرب عفرين ، وسد الشهباء على نهر قويق وطاقته التخزينية ١٣ مليون م٣ ومساحة حوضه ٥ ملايين م٣ ولكنه لايمتلىء الا مرة واحدة كل عشرة أعوام تقريبا كما في ١٩٨٨ .

الأنهار : تتصف الوديان السهبية ، أي الأنهار الصغرى التي نجدها في المنطقة القليلة الأمطار ، بنظام جريان شديد الاضطراب ، ويزيده تشويشا تدخل الانسان باستخدامه المياه السطحية والجوفية للري . غير انه يجدر بنا أن نميز بين وديان السلان السطحي التي لا تجري الا

عقب زخات المطر الشديدة ، وبين الوديان التي تنال ، فضلا عن مياه المطر ، مياه الينابيع التي تظهر في سررها . ولا تشكل هذه الأودية جداول حقيقية الا في حالة الاستغناء عن الري ، فهي تتوقف عن الجريان ابتداء من شهر أيار نظرا لتحويل مياه الينابيع الرافدة نحو الحقول المرواة . تلك هي حالة نهر الذهب . وطوله ٥٠ كم ، ونهر ابو جبار ، وهما النهران اللذان كانت تعتمد عليها سبخة الجبول ، ونهر الحانوتة ، أو نهر البياعية الذي يغذي سبخة الخرايج جزئياً . ولكن بعض هذه الجداول تكون شديدة الانحدار وتجري في وديان فضفاضة موروثة عن العصور المطيرة وتصب في نهر الفرات مثل نهر ابو قلقل ، ونهر الحمر ، ونهر خان الشعر .

١ ـ نهر قويق : تؤلف حوضه هذا النهر منطقة صرف مغلقة تمتد على رقعة كبيرة تبلغ ٧٠٩٧ كم٢ بحيث لا تتناسب أبدا مع صبيبه الهزيل . والواقع أن نهر قويق عبارة عن نهر هضبة ، ذي انحدار متوسط ضعيف مقداره ٤ بالألف ، يجري في منطقة ذات صخور منفذة ، قليلة الأمطار نسبياً تتراوح بين ٥٠٠ مم قرب منابعه و ٢٥٠ مم عند مصبه ، مما يفسر لنا سبب ضآلة قرينة جريانه التي تبلغ ٦ مم في المسلمية بجوار حلب من الشمال . وبعد أن كان نهر قويق يقذف حتى عام ١٩٠٨ م كمية مياه لا تقل أبداً عن ٨٥٠ ل/ثا عند دخوله حلب مما كان يسمح له بري عدة آلاف من الهكتارات من بساتين حلب وتحريك رحى عدد من طواحينها المنتشرة على ضفافه حتى قبيل المطخ ، وتحريك « ناعورة » باب الجنان في حلب ، وبتصريف المياه المستعملة من مجاري المدينة الغربية ، اصبح لا يتلقى شيئاً من مجراه الأعلى الواقع في خارج الحدود سوى فائض مياه السيول الشتوية لأن السلطات التركية حولت مياه ينابيعه عن مجراها الأصلي لاستخدامها محلياً رغم اتفاق انقرة عام ١٩٢١ ومعاهدة لوزان في ١٩٢٣ . هذا كما تشير الوثائق التاريخية الى أن نهر قويق كان يستمد شطراً من مياه الساجور بوساطة قناة تحويلية يعتقد أنها تقع في الأراضي التركية حالياً ، وانها تخربت بسبب الاهمال في أواخر القرون الوسطى .

وقد نتج عن حرمان حلب من مياه هذا النهر نشوء وضع مؤلم ، لا بالنسبة لأصحاب البساتين المجاورة التي اجتاحتها الأبنية السكنية والمصانع حالياً ، بل بالنسبة لمجاري المدينة ولم يمكن حل هذه المعضلة جذرياً الا بعد جر مياه الفرات الى المدينة في عام ١٩٥٦ .

وكانت غزارة هذا النهر تبلغ في الفيضانات الشاذة ٦٠ م٣/ثا ، وهذا فيما ندر ، كما في ١٩٣٨ و ١٩٥٢ ، ولكنه كان يجف تماماً في الصيف بعد دخوله حلب ، كي يسترد انفاسه بعد محطة الوضيحي بفضل مياه عين مبارك وبعض الينابيع الصغرى التي تظهر في سريره اللحقي . ومع ذلك فهذا النهر هو نهر سيلي بكل ما في الكلمة من معنى ، لذا تختلف غزارته السنوية باختلاف السنين ، فبينما سجل عام ١٩٤٣ مقدار ٨٤ر٦ مليون م٣ ، في السنة كلها ، هبطت هذه الغزارة سنة ١٩٤٤ الى ١٠ر٢ ملايين م٣ ، بينما كانت غزارته في عام ١٩٢٢ وهو سنة شح مشهودة في تاريخ سورية المناخي ٥ر. مليون م٣ . وكان فيضانه يتسبب بأضرار مادية لمدينة حلب الى أن تم كبح جماحه بفضل بناء سد الشهباء .

ولكن الحياة ستعود قريباً لنهر قويق بعد أن تتم تغذيته من نهر الفرات وتشكيل بحيرة اصطناعية في منطقة خان العسل . هذا كما امكن السيطرة على مستنقعات المطخ المرزغية سابقاً والتي كانت عبارة عن مناقع وخيمة . ففي ١٩٤٦ أمكن فتح ثلاث اقنية مشتقة منها اثنتان من اليمين وواحدة على اليسار بطول ٢٥ كم . ووزعت مياه النهر على اقنية ري يبلغ طولها ١٢٠ كم . غير أن استعمال وسائل الري الحديثة لم تترك مجالا لهذه القنوات التي تعمل في مواسم الفيضان الذي اصبح في حكم المستحيلات اليوم .

السبخات : يفيض نهر قويق في مستنقعات مستصلحة ، اصبحت اليوم حقولا خصيبة ، كانت تدعى مستنقعات المطخ ذات الشهرة بالمرزعيات خلال فصل الصيف . وينال هذا المنخفض مياه السيول من عدة اودية اهمها القوّاق فضلا عن بعض العيون الصغيرة . واذا كانت بعض الاغشية المائية هنا تتصف بملوحتها فهذا يعود لسبب بشري بحت

او تملح بشري anthropique بسبب ما تحمله مياه مجاري حلب منذ آلاف السنين شأن بحيرة العتيبة الى الشرق من دمشق . أما السبخات فهي اكبر مساحة لأنها تستر رقعة تقارب ٢٠٠ كم٢ تختص سبخة الجبول لوحدها بمساحة تبلغ أكثر من ١٥٠ كم٢ . وتؤلف السبخات بقعاً للفيضان الناجم عن أودية عديدة . ففي الشتاء تتغطى بغشاء رقيق من مياه مالحة تطيف به هالة وحلية تعرقل السير ، أما في الصيف فتتحول الى منبسطات مطلقة من غضار تغشاه قشرات ملحية ، أو تظهر مكانها تزهيرات ملحية ، أو على شكل بقع زيتية اللون قاتمة توعى باللغة العلمية سولونتز ، بينما تدعى البيضاء سولونتشاك . وعلى الاطراف الشرقية من السبخات تتشكل خلال الصيف كثبان هلالية الشكل مؤلفة من حبيبات الغضار تدعى طعوس ومفردها طعس . ولا يستثمر الملح ، وهو احتكار الدولة ، الا من سبخة الجبول لنقاوته . وكان يكفي الاستهلاك المحلي حتى السبعينات قبل جفاف رافديها الشماليين ، وكان انتاجه يقارب ٢٠٠٠٠ طن . أما حالياً فلا يستغل منه الا في السنوات الغزيرة الأمطار كما في صيف ١٩٨٨ .

ـ نهر الساجور : وينبع من هضبة عنتاب ضمن شروط مماثلة لشقيقه نهر قويق ، لكنه يجتاز منطقة ذات صخور أقل نفاذية مما يجعل قرينة جريانه أقوى بثماني مرات من مثيلتها في نهر قويق فتبلغ ٤٨ مم . وتسمح لنا سلسلة الملاحظات التي تمت على هذا النهر بالتعرف على مميزات نظامه ، اذ تمتد فترة الشح فيه على ٦ شهور ، وهي فترة يهبط فيها متوسط الصبيب الى ٣ م٣/ثا أو قرابة نصف صبيب بردى عند دخوله دمشق . ولا يجف سريره تماما رغم تحويل مياهه في تركيا للري لأن رشوحات الغشاء المائي الباطني الذي يحفر فيه النهر طريقه اوحدها تقدم له في شهر أيلول حوالي ٧٠٠ ل/ثا عند الدادات . واذا كانت مياه النهر شحيحة صيفاً فانها قد ترتفع كثيرا أثناء الفيضان الناتج عن أمطار سخية جداً في الأراضي التركية فتصل أحياناً الى ١٣٦/٢/ثا كما حدث في شتاء ١٩٣٥ . هذا وتختلف كميات المياه الذي يقذفها النهر سنويا حسب

غزارة الأمطار ، فقد بلغت في عام ١٩٣٥ مقدار ٢٤٢ مليون م٣ بينما لم تتجاوز خلال عام ١٩٣٢ مقدار ٣٩ مليون م٣ .

واجمالا يعتبر نهر الساجور ، شأن الوديان الرافدة في الاراضي السورية ، أعجز من أن يقدم لنهر الفرات كمية من المياه تؤثر على نظام هذا النهر الكبير أو تعوض خسارته في الأراضي السورية .

الفرات : تنجم أصالة وشخصية نهر الفرات ، بالنسبة لسائر أنهار سورية ، عن نظامه الثلجي المطري من نموذج البحر الأبيض المتوسط . يصرّف الفرات مياه حوضة واسعة تبلغ مساحتها ١٢٠٠٠٠ كم٢ معظمها جبلي ، في تركيا ، ويظل بعد دخوله الأراضي السورية خاضعاً لتأثير نظام تغذيته في حوضه الأعلى . ونستشف من خلال دراسة الخط البياني الذي تمّ رسمه استناداً للملاحظات تمت على هذا النهر عند مسكنة خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٠ و ١٩٤٠ أن الشح الشديد يقع في مطلع الخريف ، لأن معدل شهر أيلول بلغ ١٨١ م٣/ثا ، ويندر أن يهبط الحد الأدنى الى ما دون ١٥٠ م٣/تا كما حدث في أيلول ١٩٤٣ ، حيث هبط الى ١٤٦ م٣/ثا ولكن بناء سد كيبان وسد قره كايا وسد آتاتورك في تركيا ، وسد الطبقة وسد تشرين وسد البعث في سورية أدّى الى ترويض هذا النهر . فقد لوحظ في عام ١٩٨١ أن فيضان الفرات بلغ ٢٣٧٩ م٣/ثا في حين أن الشح(١) لم يهبط لاكثر من ٤٨٠ م٣/ثا . وينتج الارتفاع التدريجي في صبيب النهر عن الأمطار الخريفية التي تتضافر مع هبوط الحرارة وبالتالي لقلة التبخر ، وفي شباط يبلغ الصبيب المعدل السنوي المتوسط أو ٧٥٠ م٣/ثا .

وتقع الفيضانات الحقيقية في نيسان وايار حيث يتحالف تصريف مياه الأمطار مع مياه ذوب الثلوج المتراكمة شتاء فوق هضبة الاناضول الشرقي ، وهي المسؤولة عن الفيضان الربيعي .

---

(١) أو الصهيود في العراق أو التحاريق في مصر .

ويبلغ مقدار المياه التي يصرفها النهر سنويا حوالي ٢٠ مليار م٣ ، وهى كمية تفوق مايقذفه نهر اوروبي كبير مثل نهر السين الذي لايقذف اكثر من ١٥ مليار م٣ ، ولكن دون صبيب نهر النيل بكثير . هذا وتتراوح كمية الصبيب العالق الصلب ، حسب السنين ، بين ٦٠ و ٨٠ مليون م٣ اي مايعادل قشرة من الارض سماكتها ١٠ مم تقتلعها مياه الفرات في كل عام من حوضه .

وقد عهدت الحكومة السورية في عام ١٩٥٦ لمؤسسة سوفياتية بمهمة صنع خارطة طبغرافية بالألوان بمقياس ١ على ٢٥٠٠٠ لوادي الفرات تمهيدا للقيام بدراسة امكانية بناء سد على النهر المذكور . وبعد ان كاد قرار بناء السد في موقع يوسف باشا يصبح حاسما وجد الخبراء السوريون والاجانب ان موقع الطبقة هو انسب مكان لقيام السد العتيد الذي ينتظر منه أن يروي مساحة ٦٠٠٠٠٠ هكتار او اكثر من نصف مساحة لبنان ، ويوفر للبلاد طاقة كهرمائية بكلفة زهيدة . وقد تم الاتفاق في عام ١٩٦٣ بين الحكومة السورية وبين جمهورية المانيا الاتحادية على بناء هذا السد الذي كانت ستساهم به المانيا عن طريق تقديم الخبراء والمعونة الفنية فضلا عن قسط كبير من نفقات انشائه على شكل قرض طويل الاجل . وبقي المشروع زمنا طويلا بين مد وجزر الى ان تمت الاتفاقية مع الاتحاد السوفييتي في ١٩٦٦/٤/٢٢ للتعاون في تنفيذ سد الفرات العظيم والذي بدأت عملية التخزين فيه في عام ١٩٧٣ وقد انجزت الحكومة السورية سداً تنظيمياً أصجر هو سد البعث في سافلة سد الطبقة بينما تعمل على بناء سد ثان في موقع يوسف باشا السابق بقصد توسيع الرقعة المرواة وانتاج المزيد من الطاقة وهو سد « تشرين » .

نهر عفرين : ويبلغ طوله الكلي ١٥٠ كم ، منها ٨٥ كم في الاراضي السورية . ويرفد نهر العاصي الصغير المؤلف من عفرين ومن النهر الاسود والذي يصب في نهر العاصي قرب انطاكية بعد ان كان يصب في بحيرة العمق التي قام الاتراك بتجفيفها . ويتصف وادي هذا النهر في عاليته ، بالاراضي التركية ، بشدة انحداره ، البالغ اكثر من ٢٠

بالالف مما يمنحه الصفات المميزة للانهار السيلية الجبلية . ويعود ذلك لظهور الصخور القاسية في مجراه هناك كالبازلت والصخور الخضراء . ولكن انحداره يتضاءل عند دخوله الاراضي السورية ، المؤلفة من صخور طرية تعود للزمن السينوني ، فينخفض انحداره الى ٦ بالالف والى اقل من ذلك في سهل الجومة .

ويدل نظام عفرين على ضعف الدور الذي تلعبه الينابيع في تغذيته، لأن الينابيع ، وهي هزيلة بحد ذاتها ، لاتدعم بشكل ناجع صبيب النهر الذي يتحول خلال فصل الصيف الى شريط من الماء الذي يتلوى بين الحصى وقد وصل الى ٢٢٠ ل/ثا في عام ١٩٣٣ ، ولكنه يكون وسطيا بحدود ٩م٣/ثا في موسم الفيضان الربيعي و ٩ر. م٣/ثا في الشح الخريفي. هذا ولا يمكن اعتبار روافده اكثر من وديان بسيطة تتضخم على اثر العواصف الماطرة ، ويعتبر نهر الصابون وحده نهرا رافداً دائما ، لهذا نلاحظ ان نظام هذا النهر ينطبق تماما على نظام الامطار في المنطقة ، وتختلف كمية ما يقذفه النهر بالعام من مياه باختلاف كمية الأمطار الهاطلة ، فقد بلغت كمية مياهه عام ١٩٣٥ ٤٦٧ مليون م٣ بعد أن كانت حوالي ٢٨ مليون م٣ في عام ١٩٣٢ .

وتشهد هذه الصفات الوجيزة التي تضاف الى عمق سرير هذا النهر على ضعف الدور الذي يلعبه نهر عفرين في الاقتصاد الاقليمي بالنسبة المنطقة التي تحمل اسمه ، ولذا تفكر وزارة الري ببناء سد عليه في موقع ميدانكي .

النبيت والوحيش :

ليس من المنتظر أن نعثر في هذه المنطقة على النبات الطبيعي أو العائلات الحيوانية في أوضاعها الأصلية قبل تدخل الانسان في منطقة تعتبر من مواطن البشر الأولى .

١ ـ الغابة :

ان المناخ الذي ينحط متقهقرا نحو الشرق ، والتضاريس التي تنحدر في الاتجاه ذاته ، تساهم جميعا في حصر مجال الغابة الرومية ،

اي غابة البحر الأبيض المتوسط ، في المنطقة التي لا تقل امطارها عن ٥٠٠ مم أو التي تزيد قرينة قحولتها عن ٢٠ درجة .

والواقع لا تتجاوز منطقة النبات الشجري الطبيعي ابدا السفوح الشرقية لجبل الأكراد والتي تطل على سهل اعزاز كما نجد بعض بقاياها المبعثرة والقميئة في منطقة جبل سمعان الغربية . وعلى كل لا تحتوي محافظة حلب كلها ، في الوقت الحاضر ، الا على بقايا غابة متناثرة تغطي مساحة لا تزيد عن ٤٥ كم٢ ، معظمها في منطقة عفرين . بيد ان الغابة المذكورة لا تكون ، وذلك حتى في اكثر المناطق عزلة ، غابة طبيعية بكل ما في الكلمة من معنى ، بل تحولت الى احراش ، وحتى الى دغيلات محدودة في بعض الأنحاء . ولقد عانت الغابة السورية ، منذ اقدم العصور، من جوار السهب المحروم من الخشب اللازم لصنع الأدوات الزراعية وللسقوف ولتأمين صنع الفحم الخشبي والحطب الضروري للاستدفاء خلال فصول الشتاء القارسة ، مثلما تعرضت منذ فجر العصور التاريخية للقطع الجائر الذي كانت تمارسه الشعوب البحرية القاطنة على الساحل من أجل صنع مراكبهم .

كما استفاد السكان من حقب استتباب الأمن المتطاول ، كما في عهد الرومان ، فهاجموا الغابة لتوسيع حقولهم ومزروعاتهم على حسابها ، ولكن العامل الهدام الرئيس كان الماعز الذي يحول دون التجديد الطبيعي للغطاء النباتي ، ويؤدي لتسارع زوال الغابة أو انجراف تربتها وظهور أنواع نباتية منحطة متوائمة مع التربة الرقيقة أو زوالها . وبالفعل كانت تربية الماعز دائما هي النوع الغالب بين أنواع تربية الحيوانات الأهلية في هذه المنطقة ذات التضاريس الوعرة ، والفقيرة بالأعلاف ، كما أن تربية الماشية ضمن الزرائب وتوفير العلف لها تعتبر ظاهرة شبه مجهولة تقريبا هنا . اضف الى ذلك أن سهول وسهوب الداخل سرعان ما تصبح جافة وحصيدا ابتداء من شهر حزيران ولا تقدم خلال الصيف والخريف للمواشي ما يكفي من المرعى والماء مما يضطر الرعاة لارتياد الغابة كي تستكمل مواشيهم ما تفتقر اليه من غذاء ، لهذا تكون تربية الماشية التي

تؤلف احد اسس الاقتصاد القومي عاملا يلعب دورا ملحوظا في اتلاف المشهد النباتي الطبيعي .

ولكن هناك ملاحظة لا بد منها وهي أن الغابة هنا تقوم في الغالب فوق الصخور الكلسية التي تفتقر لتربة مستمرة تسمح بنشوء غابة كثيفة متواصلة . وبالواقع كثيرا ما نلاحظ أن الاشجار تتشبث بالشقوق الفاصلة بين الجلاميد الصخرية التي تمتلىء بالتربة الحمراء مما يجعل هذه الغابة سريعة العطب وهشة .

بيد أن هناك الكثير من الظاهرات التي تدفعنا للاعتقاد بأن البقية الباقية من غابة الشمال السوري كانت تحتوي على عناصر أكثر تنوعا من الأنواع الحالية . وقد تعرضت الغابة في منطقة جبل سمعان الى قطع منظم منذ القرن الثالث الميلادي من أجل التوسع في زراعة أشجار الزيتون والكرمة . والحقيقة هي أن استتباب الأمن لمدة طويلة خلال الحكم الهللينستي والروماني والبيزنطي أدى لتوسع ديموغرافي وازدهار اقتصادي كان من جرائه التوسع في الإعمار الريفي والزراعي على حساب مملكة الغابة .

ويرى العالم الأثري « ماترن » أن هذه المنطقة الممتدة من جبل سمعان حتى جبل الزاويةكانت مستورة بالأحرش ويستدل على وجود غابة من أشجار الصنوبر والأرز والسرو من الهندسة العمرانية ذاتها الموجودة في هذه المنطقة أي في المدن والقرى « الميتة » المهجورة منذ حوالي الف عام .

وتدفع هذه الفرضية الجريئةجدا بالمؤلف الى استنتاجات لا تنسجم أبدا مع الأحوال الجغرافية الطبيعية الخاصة بهذه المناطق فيقول : « لقد ظل بناة هذه القرى والمدن، التي لا نزال نرى بقاياها، يسرفون في استخدام الخشب دون أن يحسبوا اي حساب للمستقبل . وكانت النتيجة هي تجريد الجبال مع كل ما يستتبع ذلك من عواقب كالتعرية ونضوب موارد المياه » .

من غير المشكوك فيه ان الغابة كانت تجتاح كل المنطقة الجبلية الغربية ، بيد أن الأنواع المذكورة آنفاً لا يمكن ان تتواءم كثيراً مع مناخ منطقتنا ، كما أن الهندسة العمرانية الشائعة في ذلك العصر المنتسبة للطراز الاغريقي ، لا تقدم البرهان القاطع ، لأن تجارة الخمر وزيت الزيتون ، الذي كان يعادل أهمية النفط في ايامنا هذه ، وهم أهم محاصيل المنطقة ، كانت تدخل في اطار اقتصاد امبراطورية واسعة ، وكانت تجارة رائجة لدرجة تسمح لسكان ذلك العصر باستيراد الاخشاب الصالحة للبناء من المناطق المجاورة مثل جبل آمانوس القريب نوما ما ، او من خشب حور الغاب ووادي العاصي . وعلى كل كان تخريب الغابة نهائياً ، ولم تستطع هذه الغابة ان تسترد مجالها السابق وان تعمد الى تضميد جراحها الاّ في بعض المناطق النائية المعزولة .

أما في منطقة جبل عفرين ، الذي لم يتم استيطانه الاّ في مطلع القرن الفائت ، فقد كان الأمر مختلفاً . ولكن الجبل كانت ترتاده شتاء قبائل الاكراد الجبلية من الشمال ، كي تتخلى عنه في الصيف لرعاة البدو القادمين من السهب والذين كانوا يندفعون غرباً حتى سهل العمق . ولكن قطع الغابة واستيطانها لم يبدأ تماما الاّ مع استقرار الاكراد نهائيا والذين كانوا بحاجة للاراضي الضرورية لزياتينهم وحقول حبوبهم ، فعمدوا الى كسر الأراضي الحوارية السهلة الحراثة واخضعوها للزراعة وبذلك كانت أشجار المخروطيات كالصنوبر ، وصنوبر حلب ، والعرعر في طليعة ضحايا الغابة . غير أن القطع استفحل في مطلع هذا القرن ولا سيما خلال الحرب العالمية الأولى نظراً لاضطرار القوات التركية لقطع مئات الالوف منها لتأمين وقود القاطرات البخارية على اثر انقطاع استيراد الفحم الحجري بسبب الحصار البحري .

وقامت الحكومة السورية في العهد الفيصلي وفي فترة الانتداب بمحاولة لوضع حدّ لهذه الممارسات التخريبية وذلك بسنّ تشريع استغلال وحماية بقايا غابة سائرة بخطى واسعة نحو الانقراض ، وكان

على البلاد الانتظار حتى عام ١٩٣٥ كي يصدر المرسوم ٢٢٦ في ١١/٧ منه والمتعلق بنظام حماية الغابات وطرائق استغلالها .

ولكن تطبيق هذا النظام ، ويا للأسف ، لم يكن كما كان يرتجى لان بعض أصحاب النفوذ والأغوات ، ولا سيما في جبل الاكراد استغلوا مكانتهم لدى السلطة المنتدبة ، فافرطوا في استعمال رخص القطع الممنوحة لهم لصنع الفحم بطريقة بدائية ونتج عن تصرفاتهم اتلاف مناطق شاسعة من غابة الجبل . وما أن حصلت البلاد على استقلالها حتى تقدمت بجراة لوضع حدّ للتخريب وانقاذ ما تبقّى من الثروة الوطنية فصدر المرسوم رقم ٦٦ في ١٩٥٣/٩/٢١ الذي حظر تربية الماعز واقتنائه في المناطق الغابية وانتظم القطع بشكل دقيق ، غير أن العامل الحاسم في حماية الغابة كان تبدل العادات في استعمال الطاقة المنزليـة اذ تراجع استعمال الحطب بسرعة بعد شيوع استعمال زيت الكاز « الكيروسين » على نطاق واسع قبيل الحرب العالمية الأولى ولا سيما الغاز بعد الستينات كما أصبح استعمال فحم الخشب محدودا .

هذا كما اكثرت مصلحة الأحراج من نقاط المراقبة بجوار الغابات ولاحقت المخرّبين امام القضاء فضلا عن اخضاع رخص استثمار الغابة لشروط شديدة . ولكن يجب الاّ نغفل جهود مصلحة الغابات في التحريج ولو على نطاق ضيق نسبياً ، فانشأت المشاتل التي تقدم الفراس الحراجية والمثمرة بأسعار رمزية ، وقامت هي ذاتها بغرس قطع من الأراضي بجوار القرى وعلى جوانب الطرق الرئيسة وغرستها بشجيرات صنوبر حلب التي نجحت نجاحاً مدهشا برهن عـلى امكانيـة التوسع في عمليـة التحريج وتجميـل مناظر البـلاد ومناخها وتحسين شروط رطوبتهـا وحمارة تربتها من الانجراف وخاصة على طرفي طريق حلب دمشق والذي تتعرض احراجه الناشئة ـ مع الأسف ـ لخطر الحرائق في كل عام في أوائل فصل الصيف نتيجة رعونة المدخنين ، كما نجحت أعمال التحريج في الحزام الاخضر الممتد من جنوب غرب حلب باتجاه الشمال الشرقي حتى جرابلس بعدتنفيذ عمليات « التنقيب » اي اقتلاع القشرة الصحراوية

الصلبة التي تؤلف العقبة الكؤود في وجه زراعة الاشجار في المناطق الواقعة الى الشرق من خط طول حلب .

ـ عناصر الغابة : تؤلف غابة محافظة حلب جزءاً من الخاصرة الشرقية لذلك اللسان الشجري الذي يرسل جذوره واستطالاته حتى منظومة جبال طوروس ويمتد على المرتفعات التي تواكب ساحل البحر الابيض المتوسط حتى جبال الجليل جنوباً . وتحتوي هذه الغابة على عناصر شجرية من أصل شمالي وسهبي وصحراوي . ولكن يجب أن نميز هنا بين المجموعات التي لا تزال تؤلف أحراش الصخور الكلسية كالسنديان وبين الأنواع القليلة التي لا تزال ماكثة فوق اراضي كرد طاغ الحواري التي لا تحتوي الا على الراتنجيات ولا سيما صنوبر حلب وبعض أشجار العرعر المتناثرة .

أما المجموعات الشجرية التي تغطي الصخور الكلسية على شكل اجمات غير متلاحمة فهي أكثر اهمية بكثير من حيث المساحة وان كانت قد انحطت كثيراً في مظهرها بسبب ظلم الانسان وعدوانية الماعز البلدي الذي يقتلع بدلا من أن يرعى . وهنا تسود فصيلة البلوطيات وعلى رأسها السنديان الذي يمثل لوحده تقريباً نصف مساحة الأحراش الطبيعية في منطقة عفرين ، ويشكل أساس المشهد النباتي العضوي ، ولكنه كان مصحوباً دائماً ، تقريباً ، بالزيتون الوحشي والزعرور والبفص والبطم والعناب والآجاص الوحشي الخ . ونجد تحت هذه الاشجار والشجيرات نباتات الصعتر والبسلنة والعيصلان الذي يشهد على ترب مستنزفة الخصوبة ، والفسيفسة . ولكن نجد بجوار بعض الأضرحة او المزارات أشجاراً جميلة من البلوط حفظتها المكانة والرهبة التي يتمتع بها أصحاب القبور المجاورة . أما الينابيع فتكون ضفافها مصحوبة بنبات شجري محب للرطوبة المفرطة كالدلب والصفصاف والحور مثلما تكون أكثر النهيرات والوديان الندية مجالا لشجيرات الطرفاء والبلسان .

هذا ويملك وادي الفرات نباتاً طبيعياً فريداً في عنفوانه رغم انه لا يلقى اية عناية فضلا عن تعرضه لزيارة المواشي في اي وقت . واذا

كانت شواهد الغابة تقاوم هنا بنجاح كل أسباب الفناء فذلك يعود لعمق التربة اللحقية التي تغذيها والى خصوبة التربة المتجددة سنوياً بفضل الليمون « الفرين » الخصب الذي كانت تتخلى عنه مياه الفرات على اثر انحسارها بعد كل فيضان . بيد أن الاشجار الكبيرة لا تبتعد اكثر من ٢٠٠ م عن ضفة النهر لأن ملوحة مياه الطبقة اللحقية تحول دون قيام هذا النوع من الشجر وان كانت تسمح بقيام الطرفاء ذات الشجيرات القميئة ، على خلاف أشجار حور الفرات الرائعة التي تدعى هنا « الغَرَب » والتي تشكل دغلات جميلة جداً في المناطق المحمية أو في الجزر النهرية « الحوايج » .

ـ نباتات السهب : تفسر شروط الجغرافية الطبيعية السائدة في السهب سبب كون النبات الطبيعي مؤلفاً من نباتات محبة للجفاف . وتتصف هذه النباتات بمظاهر سهبية بحتة كصغر الأوراق ، ونمو الأشواك أو الأوبار ، أو تشكل الدرنات الجذرية كالعيصلان(١) والسوس وهي صفات مميزة لمقاومة الحرارة والجفاف الطويل .

ويكاد يقتصر النبات الشجري العفوي على أشجار الزعرور والسماق واللوز الفضي المر أو الغبيراء والتين الذكر « التوب » . أما انتشار الزيتون والتين والكرمة والفستق فيعود لجهد الانسان ذاته . وليس هناك أي دليل كبير على أن هذه النباتات هي أصلية هنا . وبعد انتهاء موسم الحصاد ،وعندما تكون التربة عميقة بما فيه الكفاية ، تجتاح الحقول نباتات السوس التي كانت تستثمر لهدف مضاعف ، أولاً لسوقها كوقود في الأفران البلدية حتى الخمسينيات ، والجذور السكرية كمادة صيدلانية للتصدير والاستهلاك المحلي لصنع مشروب منعش . كما يظهر في الحصيد أحياناً نبات الخرنوب الذي تتغذى الأغنام بقرونه ، وينمو الى جوار نبات العاقول الشوكي . ولكن العيصلان يظل النبات المميز للأراضي الفقيرة المنهكة ذات القشرة الصحراوية بنوعيها

---

(١) ويدعى « عود أبو صبيّ » أو « برواق » في الجزائر .

الصفائحي أو العفيدي ، ويبدو كأنه المنافس الخطر لمزروعات الحبوب خلال الفترة الحرجة التي تسبق الحصاد .

هذا وتكثر النباتات الملحية في جوار السبخات ، او المالح ، أو فوق بقع تربة « السولونتشاك » في سهل الفرات اللحقي ، وتتجاور هذه النباتات مع الحرمل في كثير من الأحيان . وختاماً فإن السهب الصحراوي الذي يبدأ من شرقي خط المطر المتساوي ٢٥٠ مم أو البادية فيكون مجال الأعشاب التي تتخلى عن مكانها صيفاً لنبات الشيحان وبعض الشوكيات الحولية أو المعمرة .

الحيوانات البرية والمائية : لما كان الوحيش الأصلي أكثر حساسية من النبات بفعل جوار الانسان لذا تعتبر الحيوانات الوحشية نادرة في محافظة حلب . فالمناطق الحراجية تحوي القليل من الخنازير البرية ولاسيما في شمال غرب جبل الكرد حيث تقوم أحياناً بغارات على حقول الذرة مما يتطلب أحياناً تعاون القوات السورية والتركية في شن حملات لمكافحتها ، كما يظل الأرنب البري كثيراً نسبياً . هذا ويندر وجود الحيوانات المفترسة كالضبع والذئب ولكن الثعلب أكثر وجوداً كما يكون عواء جماعات ابن آوى مألوفاً قرب مجاري الماء ولاسيما في أمسيات الصيف ، كما يعثر أحياناً على الغريري والنيص أو القنفذ الشوكي . ولم تعد حيوانات السهب الصحراوي تجتذب القناصين كثيراً لاسيما بعد استئصال شأفة الغزال في مطلع الخمسينيات بعد شيوع استعمال السيارة في مطاردة قطعان هذا الحيوان الوديع وابادته تماماً . غير أن الطيور البرية تبدو كثيرة ولاسيما المهاجرة كالحجل والدّارج والسمّن وحتى الحبارى والترغل والحمام البري في أواخر الربيع . هذا وتلجأ الى السبخات بالشتاء أفواج البط البري والأوز ودجاج الماء الخ .. وكانت المستنقعات والأماكن الرطبة ، حتى عهد قريب ، موئلاً للبعوض الناقل للبرداء كالمطخ وقويق وضفاف الفرات وكان تأثير البرداء يبرز على ملامح سكان تلك المناطق من شحوب وعيون حالمة .. ولكن أشد أنواع الحشرات ضرراً كان دون شك الجراد الذي كان يجتاح المنطقة

على شكل سحب من الجراد الطيار واحياناً من الزحاف ، وهو الجراد النجدي الذي كان ينقض على الحقول والبساتين فيتركها جرداء خاوية ويسبب المجاعات المخيفة ، ولكن اثرها تلاشى تقريباً بسبب نجاعة المكافحة وكانت آخر زيارة للمنطقة في عام ١٩٤٤(١) .

هذا وتكثر الاسماك الضخمة في نهر الفرات ولاسيما في بحيرة الأسد ، وأهم أنواع الشبوط والجري والسلور . وبعد أن كان الصيد عشوائياً تخريبياً نتيجة استعمال المتفجرات والحبوب السامة أصبح الآن أكثر تنظيماً وأفضل مراقبة بحيث أصبح الصيد يوفر لسكان حلب لحماً طرياً بأسعار متهاودة للغاية حتى مطلع نيسان حيث يحظر الصيد . ويتم أحياناً صيد أسماك ضخمة تزن أكثر من ١٥٠ كغم . وعلى كل حال هناك بعض الفلسطينيين المختصين بالصيد المائي ويقدمون لعاصمة الشمال بعض حاجتها من الأسماك الطازجة بكميات محدودة بفضل سهولة المواصلات السريعة .

انواع التربة

يقول الجغرافي الكبير « جاك ويلرس » في كتابه « فلاحو سورية والشرق الأدنى » : لا يعادل غنى أرض سوريا بالصخور والحجارة الا فقرها بالتربة الزراعية الجيدة . ويصح هذا القول الى حد ما وذلك لأسباب طبيعية بسبب قحولة المناخ وعنف الامطار عند هطولها ، وتخلخل الغطاء النباتي ، ولأسباب تاريخية واجتماعية ناتجة عن قلة الأمن المزمنة خلال عدة قرون متتاليات وتفشي نظام المشاع المتبدل والثابت ، مما جعل الفلاح يعزف عن زراعة الأشجار المثمرة أو البستنة ، ونظراً الى ان معظم الفلاحين في المنطقة الشرقية من أصل بدوي لا يملكون سوى القليل من التقاليد الزراعية العريقة ، ولأسباب اقتصادية ناتجة عن فقر الفلاح الذي لا يستطيع الانتظار مدة طويلة ريثما تؤتي الأشجار ثمارها بعد ان زرعها بيديه وسقاها من عرق جبينه .

---

(١) لقد سجلت اكثر زحوف الجراد واستفحالا في عام ١٥٥٧ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٥ ، ١٩٠٨ ، ١٩١٤ ، ١٩٣٠ و ١٩٤٤ .

وعلى العموم تبدو الترب شديدة الحساسية تجاه انحدار الأرض بحيث تظهر الصخور عارية تحت اي منحدر من الأرض مهما كان ضئيلاً مما يجعل التربة الطيبة محصورة بالقيعان والسعون والسهول المنبسطة على خلاف السفوح ، وتختلف من بقعة لأخرى ، ويقول المثل الشعبي : « الأرض مدرّكة بالشبر » أي تختلف جودتها من شبر لآخر . وتتصف ترب سورية الشمالية ، على العموم ، بفقرها بالمواد العضوية ، أي الدبال ، ولاسيما بالآزوت الذي تعوّضه زراعة البقوليات في بعض السنين . ولكن تكون معظم الأراضي غنية جداً بالحمض الفوسفوري والكلس والبوتاس ، كما تتراوح قلويتها أو درجة حموضتها العكسية ، أي PH ، بين ٧ و ٨ . ويميز الفلاحون بين الترب العميقة أو الثقيلة الفضارية ، وبين الترب الرقيقة « قراج » . أما الحوضات المغلقة التي لا تنصرف مياهها وتحوي أحياناً بعض المستنقعات الفصلية فتسمى « سعون » جمع « سعن » أو « شلف » أو « مغراقة » لكنها تدعى « زور » على ضفاف الأنهار كضفاف قويق والساجور وسهل الجومة ، نسبة الى زور الخروف حيث يكثر الدهن وهو المرغوب بالماضي ، وخاصة على ضفاف الفرات اللحقية . كما يطلق على الأراضي التي تطيف بالسبخات وذات اللون الابيض أو الزيتي بسبب الأملاح اسم « سبخ » أو « ملَح ».

١ ـ التربة الحمراء : وتسمى « يمّه » في منطقة جبل سمعان ، و « هبر » في جنوب غرب حلب و « كابر » في منطقة الباب و « دشت » في منطقة الجومة . وعلى العموم تتكون هذه التربة فوق الصخور الكلسية وبين شقوقها أو بجوارها حيث تملىء القيعان . وعندما تكون هذه التربة الرائعة بمنجى من ظاهرة انجراف التربة تبدو عميقة ، سهلة الحراثة ، ولا سيما بالمحاريث الميكانيكية كما لا تعرف نظام البور إذ تزرع صيفاً . ونجدها في شمالي نهر الساجور ، وفوق هضبة الأحص . وتعتبر هذه الترب أفضل أراضي الحبوب والقثائيات ولا سيما البطيخ والقطن في سهل الدفتردار أو حوض قويق الأدنى .

غير أن هذه التربة تجنح للصفرة تدريجياً عندما تقل الأمطار عن ٣٥٠ مم وتكثر فيها الحصى في مناطق الصخور الحوارية في جنوب

وشرق حلب . والحصى هنا هي عقيدات القشرة الصحراوية ذاتها التي حركها المحراث . وتطبع هـذه التربة الأشياء بلونها إذ تأخـذ الأبنية الحجرية في هذه المناطق لوناً نحاسياً جميلاً مع الزمن أو أصهب لا سيما الأبنية الأثرية مثل قلعة سمعان ودير وقلعة حلب .

٢ ـ التربة الصفراء : ويقع مجال هذه التربة التي يقارب لونها لون التربة الحمراء الفقيرة الرقيقة ، في المناطق الجنوبية الغربية وتتخذ باتجاه الشرق لوناً فاتحاً لهذا دعيت بالأرض الصفراء وتسود فوق الصخور المارنية الحوارية . وتكون هذه التربة ، التي تختلف من حيث سماكتها باختلاف التضاريس المجهرية المحلية ، فقيرة على العموم ، ولكنها كثيرة الحصى الناجم عن تفكك القشرة الكلسية السفلى ذاتها . وتنعـدم الأشجار الطبيعية فوق هـذه التربة اللهم إلا بعض أشجار الزعرور الأصفر والسماق المتباعدة جداً ولكن تعرف بنبتات العيصلان خلال الربيع والتي تكتسح حقول القمح والشعير لدرجة تطفى اوراقه على الأرض بأجمعها . ويؤدي وجود القشرة الصحراوية والتي تدعى Hard pan في أمريكا الشماليـة و Caliche في المكسيك ، الى جعـل المزروعات السنوية فوق هذه التربة الرقيقة حساسة جداً بفرط الأمطار لأن القشرة الكتيمة ، حتى ولو كانت مؤلفة من عقيدات متعددة ، تجعل المياه راكدة فوق السطح مما يقود لاختناق جذور النباتات كما تقوم القشرة في حالة ندرة الأمطار بمنع الجذور من النزول لأعماق الأرض بحثاً عن الرطوبة الضرورية .

غير أن وجود هذه القشرة يلعب دوراً ايجابياً ، نوعاً ما ، بالنسبة لزراعة الأشجار المثمرة ، إذ يمكن زرع غراس الأشجار في حفر تخترق القشرة والصخر الذي تحتها بعمق نصف متر ، وبذلك تنمو الجذور تحت القشرة السطحية أفقياً وشاقولياً وبذلك تنجو من التبخر الشديد خلال فصل الصيف الطويل .

هذا ولا يمكن انشاء بستان حديث في شرقي حلب وجنوبها قبل اقتلاع شامل لهـذه القشرة بالمعول أو بالمتفجـرات والآن بالنقابات

الميكانيكية ، ثم تجميع حجارتها في اكوام او تبنى بها جدران البستان كسياج . وتكون التربة الصفراء على العموم غير موائمة للزراعة الآلية كما تكون ممارسة البور فيها ضرورياً . ولا يمكن لاية آلة حديثة أن تعمل هنا وأن تنافس المحراث البلدي التقليدي الخفيف . ومنذ عشرة اعوام أخذت النقّابات الميكانيكية تعمل بأجر رمزي إذا كانت تابعة للدولة او بأجر محدد لقاء « تنقيب » كل هكتار بالجرارات الجبارة ذات المخلب ، وبذلك استصلحت مساحات هامة واخضعت لشتى انواع المزروعات ولا سيما أشجار الكرمة بعد « تنظيف » الأرض من كُسرات القشرة الصفحائية . بيد أن وجود طبقة مائية باطنية سهلة الاستغلال يعوض ، هنا ، نقص الأمطار في هذه المنطقة مما سمح بالتوسع في الزراعة القطنية المرواة . غير أن هذه المياه كانت سريعة النفاذ والنضوب تجاه المضخات الحديثة اذا لم تكن الآبار متباعدة بمسافات لا تقل عن ٣ كم .

وعند الاقتراب من السهب الصحراوي ، أي البادية ، ولا سيما بالقرب من السبخات ، تظهر القشرة الصحراوية الجبسية السهلة الاقتلاع وتسمى التربة هنا « الغبارية » وتمتاز بخفتها وسهولة حراثتها ولكن بقلة خصبها . ولم يسبق لهذه الترب أن حرثت بالماضي أبداً إلا منذ خمسين عاماً على أثر دخول استعمال المحاريث الحديثة المتعددة السكك أو ذات الأقراص التي قضت بسرعة على القشرة السطحية وظهرت من تحتها تربة فاتحة اللون أعطت موسمين أو ثلاثة قبل أن تنفذ خصوبتها نهائياً وتحولت الى ميادين غبار .

٣ ـ التربة البركانية : وتكون غنية بالعناصر المعدنية المختلفة ، ولاسيما بالحمض الفوسفوري وبالبوتاس وخصيبة اذا كانت صخور المنطقة متفسخة تماماً مثل أراضي هضبة الأحص . أما اذا كان التفسخ ناقصاً فتكون التربة محجرة وعسيرة الحراثة مثل معظم أراضي هضبة نبغة شمال شرقي حلب . ولكن التربة الناجمة عن تفسخ الصخور الخضراء لا تقل خصباً عن الترب البركانية وتعتبر من الترب المتوسطة الجودة في منطقة عفرين .

٤ ـ ترب الراندزين : تتعرض ترب جبل الأكراد الجنوبي ، التي كانت مستورة قبل قرن مضى بغابة من الصنوبريات ، تتعرض الآن لانجراف عنيف . والتربة الأصلية هي عبارة عن « راندزين » يتمزق غطاؤه السطحي القاتم بفعل ظاهرة انجراف التربة والحراثة الخاطئة حسب الميل الطبغرافي وتتحول تدريجياً الى بقع بيضاء بسبب ظهور الصخر الأصلي الحواري وتعرف باسم الأراضي الرديئة « بادلاند » .

٥ ـ التربة الملحية : تعمل الشروط المناخية والهيدرولوجية على هامش الحماد على ظهور ترب ملحية محلية وذلك ليس في الأحواض المغلقة السيئة الصرف فحسب بل حتى في سهل الفرات اللحقي قبل الغمر . فعندما نقترب من احدى السبخات تظهر ترب السولونتشاك بادىء ذي بدء بين النباتات المحبة للملح التي تأخذ ، بدورها ، بالتباعد شيئاً فشيئاً الى أن نصل الى السولونتشاك الحي أو السبخ المغطى بقشرة رقيقة من التزهيرات الملحية البيضاء ، وأحياناً تظهر على شكل بقع زيتية اللون تدعى « نزّاز » في وادي الفرات . وتؤلف هذه الترب العقيمة عقبة كأداء أمام المواصلات في فصل الشتاء .

ويعود سبب وجود ترب السولونتشاك في سهل الفرات اللحقي الى قرب الغشاء المائي الباطني الذي لا يبتعد عن سطح الأرض أكثر من ٢ الى ٣ م ، وتظهر هذه التربة على شكل بقع قاتمة اللون متباعدة عن بعضها عارية من النباتات ولكنها لا تظهر قرب النهر . بيد أن التوسع الشديد في زراعة القطن دفع بالمزارعين الى ري الأراضي من مياه الطبقة المائية الواقعة في سهل الفرات ذاته اي من آبار محفورة بالزور نفسه ، وهي مالحة بحد ذاتها ، فتحولت تربة السولونتشاك الى سولونتز أوسع رقعة ، وبعد بضعة أعوام من الزراعة المنهكة تلفت وتخربت مئات الهكتارات من هذه الأراضي السليمة والثمينة للغاية بسبب شدة ارتفاع

نسبة املاحها مما يستدعي « غسلها » والقيام بعمليات صرف سطحي او عمودي باهظة التكاليف وعن هـذا الطريق يخسر العـراق سنوياً ٢٠٠٠٠ هـ وتخسر سورية في وادي الفرات والخابور قرابة ٥٠٠٠ هـ كل عام .

٦ ـ التربة اللحقية : وتنتشر خاصة في السهول التي تواكب أنهار الداخل أو في سهل المطخ والسفيرة والدفتردار ويغلب على هذه الترب اللون الأحمر الداكن . أما في الأراضي الثقيلة في السهل الفراتي فتختلف عن بعضها باختلاف المناطق وذلك حسب تنقل عقفات الفرات خـلال تاريخه . ولا ينقل النهر سوى القليل من العناصر الخشنة بينما تتفوق في مياهه المواد الناعمة والرمال .

وعلى العموم تكون تربة الزور فاتحة اللون قرب الجروف الحوارية المشرفة على السهل بسبب سهولة تفتت صخور الحوار الهشة . أما في بقية السهل فتصبح التربة أقل تماسكاً وتتألف من الطمي الرمادي ، الناعم ، والغني بصفيحات الميكا البراقة . ولكن قد تبرز سافات عدسية من الحصى الخشنة حتى السطح أو تكون مغطاة بطبقة رقيقة من الطمي الناعم ، والغني بصفيحات الميكا البراقة . ولكن قد تبرز سافات عدسية المياه التي تنتظرها الحقول البعيدة . وقد ظلت أراضي الزور الفراتي مهملة في معظمها من قبل فلاحي الماضي وكان يرجحون أراضي الهضبة ، الخفيفة ، والتي تسهل حراثتها رغم فقرهـا باستثناء قطع الأراضي الفيضية بمحاذاة النهر أو التي يمكن ريها بمياه النضبة التقليدية .

وتعطي هذه الأراضي التي ظلت عذراء خلال قرون عديدة والتي اخضعت للزراعة ، وعلى الخصوص لزراعة القطن ، بعد الحرب العالمية الثانية ، اقول تعطي محاصيل ضخمة من القطن . ولكنها اخذت تعطي

دلائل الاستنزاف وحاجتها للأسمدة بسبب ارتفاع الملوحة المتزايدة نتيجة الري العشوائي وبسبب توالي زراعة القطن النقدية دون دورة زراعية علمية .

والخلاصة : لا يمكن أن نصف أراضي محافظة حلب الواقعة في منطقة شبه قاحلة ـ مناخياً ـ بأنها خصيبة إلا اذا كانت كمية الأمطار كافية وجيدة التوزيع خلال فصل الانبات . والأمطار وحدها هي التي تحدد سني الخصب وسني الجدب ، والتربة لا تعطي إلا اذا أخذت ما يكفيها من ماء السماء . ولكن الأراضي الثقيلة « السمينة » تتمتع بدورة زراعية أكثر تنوعاً كما تحررت من النظام الزراعي التقليدي لأنها دخلت في اطار اقتصاد زراعي نقدي بسبب استعمال الأدوات الزراعية الحديثة .

وعلى كل حال يظل القول الفصل والكلمة الاخيرة في خصوبة الأرض للأمطار فهي التي تحدد امكانيات المناطق الزراعية وقيمتها .

* * *

الفصل الرابع

الإدارة والسكان
والأوضاع الاجتماعية

رقعة محافظة حلب وملحقاتها :

تراوحت رقعة محافظة حلب (الشكل ٧) ، أو ولايتها ، بين اتساع وانكماش باختلاف الظروف السياسية والادارية . فبعد أن امتدت في الربع الأخير من القرن الفائت على مساحة قدرها ٣٣٤٣٠ م٢ ، وكانت تضم ثلاثة ألوية وواحد وعشرين قضاء ، لواءان واحد عشر قضاء واقعة الآن في الأراضي التركية ، أي خسرت محافظة حلب لواء عنتاب وأقضيته الأربعة وهي : أورفة ، سروج ، روم قلعة ، وبراجيك ، كما فقدت لواء مرعش وأقضيته الأربعة : الزيتون ، ياوزجق ، اندرين ومرعش وكذلك خسرت ثلاثة من أقضية لواء اسكندرون وهي : بيلان ، اسكندرون ، انطاكية أو ما يسمى اليوم « هاتاي » . وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى أصبحت مساحة ولاية حلب ٢٢٩١٩ كم٢ وكانت تضم ١١ قضاء وهي : مدينة حلب ، جبل سمعان ، الباب ، منبج ، عفرين ، جرابلس ، عين العرب ، اعزاز ، معرة النعمان ، جسر الشغور ، ادلب ، وحارم . وفي عام ١٩٦١ تم انفصال الاقضية الأربعة الأخيرة عن محافظة حلب كي تؤلف محافظة جديدة هي محافظة ادلب ومساحتها ٥٩٣٣ كم٢ ، وهكذا تقلصت رقعة محافظة حلب الى رقعة ذات مساحة قدرها ١٥٨٥٦ كم٢ أو اقل

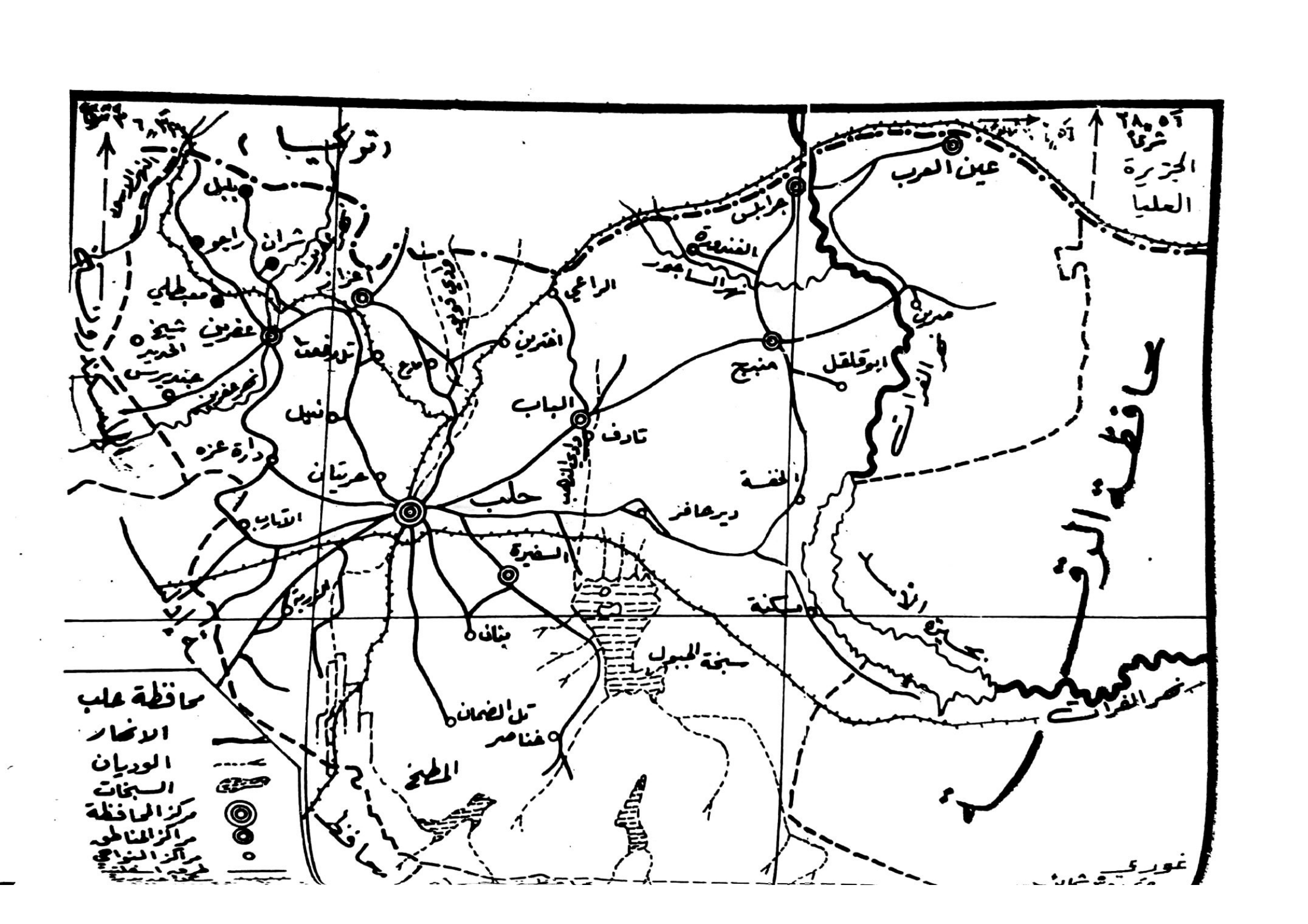

محافظة حلب
الانهار
الوديان
السبخات
مركز المحافظة
مراكز المناطق
مراكز النواحي
تركيا
الجزيرة العليا
عين العرب
جرابلس
الفندورة
نهر الساجور
الراعي
اخترين
منبج
ابو قلقل
صرين
الباب
تادف
الخفسة
دير حافر
حلب
السفيرة
بنان
تل الضمان
خناصر
سبخة الجبول
مسكنة
بحيرة الأسد
نهر الفرات
محافظة الرقة
بلبل
راجو
شران
معبطلي
عفرين
شيخ الحديد
جنديرس
نهر عفرين
تل رفعت
مارع
نبل
دارة عزه
حريتان
الاتارب
المطبخ
غوري

من نصف مساحتها أيام العثمانيين . وبعد ان كانت محطة اجبارية لسكان محافظتي دير الزور والجزيرة في اتصالاتهم مع العاصمة فقدت هذا الدور أيضا في مطلع الثمانينات على اثر فتح الطريق البري بين دمشق ودير الزور .

اسم المنطقة (قضاء)	المساحة كم٢	عدد النواحي التابعة
مدينة حلب	١٦٠	—
جبل سمعان	٤٠٩٦	٤
الباب	١٥٤٠	٣
منبج	٢٧١٤	٣
عفرين	١٨٢٠	٦
جرابلس	٢٠٥٠	١
عين العرب	٢٧٣٠	٢
اعزاز	١٦٦٠	٤
السفيرة	٢٢٠٠	٣

المحتوى السكاني :

إن موقع محافظة حلب بصورة خاصة ، وبلاد الشام بصورة عامة، هو الذي جعل منها « بوتقة أمم » انصهرت ، واندمجت ببعضها خلال حقب التاريخ سواء عن طريق السلم أو بالعنف . فبعد أن تعرضت لموجات من الأقوام الهندية ـ الأوروبية وأشباه المنغولية التي انحدرت عليها من الشمال ومن الشرق وفدت عليها أقوام قادمة من الجنوب وخاصة من تلك الجزيرة العربية التي تؤلف معيناً بشرياً لا ينضب ، يقذف بين حين وآخر بمجموعات من القبائل البدوية التي ضاقت بها سبل العيش في مواطنها الأصلية ، وهناك مثل نجدي يقول : « الشام شامك اذا الدهر ضامك » .

لهذا كان سكان هذا القسم من سورية على غاية من التنوع والتبدل منذ فجر التاريخ ، ولكن هناك ظاهرة تلفت الانتباه ، وهي أن هذه المنطقة كانت تعتبر منذ ٣٠ قرناً ، على الأقل ، الجبهة الشمالية للعالم الآرامي

« الكنعاني » ، وهو فرع من أنبل فروع المجموعة السامية أو الكنعانية ، مما مهد السبيل ، فيما بعد ، لقدوم أشرف الفروع الآرامية وهم العرب.

العـرب :

تظهر كلمة « العرب » لأول مرة في كتابات تلمناصر التي تعود لعام ٨٥٤ ق.م ، والتي اكتشفت في منطقة حماة ، وكانت ترمز كلمة العرب الى الأقوام التي سكنت هذه المنطقة كما تشير الكتابة الى أمير عربي كان حليفاً لملك دمشق الآرامي . ويشير سترابون في كتابه « جغرافيا » في مطلع التاريخ الميلادي الى أن هؤلاء العرب كانوا يشتركون في حكم كل المنطقة الممتدة حتى تخوم كيليكية ، وفينيقيا ، وفلسطين ، مع السوريين الذين يسميهم « السوريين الأصليين » كما يذكر أن مقاطعة آفاميا كانت أيام السلوقيين محفوفة شرقاً بمقاطعات كبيرة واقعة تحت حكم أمراء عرب يحمل كل واحد منهم لقب « فيلارك » . وقد نظم الرومان بعض الفرق العسكرية العربية التي أنيطت بها مسؤولية حماية التخوم الشرقية لامبراطوريتهم ضد هجمات بدو الصحراء ولا سيما للتصدي لغزوات الفرس ، أعدائهم التقليديين ، ولغارات حلفائهم مناذرة الحيرة .

وعلى كل حال كان البدو العرب ، الذين يسميهم المؤرخون الإغريق Scénites أو Saracènes سادة السهب الصحراوي بلا منازع . بيد أن بعض الأفخاذ انشقت من قبيلتي طي وتنوخ واستطاعت أن تستقر في قسم من أرياف حلب ، ولا سيما في الجنوب الشرقي من منطقتي الأحص وشبيث ، بينما كان البعض من جماعاتها تقطن أحد أحياء حلب الخارجية والذي كان يسمى « الحاضر » في مطلع الفتح الاسلامي . ويذكر المؤرخون أن بعض رؤساء القبائل كانوا يقصدون القديس سمعان العمودي بغية تحكيمه في فض نزاعاتهم .

ولما جاء الاسلام بقيت الرابطة اللسانية محترمة بين العرب المسلمين وغير المسلمين وظل العربي يعتمد على العربي ويركن اليه لمجرد كونه عربياً، غير ناظر الى ملته ونحلته ، حتى أن هذه العاطفة النبيلة كانت من جملة

العواطف الشريفة التي ازدانت بها شمائل النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم ، فانه لما اضطهده قومه الاقربون حسداً وحرصاً على الرئاسة اضطروه للهجرة من وطنه والالتجاء الى قوم آخرين يأوي اليهم ويستنصر بهم على أعدائه المشركين ، فخيّر بالهجرة الى البحرين او يثرب او قنسرين بجوار حلب فقال : « أوحي إليّ أيّ الثلاثة نزلت فهي دار هجرتك ، المدينة والبحرين وقنسرين » ومن المعلوم ان هذه الجهات كانت مأهولة بالعرب . فقد كان في جهات قنسرين العديد من العبائل العربية واشهرها تنوخ ، وهم من ذرية النعمان الذي تنسب اليه مدينة المعرة ، وكانوا على دين النصرانية . ومما لا ريب فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخيّر بالهجرة الى أحدى هذه الجهات إلا لأن اهلها عرب يحدبون عليه وينصرونه على أعدائه قياماً بحق الرابطة المرعية بينهم والقائمة على وحدة اللسان ووشائج القربى . ويبدو أن هذه العاطفة القومية الفطرية كانت متأججة عند هذه الطلائع العربية السورية بدليل أنها انضمت في معظمها ، بلا تردد ، الى الفاتحين مدفوعة باحساس غريزي عميق منبعث من روح التضامن الجماعي . أوَ لم يتم فتح الموصل وتكريت على أيدي عرب من اياد وتغلب والنمر والشهارجة ، وكلهم نصارى ، تحت زعامة القائد المسلم عبد الله بن المعتم ؟

وقد ذهل الأوروبيون المتعصبون ، الضيقو الأفق ، من تعايش اديان ومذاهب شتى في وئام في الأرض العربية ، وهم الذين أبادوا مسلمي الأندلس حرقاً وتقتيلا وتهجيراً ، مثلما أبادوا البروتستان في مذبحة ليلة سان بارتلمي أي ليلة ٢٣/٨/١٥٧٢ في باريس ، أو ابادة الهنود الحمر والقضاء على حضارة الآزتيك والانكاس في أمريكا ، أو افناء سكان أوستراليا الوطنيين . وسيظل العرب بصورة عامة والمسلمون على الخصوص رمزاً للتسامح والبعد عن التعصب الذميم وأكبر دليل هو بقاء كل اتباع الأديان المغايرة ومعابدهم في سلام وامان والتي كانت قائمة منذ الفتح الاسلامي حتى أيامنا هذه وهو ما لا نجد له مثيلا في العالم ، ولننظر ما حدث لجامع قرطبة واشبيلية في الفردوس المفقود .

بيد أن الفتح الاسلامي لم يجلب معه فوراً جماعات عربية جديدة لتستوطن هذه المناطق المفتوحة نظراً لقلة الأراضي الزراعية الشاغرة من جهة ، ولأن جيش الفتح كان يمتص معظم الرجال القادرين على حمل السلاح من جهة أخرى وأخيراً لأن العرب جاءوا حاملين رسالة لنشرها وليس بقصد الاستيلاء على أملاك الأمم التي دانت بالطاعة لهم . لهذا لم تقم قرى جديدة كثيرة في سورية الشمالية في العصر الأموي باستثناء بضع قرى في منطقة بالس ، وعلى كل فان فقر الفلاحين الأصليين وأوضاعهم الحقوقية لم تكن مشجعة لقدوم « معمّرين » جدد . وبالفعل نجد أن مزارعي منطقة بالس الجدد اضطروا بعد فترة وجيزة الى أن يصبحوا فلاحين تابعين لأمير أموي بعد أن عجزوا بوسائلهم الخاصة عن بناء قناة للري .

وفي عام ٩٢٤ م كان بنو تميم سادة بادية حلب ومعمورتها . ولكن ابتداء من ٩٧٠ م بدأت طلائع قبيلة بدوية كبيرة هي « بنو كلاب » القادمة من نجد تتوافد على سورية الشمالية ، وكانت هذه القبيلة تتصف بعدوانيتها حتى أنها اتلفت في أكثر من مناسبة زروع وقرى أطراف البادية وبعد ٦٠ عاماً من دخولها المنطقة استولت على حلب ذاتها .

وقد استطاع شيخ هذه القبيلة وهو صالح بن مرداس أن يقيم مملكة موقتة فيها دامت حوالي ٦٥ سنة ، طبقاً لنظرية ابن خلدون في أعمار الدول البدوية الأصل ، وحاولت دون نجاح كبير اقتفاء خطى سيف الدولة الحمداني في حماية الثغور الشمالية من عدوان الروم ، وفي أواخر القرن ١٣ م انتهى تاريخ هذه القبيلة التي تمثلتها جماهير فلاحي المنطقة ، شأن القبائل الأخرى التي تتبدل أسماؤها كل قرنين أو ثلاثة من الزمن .

وكانت كل هذه القبائل البدوية من أصل عربي قد قدمت غالباً من أواسط الجزيرة العربية . وكانت تخضع لقوة جذب دفعتهم للخروج من مواطنهم الأصلية مثلما دفعت بالعديد من القبائل فيما بعد للانسياح في بوادي سورية والعراق . غير أن ظهور الاسلام والفتح تلاه عملا على

تسهيل قدوم أعداد كبيرة من العرب الخلّص وهكذا تدّعي قبيلة ليس أو « جيس » التي يقطن معظم أفرادها حالياً في منطقة أورفة وحران التابعتين لتركيا حالياً ، انها تنتسب لجيش الفتح شأن قبيلة طي التي نجد بقاياها في منطقة القامشلي السورية .

السكان الحاليون : من العبث الاستناد لمفاهيم عرقية للتمييز بين المجموعات البشرية في محافظة حلب لأن اعتبار العرق أو الاستناد على نماذج انتروبولوجية معينة لا يكون صحيحاً أو مقبولا ـ علمياً ـ في هذه المنطقة التي تؤلف عقدة طرق بين قارات العالم القديم الثلاث . ويمكن القول أن الاكثرية الساحقة تنتسب الى نموذج البحر الأبيض المتوسط ، فيكون لون البشرة مائلا للسمرة على الغالب ، ولكن ليس من النادر أن نصادف في أية بقعة كانت أفراداً من ذوي الشعر الأشقر ، واللون الفاتح ، والقامة الممشوقة . والعيون الزرق ، وترتفع نسبة هؤلاء في المناطق القريبة من المحافظة نوعاً ما علما بأننا نجد أمثال هؤلاء تحت خيام البدو على أطراف البادية .

ويميّز عادة في محافظة حلب بين أهل الديرة الغربية أو « أهل مغرّب » وبين الشرقيين ، أو أهل الديرة الشرقية . فأهل المنطقة الغربية هم سكان الهضبة الواقعة الى الغرب من خط طول حلب مباشرة وهم مستقرون وفلاحون عريقون منذ مئات السنين ، ولباسهم التقليدي هو السروال الأسود الفضفاض ، ويعتمرون بالعمامة أو العقال ، وهم في تقاليدهم ومسكنهم ومأكلهم ومشربهم أقرب لطباع سكان المدن في حين يختلفون نسبياً عن سكان أرياف المنطقة الشرقية الذين لم يتخلصوا بعد من الرواسب البدوية والعشائرية مما يدل على حداثة استقرارهم وقد حملوا معهم مفاهيمهم الى أحياء حلب الخارجية الشرقية حتى بعد سكناهم فيها منذ اكثر من قرن أو اثنين .

فالمنطقة الغربية كانت ، ولا زالت ، منطقة ذات اقتصاد زراعي مزدهر لتنوعه ولغنى أرضه وخصبها ، لذا تكون هذه المنطقة شبيهة بكل

أرياف ضفاف البحر الأبيض المتوسط من حيث تنوع محاصيلها واقتصادها . وهنا يتفوق التضامن القروي على العصبية القبلية السائدة في شرقي حلب . غير ان طبيعة سورية الشمالية التي جعلت الشروط الجغرافية منها ملتقى طرق وعروق وامم شتى ادت الى استقرار فئات قدمت اليها منذ مئات السنين واستوطنتها واندمجت بأهلها العرب وتبنّت عاداتهم وتقاليدهم حتى ليتعذّر الآن تمييزهم عن بقية اخوانهم الأصليين ، ولعل أهم هذه الفئات عددا هي :

ـ **الأكراد** : ويؤلفون كتلة متلاحمة في الجبل الذي يحمل اسمهم في المنطقة الواقعة الى الغرب والشمال من نهر عفرين . أما في باقي المحافظة فلا يشغلون اكثر من بقع متناثرة في السهب بين اخوانهم العرب كما في قريتي تل عرن وتل حاصل جنوب شرق حلب ، وفي المنطقة الواقعة الى الشمال من مدينة الباب وفي عدة قرى في قضاء عين العرب . وقد وصلوا لأول مرة الى الشمال السوري في القرن ١٦ حيث أجبرهم السلاطين العثمانيون على الاستقرار فيه على أثر حركات التمرد التي قامت بها قبائلهم الرعوية الضارية في الأناضول الشرقي . وأول قبيلة كردية دخلت المنطقة كانت قبيلة « عميكي » التي نزحت من جوار قونية . وبعد قرنين من الزمن الزمن جاءت قبيلة اخرى هي قبيلة « الشكاغي » كي تستقر بجوار القبيلة السالفة الذكر بعد أن هجرت مواطنها قرب بحيرة فان في شرق الأناضول ثم تلتها قبيلة « الشيخان » قادمة من الجزيرة العليا وقبيلة « أوكجي عز الدين » ذات الأصل الغامض ، وأخيراً جاءت قبيلة « الجومة » من ضواحي قونية في الأناضول . وبعد فترة قصيرة قدمت عشائر صغيرة واندمجت في القبائل السالفة الذكر مثل قبيلة موسى بغلي، منبج الخ ... أما بقية المجموعات الكردية الأصل التي سكنت سهب حلب فقد اصبحت عربية بكل معنى الكلمة منذ مدة طويلة ولم تحتفظ عن أصولها بأكثر من ذكريات غامضة .

وكانت قبائل منطقة عفرين الكردية تمارس حياة رعوية منتجعة بالماسي ، اي في العهد العثماني ، اذ كانت تنتقل بين اعضاد جبال طوروس

وسهل عفرين وكانوا يقيمون بأكواخ حقيرة من القصب والقش وأحيانا بالخيام ، غير أنهم كانوا يمارسون أحياناً السلب وقطع الطرق وفرض أتاوات معينة على القوافل التي كانت تذهب من حلب الى الاسكندونة مروراً بممر بيلان ووادي عفرين . كما كانوا يدخلون في نزاعات دامية مع سكان القرى من الفلاحين المستقرين . وتجاه هذه الأوضاع التي كثيراً ما تؤدي الى اشتباكات جماعية كان ولاة حلب يضطرون خلال القرن الماضي لتجهيز حملات تأديبية عليهم وقسرهم على بناء بيوت ثابتة وعلى الاستقرار . وقد لجأ هؤلاء الولاة الى الاقناع أحياناً والى العنف في أحيان أخرى الى أن تمكنوا من تثبيتهم نهائيا في هذه المنطقة الجبلية .

وماكاد القرن الماضي ينصرم حتى اصبح كل اكراد منطقة عفرين مستقرين وحولوا جبلهم الى مزارع غنية لاتقل ازدهارا عن السهول المجاورة . غير أن الاقطاعية الناشئة عن وجود « الاغوات » ادت لثورة المريدين في عامي ١٩٣٦ – ٣٧ والتي اخذت شكلا دينيا اصلاحيا على يد الشيخ ابراهيم الذي قدم من تركيا سنة ١٩٣٢ . غير ان السلطة المنتدبة حينذاك تعاونت مع الاغوات وقمعت حركة المريدين بقسوة . ولم تهدأ الاحوال تماما الا بعد الاستقلال وتطبيق الاصلاح الزراعي بعد ١٩٦٠ والذي قسر ابناء الاغوات على كسب رزقهم من عرق جبينهم .

التركمان : وينحدرون من قبائل تركية منغولية قدمت بقيادة اميرها سلجوق في عام ٩٧٠ م ، والذي هرب بقبيلته من وجه جحافل التتر . وبعد ان انصرف التركمان لحياة البداوة في قيرغيزيا وحول بحر آرال لفترة من الزمن استأنفوا هجرتهم نحو الغرب واحتلوا جبال العراق عام ١٠٤٣ م واجتاحوا جبل الزاوية واتلفوا مزارعه ، ولكنهم نهبوا كل منطقة حلب في عام ١٢٦٥ م ، فاضطر الكثير من الفلاحين للالتجاء لداخل اسوار حلب ذاتها وتضررت من اعمالهم مدينتا المعرة واعزاز كثيرا ، وعلى الرغم من اختلاط التركمان عن طريق التزاوج مع الاقوام التي اختلفوا بها في طريقهم فلا زال بعضهم يحمل بعض السمات الطورانية الصافية كالوجنات البارزة والشعر المسترسل والعيون المائلة نوعا ما .

ولا زال الكثير منهم يتكلم اللغة التركية القديمة الممزوجة بالكلمات العربية الى جانب اللغة العربية التي يتقنها الجميع غير ان الكثير منهم تخلوا تماما عن اللغة التركية منذ زمن بعيد واستعربوا . ويسكن معظم التركمان في منطقة جرابلس ولاسيما ناحية الراعي : وينقسمون الى عدة قبائل (اوردو) لا تتمتع اليوم بالكثير من التماسك بين عائلاتها بعد ان اندمجت بجمهرة الفلاحين . وقد ظل التركمان حتى مطلع القرن ١٩ يمارسون حياة رعوية لان ثروتهم الرئيسة كانت مؤلفة من الابل والجاموس والماعز ، ولاسيما الأغنام ، وينتقلون حسب الفصول بين جبال طوروس صيفا وبين سهوب حلب التي كانت حينذاك بحالة بور بسبب انقطاع حبل الامن بصورة شبه مزمنة ايام العثمانيين .

وبعد أن أخذوا يعانون الزراعة فقدوا صفاتهم الحربية واضطروا في عدة مناسبات للتخلي عن بعض قراهم امام ضغط الفلاحين العرب المتعطشين للارض والذين كانوا يعانون ، بدورهم ، ضغطا شديدا من قبل البدو ، من الجنوب والشرق . ولهذا نجد أن بعض القرى لاتزال تحمل اسماء تركية بينما سكانها من أصل بدوي سكنوها منذ عهد قريب أو من تركمان استعربوا . كما نجد بعض المجموعات التركية الصغيرة مثل قبيلة «براك» الصغيرة في منطقة جرابلس والتي ترتفع فيها نسبة ذوي الشعر الاشقر والبشرة البيضاء . وعلى كل نجد على طرفي الحدود الحالية قرى عربية وتركية وكردية مختلطة ومتداخلة . ولا غرابة في ذلك لاننا نقف هنا على التخم الشمالي للعالم العربي حيث تتداخل الجبهة العربية عبر الحدود كأسنان المنشار ، لان الحدود السياسية الحالية ليست اطلاقا حدودا قومية بل فرضتها اتفاقيات تركية فرنسية في اعقاب الحرب العالمية الاولى.

الشراكسة : لقد وفد الشركس على البلاد العربية منذ القرن الثاني عشر ومنهم بعض المماليك الذين حكموا مصر مثل بيبرس وقلاوون وكان آخرهم قانصوه الغوري ، غير انه منذ اكثر من قرن من الزمن أو حوالي ١٨٧٨ م على التحديد وفد على بلاد الشام قرابة ١٠٠٠٠ قوقازي مسلم ، اكثرهم من الشراكسة ، هاربين من وجه الزحف

الروسي القيصري ، لاجئين الى بلاد الامبراطورية العثمانية . وعمدت الحكومة الى منحهم اقطاعات من الاراضي الموات على حافة البادية كما في منطقة الجولان ، ومنطقة الوعر في حمص ، ومنطقةعمان وقرب السلمية وفي خناصر ومنبج والريحانية في العمق وذلك لهدف مزدوج : اولا اعمار الاراضي البور وثانيا للوقوف في وجه البدو الذين كانوا يهددون اطراف المعمورة ويضطرون السلطة الى تجريد الحملات عليهم بين حين وآخر .

وقد استطاع هؤلاء المهاجرون ان يتواءموا بسرعة مع حياة الحقول الهادئة واصبحت مزارعهم من اكثر مثيلاتها عناية ، رغم اختلاف البيئة عليهم ورغم الأوبئة التي انتابتهم وحصدت ارواح الكثير منهم كالبرداء ، كما حصل للشاشان في حوض الخابور الاعلى (راس العين والسفح) او الذين استوطنوا سفح جبل عبد العزيز الشمالي والذين لم يبق منهم سوى اضرحتهم وقد استقرت فئة منهم يقدر عددهم بحوالي ٢٥٠٠ نسمة في منبج وذلك في عام ١٨٧٨ ضمن أطلال مهجورة منذ عام ١٤٠٠ م بعد أن تعرضت لزيارة جحافل تيمورلنك .

وفي عام ١٩٠٨ قدمت الى حلب جماعة أخرى أوتهم السلطات الحكومية في مدينة حلب موقتا الى ان اقطعتهم قرية خناصر المهجورة والواقعة على حافة المعمورة بين جبلي الاحص وشبيث ، وكان عددهم حينذاك بحدود ١٥٠٠ نسمة . وينتسب شراكسة منبج الى قبائل الأبزاخ بينما يعود سكان خناصر لقبيلة قبرتاي . بيد ان كلا من هاتين القبيلتين تنقسم بدورها الى عشائر فرعية لان شراكسة منبج ينقسمون الى قرابة ١٥ عشيرة . اما على الصعيد الاجتماعي فينقسم الشراكسة الى عدة طبقات صائرة حاليا الى التلاشي كالامراء والوجهاء الجدد والعبيد المنحدرين من ابناء الاسرى أو من البؤساء واعلاهم اجتماعيا ونسبا هم الخانات .

ويغلب على الشراكسة ، على العموم ، بياض البشرة مع بعض السمات والملامح التي تقرب بعضهم للعرق شبه المنغولي كصغر العين

وميلها وثقل الجفن الأعلى ، ولا يميل الشراكسة لتعاطي التجارة ولا المهن اليدوية في حين يرجحون الوظائف الادارية ولاسيما السلك العسكري . أما الجيل الجديد من شبابهم فيتجه نحو المهن الحرة كالطب والهندسة والمحاماة ، مثلما استعرب الجيل الجديد بصورة شبه كاملة رغم المقاومة اليائسة التي يبديها البعض للحفاظ على اللهجات الأصلية أو عن طريق ارسال ابنائهم للدراسة في جامعة نالشيك عاصمة الجمهورية الشركسية ذات الاستقلال الذاتي في الاتحاد السوفييتي . وتقدم المناسبات لهم فرصية لممارسة رقصاتهم الفولكلورية التي تعتبر تسلية بريئة ومرحة يشترك فيها الشبان والشابات والرجال . ويكون الرقص مزدوجا « زفك » و « ششن » أو على شكل مجموعات ويسمى « ووج » ويهاجر بعض الدين تضيق بهم سبل العيش حاليا الى امريكا حيث يتجمع معظمهم في مدينة باترسن .

الارمن : ليس من الممكن معرفة تاريخ بداية دخول جماعات الارمن الى سورية على الضبط ، ولكن يبدو انهم اخذوا يفدون عليها بكثرة مع دخول الصليبيين وتكوين امارة انطاكية ، ولاسيما بعد نشوء مملكة ارمينية الصغرى في كيليكية لهذا لاغرابة اذا وجدنا بعض المنحدرين من أولئك يجهلون لغتهم القديمة واصبحوا عربا كسائر المواطنين . غير ان الموجة الكبرى من المهاجرين الارمن قدمت الى سورية خلال واواخر الحرب العالمية الاولى بحيث اصبحت حلب وحدها تضم في عام ١٩١٩ قرابة ١٠٠٠٠٠ أرمني أو ما يعادل سكانها الاصليين، كما استوطن أقضية حلب عدد لابأس به منهم ولكن لم يأت عام ١٩٢٥ الا وكان نصف هذا العدد قد غادر حلب الى لبنان ومصر والامريكيتين كما هاجر بضعة آلاف منهم عام ١٩٤٦ الى ارمينية السوفياتية ،ونظرا لترجيح الارمن سكنى المدن وممارسة الصناعة فيها فقد ترك معظمهم المدن الصغرى وتمركزوا في حلب باستثناء عدد قليل من العائلات التي لا زالت في عفرين والباب ومنبج واعزاز .

ـ **النَوَر** : لا يختلف نَوَر سورية الذين يطلق عليهم أحياناً اسم « قرباط » في حلب أو « جنكنة » كثيراً عن البوهيميين أو « تزيغان »

الذين يعيشون في أوروبا بحالة شبه بدويـة ، مع فروق في مستويات المعيشة ، لأننا نجـد عندهم جميعا السلوك ذاته والملامح الاخلاقيـة . ولا نعرف على الضبط ما اذا كانوا يتكلمون نفس اللسان لانهم جميعاً يعودون لأصل هندي ، واليهم ينسب قوم « الزط » الذين عاشوا في العراق الادنى واشتهروا بتمردهم في نهاية العصر العباسي .

واذا استثنينا حوالي ٢٠٠ عائلة كانت تعيش في حي باب النيرب بحلب من أكثر من قرن ونصف فان معظم هؤلاء يحيون حياة بدوية يتنقلون فيها بين مخيمات البدو العربية خلال فترة الربيع ويستعملون خياماً خفيفة جداً تستطيع وسائل نقلهم حملها . ويقضي هؤلاء النور فصل الشتاء في الأماكن المحمية الدافئة نسبياً ، مثل الغاب ، هاربين من برد الحمـاد القارس . ويعمـل رجالهم في الحـدادة كمـا كانوا يستخدمون جلود الحيوانات النافقة في صنع الأوتار لصنع الغرابيل وجلود الطبول . ولكنهم يعملون كمطربين شعبيين وموسيقيين . ومن العسير معرفتهم على الضبط بسبب عدم استقرارهم . غير أن « قرباط » حلب اندمجوا الآن مع بقية الأهالي بحيث يتعذر تمييزهم عن سواهم بعد أن تعلموا وتدرج بعضهم في المهن الحرة وبعد أن تخرّج عدد منهم من جامعة حلب .

القبائل العربية : لقد كانت كل حقب الفوضى التي تخللت تاريخ سورية ، لا سيما تلك التي امتازت بها حقبة الحكم العثماني ، وخاصة أثناء القرن ١٨ والنصف الأول من القرن الماضي ، أقول كانت موائمة جداً لحياة البداوة ، وبالتالي لاستمرار البنية القبلية ، والتي تبلغ أقوى تعبير لها عندما يحل الدفاع عن النفس مكان سلطة الدولة وحمايتها ، وهي « ملح الأرض » . وهذا ما حدا بالحكومات السورية المتعاقبة لأن تعمل على تحضير البدو واستقرارهم . والواقع لا تؤلف قبائل محافظة حلب بحد ذاتها غالبية سكان أرياف محافظتنا ، ذلك أن معظم هؤلاء ينتسبون الى عدد كبير من العشائر المتفككة الأوصال ، الغامضة الأصول ، بعد أن تخلت عن حياتها البدوية ، وقد ينتسب البعض منها الى قبائل نبيلة دون دليل أو برهان . وعلى العموم يمكن القول ان البداوة المطلقة

أصبحت معدومة في سورية الشمالية بل هناك حياة نصف بدوية تعتمد على تربية الأغنام بصورة رئيسة وسنتعرض لأهم هذه القبائل :

الحديديون : وهم أكثر القبائل أهمية في هذه المحافظة ، ولكن اصلها غامض جداً . واستناداً الى راي شائع جداً فان من المحتمل أن هذه القبائل جاءت من منطقة الموصل وعلى دفعات متعاقبة منذ ثلاثة قرون على اثر نزاعات داخلية شديدة . وظلوا يتمتعون حتى أواخر القرن الماضي بسمعة غير طيبة بسبب أعمال السلب التي كانوا يمارسونها . ولكنهم كانوا ملتحقين بقبيلة الموالي النبيلة الضاربة في بادية حماة والتي تنتسب الى آل ابي ريشة العباسية . وكانوا يرجّحون معاناة الزراعة على الحياة البدوية لأنهم لم يكونوا يملكون من رسائل النقل أكثر من الحمير . غير انهم اغتنوا على اثر تعاقب بضع سنوات خصيبة ، فازداد شعورهم بقوتهم،واجتمعوا حول فخذ ابي كنش الذي خرج منه شيخ القبيلة نواف الصالح الذي مات قتيلا . ثم انضمت اليهم عدة أفخاذ غريبة فقدت منذ زمن بعيد أي ذكرى بأصولها والتفت حول الفخذ الرئيس . وهكذا تظهر هذه القبيلة على شكل تجمعات غير متجانسة مثلما تتباين درجة استقرارهم . وبعد أن قطنوا مدة طويلة في منطقتي الباب ومنبج استقر معظمهم الى الجنوب من منخفض المطخ وفي أطرافه الشرقية هاربين من وجه قبيلة الولدة التي نزحت بدورها من مواطنها الأصلية بالجزيرة تحت ضغط عشيرة شمّر القادمة من نجد حديثاً . ولا تزال بعض فروع الحديديين مقيمة في قضاء الباب كالغناطسة ، وشرقي منطقة ادلب مثل البوشعبان ، وفي هضبة الأحص كالأبرز . وفي أواخر القرن الماضي عهدت السلطان العثمانية للحديديين بتامين حماية القوافل القاصدة دمشق أو القادمة منها مقابل عوائد معينة تدفع لشيخ العشيرة . وعندما منحهم أصلان باشا ، والي حلب ، في ١٨٦٨ ، مساحات واسعة من الأراضي في هضبة العلا ، الى الشرق من المعرة ، تمكّنوا من الاحتفاظ بها ولم يتركوها تستقط غنيمة باردة بأيدي مرابي حلب ومعرة النعمان كما فعل جيرانهم الموالي . وبعد أن حلّت السيارة مكان الجمل أصبحوا يتوغلون في الحماد

حتى جوار السخنة حاملة قطعانهم وخيامهم واثاثهم . ولهم شهرة ذائعة بصنع السمن العربي الممتاز المرتفع الثمن لنظافته . ويقارب عددهم ٨٠٠٠٠٠ نسمة .

الفدعان : ويؤلف هؤلاء احد فروع قبيلة عنزة التي ترتبط بوشائج القربى مع الرولة في بادية دمشق والسبعة في بادية حمص ، مثلما تنتسب الى الجذع الرئيس الموجود في نجد ومنها الاسرة المالكة السعودية . وتمثل عنزة احدى أواخر الموجات البدوية التي قدمت من أواسط نجد وقد وصلت الى بادية الشام في النصف الأول من القرن ١٨ .

وأصبحت عنزة ، رغم أنف السلطات العثمانية ، سيدة بادية الشام بلا منازع خلال القرن ١٩ حتى انها استطاعت أن تضرب الحصار على بغداد في عام ١٨٥٥ ، وأن تهاجم وتنهب بعض الأحياء الشرقية من مدينة حلب الى أن تمكن والي حلب في عام ١٨٦٨ أن يردع الفدعان بعد حملة قوية أخضعهم على أثرها . ولكنهم ما لبثوا أن استأنفوا أعمال النهب وابتزاز « الخوة » من الفلاحين المسالمين كما كانوا يدفعون بقطعانهم أحيانا غربا كي تتلف الزروع والأشجار المثمرة .

وفي ١٨٧٠ اضطر والي حلب الى منح شيخهم « محجم بن مهيد » أراضي هضبة شبيث وبعض الأراضي الواسعة الى الجنوب من سبخة الجبول اتقاء لشرورهم . وبعد انسحاب الجيوش العثمانية والألمانية من حلب في ١٩١٨/١٠/٢٠ اندفعت أفواج من هذه القبيلة وهاجمت حلب ذاتها . وقد ظلوا خاضعين مع القبائل الأخرى لقانون العشائر الذي أصدره المفوض السامي الفرنسي خلال فترة الانتداب فثابروا على جباية الخوة من جيرانهم الفلاحين ومن القبائل المستضعفة الى أن حصلت البلاد على استقلالها في ١٩٤٥ فأ بطلت الحكومة الوطنية هذه الممارسات الذميمة .

ولم يهتم شيوخ الفدعان بتشجيع أفراد قبيلتهم على معاناة الزراعة وجاء الاصلاح الزراعي فانتزع من هؤلاء معظم ممتلكاتهم وكانوا يقتربون

صيفا من منطقة جبل شبيث ويتوغلون شتاء بالبادية حتى البشري والكوم . ولكن قد يدفعهم البحث عن المرعى حتى وادي حوران وقد سبق لهم أن قضوا فصل الربيع هناك أكثر من مرة .

ولكن الاصلاح الزراعي في أوائل الستينات دفع بالكثير من شبابهم للنزوح الى نجد خلف شيخهم « النوري بن محجم » الذي أقام ومات في عرعر ، وانخرط الكثير منهم كجنود في الحرس الوطني السعودي أو مارسوا الأعمال الحرة ، والزراعة ، لسهولة حصولهم على الجنسية السعودية .

الولدة : وينتسب هؤلاء الى مجموعة أكبر هي قبيلة البوشعبان ، وهو اسم جدها الأعلى . وتسكن قبيلة الولدة على ضفتي الفرات بدءاً من عارودة الواقعة على مسافة ٢٥ كم الى الشمال من مسكنة حتى ما بعد الرقة لذلك أصاب غمر بحيرة الأسد معظم أراضيهم . والولدة ، وهي قبيلة غنامة ، استطاعت ان تحتل مكانها الحالي في شمالي سورية منذ القرن ١٧ على اثر انسحاب قبيلتي شمر وطي في وجه قبيلة عنزة ، ومن ثم فقدت الكثير من تماسكها القبلي واستقرت وانضمت الى زمرة الشوايا وتشغل حاليا أكثر من ٢٠ قرية موزعة على ضفاف بحيرة الأسد في قضاء منبج وقد أسكنتهم الدولة في المزارع الحديثة بعد تنفيذ سد الفرات .

البوخميس : ويقارب عددهم ٦٠٠٠ نسمة ، وتعود هذه القبيلة من حيث نسبها ، رغم تبعيتها لزعامة الفدعان ، الى قبيلة الدليم الضاربة على ضفاف الفرات الأدنى وفي المملكة المغربية(١). وقد استقرت لأول مرة على ضفاف الفرات في سافلة الرقة في عام ١٨٥٠ . بيد أن جور والي دير الزور قسرهم على الانكفاء على البادية منذ عام ١٨٨٢ .

---

(١) من المدهش أن نرى أن فرعاً من قبيلة العبيدات ، الموجودة في الأردن ، يؤلف القبيلة الرئيسة في برقة الليبية ومنها ظهر المجاهد عمر المختار ، كما أن لقبيلة الجحوان النجدية فرعاً يقيم حالياً في المغرب الأقصى وقد نزحوا مع قبيلتي بني هلال وسليم في القرن ١٣ ميلادي .

ويتميزون عن سواهم من انصاف البدو وباستعمال خيام بيضاء من الصوف خلال فصل الصيف والتي تتواءم مع الطقس اكثر من الخيام السوداء المألوفة عند اكثر العشائر البدوية .

ـ غيّار : ويقارب عددهم عدد العشيرة السابقة ، ويدّعي افراد هذه القبيلة أنهم قدموا بالماضي من العراق في مطلع القرن ١٨ . وتنضوي عادة تحت زعامة الحديديين . وقد استقرت غالبية هذه القبيلة تماماً في منطقة الباب ومنبج ، ولا زال البعض يمارس حياة شبه بدوية ويقضون فصل الشتاء في جبل البشري ، غير انهم يندفعون بقطعانهم صيفاً حتى منطقة اعزاز ومرتفعات جبل الكرد .

ـ الوهب : ويناهز عددهم عدد القبيلة الآنفة الذكر وهم من البدو الذين لا يملكون أراضٍ زراعية ولا بيوتاً ثابتة ، ويتأرجحون في نجعاتهم بين جبل شبيث صيفاً والبشري شتاءً .

الهيب : وتعود هذه القبيلة من حيث الأصل الى نجد ، وكانت تتمتع بسمعة غير طيبة بسبب شهرة بعض أفرادها بميلهم للنهب وحب السطو والسرقة . وقد انضمت للموالي في مطلع القرن الحالي مما أدّى لنزاعات دموية بين الموالي والحديديين . ويقطن حوالي نصف اعداد هذه القبيلة في جبل الأحص بينما يقيم الباقي في شرقي محافظة ادلب ، ويندفع رعاتهم شتاءً حتى منطقة الكديم الواقعة في شمال شرق تدمر ، ولهم أقارب في شمالي فلسطين المحتلة .

الهنادي : وقد دخل أفراد هذه القبيلة الى سورية الشمالية مع الجيش المصري أيام محمد علي بين ١٨٣٢ ـ ١٤٨١ . وكانوا يؤلفون عدة كتائب من متطوعة لا نظاميين « باشبوزوق » في الجيش الفاتح ، ما لبثوا أن تزوجوا من نساء بدويات من أهل المنطقة واستقروا بعد انسحاب المصريين في منطقة شبه خالية من السكان واقعة الى الشرق من السفيرة والباب وانصرفوا لتربية الماشية وزراعة الحبوب .

وقد كتب الرحالة الفرنسي « كوينيه » الذي زار سورية في اواخر القرن الماضي بصددهم : « لقد استقر الهنادي وتركوا البداوة غير آسفين عليها ، لأنهم اصبحوا يتعاطون الزراعة ، ويملكون اليوم عدداً من القرى المزدهرة والمزارع الناجحة التي جعلتهم ينسون بؤس الحياة التائهة في الماضي » .

ونجدهم اليوم مبعثرين قرب سبخة الجبول وفي منطقة منبج والغاب وخان شيخون . ولا يزالون حتى اليوم على علاقة مع اقربائهم المقيمين في مصر ولا سيما في منطقة العريش واطراف الاسكندرية .

عدد السكان :

من السذاجة بمكان الركون للإحصاءات القديمة عن سكان محافظة حلب لأن معظمها ، إن لم نقل جلها ، كانت عبارة عن تقديرات وتخمينات بعيدة عن الدقة ، هذا فضلاً عن عدم ثقة المواطنين بالاحصاء خوفاً من التجنيد الاجباري في ايام العثمانيين ، أو خشية أعمال السخرة الخ .. وقد تمت محاولات لإحصاء النفوس في عام ١٩٢٥ وفي ١٩٢٨ . غير أن التسجيل في دوائر النفوس او الاحوال المدنية لم يأخذ شكلاً مقبولاً نوعاً ما إلا منذ ١٩٣٣ من اجل التسجيل في المدارس الرسمية ، ولا سيما اثناء الحرب العالمية الثانية وبعد ١٩٤٠ على الخصوص بسبب بطاقات التموين او الإعاشة وسنكتفي بإيراد ثلاثة احصاءات لتكوين فكرة عن تطور عدد سكان المحافظة خلال فترة تزيد عن نصف قرن من الزمن .

	١٩٣٥	١٩٦٠	١٩٧٦
مدينة حلب	٢٦٢٦٩٢	٣٨٣٠٨٣	٧٢٣٣٧٤
جبل سمعان والسفيرة	٦٤٧٥٢	١٥٢٨٧٤	٣٠٢١٣٠
اعزاز	٤٥٠٠٠	٨٨٠٤٢	١٦٩٩٦٥
الباب	٣٨٣٠٢	٨٩١٩٠	١٨٦٣٩٧
جرابلس	١٦٠٥٨	٣٩٦٧٧	٤٣٧٧٨
عين العرب	٢٢٠١٥	٤٢٧٤٥	٨٤٣٦٥
عفرين	٤٥٥٠٠	١٠٧٢٨٤	١٩٣٣٠٢
منبج	٤٣٣٠٢	٨١٤١٧	١٥٩٥٠٧

ونستنتج من ذلك أن عدد سكان محافظة حلب ، وذلك ضمن حدودها الحالية طبعاً ، قد قفز من ٥٣٧٦٢١ نسمة في عام ١٩٣٥ الى ١٠٨٥٣١٢ في ١٩٦٠ أو من نصف مليون الى مليون ، والى ١٨٦٢٨١٨ في ١٩٧٦ أي يتضاعف عدد سكان المحافظة مرة واحدة كل ربع قرن وبالتالي ينتظر أن يرتفع عددهم الى اكثر من ٣ر٥ ملايين في نهاية القرن، وذلك نتيجة التزايد الطبيعي هـذا اذا لم تحدث أية هجرة تستحق الذكر ، داخلية كانت أو خارجية . فقد ارتفعت نسبة التزايد من ٣. ٪ سنوياً خلال الستينيات والى ٣ر٣ في السبعينيات والى ٣ر٨ ٪ في الثمانينيات . أما معدل نمو مدينة حلب ذاتها فقد كان ٤٢ر٨ بالألف في فترة ١٩٧٠ـ١٩٨٠ . هذا وكان متوسط حجم أولاد الأسرة في محافظة حلب ٦ر٣ مقابل ١ر٩ في أوروبا الغربية ، وهي النسبة التي تتميز معظم الأقطار الفقيرة المتخلفة ، المتصفة بنسبة توالد مرتفعة وبنسبة وفيات لا تكف عن التدني نتيجة ارتفاع سوية الخدمات كالمياه الجارية وتكاثر عدد الأطباء والوعي الصحي ومكافحة أسباب العقم . هذا واذا كانت المحافظة لا تحوي مدناً ضخمة ، باستثناء مركز المحافظة ، الذي يضم حالياً قرابة نصف سكان المحافظة فإن مراكز المناطق تعتبر كلها مدناً لأن سكان كل منها يزيد عن ٥٠٠٠ نسمة . واليكم ترتيبها حسب أهمية عدد سكانها :

المدينة	في ١٩٦٠	في ١٩٨١
منبج	١٣٤٩٥	٣٠٨١٢
البـاب	٢٥٦٣٣	٣٠٠٠٨
السفيرة	–	٢١١٩٧
اعـزاز	١٢٨١٦	١٦٥٥٧
عين العرب	٢٩٦٢	١٢٣٩٣
عفرين	٥٧٣٠	١١٩١٤
جرابلس	٣١٩٣	٥٤٨٧

غير أن أرقام سكان المدن المذكورة ، ولا سيما حلب ، هي أرقام لا يمكن الركون اليها ، لأنها بعيدة عن الواقع بتأثير تيار الهجرة الريفية المتدفق من القرى نحو المدن الهامة ، ومن هذه المدن نحو حلب لأسباب عديدة ، أهمها قوة الجذب الذي تمارسه المدن على نفوس أبناء الأرياف بسبب تفاوت سوية المدينة بين ريف محدود الامكانيات ، لا يزال يعيش في مستوى معاشي وحضاري متخلفاً نوعاً ما عن المدن رغم انتشار الكهرباء ووسائل المواصلات الحديثة والمياه النقية في حوالي نصف قرى المحافظة ، وبين مدينة كحلب تملك كل وسائل المتعة والتسلية فضلاً عن فرص السمو الاجتماعي المتاحة فيها . ولا يزال شطر كبير من هؤلاء الريفيين مسجلاً في قيود نفوس مواطنهم الأصلية في حين يعيشون في أمكنة اخرى .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل مركز يشتمل على بلدية بمثابة مدينة فإننا نجد أن هناك العديد من البلدات الصغرى التي ارتقت لمستوى مدينة فيما عدا مراكز المناطق نذكر منها : الأثارب ، اخترين ، بلبل ، تادف ، ترمانين ، تل رفعت ، حريتان ، جنديرس ، خناصر ، دارة عزة ، الدانا ، دير حافر ، راجو ، الراعي (جوبان بك) ، سرمدا ، صرّين ، عندان ، مارع . الخ . .

المظاهر الاجتماعية في ريف حلب : من العادات التي يستحيل تصحيحها لدى معظم الباحثين عندنا ، أو التي لم يتم تصحيحها بعد ، على الأقل ، هي توجيه كل الاهتمام نحو المدن واهمال الريف وأهله وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية ، أو اننا نستحي من التعرض لمشكلاتهم أو نأنف من الخوض فيها . فلا تزال الدراسات المتعلقة بنمط حياتهم وغذائهم وعاداتهم وأعمالهم اليومية نادرة وكأنهم يعيشون في عالم آخر غير عالم أبناء المدن . وسأحاول في الصفحات التالية رسم لوحة موجزة لأوضاع ريفنا من الناحية الاجتماعية بما في ذلك الغذاء والكساء والمستوى الصحي وسوية المعاش ، الخ ... لأن « الشعوب تولد في

الريف وتحتضر في المدن » وكان هناك « علاقة سبب ونتيجة بين الافراط في الحضارة والتحضر وبين ... الاحتضار » .

مستوى المعيشة والغذاء : لقد كتبت « دورين وترينر » في كتابها « الأرض والفقر في الشرق الأوسط » تصف حالة فلاحي المشرق العربي. « إنهم في فقر لا تعرف له أوروبا مثيلاً ، لأن الماء النقي ، بحد ذاته ، يكون هنا عبارة عن ترف » لهذا لا يمكن الكلام عن مستوى معيشة حسب المفهوم الأوروبي للعبارة ، لأن الوجود ذاته هو مقياس الحياة .

واذا كانت كهربة الريف لم تتم بصورة شاملة فان الكهرباء تنير على اقل تقدير ، حاليا ، نصف منازل فلاحينا ، كما نجد المياه النقية متوفرة بصورة موازية للكهرباء تقريبا . هذا كما ان تحسن مستوى المعيشة نسبيا بتأثير انتشار التعليم والاحتكاك بابناء المدن قد ادى لدخول موقد زيت الكاز « بريموس » والغاز ومدفأة المازوت الى الكثير من المنازل ، واختفى استعمال « الجلة » كوقود تدريجيا لانخفاض اعداد رؤوس الماشية الكبير من خيل وحمير وبغال بسبب مكننة الاعمال الريفية كالحراثة والحصاد وكذلك بالنسبة للنقل والمواصلات كما يمكن القول أن الجمل قد اختفى تماما من ريف حلب ، حتى ومن باديتها .

وبعد أن كانت المتعة الوحيدة ، لدى فلاحنا ، والتي تساعد على قتل الوقت ، هي الجلوس في مضافة المختار « القواضة » والخوض في أحاديث لانهاية لها كالغيبة والتحاسد ، هذا في غياب قراءة قصة عنتر والزير سالم ، أصبح جهاز الراديو « الترانزيستور » والتلفاز الذي يعمل حتى تحت خيام الرعاة بمحرك ياباني خاص ، هو وسيلة التسلية الرئيسة في منازل الفلاحين عوضا عن الذهاب الى بيت المختار . ورغم ضآلة مداخيل سواد فلاحينا وبساطة نظامهم الغذائي ، فان التبغ يكبد الكثير منهم نفقات مرهقة قد تبلغ ١٠٪ من متوسط الدخل الفردي . أما العباءة التي كان يلبسها فلاحنا فوق ثيابه فقد تلاشت الا عند وجهائهم والتي يلبسونها في المناسبات . واذا كان كبار السن من الذين تتجاوز اعمارهم الخمسين محافظين على لباسهم التقليدي « كالقصيرة »

و « الصاية » اي القنباز و « الملتان » و « السروال » و « الدراعة » و « الثوب » و « البريم أي العقال والحطاطة » فان الشبان اصبحوا يلبسون الكساء الاوروبي كالبنطال والسترة والقميص الفرنجي لرخص سعره بالموازنة مع الكساء التقليدي ، لأن هذه الألبسة الحديثة يمكن شراؤها بسعر زهيد نسبيا من اسواق الالبسة المستعملة والمستوردة من امريكا او اوروبا ، وحل « الترانشكوت » بدل العباءة .

اما لباس المرأة التقليدي فيختلف باختلاف المناطق وتؤلف انماطه مجموعة فولكلورية غاية في الجمال والتنوع . فبينما يكون في شرقي حلب مقتصرا على « الثوب » الاسود الذي يصل حتى القدمين وقد يثير طوله المفرط الغبار خلف المرأة في الدروب الترابية « جر الذيول » ويتصف بأكمام عريضة تنتهي باستطالة زاوية « ردان » قد تعقد خلف الظهر ، وتضع فوق مفرقها مايشبه العمامة السوداء ، تدعى العصبة التي تشابه الى حد بعيد لباس المرأة التدمرية كما تدل على ذلك البقايا الاثرية هناك .

ويأخذ لباس المرأة بالتنوع وتعدد التفاصيل عند فلاحي مناطق الباب ومنبج وجرابلس ، فتكون الوانه منسجمة ، متناسقة ، وتفاصيله غاية في الدقة . واكرر في هذه المناسبة محاولتي في لفت انظار المسؤولين عن شؤون التقاليد القومية والمتاحف الى روعة هذه الأزياء المحلية الفريدة لعرض نماذج عنها في المتاحف الوطنية او خلال الاستعراضات الفنية الفلكلورية قبل اندثارها بتأثير زحف اللباس الاوروبي الطاغي ، كماحصل بالنسبة لكساء الذكور .

وكثيرا مايزدان الفلاحون وانصاف البدو ، نساء ورجالا ، ولاسيما في المناطق الشرقية بالوشم « الدق » تلبية لنزعة جمالية وطبية . وهم يوشمون انفسهم على الوجه ، وخاصة الذقن والأنف والخدين والذراعين وذلك منذ الطفولة الباكرة . أما البنات فيكون وشمهن غالبا فوق الذقن وبين الثديين . وتختص بنقش الوشم نساء النور اللواتي برعن في هذا الفن بالإستعانة بابرة صغيرة ويستمر الوشم مدى الحياة . ويتم الوشم غالبا في سن الرابعة من العمر واحيانا بعد هذا السن . ويمثل نقوشا

وزهورا ورسوما مختلفة كالطيور والاسماك والسيوف الخ .. وتنسب له فوائد طبية كمقاومة بعض الامراض لذلك توشم بعض اجزاء الجسم والركبتين واليدين .

هذا وتتزين نساء الفلاحين بالكحل في العينين والخطاط فوق الحاجبين ورموش العينين ، مثلما يصبغن بالحناء راحة اليدين والقدمين. ويتم الحصول على الكحل من المدينة على شكل حصى صغيرة سوداء ويوضع في إناء صغير خشبي او نحاسي يسمى المكحلة التي تختم بعود من الخشب الذي يبلل باللعاب أولا ثم يغمس بالكحل كي يمرر عدة مرات بين الرموش . هذا ويضع « الخطاط » من سخام حبات « العفص » ويستعمل لصبغ الحواجب باللون الاسود الفاحم .

هذا وتزدان معاصم نساء الفلاحين بأسورة من فضة ذات طراز خاص يضعن زوجا أو اثنين منها في كل رسغ . وتزداد مكانة المرأة بكثرة ما تملكه من اساور فضية وذهبية التي تتحلى بها في المناسبات والافراح . وتضيف النسوة الى لباس الرأس « الصف » المؤلف من قطع نقود ذهبية عثمانية رقيقة « غوازي » . ويوضع عادة فوق العصبة بأعلى الجبهة .

الغذاء : على الرغم من ان الغذاء يمتص الشطر الاعظم من مداخيل ابناء ريفنا الحبيب ، فان نوعية الغذاء ورتابته على مدار العام ، وقلة قيمته الغذائية من حيث النوعية ، تشهد على الفقر الذي لاتزال تتخبط فيه غالبية جماهير فلاحينا ونقص التغذية او سوء التغذية السائد في الريف ، سواء من وجهة النظر الى الكمية او النوعية ، هو المسؤول ، الى حد كبير ، عن ضعف الطاقة في بذل الجهد المستمر وعن رداءة العمل الذي ينجزه الفلاح في أغلب الاحيان ، والذي يرميه البعض ، خطأ ، بالكسل ، متغافلين عن ان « الفلاح لايعمل لانه لا يأكل ، وهو لا يأكل لانه لايعمل » ومع ذلك يظل وضع فلاحنا افضل بكثير من حظ فلاح الشرق الاقصى او فلاح افريقيا السوداء . ولكن لايمكن البت في مثل هذه القضية باللجوء للموازنة دون أن نأخذ بالحسبان الحاجات الاساسية للجسم البشري .

ويستمد جسم فلاحنا القسم الاعظم من السعرات التي يحتاجها من الحبوب كالذرة والشعير والقمح . واذا كان الفلاح حتى عهد قريب يضطر ، تحت ضغط الحاجة ، الى بيع قمحه كي يأكل « الخليطة » من الحبوب الرخيصة كالذرة والشعير التي يصنع منها خبزه اليومي فان اعتماده على خبز القمح الآن يقدم اشارة ايجابية عن تحسن وضعه . وهنا يجدر بنا ان نميز بين الخبز الخميرة أو « التنوري » الذي يكاد يكون مجهولا في شرقي حلب بينما يكون هو السائد الى الغرب منها . ويتم صنع هذا الخبز اللذيذ اذا كان ساخنا ، طازجا ، في تنور يقام في زاوية من باحة الدار ، ويغلف من الداخل بما يشبه البرميل من الفخار ، تلصق عليه بعد سجره بالقش ومختلف انواع الوقود ، ارغفة الخبز .

أما في شرقي حلب فيصنع الخبز بدون خميرة أي « فطير » ويدعى خبز الصاج أو « جلد الطبل » كما سماه الاجانب ، والذي تشوى رقائقه فوق صاج محدب وقد تم تطويره الان بحيث يتم صنعه الان باستعمال الغاز كوقود ويميز عادة بين الخبز التركماني وبين الخبز العربي لان الاول يحضر بواسطة الشوبك فيكون شفافا تقريبا . واجمالا يستهلك فلاحنا وسطيا مقدار ١٧٥ كغ من الحبوب سنويا للفرد على شكل خبز وبرغل ورز مقابل ٣٥ كغ فقط للفرد في اوروبا الغربية وامريكا الشمالية . وكان صنع الخبز اليومي يؤلف الشغل الشاغل للمرأة الفلاحة لان هذا الخبز غير صالح للحفظ لاكثر من يوم واحد على خلاف الخبز التنوري الذي يمكن حفظه بل وتجفيفه على شكل كعك لعدة ايام .

وتتألف الوجبة الرئيسة اليومية من البرغل او من الفريكة التي تحضر اعتبارا من سنابل القمح غير الناضجة تماما التي تشوى على لهب النار ثم تجرش الحبات بعد تجفيفها . أما البرغل فيصنع من القمح المسلوق والمقشور تحت رحى من البازلت والمجروش في نهاية الامر . وتتعاون عدة عائلات بالقرية عند تجهيز مؤونة البرغل ، لأن العائلة العادية تعجز بمفردها عن تحضيره للسنة القادمة ويكون ذلك مناسبة لافراح صغيرة تدخل بعض المرح على حياة الفلاحين الرتيبة . ويضاف للبرغل

عند صنعه القليل من السمن أو دهن الغنم او الزيت اذا اضيف اليه العدس في صنع « المجدرة » . أما اللحم فلا يلعب في تغذية الفلاح اكثر من دور هزيل لارتفاع سعره كما ان قطيع الفلاح هو راسماله فلا يذبح الخروف او الكبش الا في الاعراس او عند قدوم ضيف ذي مكانة سامية، وهكذا لا يكون استهلاك اللحم في متناول الجميع الا في الاعياد . وقد يتاح للفلاح ان يأكل شيئا من اللحم بمناسبة حفلة عرس او قدوم احد الحجاج حيث تنحر بعض الذبائح أو على اثر وليمة تقام لضيوف مرموقين في منزل المختار أو شيخ القبيلة او عندما يذبح حيوان تعرض لحادث ولكن تربية الدجاج بصورة علمية جعلت استهلاك لحمه متاحا نوعا ما رغم ارتفاع سعره ، غير ان فلاحي المنطقة الغربية ، ومعظمهم أحسن حالا ، يستهلكون اللحم مرة او اثنتين بالشهر .

وتؤلف الطيور الداجنة « قطيع ربة البيت » الخاص بها لانها تتصرف بها وبمنتجاتها ، فتبيع الفراخ والبيض كي تحصل على شيء من المال تشتري به بعض لوازمها المنزلية كالخيوط والاقمشة من البائع المتجول « الجرجي » .

هذا ويتعوض النقص في المواد الدهنية ، ولاسيما البروتينات النبيلة الصادرة عن اللحوم والاجبان والالبان والبيض ، بالبروتينات التي تقدمها البقوليات كالعدس والفول اليابس واللوبياء . هذا ويستهلك فلاحنا خلال ثلاثة شهور من العام ، هذا اذا كانت السنة خصيبة ، كميات ضخمة من الالبان ومشتقاتها ، لان « الخاثر » أو « اللبن » والمخيض « الشنينة » لا يلعب دور غذاء فحسب بل يقدم شرابا منعشا وتطهو الفلاحة البرغل مع الشنينة أو مع الذرة الصفراء كي تحصل على حساء لذيذ يدعى « لبنية » .

وتلعب البقوليات اليابسة مكانة هامة في وجبات الشتاء اذ تساهم في منح عضوية الفلاح البروتينات الضرورية ، كما يلعب زيت بذرة القطن الرخيص دورا متزايد الاهمية في المطبخ الريفي . وهكذا يظهر لنا ان الغذاء النباتي الى حد كبير ، ولكنه قد يتباين حسب المناطق ، وحسب

توفر الخضار ، وحسب تنوع الامكانيات الزراعية لان « الشاوي » او فلاح الفرات ، او الفلاح الحديث العهد بالاستقرار ، لا يستهلك الخضار الا فيما ندر رغم توفر الماء تحت تصرفه بسبب جهله فن البستنة ، أو هو فلاح رغما عنه . ومن المستغرب ان يعزف عن اكل السمك ولا يمارس صيده رغم توفره في نهر الفرات .

وتقدّم النباتات الطبيعية الحقلية بعض الخضار التي تدخل نوعامن تنوع على رتابة وجباته البائسة ، كالخبيزة والسلبين (العكوب)والقنيبرة والكراث الخ ... وذلك في فصل الربيع ، وتدخل بعض الاغذية الطرية التي تعوض نقص الخضار أو غلائها أو انعدامها في بعض المناطق المحرومة من المزروعات المرواة .

هذا وبالرغم من ان تحسنا محسوسا قد طرأ في السنوات الاخيرة على أوضاع الحياة الريفية ادى الى تنوع الغذاء اليومي فان النظام الغذائي الريفي لا يزال متميزا بفقره ، ولاسيما بانعدام انتظامه حسب الفصول أو حسب حالة الموسم من خصب وقحط . وتكثر المصاعب في الشتاء لندرة الخضار لان فقراء الفلاحين يقتصرون ، في كثير من الاحيان ، على الخبز والبصل او على الخبز اليابس والتمور والدبس .

ومع الربيع تأتي تباشير الفرج والسعة لأن الماشية التي استطاعت أن تجتاز برد الشتاء بسلام يأخذ وزنها بالتزايد بسرعة وتعطي حليباً وفيراً يحوّل الى خاثر او سمن وجبن أحياناً .

ولكن « شد الزنار » يقع عند « عصة المنجل » اي قبيل الحصاد اذا لم يكن لدى الفلاح مؤونة كافية من القمح توصله بسلام حتى المحصول الجديد ، بيد أن خضار وثمار الصيف لا تتأخر كي تتدفق مكان البرغل التقليدي ويقول المثل المحلي « أيام البطيخ ما في طبيخ » و « بساط الصيف فسيح » و « الشتاء شدّة ولو كان رخا » و « لو كان للصيف أم لبكت عليه » . والواقع أن عدم كفاية التدفئة والتغذية التي يعاني منها الفلاح وضعف اساليب الوقاية من القر تعرضه لأشد المصاعب خلال الفصل البارد .

بيد أن انتشار المؤسسات الاستهلاكية في الأرياف والمخابز حررت معظم الفلاحين من هذه الازمات الفصلية . وقد كانت زوجة الفلاح هي المستفيد الأول من الخلاص من اعباء صنع الخبز اليومي ، لأن أكثر الفلاحين صار يستهلكون الخبز الحضري تماما « ربطات » .

والعادة أن يبدأ الفلاح يومه بفطور لا يتعدّى رغيفاً من الخبز يتناوله مع كأس من الشاي او مع القليل من الدبس . وفي المساء تجتمع الأسرة حول وجبة البرغل أو « المجدرة » التي تمثل الوجبة الرئيسة . ويتلطف هذا الوضع البائس ، نوعاً ما ، عند الفلاحين الميسورين حيث يظهر اللحم مع برغلهم او فوقه الى جانب الألبان والخضار والثمار .

هذا وتعتبر القهوة المرة المشروب المتماز لدى كل أبناء الريف ودليل الوجاهة ، لا فرق في ذلك بين فلاحيهم وبدوهم ، ولكن الوجهاء والمخاتير الميسورين هم الذين يستحوذون على شرف تقديمها ، وراح الفلاح العادي يقدم لضيوفه القهوة الحلوة « التركية » أو الشاي الذي بدأ ينتشر من حوالي نصف قرن بين أبناء الريف بصورة تقارب الادمان وبسبب تحسن المعيشة نوعاً ما ولتسهيل ابتلاع الخبز الجاف .

وعلى كل يظل الماء النقي هو المشروب الأول الذي يخلق مشكلات عويصة الحل في المناطق الواقعة على أطراف البادية وفي المناطق الغربية المجاورة لجبل سمعان . ففي المناطق الشرقية تقدم معظم الآبار مياهاً متفاوتة في ملوحتها لدرجة تصبح في بعض الأحيان في غير صالحة لطهي الأطعمة أو للاستحمام . فقد يكون للماء طعم مالح أو مائل للمرارة أحيانا أو بسبب الزحار لاحتوائه على كبريتات الكلسيوم أو الجبس المنحل . ونستطيع ان نتصور ، بدون عناء ، ما ينتج على الصعيد الصحي ، من استهلاك دائم لمثل هذه المياه .

اما في منطقة جبل سمعان فان مياه الصهاريج الخاصة التي تتلقى مياه سقوف البيوت تخصص للشرب بتقتير خلال فصل الصيف بسبب

عدم كفاية الكميات المخزونة . اما في باقي أيام العام فتستهلك مياه الصاريج العامة التي تغذيها مياه الدروب او الساحات مع كل ما تجرفه مياه المطر وتسوقه من أوساخ وغبار . أو تستهلك مياه « الرامات » أو البرك الطبيعية التي تستقطب مياه المطر .

ولمعالجة هذه الاوضاع في الصيف ولا سيما في السنوات الشحيحة المطر تضطر الحكومة لنجدة بعض القرى بسيارات صهريج توزع المياه على الأهلين . كما تبذل مصالح الري والبلديات جهودا جبارة لتأمين مياه الشرب النقية لكثير من قرى المحافظة عن طريق حفر الآبار العميقة التي تدعى « ارتوازية » خطأ .

غير أن القرى الواقعة على طرفي الانابيب والقنوات التي تغذي حلب والباب ومنبج من مياه الفرات فتستفيد من هذه المياه المتمازة حسب مبدأ « الماء لا يمر على عطشان » .

الحالة الصحية : اذا كان المناخ السوري عامة ومناخ سورية الشمالية ، بصورة خاصة ، لا يوائم انفجار الأوبئة والجائحات كما في المناطق المدارية ، كالهند مثلا ، فان هذا لا يعني أن الحالة الصحية لا تتطلب المزيد من العناية ، لأن الصحة العامة لا تزال تستدعي بذل جهود كبيرة ، ولكن يجب القول من البداية : « ان أدوية شعوب العالم الثالث ليست في الصيدلية بل في قِدر الطعام « الطنجرة » .

غير أن قساوة مناخ المنطقة المتصف بقاريته ، من حيث شدة البرد شتاء والحر صيفاً ، تؤثر على صحة السكان ، لا سيما وأن سواد السكان لا يتمتع بوقاية كافية ، لا من حيث شروط السكن والكساء ، بله الغذاء . هذا وقد انحسرت البرداء ، والتي كانت مرضاً مستوطناً على مقياس كبير ، منذ أيام المتنبي الذي اشتكى منها شعراً ، اقول انحسرت بفعل تجفيف المناقع الموبوءة كالروج والمطخ والغاب ، دون أن يكون من الممكن القول انها اختفت تماماً كما اختفى الجدري مثلا او اقل من ذلك « حبة حلب أو داغة حلب » المعروفة في الموصل وفي طهران وفي منطقة وادي الشلف بالجزائر .

ويمكن القول أن صحة سكان الأرياف قد استفادت من تحسن كبير ومحسوس جداً خلال السنوات الأخيرة . فبعد ان كان عدد الأطباء في خارج مدينة حلب ذاتها لا يتجاوز العشرين في ١٩٦٠ ، اي في كل المناطق التابعة لها ، ارتفع العدد حالياً لعدة مئات كما عملت سهولة المواصلات على جعل الكثيرين من أبناء الريف يقصدون مدينة حلب لعلاج الأمراض التي تتطلب الاختصاص .

ويأتي الزحار في رأس قائمة الامراض التي كانت تتسبب في الكثير من الوفيات وربما كان ذلك يعود لسوء مياه الشرب وتلوثها . ويقدر الأخصائيون أن نسبة الأصابة بالزحار التي كانت تصل الى ٧٥٪ قبل ربع قرن لا تتجاوز الآن ربع هذا الرقم . كما ان النتيجة المنتظرة لنقص التغذية أو سوئها والتي يشكو منها شطر كبير كبير من سكان المدن والأرياف الى وجود مرض السل وهو مرض اجتماعي صرف تقريباً . هذا كما انخفضت نسبة الاصابة بالتراخوما من ٤٠٪ في ١٩٦٠ بالأرياف الى أقل من ٤٪ حالياً . واذا كنا نلاحظ لدى بعض جماعات سكان المناطق الشرقية من حلب مقاومة شديدة للتعب والجهد فذلك يعود للاصطفاء الطبيعي الذي يتعرض له العرق والى نظام تغذية يحول دون اجتياح الشحم لجسم الانسان .

واذا اعتمدنا على تقارير دوائر الصحة وجدنا أن الأسباب الرئيسة للوفيات هي الآتية حسب أهميتها : الزحار ، أمراض القلب ، السرطان ، السل ، البرداء ، التيفوئيد الخ ... اما في مدينة حلب ذاتها فان الحالة الصحية افضل بكثير من الريف لتوفر مياه الشرب النقية وكثرة الأطباء والمشافي المختلفة من رسمية وخاصة . ولكن ذلك لم يحدث بين عشية وضحاها .

ففي عام ١٨٥٥ لم يكن بحلب أكثر من بضعة أطباء أوروبيين كانت عياداتهم بعيدة المنال عن عامة الناس الذين كانوا يقصدون ممتهني التطبيب أو ما يسمى « الطب العربي » كالكي والفصد والحجامة والتجبير ، في

حين كان الحلاقون يختصون بقلع الاسنان والفصد من الاذنين والذين ظلّوا يمارسون نشاطهم حتى الربع الأول من القرن العشرين بسبب قلة عدد الأطباء من حملة الشهادات الرسمية(١) .

ولما كانت مهنة الطب تؤدي ، في الماضي ، الى رغد العيش نسبياً، فقد اندفع الكثير من ابناء العائلات الميسورة والوسطى الى التخصص بها وادّوا لوطنهم خدمات جلّى .

واليكم المنجزات الصحية في محافظة حلب منذ ١٩٧٠ :

كان عدد المشافي الموجودة في المحافظة في ١٩٧٠ ٦ مشافي بطاقة استيعابية قدرها ٥١٦ سريراً وهي :

١ ــ الرازي للتوليد ، ابن رشد ، زاهي ازرق ، الوطني ، ابن خلدون وفي ١٩٨٧ أصبحت ثمانيــة بزيادة مستشفى حلب الجامعي والكندي في المسلمية وقفزت القدرة الاستيعابية الى ١٨٤٨ سريراً .

٢ ــ المشافي الخاصة كانت في ١٩٧٠ ٢٥ مشفىً تضم ٧٣٨ سريراً وفي ١٩٨٧ أصبحت ٤٢ مشفى تضم ١٠٢٦ سريراً .

٣ ــ اما المراكز الصحية فكانت في ١٩٧٠ ٣٣ مركزاً منها ٧ في المدينة و ٢٦ في الريف وفي ١٩٨٧ ارتفع عددها الى ٧٢ مركزاً منها ١٧ في المدينة و ٥٥ في الريف .

---

(١) من اشهر اطباء حلب في عام ١٩٥٠ : اسكندر قسيس ، بشير هب الريح ، روبير جيه جيان . صبحي غازي ، انطونيان ، الياس ورد . ثابت عيسى ، حسين جلبي ، زهدي باقو ، فايق سلطان ، فاتح عقيلي ، مفيد حسني باشا ، نهاد الاميري ، احمد النعساني ، نوري النعساني ، فريشو الافرنسي . ومن اطباء الاسنان : زكي احمر ، عبد القادر غوري ، علي بارود .

(١) منهم ٢٢ جراحا و ١٦ مختصا بامراض العين .

٤ ـ ارتفع عدد الأطباء البشريين من ٣١٤ طبيباً في ١٩٧٠ الى ٢٠٣٠ في عام ١٩٨٧

ارتفع عدد اطباء الأسنان من ٥٥ طبيباً في ١٩٧٠ الى ٤٣٠ في عام ١٩٨٧

ارتكع عدد الصيادلة من ١٤٩ صيدلي في ١٩٧٠ الى ٤٢٩ في عام ١٩٨٧

ارتفع عدد الممرضات من ٢٦٣ ممرضة في ١٩٧٠ الى ٩٧٤ في عام ١٩٨٧

ارتفع عدد القابلات من ١٩٠ قابلة في ١٩٧٠ الى ٤٥٣ في عام ١٩٨٧

أو طبيب بشري واحد لكل ١٥٠٠ مواطن وطبيب أسنان لكل ٥٠٠٠ نسمة تقريبا .

جدول يعد الجهاز الطبي في مدينة حلب وارياقها

السنة	الأطباء	القابلات	اطباء الأسنان	الصيادلة
١٩٢٨	٨٠	—	٤٠	٤٢
١٩٣١	١١٠	—	٥٤	٤٤
١٩٤٦	١٢٥	١١٣	٥٩	٦٠
١٩٥٦	١٧٠	١٢٠	٦٢	٦٠
١٩٦٠	٢٠٧	١٢٤	٣٩؟	—
١٩٦٣	٢٣٠	٨١	٣٧؟	٥٠
١٩٧٠	٢٦٢(١)	١٩٠	٥٤	١١٦
١٩٨٧	١٣٣٧	٤١٣	٤٣٠	٣٢١

أو طبيب بشري واحد لكل ١٥٠٠ مواطن بالمدينة ، بيد أن أطباء حلب يعالجون قسماً كبيراً من مرضى الارياف وحتى المرضى القادمين

من المحافظات المجاورة مباشرة ، هذا عدا عن وجود ٤٠٢ طبيباً في ريف حلب . وفي ١٩٨٧ كان عدد المراكز الصحية في محافظة حلب ٧٢ منها ٥٥ مركزاً في مراكز المناطق والنواحي .

وقد ارتفع عدد المشافي الحكومية والخاصة كثيراً في محافظة حلب ، لأن أول مشفى قام بحلب كان المستشفى العسكري في حي الرمضانية في عهد ابراهيم باشا المصري عام ١٨٤٧ وفي ١٨٩٠ أقامت الحكومة العثمانية المستشفى الوطني تجاه باب القلعة للعناية بالفقراء والغرباء وتم تحويليه حالياً لمعهد صحي متوسط ، ومشفى آخر لمعالجة الأمراض الزهرية عام ١٩٠١ . وكان بحلب في عام ١٩٥٦ ستة مستشفيات ترتبط بالاسعاف العام وتضم ٥١٢ سريراً ، و ٨ مستشفيات خاصة واجنبية تحوي ٦٠٠ سريراً .

وفي ١٩٦٠ كانت حلب تضم المشافي الحكومية التالية : مستشفى الدويرينة لمعالجة الأمراض العصبية والعقلية وفيه ١٥٠ سريراً ، ومشفى التوليد ٦٠ سريراً ، المستشفى الوطني لمعالجة الأمراض العادية والجراحية وفيه ١٢٥ سريراً ، ومشفى الزهري لمعالجة الأمراض الزهرية والجلدية وفيه ٢٥ سريراً ، ومشفى الرازي ويختص بالجراحة وفيه ١٠٠ سريراً ، ومصح ابن رشد ويختص بالأمراض السارية . وفي ١٩٨٧ كان بحلب ٧ مشافي عامة تحوي ١٨١٠ سريراً بعد اضافة مشفى الجامعة ومشفى الكندي في المسلمية ، هذا فضلا عن ٢٨ مشفى خاصاً تحوي ١١٨٤ سريراً ، أي أصبحت حلب تضم ٣٠٠٠ سرير في مشافيها مقابل ١٢٤٣ في ١٩٦٢ وقد اختفى مرض الجدري تماماً وتضاءلت البرداء كثيراً وكذلك حبة حلب(٢) تقريباً ومرض القرع .

ويمكن القول أن الحالة الصحية العامة جيدة في سائر انحاء محافظة حلب . واكثر الأمراض هي النزلة الصدرية في الشتاء وحالات التيفوئيد

---

(٢) وهي معروفة بالموصل وطهران وقسنطينة .

كما يظهر مرض السل الذي يعتبر مرضاً اجتماعياً ناتجاً عن سوء التغذية وعن ازدحام المساكن في بعض الأحياء الفقيرة . وعلى كل فان كثرة عدد الأطباء والوعي الصحي وتحسين أحوال المدينة صحياً كتمديد شبكة الكهاريز ومياه الشرب النقية هي من العوامل الرئيسة في تحسين الحالة الصحية العامة لدى السكان ولارتفاع نسبة تزايدهم .

التركيب الاجتماعي والمهني :

(١) في الريف :

يشترك المجتمع الريفي الذي يؤلف قرابة ٤٠٪ من سكان محافظتنا بسمات سائر المجتمعات الريفية في اقطار عالمنا العربي ، فهو بسيط التركيب إذ يتألف من جماهير الفلاحين أو من الذين يعيشون من موارد الزراعة بصورة غير مباشرة كصغار الباعة في القرى الكبيرة ومراكز النواحي والمناطق من سكان المدن والبلدات الصغرى . غير أن الفلاحين يختلفون باختلاف المناطق ، فالذين يمارسون الزراعة الشجرية أو الزراعة المرواة هم في وضع أحسن عموماً ، وارفع مستوى من الفلاحين الذين لا يمارسون غير زراعة الحبوب الشتوية البعلية . وعليه فان فلاحي بساتين الباب وتادف ومنبج يتمتعون بوضع اجتماعي يقربهم كثيراً من سكان مدينة حلب وكذلك حال أصحاب مزارع الزيتون في منطقتي اعزاز وعفرين أو مزارع الفستق في شمال شرق المحافظة .

اما فلاحو الأراضي البعلية ولاسيما في جنوب شرق حلب وشرقها فيعيشون على حافة الفقر اذ يخضعون لنزوات الطبيعة كانحباس الأمطار أو موجات الصقيع . كما ان الذين يعانون تربية الماشية ، ولاسيما الأغنام ، فلا يمكن اعتبارهم أحسن حظاً بسبب سنوات الجدب أو تكاثف الثلوج التي تغطي المراعي ، أو بعبارة اخرى تتراوح حياة معظم

الفلاحين بين الرخاء في سني الخصب مثل ١٩٨٨ وبين البؤس في سني المحل التي قد تتعاقب على عدة أعوام كما حدث في فترة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ وفترة ١٩٥٨ ـ ١٩٦٠ مما يضطرهم للاستدانة أو بيع محاصيلهم سلفاً بأسعار بخسة من تجار المدن والمرابين .

هذا كما أن تكاثر سكان الريف وعجز المدن الموجودة عن امتصاص الفائض من هؤلاء لعدم قيام صناعة واسعة يجعل أيام العمل الحقيقية لدى هؤلاء الفلاحين ، ولاسيما بعد مكننة زراعة الحبوب ، لا تتعدى ١٠٠ يوم في العام ، كما يؤدي التوارث الى تفتت الملكية الزراعية فعلاً مما يقود حتماً لهجرة فائض سكان الريف نحو المدن .

واجمالاً لا نستطيع أن نجد في الريف ، في الوقت الحاضر ، طبقات متميزة باستثناء قلة من الميسورين في مدن الأرياف الذين يملكون مزارع واسعة نوعاً ما ، أو بعض العقارات أو المكائن الزراعية أو سيارات النقل ، أو قطعان تتجاوز مائة راس من الأغنام والماعز في حين تتألف الغالبية الساحقة من جماهير الفلاحين الذين يملكون قطعاً صغيرة من الأراضي البعلية أو الذين يؤجرون سواعدهم كعمال زراعيين موسميين يتعرضون لقانون العرض والطلب ، ومن الصعب معرفة انتاجية فلاحنا اذا قارناه بالمزارع الامريكي الذي ينتج ما يكفي لإطعام ٤٠ شخص أو الفرنسي الذي يكفي انتاجه لغذاء ٢٥ شخص أو السوفياتي الذي يطعم ١٥ شخصاً .

(٢) في حلب :

وهنا اصبح التفوق للتمايز الاجتماعي بعد أن اضمحل التمييز العرقي أو الطائفي في أحياء خاصة، مما يجعل دراسة التركيب الاجتماعي لسكان هذه المدينة العظيمة ميسوراً نوعاً ما ، إذ نجد ان سكان المدينة يتألفون من عدد من الطبقات الاجتماعية المتفاوتة في اهميتها العددية مما يجعل بعضها اقرب الى الشرائح . فالى جانب البورجوازية الغنيـة

الناشئة او التي تعود اصلا لبقايا فئات كبار الملاكين العقاريين او الصناعيين الذين اثروا في فترة التصنيع بين ١٩٣٥ و ١٩٥٥ ، او الذين يعودون لأصل ريفي او بدوي ، نجد طبقة وسطى رقيقة ، ويجنح البعض الى تصنيف كل مالكي السيارات السياحية او الشاحنات والحافلات « الباصات » ضمن زمرة الطبقة الوسطى والبورجوازية التي يدخل فيها معظم الأطباء وسائر ارباب المهن الحرة من محامين ومهندسين ومقاولين .

ونجد في اسفل السلّم الاجتماعي طبقة العمال الذين اخذوا يستفيدون من بعض المكاسب الاجتماعية النقابية . غير ان الصناعة بالمعنى الحديث لا تزال عاجزة عن امتصاص الفائض او الذين يدخلون سوق العمل سنوياً والبالغ عددهم ٢٠٠٠٠ في محافظتنا يتطلب تشغيل نصفهم في الصناعة الحديثة توظيف رأسمال قدره ٢٥٠ مليون دولار أو ربع ميزانية القطر بكامله .

ويمكن القول دون الخشية من الوقوع في خطأ كبير أن بعض العمال الحرفيين والمختصين كعمال صناعة البناء المزدهرة والنجارة والدهان والحدادة واصلاح وسائل النقل الآلية يعيشون في مستوى يغبطهم عليه الكثيرون من الموظفين الشرفاء . والواقع لا تؤلف الطبقة العاملة التي تستحق اسمها أكثر من ١٠٪ من القادرين على العمل مقابل ٤٠٪ في بلجيكا و ٣٨٪ في اليابان وبريطانيا و ٣٣٪ في الاتحاد السوفييتي .

اما طبقة الوجهاء الحلبيين الذين كانوا يمثلون حتى ٤٠ عاماً مضى الاقطاعية الريفية فتنتسب الى بورجوازية قوية قديمة تسير نحو الاضمحلال والانصهار في الطبقة الوسطى . ولما كانت هذه الطبقة مثقفة في الغالب فقد كانت تحتكر بالماضي أهم المناصب الادارية في مختلف العهود المتعاقبة على البلاد بغية الحفاظ على أوضاعها المكتسبة وامتيازاتها . وتتصف هذه الطبقة بنفسية خاصة لأنها كانت تتزاوج فيما بينها او بين الاقارب المباشرين ، اي زواج مصلحة « متماثل الدم » مما يؤدي لانحطاط افرادها جسمياً وعقلياً .

واخذت هذه الطبقة البورجوازية التي كانت تتألف من ملاكي الأراضي الزراعية والعقارات العديدة من سكان حلب تخضع لتطور جذري ومعقد ، فمركب السمو" الذي كان يفرض على عناصرها احتقار العمل اليدوي وممارسة اية حرفة قد تلاشى لأن الكثيرين منهم اخذوا يستغلون املاكهم بصورة مباشرة وتبنوا الطرائق الزراعية العصرية واعتمدوا على العمال الفنيين اكثر من الفلاحين الشركاء . كما اندفع ابناء هذه الطبقة نحو المهن الحرة كالطب والمحاماة والهندسة(١) الخ وتعرضوا لمنافسة ارباب المهن الحرة من المثقفين المنبثقين من الطبقات الوسطى وحتى الفقيرة مما حدا بالكثيرين منهم بعد تطبيق التأميم والاصلاح الزراعي للهجرة الى اوروبا الغربية وامريكا الشمالية كي يستقروا نهائيا ضمن تيار « هجرة الأدمغة » التي تشمل رجال الأعمال واصحاب الإدارات . واهم العائلات التي لا زالت تستمد من الزراعة جزءاً لا بأس به من مداخيلها هي : العادلي ، حيّاني ، الجابري ، القدسي ، المرعشي ، المدرس ، ميسّر ، رستم ، الرفاعي ، سمّاقية ، توما ، كيخيا ، قاطر آغاسي ، يكن .

وإجمالاً تعاني الطبقة الوسطى اشد المصاعب في محاكاتها وتواؤمها مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة الناجمة عن « مفعول التظاهر » وتقليد الطبقة المتميزة العليا في المسكن والمأكل والمركب ، أو بعبارة اخرى يلهث ابناء هذه الطبقة في سبيل تقليد معيشة الأوروبي والأمريكي بدخل لا يعادل ربع دخل الفرد في الأقطار المتقدمة الصناعية .

وعلى كل يمثل العمال والأجراء وصغار الكسبة والباعة قرابة ثلاثة ارباع سكان المدينة وهم الذين لا يفكرون بتحديد النسل او تنظيم الأسرة .

---

(١) كان بحلب عام ١٩٦٠ ، ١٩٠ مهندساً من مختلف الاختصاصات من اصل ٦٢٠ مهندساً سورياً مقابل ٦٤٩٥ مهندساً في ١٩٨٧ منهم ١٠٦١ مهندسة .

بعض مظاهر مستوى المعيشة :

دخلت السيارة مدينة حلب لأول مرة في عام ١٩٠٩ عندما سارت في شوارعها لأول مرة سيارة قادمة اليها من اسكندرون . ومن ثم اخذت تلعب دوراً متنامياً في النقل والمواصلات بين المدن وحتى بالنسبة للبدو إذ كان شيخ عنزة محجم بن مهيد أول من استعملها في عمليات الغزو . وعلى الرغم من قلة الطرق المعبدة فقد انطلقت السيارات فوق الدروب التقليدية بسهولة ويسر نظراً لهيمنة الطقس الصافي خلال معظم أيام العام . وهكذا تزايد عدد السيارات بسرعة فبلغ عدد السيارات السياحية المسجلة بحلب ومحافظتها عام ١٩٣٠ مقدار ١٠٥٠ سيارة وصعد الى ١٣٠٩ عام ١٩٥٥ . وقد بلغ عدد السيارات المسجلة بمحافظة حلب من كل الأنواع الخاصة منها والعامة والحكومية ٨٤٣٤ في عام ١٩٦٠ او ٣٦٣ نسمة لكل سيارة سياحية صغيرة مقابل ٥ اشخاص في الكويت والولايات المتحدة و ١٤٠٠ نسمة في الهند .

جدول بوسائل النقل البري المسجلة في محافظة حلب

السنة	سيارة سياحية	باصات صغيرة وبيك آب	شاحنة	صهاريج	المجموع
١٩٣٠	١٠٥٠	٣١٩	٨٩	—	١٤٥٨
١٩٥٥	٣١٠٩	٥٠٨	٤٩٥٩	—	٧٥٧٦
١٩٦٣	٦٤٤٠	—	٢١٥٠	٢١٠	١٢٤٠٠
١٩٧٠	١١٩٠٠	٥٢٥٠	٣٢٥٠	٢٩٠	٢١١١٥
١٩٨٧	٢١٠٥٧	١٢١٤٣	٥٣٦٦	٤٨٢	٣٧٨٧٨

او سيارة سياحية لكل ١٢٠ شخصاً في ١٩٨٧ مقابل سيارة واحدة لكل ٤ اشخاص في سويسرا .

هذا وقد دخلت الخطوط التلغرافية لحلب عام ١٨٦٢ وبعد ذلك تمددت حتى الباب . وفي سنة ١٨٨٥ انشئت بحلب دائرة البريد وفي عام ١٩٦٠ بلغ عدد اجهزة الهاتف المسجلة بمحافظة حلب ١٣٣٠٠ جهازا منها ٣٠٠ بالمناطق والمدن الصغرى ، اي جهاز واحد لكل ١٦٦٦ نسمة من سكان مناطق حلب كي ترتفع هذه النسبة في المدينة ذاتها الى جهاز واحد لكل ٤٢ شخص ، او جهاز واحد لكل ثماني عائلات ، وارتفع عدد الخطوط الهاتفية في محافظة حلب عام ١٩٨٥ الى ٨٢٩٧٦ منها ٧٧٥١٢ آلي و ٥٤٦٣ يدوي او هاتف واحد لكل ٢٦ نسمة .

هذا كما تطورت المواصلات العامة في داخل مدينة حلب ذاتها بشكل مدهش في النصف الثاني من هذا القرن . ففي عام ١٩٢٩ بدات الحافلات « الترامواي » بالعمل في مدينة حلب وبلغ عدد البطاقات المباعة في تلك السنة مليون ونصف فقط ثم ارتفع هذا الرقم الى ١١ مليون عام ١٩٤٣ والى ٢٠ مليون عام ١٩٥٤ وهبط الى ١٥ مليون عام ١٩٥٧ وانخفض الى ١٢ مليون في ١٩٦٢ بسبب منافسة الباصات وبسبب تناقص طول خطوط الحافلات من ١٠ كم في ١٩٢٩ الى ٣٫٨ كم عام ١٩٥٥ بسبب الغاء خط باب انطاكية واقتصرت خطوط الحافلات « الترامواي » الى اثنين فقط هما خط محطة الشام الى السراي ، وخط خان الحرير الى النيال او الى مشفى الرمضانية وقد الغيت الترامواي في ١٩٦٣ وكان عددها تسع حافلات .

وظهرت الباصات في حلب لأول مرة عام ١٩٥٢ وكان عدد التذاكر المباعة في تلك السنة ١٤ مليون فارتفع هذا الرقم الى ٥٧ مليون في ١٩٥٦ والى ٩٣ مليون في ١٩٦٠ والى ١٠٧ في ١٩٦٣ ، وكان عدد الباصات في العام المذكور ١٢٦ وبلغ عدد التذاكر المباعة ٩٦ مليون . اما في عام ١٩٧٠ فقد ارتفع عدد الباصات الى ١٦٦ مع ١٤٧ مليون تذكرة ، والى ٢٤٥ باص في ١٩٨٧ و ١٦٦ مليون تذكرة .

هذا اما في ميدان الطيران فقد شوهدت الطائرة لأول مرة في سماء حلب عام ١٩١٣ ولا سيما في أواخر أيام الحرب العالمية الأولى . وقد تم تدشين مطار حلب ، وهو مطار النيرب في ١٩٣٤/٥/٤ حيث قال احد العسكريين الفرنسيين في حفلة التدشين ما يلي : « ان هذا المطار مدعو لأن يصبح في مستقبل قريب نقطة تلاقي الطائرات التجارية القادمة من كل انحاء العالم كما كانت خانات المدينة القديمة نقطة التقاء قوافل العجم والهند والصين مع تجار البندقية ومرسيليا » . غير ان هذا المطار لم يكن على مستوى هذه الآمال لأن طول مدارج الهبوط فيه لم يكن يتجاوز ١٢٠٠ م في عام ١٩٣٩ على عرض ٥٠ م وزاد هذا الطول الى ١٨٠٠ م خلال الحرب العالمية الثانية .

وبعد أن ظل هذا المطار مقتصراً على طائرات الشركة السورية للطيران أصبح له منذ أوائل الثمانينات دوراً دولياً إذ أصبحت تقصده طائرات الشركة الألمانية « لوفتهانزا » . وتظل مهمته الحالية الرئيسة تأمين الارتباط الجوي بين حلب ودمشق وبين حلب ودير الزور والقامشلي من جهة أخرى . ولكن هناك مشاريع لتوسيع هذا المطار لكي يلعب دوراً على مستوى المدينة التي يخدمها . وهذه قائمة بنشاط هذا المطار :

العام	طائرات الهبوط	اقلاع	مسافرين	قادمين	ترانزيت
١٩٥٢	٤٣٨	٤٦٨	٤٦٦٩	٤٦٣٤	١٠٦٩
١٩٦٠	٨٢٢	٨٢٢	١٠٦٧٠	٩٢٣٥	٣٩٧٦
١٩٦٧	٣٨٦	—	٣٢٢٨	٢٨٣٣	٢٠٢٧
١٩٨٥	٦٠٧ وعدد الركاب الكلي ٦٠٧٤٦ مقابل ٥ر١ مليون في مطار دمشق الدولي				

الفصل الخامس

المدن

اولا ـ حلب وموقعها :

مدينة قديمة كقدم التاريخ نفسه اذا ورد ذكرها لأول مرة في التاريخ منذ أربعين قرناً ، وتعتبر بحق أقدم مدينة حية عامرة . فقد قامت نواة المدينة الأولى على الضفة اليسرى لنهر قويق في حوض فسيح يرسم النهر فيه عقفات متعددة قبل أن يحفر لنفسه وادياً ضيقاً يقوده الى مستنقعات المطخ التي زالت من الوجود منذ حوالي ربع قرن . وتؤلف الهضبة التي تميل بلطف نحو مجرى النهر ، والتي قامت عليها المدينة الأولى ، تؤلف بالنسبة للأبنية موضعاً ممتازاً لأنها تحتوي القليل من التلال الواطئة ، كما أن أرضها المائلة نحو الغرب تسمح بتصريف مياه الأمطار والمجاري بكل سهولة نحو نهر قويق .

ولما كانت هذه المدينة واقعة عند مدخل السهب الشرقي ، وفي موقع غير حصين ، فقد كان تاريخها الحافل هو تاريخ الفتوحات والغزوات التي تعرضت لها خلال عشرات القرون . بيد ان سكانها النشطيين ، العاملين ، والهادئين كانوا يرجحون دائماً ممارسة الصناعة والتجارة على الحروب ، كما آثروا ازدهار مدينتهم على الأمجاد العابرة الناتجة عن المعارك ، ولكن دون أن يحول ذلك بينهم وبين مقاومة الغزاة بشراسة وعناد اذا دعت الضرورة ولكن لم يكن في طبعهم الميل للعدوان وظلم الغير .

أما موقع المدينة فلا يتوواءم بشكل رائع مع قيام المبادلات التجارية بين البدو والحضر فحسب بل ظل دائماً يلعب دور عقدة طرق هامة جداً ووحيدة للمواصلات بين قارات العالم القديم الثلاث .

هذا كما كانت المدينة دائماً بؤرة التقاء وتفاعل بين حضارات مختلفة ، لأنها كانت نقطة تلاقي وتماس الحضارة الآرامية بالحضارة الحثية في العصور القديمة ، كما كانت مكان مواجهة الحضارة العربية الاسلامية بالحضارة البيزنطية خلال العصر الوسيط مثلما تقع الآن على التخوم الشمالية للوطن العربي قرب حدود العالم الطوراني التركي . ولكنها تقع أيضا على محور تجارة البحر الأبيض المتوسط لهذا كان المنفذ البحري بالنسبة لحلب ضرورة حيوية ورئة تتنفس منه لأن تجارتها كانت تضمر وتنحط في كل مرة ينقطع طريق البحر أمامها ، وهذا ما يدفعنا للقول أن هذه المدينة تقوم أيضاً على التجارة مع الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط .

وموقع كهذا ، في أصالته ، هو أحد عناصر ازدهارها وسحرها : فعنده تتلاقى القوافل الناقلة للبضائع القادمة من اسكندرون ومن اللاذقية وبيروت ، كما كانت تأتيه البضائع القادمة من موانىء البحر الأسود ومن الشرق الأقصى عن طريق الحرير ، وفي حلب يتلاقى عالم البحر الابيض المتوسط مع عالم ما بين النهرين والعجم والهند(١) لأن تجار الشرق يفضلون دائما طريق حلب الذي يواكب الفرات عن طريق تدمر في القديم عن طريق دمشق الذي تقطعه البادية المخيفة بسبب جفافها .

اذن يكون هذا الموقع موائماً جداً للتجارة ، وبفضل هذه التجارة اكتسب سكان حلب منذ أعدم الأزمنة خبرة تجارية ثمينة ، ولا تزال مجموعة تجارها على علاقات وثيقة مع سائر الأقطار المتمدنة من العالم القديم .

---

(١) ويقول المثل : « أعرج حلب وصل الى الهند » .

والحقيقة يدين الدور الذي تلعبه هذه المدينة كثيراً لاسلوب ارتسام التضاريس . فجبال طوروس تترك بعض الممرات التي تصلها بالأضول بيسر ، كما أن الطريق الواصلة بين البحر الأبيض المتوسط ووادي الفرات تجتاز عدة ممرات تخترق السلسلة الجبلية الساحلية مثل ممر بيلان الذي يقود الى ميناء اسكندرونة ، ووادي العاصي الأدنى الذي يصل بميناء السويدية ، وممر وادي النهر الكبير الشمالي الذي يربط حلب بمينائها الجديد ، أي اللاذقية ، كما أن انعطاف « الركيزة السورية » عند حلب يؤمن الاتصال مع وادي الفرات الذي يشكل طريقاً طبيعية ، في وسط السهب الصحراري ، في اتجاه بلاد ما بين النهرين والخليج العربي والمحيط الهندي .

هذا ويتم التصالب بين طريق الجنوب المؤدية الى مصر وجزيرة العرب بفضل منخفض عريض فسيح بين الجبال الساحلية الوعرة من جهة وبين البادية القفراء ، الفقيرة بالمياه العذبة ، والتي كان يخيم عليها حتى نصف قرن مضى ، شبح البدوي .

ولا يكفي أن ننظر الى حلب على أنها مدينة عقدة طرق لتفسير أهمية موضعها ووظيفتها لأنها أيضا مدينة التقاء على الصعيد الاقليمي في الوقت نفسه ، فهي تقع على التخم الشرقي لمنطقة زراعية غنية تشتمل خاصة على زراعات هامة تقوم على الزيتون والكرمة واللوز والتين والتبغ والقطن بحيث ترد حاصلاتها الى حلب ومنها يعاد تصديرها نحو الموانىء البحرية أو يعاد توزيعها نحو مدن الداخل ، والى الشرق من حلب تمتد سهول الحبوب الشاسعة وحيث تقوم تربية الماشية على نطاق واسع والزراعة المتنوعة في المناطق المرواة .

كما تعتبر حلب مدينة تخوم أو « ثغور » ، ولا نقصد بذلك تخماً سياسياً غير طبيعي وغير مستقر بالضرورة ، بل نقطة تلتقي عندها عدة وحدات جغرافيه كبيرة وعدة مجموعات عرقية كبرى يتعلق مصير المدينة بالعلاقات القائمة فيما بينها وقد دفعت هذه المدينة غالباً ثمن العداء المستحكم بين هذه المجموعات ، واحداث التاريخ أصدق شاهد .

وليست حلب عبارة عن مدينة يقطنها الملاكون الزارعون الكبار الذين كانوا يعيشون فقط على حساب فلاحيهم أو شركائهم ضمن اطار « حياة طفيلية حضرية » كما كان حال العديد من مدن الشرق ، بل هي مدينة ديناميكية خلاّقة ومقر عدة فعاليات مبدعة ، وهي بحسبانها عاصمة اقليمية لا يمكن النظر اليها على أنها مركز استهلاك وتجارة فحسب بل مركز انتاج وتوجيه يشرف على اقتصاد سورية الشرقية والشمالية كلها لأن نفوذها الاقتصادي ، والآن الثقافي ، يمتد على محافظة الرقة ودير الزور والحسكة .

وتقوم علاقات متينة جداً بين حلب وبين المناطق المحيطة بها لأن هذه المدينة تقوم بدورها الاداري كعاصمة اقليمية ، ففي حلب تقوم المكاتب ومختلف المصارف وأسواق المواد الأولية وأهم المؤسسات الصناعية التابعة للقطاع العام : فحلب هي التي تتلقى محصول القطن ، وهي التي تقوم بحلجه وغزله ونسج شطر لا بأس به وتقوم بتوزيعه على المصانع المحلية او تصديره بعد معالجة أولية كما تبيع نسيجه . ويتمثل اشعاعها الاقليمي والدولي بتلاقي كل الطرق التي تتجه نحوها مما يجعل حلب تماثل العنكبوت في وسط شبكتها .

هذا وتعتبر منطقة حلب أغنى المناطق السورية بالمحاصيل الزراعية فهي تنتج ربع القمح السوري وربع القطن ونفس النسبة من زيت الزيتون كما أن حلب أكبر وأكثر المراكز الاقتصادية أهمية في القطر العربي السوري ، لأنها الأكثر أهمية من حيث التجارة ومن حيث تفتحها على العالم الخارجي ، ويمتد نفوذها الاقتصادي ليشمل ٤٠٪ من سكان سورية أو حوالي خمسة ملايين نسمة ، وبعبارة اخرى يتعدى نفوذها منطقتها الخاصة بها الى الجزيرة السورية ووادي الفرات اللذين يرتبطان بهما اقتصادياً الى حدّ كبير . واذا لم تكن حلب عاصمة فهي تقارب دمشق من حيث عدد سكانها اذ أصبحت تضم حالياً اكثر من مليون ونصف نسمة أو أكثر من عشر سكان البلاد .

ثانياً : حلب تبحث عن توازنها :

بعد أن شهدت هذه المدينة عدة حقب من الرخاء والازدهار خلال العصور القديمة والوسطى ، راحت تجتاز بضع مراحل من الانحطاط منذ أيام المماليك ، وعلى اثر اكتشاف طريق الرجاء الصالح راح البرتغاليون يحصلون على التوابل واقمشة الموصلين من الهند مباشرة ، وبذلك فقدت أسواق حلب والقاهرة احتكار هذا النوع من الترانزيت فضلا عن أن التجارة ذاتها تعرضت لمضايقة الحكام بسبب ثقل الضرائب الباهظة وبسبب فرض خدمة عسكرية طويلة الأمد وجائرة واخيراً لانعدام الأمن على الطرق التي كانت تخترق البادية السورية .

ومع أنها أصبحت « ضحية » أسر تجارة القوافل لمصلحة الطرق المحيطية ، ومع أنها خسرت دورها الدولي جريئا ، فقد ظلت مع ذلك الميناء القاري الحقيقي لتجارة وترانزيت بلاد مابين النهرين وايران ، والثورة الصناعية الرئيسة في الامبراطورية العثمانية . بيد ان عدةعوامل تضافرت لتعمل على تقهقر وانحطاط المدينة في كل المجالات كان من أبرزها المجاعة التي كانت تعتور حلب من فترة لأخرى بسبب نظام الضرائب غير الانساني الذي كان مطبقا في أواخر ايام العثمانيين ولاسيما نظام تعهد الضرائب ، كما ان زلزال عام ١٨٢٢ قضى على حوالي نصف أبنية المدينة وقضى على اكثر من ٢٠٠٠٠ نسمة فيها فضلا عن موجة الطاعون التي اجتاحتها في عام ١٨٣٧ فقضت على معظم نشاطها التجاري وشتّت أهم بيوتها التجارية .

وابتداء من افتتاح قناة السويس أمام التجارة العالمية في الثلث الاخير من القرن الماضي اخذت تجارة العراق وبلاد فارس تهجر حلب وعندئذ بدأ ضياع معظم ماتبقى من ازدهارها التجاري والصناعي واصبح من اليسير التنبؤ عن اقتراب زوال أهميتها .

وبعد تحول تجارة حلب البرية الى قناة السويس ولمصلحة التجارة المصرية والبريطانية اخذت اهمية حلب تسير في اتجاه الانحدار دون

توقف حتى نهاية القرن الماضي حيث بلغت الحضيض ، وهو تقهقر زاد فيه انعدام الطرق المعبدة وفقدان نشاط صناعي يستحق الذكر ، لان حلب اصبحت سوقا لكل منتجات صناعة اوروبا ، وقد ادى هذا الوضع الى هجرة عدد كبير من التجار الى بيروت والاسكندرية والقاهرة ومرسيليا وميلانو ومنشستر .

وجاءت اصلاحات السلطان عبد الحميد الادارية في أواخر القرن التاسع عشر التي كانت عبارة عن تتمة لاعمال السلطان محمود الثاني فأدت الى تحسن الاوضاع الاقتصادية في المدينة بشكل محسوس ، فأصبحت ولاية حلب تضم قسما من سفوح طوروس بأن أصبحت أورفة ومرعش وعنتاب وانطاكية واسكندرون من المدن الرئيسة التابعة لها ، وبلغت مساحة ولايتها ٨٠٠٠٠ كيلو متر مربع أو اكثر من سبعة امثال مساحتها الحالية .

ولكن هذه الاصلاحات لم تكن كافية لدعم وضع متداع لان «حلب أيام العثمانيين لم تكن اكثر من مظهر خداع اذ كانت عبارة عن واجهة فخمة لا تخفي وراءها سوى الأطلال » ولكن في خاناتها الرائعة ، وهي شواهد عن « ماضيها المجيد » كانت تتكدس كل ما تنتجه سورية الشمالية والاناضول والجزيرة العليا من بضائع نفيسه .

وقد اختتم هذا الدور الاقتصادي والاداري الواسع في نهاية الحرب العالمية الاولى اذ وجدت حلب نفسها على تخوم دولة اجنبية عنها ضمت اليها معظم اراضيها السابقة واقتصر دورها على منطقتها الصغيرة جداً والتي حاول الجنرال غورو جعلها دويلة كاربكاتورية دعاها « دولة حلب » كي يمعن في تمزيق البلاد السورية .

وما ان تم عزل حلب عن ظهيرها ، أي عن الاناضول وبلاد مابين النهرين وفارس ، حتى انهار كل نظام المبادلات القائم فيها منذ آلاف السنين ، ففقدت محورها ، وقام نوع من حصار أمام تجارتها التي لم تتوقف عن الضمور حتى الحرب العالمية الثانية ويكفي للتدليل على

ذلك ان نذكر ان تجارتها انحطت في ١٩٣٠ الى ٦٥٪ بالموازنة مع ما كانت عليه قبل الحرب العالميةالاولى .

وبعد أنانحصراتحلب ضمن حدودها الضيقةضاقت افاقها كثيرالآن تجزئة ولايتها سياسيا وتفتيتها ، وفقدان منطقة نفوذها الاقتصادي ، قسرها على تبني اقتصاد جديد اقليمي . وهكذا اصبحت الطرق المنطلقة منها لا تؤدي لبعيد فكان عليها ان تحصر نشاطها في السهل المحيط بها وبالانطواء على نفسها ، فذبلت الشهباء ولم تعد حلب عنبر آسيا أو سورية الطبيعية على الاقل ، كما لم تعد مفترق طرق القارات الثلاث وبذلك غدت حلب انعكاساً امينا لمنطقتها ، فهي تتأثر باصغر أزمة تطرأ على اقتصادها كموسم سيء ، أو أزمة كساد الخ .. ولكنها ظلت تهيمن على تطوير هذه المنطقة الخاصة بها والنهوض بها كي تتواءم مع الدور الاستهلاكي الذي تتطلبه المدينة الكبرى .

وختمت سلسلة المصائب المتتالية على حلب باقتطاع لواء اسكندرون وضياع الميناء التي يحمل الاسم ذاته ، فهذا المرسى العميق والأمين الذي هو بالوقت نفسه عقدة طرق وخطوط حديدية ، والمحطة التي لا تجارى في أهميتها بين أوروبا وآسيا ، والمنفذ الطبيعي والرئة البحرية لمدينتي الموصل وحلب ، وميناء الحبوب والبترول ، قد أصبح الآن بعيداً عن متناول تجارة حلب . وعلى هذا الأساس نلاحظ أن الطريق التجارية الأرضية المارة بحلب قد انحرفت لمصلحة طريق بيروت ـ دمشق . صحيح أن ميناء اللاذقية كان يتلقى حتى عام ١٩٥٩ بعض البضائع المصدرة والمستوردة ، لكن القسم الأعظم من التجارة البحرية كان على الساحل اللبناني اذ لم يتم بعد تجهيز وانشاء ميناء اللاذقية الحديث . وجاءت القطيعة الاقتصادية بين سورية ولبنان عام ١٩٤٨ لتجعل الشعور بفقدان اسكندرون أكثر ايلاماً .

غير أن حلب ظلت تنتظر بفارغ الصبر انشاء ميناء اللاذقية الذي أصبح صالحاً لاستقبال السفن منذ عام ١٩٥٩ كما أن تمديد الخط الحديدي

بين حلب والميناء المذكور وتشغيل خط قامشلي حلب في عام ١٩٧٥ ساعد على انعاش الحركة التجارية في حلب لا سيما بعد تشغيل الخط الحديدي العريض مع دمشق في عام ١٩٨٣ .

ثالثاً ـ احياء المدينة واقسامها :

تؤلف المدينة القديمة ، ضمن الأسوار ، التي يمكن التعرف على أطرافها بوساطة بقايا السور الكائنة بين باب الجنان وباب أنطاكية وباب قنسرين وعلى أطراف جادة الخندق ، أقول تؤلف مربعاً شبه منتظم ، الا في الزاوية الجنوبية الغربية ، ويبلغ طول كل ضلع حوالي ١٥٠٠ م .

وبعد أن تم آخر تعديل أو ترميم لهذا السور ، الذي يعود الى أيام السلطان نور الدين ، في عهد الملك الظاهر بيبرس ، توسعت المدينة في اتجاه الشمال وباتجاه الغرب ، كي تتشكل أحياء جديدة خارج الأسوار في الشرق والشمال الشرقي وفي الغرب وفي الشمال الغربي .

والى عهد قريب ، أي حتى الحرب العالمية الأولى ، كان الناس يميزون بين أهل « جوّا » أو سكان داخل السور ، ويعتبرون عادة من البورجوازيين وأتباعهم وبين سكان الأحياء الخارجية ، أو أهل « برّا » الذين كان ينظر اليهم على أنهم أقرب للبداوة ، وأكثر بعدا عن التقاليد الحضرية الراقية ، ولم تكن هذه الملاحظة خالية من بعض أوجه الصحة والواقعية وهذا ما كان يلاحظه أهل دمشق بالنسبة لسكان حي الميدان أو سكان حماة بالنسبة لسكان حي الحاضر ، ولكن الأمر تغير فيما بعد رأساً على عقب .

آ ـ المدينة الداخلية ووظائفها :

وتشتمل من الناحية الشمالية على الأحياء التالية : الكلتاوية ، المستدامية ، الجبيلة ، الفرافرة ، البندرة ، قسطل الحجارين . أما حي بحسينا فقد نال كلياً في أوائل الثمانينات . ومن الناحية الشرقية ا

البياضة ، باب الأحمر ، ساحة الملح ، الدحديلة . ومن الناحية الجنوبية: الأعجام ، القصيلة ، الحوارنة ، قلعة الشريف ، المغازلة ، السفاحية . ومن الناحية الغربية : الجلوم ، أسواق المدينة ، العقبة وباب قنسرين .

وتتصف هذه « المدينة » بشوارعها الضيقة التي كثيراً ما تتحول الى أزقة ضيقة أو مسدودة (الشكل ٨) ، أو تنفتح على ساحات صغيرة مثل ساحة بزه، وساحة الملح، وساحة التنانير وتتجاوز المنازل على الأزقة بأقواس تمتطيها بيوت قائمة فوق الطريق، أو تكتفي بشرفات خشبية دقيقة الصنعة تدعى « كشك » وتقابل « مشربية » في مدينة جدة .



ولا تزال نواة هذه المدينة تحتفظ بجوهر كيانها الأصلي وبطابعها العائد للقرون الوسطى ، كما أنها لا زالت تلعب دوراً رئيساً في التجارة

لتقليدية والحرف الموروثة عن العهود القديمة ولكنها استطاعت ان تتواءم مع الوظائف الناتجة عن الاقتصاد الحديث وتلاشي الكثير من الصناعات الحرفية البائدة .

واهم احيائها السكنية ، البورجوازية سابقاً ، هي البياضة (كوجك حَرَم) ، الفرافرة ، وراء الجامع ، السفاحية والتي لا زالت تحتفظ ببعض عناصرها القديمة فنجد فيها « القناقات » أو القصور ، أي المنازل المزدوجة المؤلفة « قوضة ، أو سلاملك » ومن سكن الأسرة « حرم » اي حرملك .

بيد أن هذه القصور الفخمة، والواسعة ، والتي هي عبارة عن متاحف رائعة للفن العربي الاسلامي ، أصبحت الآن مهجورة بعد أن غادرها أصحابها لتتحول الى مدارس يمعن الأطفال فيها تخريباً(١) ، وعلى العموم تتفرغ هذه الأحياء من محتواها السكاني القديم تدريجيا أمام الطبقات الوسطى القادمة من الأحياء القديمة الخارجية بعد اجراء تعديلات فيها بحيث تتواءم مع وسائل الحياة العصرية قدر الامكان أو تقسيمها لتتسع لاكثر من عائلة ، وترميمها .

أما البورجوازية القديمة والملاكون العقاريون والصناعيون فقد اختاروا لانفسهم سكناً في الأحياء الجديدة ما عدا القليل من الفئات المحافظة التي تتشبث بمساكنها الفخمةالتقليدية رغم عدم مواءمتها للحياة العصرية الحديثة التي تجنح نحو الفردية . كما هو الحال بالنسبة لحي وراء الجامع . هذا كما أن حي الجلوم والعقبة اللذين كانا يضمان قسماً كبيراً من البورجوازية التجارية والصناعية المسلمة والمسيحية اصبحا اليوم مأوى لمجموعات ذات مستوى اقتصادي واجتماعي ادنى من الماضي لأن معظم سكانهما الأصليين آثروا السكنى بالمدينة الحديثة .

---

(١) يرى السيد « بودان » في كتابه « حلب الامس واليوم » الذي صدر عام ١٩٣٠ : « ان التلامذة الصغار في هذه الدور الأثرية الفخمة يلعبون دور اللئران في كيس الدقيق » .

ولكن طابع هذه المدينة الشرقي وسحرها القديم يتعرض اليوم لتعديلات عميقة وخطيرة لأن البلدية اضطرت من اجل مواءمة المدينة القديمة مع وسائل النقل والمواصلات الحديثة ان تقوم عمليات «جراحية» اي الى شق شوارع عريضة ، مستقيمة كشارع وراء الجامع ولا سيما الشارع الجديد الممتد من الفيض « ضريح هنانو » حتى السجن القديم مروراً بالسبع بحرات والشارع الذي يصل الساحة المذكورة بشارع الخندق وحيث قامت سبع عمارات ضخمة من نمط « الأبراج » في قلب المدينة القديمة . وهكذا انكشفت بعض الأبنية الأثرية مثل خان الوزير وجامع الحاج موسى ، كما طرأ تعديل على طراز البناء لأن الشوارع الجديدة أصبحت محفوفة بأبنية حديثة متعددة الطوابق فزال الكثير من رونق وفتنة بيوت المدينة القديمة التقليدية لأنها أصبحت محجوبة احياناً عن اشعة الشمس وعن الرياح المنعشة صيفاً بفعل الأبنية الشاهقة المطلة على الشوارع الجديدة ، كما تشوهت حياة العائلة في باحات الدور اذا أصبحت معرضة لأنظار الفضوليين من سكان الأبنية الحديثة المرتفعة.

الاسواق : في هذه « المدينة » القديمة ، داخل الأسوار ، نجد أسواق حلب الرائعة التي تمثل حياً قائماً بذاته في جنوب غرب القلعة ، والتي تمتاز عن كل أسواق مدن الشرق الأوسط الاسلامي الأخرى . فهي ليست عبارة عن أسواق مستورة بألواح خشبية عتيقة وأقمشة مهلهلة بالية ، بل مغطاة بعقود حجرية سميكة ، هي أشبه بالأروقة ، تحمي من وهج حر الصيف ومن برد الشتاء وأمطاره وثلوجه ، أما التنوير فيتحقق بمقادير معقولة ، من خلال كوّات مفتوحة في السقف تنير الممرات بوساطة حزم من اشعة الشمس التي تندفع وكأنها أنوار المصابيح الكشافة . (الشكل ٩)

وتؤلف هذه الأسواق المسقوفة تيهاً معقداً من طرق متصالبة او متوازية يمتد مجموعها على مسافة ١٥ كم ، ويحمل كل سوق اسماً خاصاً به مثل سوق الفرائين ، سوق السراجين ، سوق الزربات ، سوق العطارين ، سوق الخيش ، سوق المزاد او البالستان ، سوق العبي ،

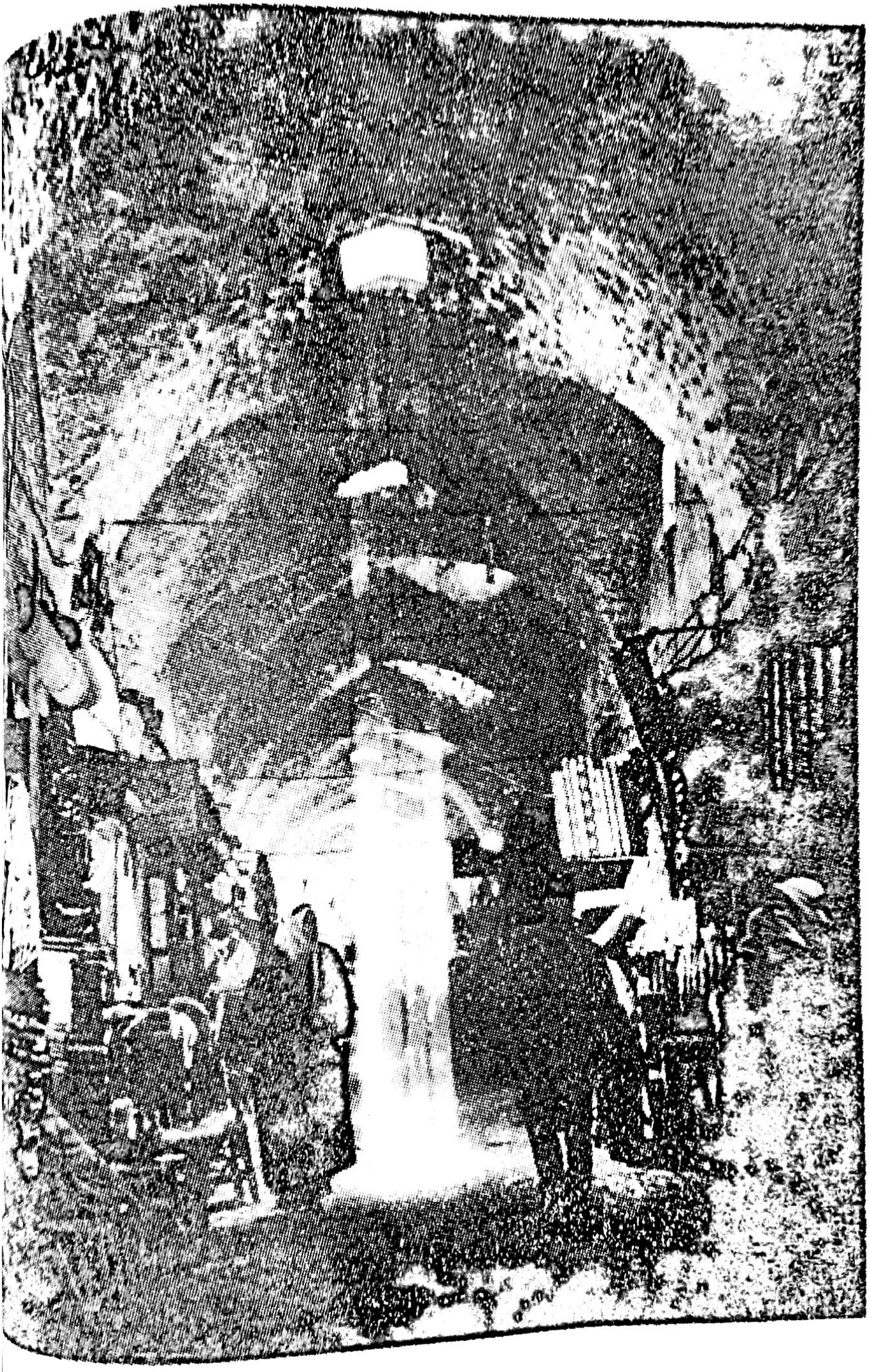

سوق الحبال ، سوق القوافين ، سوق الصاغة الخ ... غير ان هذه الفعاليات الخاصة بهذه الأسواق والتي منحت الأسواق اسماءها قد اندثرت في معظمها كصناعة العبي والأحذية الحمراء « الصرامي » ، حتى ان الحبال لم تعد تصنع من القنّب بل من النايلون ... ويتمم هذه الأسواق المختلفة سوق خاص بالمطاعم والحلويات هو سوق السقطية حيث تتصاعد روائح شواء اللحم من الدكاكين وحيث يشوي الجزارون سفافيد اللحم على نار الفحم الخشبي .

وقد كان بحلب سوقان اسبوعيان مكشوفان هما سوق الجمعة الذي كان يعقد في يوم نهاية الأسبوع الى الجنوب من القلعة حتى عام ١٩٥٠ وقد تمّ نقله الى شرقي المسلخ القديم وسوق الأحد الذي كان يعقد في اليوم المذكور في منطقة حي قسطل الحرامي وقد ألغي تماماً لعدم جدواه وزوال دواعيه .

الخانات : غير أن « المدينة » تضم أيضاً مؤسسات تجارية عديدة هي « الخانات » التي تتمم الأسواق . والواقع ان آلاف الدكاكين في الأسواق المتخصصة تحتاج لمخازن مركزية لتموينها بالبضائع المستوردة ، مثلما تحتاج الصناعة المحلية الى مثل هذه المخازن لتلقّي المنتجات الصناعية وتخزينها قبل توزيعها في الداخل أو تصديرها للخارج . ويتألف الخان عادة من باحة مربعة كان هدفها الأصلي ايواء قوافل كاملة ومن مخازن أرضية تحت طبقة من الغرف المعدّة لسكن التجار الأجانب . (الشكل ١٠)

وقد كانت هذه الخانات مختصة قبل قرن مضى ليس بالتجارة فحسب ، أو بتجارة سلعة معينة ، مثل خان الصابون ، وخان النحاسين ، بل بتجارة رعايا دولة معينة ، مثل خان البنادقة ، وخان الفرنسيين الذي يضم حالياً القنصلية الفرنسية ، أو كانت تضم مكاتب وبضائع شركة اجنبية أو مصرفاً محلياً أو اجنبياً مثل خان الجمرك الذي ظل حتى فتح قناة السويس مقر الشركة البريطانية للشرق ، كما كان يؤدي بنك البير حمصي حتى عام ١٩٥٠ .

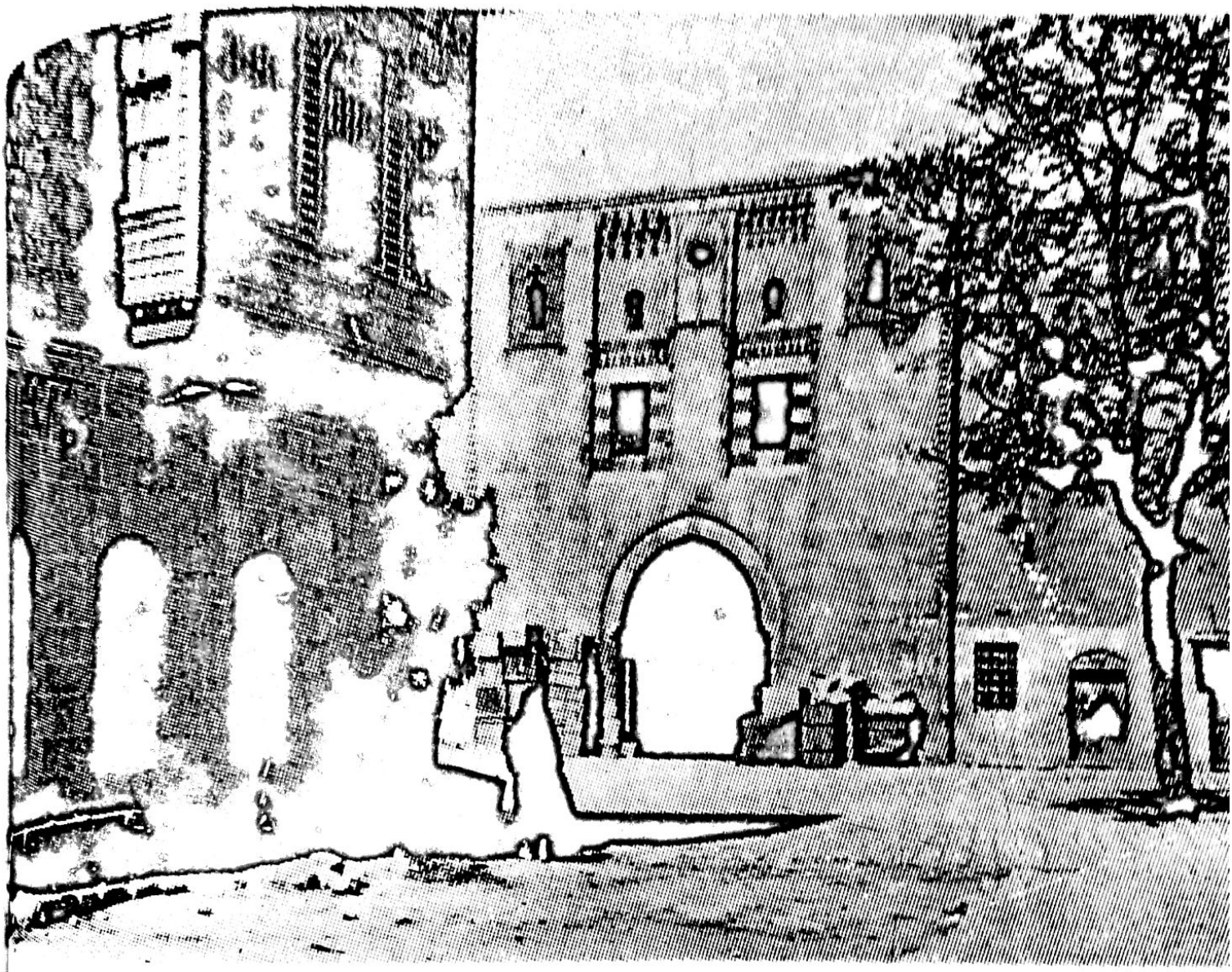

ولا تزال خانات المدينة القديمة تلعب دورهـا القديم رغم بعض التطورات الناجمة عن الظروف الاقتصادية في الربع الثالث من القرن العشرين وضمور دور القطاع الخـاص . ولكن الطابق الثـاني لم يعد يستعمل للسكن بل تحول الى مستودعات ودكاكين أرباب حرف حيث يعمل فيها بعض الصناع لحساب الأسواق المجاورة أو مكاتب تجارية . ورغم تبدل التيارات التجارية والتقلبات التاريخية لا تزال خانات حلب حية ، نشيطة ، وخاصة بمنتجات الصناعة الخفيفة المحلية ، كما أن بعض الخانات أصبحت تحوي بعض المصانع الميكانيكية الصغيرة في الطوابق الأرضية وذلك بعد اجراء تعديلات طفيفة ضرورية في البناء .

حي الاعمال والحي الاداري :

بعد ان ظل حي الاعمال ، خلال قرون عدة ، ضمن الخانات الشهيرة في قلب « المدينة » مثل خان الجمرك وخان البنادقة وخان الحرير وخان الفرنسيين ، امتد جزئيا في فترة مابين الحربين الى شارع خان الجفتلك حيث ظهرت البنوك الاجنبية مثل بنك سورية ولبنان والكريدي ليونيه ، وبنكو دي روما ، كي يمتد تدريجيا نحو شارع بارون حيث وكالات الشركات الكبرى الاجنبية ووكالات السفر وحيث تقوم اليوم شركة الكرنك التي تعتبر انجازا مثاليا للقطاع العام وبذلك انزلق مركز المواصلات البرية من ساحة باب الفرج تدريجيا منذ بداية السبعينات ولاسيما بعد عملية ازالة الحي الواقع الى الشرق من ساحة باب الفرج المتمثل بحي بحسيتا وبندرة اليهود وبندرة اليهود . غير ان الساحة المذكورة لاتزال تمثل مركز مدينة حلب ونقطة تلاحم المدينة القديمة داخل السور مع الامتدادات المذهلة التي تحققت في النصف الثاني من القرن العشرين ، وحيث يقع برج الساعة الذي تم بناؤها عام ١٩٠٠ (١٣٢٧ هـ) بمساعي الوالي رؤوف باشا (شكل ١١) .

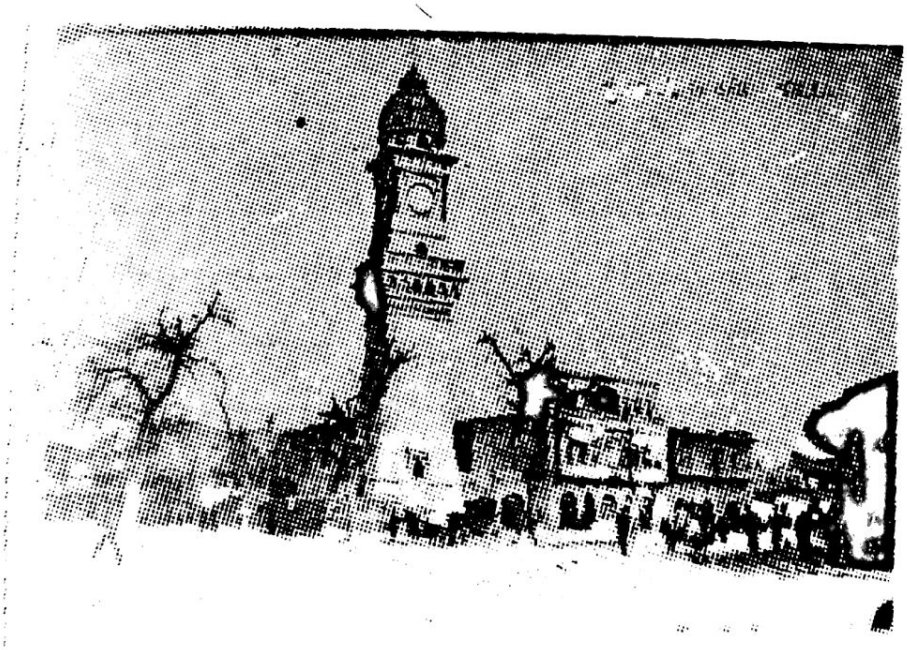

اما الحي الاداري الذي كان يقع ، في معظمه ، الى الشمال والجنوب من القلعة وتحت حمايتها ، اي في السرايا العتيقة ودار البلدية والسجن

في الشمال والسرايا الجديدة التي شيدت في ١٩٣٠ في الجنوب فقد انحسر عن الشمال تماماً بعد هدم السجن وانتقال مكاتب البلدية الى حي باب الجنان ولكن حي جنوب القلعة شهد ترسخ دوره بعد اضافة مديرية الأوقاف والقصر العدلي على حساب تل سوق الجمعة ، هذا مثلما انتقل شطر من الوظيفة الادارية الى الأبراج التي قامت الى الجنوب من شارع الخندق ، أو بعبارة أخرى ظلت المدينة القديمة مستحوذة على معظم الوظيفة الادارية التي تجنح الآن للانزلاق نحو الغرب كمديرية المالية التي تقوم حالياً ببناء مجمع خاص بها فوق موقع محطة الشام سابقاً .

ب ـ الأحياء القديمة خارج السور والمدينة الجديدة :

ابتداءً من القرن ١٤ والقرون التالية توسعت حلب خارج أسوارها في اتجاه الشمال والشرق ولا سيما الشمال الغربي كي تؤلف الاحياء الجديدة التي سكنها المسلمون في الشمال الشرقي والشرق والمسيحيون في الغرب والشمال الغربي فضلاً عن سكناهم حي الجلوم في « المدينة القديمة » والذي لم يبق فيه في فترة ما بين الحربين سوى كنيسة الشيباني وعائلة المركوبلي .

أما حي الصليبة في الشمال الغربي فكان يحوي البورجوازية والاريستوقراطية المسيحية لا زالت تقوم فيه أهم الكنائس العريقة . وهو من أكثر احياء حلب القديمة جمالاً وعراقة من حيث دور السكن الفخمة والتي تحول معظمها لمدارس شأن دور حي الفرافرة بعد أن هجره الأغنياء الى الاحياء الجديدة ذات النمط الأوروبي ، كي تحل فيه فئات مسيحية متوسطة أو فقيرة . وتقع في الشمال الشرقي الأحياء التالية : قارلق ، جب الأحمدي ، دلالين ، ملندي ، حمزة بك ، مشاطية ، قاضي عسكر ، الأبراج ، صاجليخان ، شاكر آغا ، بلاط ، آغجق وجب قرمان وتعرضت هذه الأحياء « لعمليات جراحية » لا غنى عنها لكي تتواءم مع المواصلات الحديثة مثل فتح شارع آغيور ، والشارع الممتد من بانقوسا في اتجاه قارلق وقهوة الشعار .

ومن الشرق تذكر الأحياء الآتية : القطانة ، برية المسلخ ، كتان ، باب النيرب الذي أدى تعريض الشارع الشرقي فيه لهدم قرابة نصف دوره ودكاكينه فضلاً عن زوال بعض الآثار مثل قسطل علي بك وجامع القرط وعدة خانات ، والضوضو ، ساحة حمد ، محمد بك ، باذنجك ، السخانة ، البكارة ، الصفصافة .

أما في الجنوب فتلاحظ ثلاثة أحياء فقط هي المقامات والمغاير والكلاسة .

وفي الغرب كانت تقوم حتى عهد قريب ثلاثة أحياء هي : حي الكتاب والمشارقة والعينين ولم يبق حالياً سوى جزء ضئيل من حي المشارقة كما زال حي الكتاب والذي كان خاصاً بالأوروبيين من السلك الدبلوماسي ، وفي هذا الحي عاش لامارتين ، الشاعر الفرنسي ، وكتب اشعاره الرائعة عن ملهمته الحلبية .

ويسكن في بعض هذه الأحياء المهاجرون الريفيون الجدد أو القدامى مثل باب النيرب والمغاير وباب المقام . وقد لا يتواءم هؤلاء الذين وفدوا للمدينة منذ فترة قرن أو اثنين ، مع ما حملوه من عقليات عشائرية كالسخانة والعساسنة والبقارة ، مع جو المدينة ، فيخلقون حولهم وسطاً صاخباً بل ودموياً مما يقسر السكان القدامى على مغادرة هذا الأحياء . وهكذا يتنفس الانسان في هذه الأحياء الخارجية جو الريف ، وكثرة أبناء القرى ، وأحياناً البدو ، الذين يقصدون المدينة لبيع حاصلاتهم من السمن والصوف والماشية ... أي حاصلات ثقيلة لا مكان لها في المدينة الداخلية لهذا تكثر هنا الخانات المختصة بتجارة الحاصلات الزراعية بالجملة وتكثر هذه الخانات المتخصصة بتجارة المحاصيل الزراعية ومنتجات الماشية حول بقايا السور القديم بين بانقوسا وباب النيرب وقد انكمشت وظائفها الى حد كبير منذ الستينات بعد هيمنة القطاع العام على تجارة الحبوب والقطن وقلة السمن العربي بالموازنة مع تكاثر السكان .

وفي هذه الأحياء يبلغ الزحام السكني أحياناً درجة مخيفة في بعض البيوت العربية اذ تقطن اسرة كاملة في غرفة واحدة أحياناً وتقدّر الكثافة السكانية في الغرفة الواحدة ٥ر٣ بل وحتى ٤ أفراد .

الأحياء الشعبية الجديدة :

لقد قامت أحياء شعبية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ومعظمها ذات منازل وحيدة الطابق ، ولكنها تتميز بمخطط منتظم ، شطرنجي ، وشوارع مستقيمة وذات باحات صغيرة أي ذات نمط عربي نوعاً ما . وقد كانت بعض هذه الأحياء خاصة باللاجئين الأرمن والسريان مثل حي الميدان وبستان الباشا والداوودية وتراب الهلك وحي السريان والشيخ مقصود وكلها في شمالي المدينة ، والكلاسة الجديدة من الجنوب .

ولكن هناك أحياء شعبية توسعت بصورة غير منتظمة ، نتجت عن الهجرة الريفية المتدفقة نحو المدينة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وبسبب الأعمال التنظيميه التي قامت بها البلدية ، في البلدة القديمة ، اذ هدمت مئات البيوت قبل أن تؤمّن لسكانها بيوتاً جديدة . وهنا نفتقد كل أثر للتنظيم الجماعي مما جعل أصحاب الأراضي والكروم السابقة يتمتعون بحرية تشويه المخططات وتنم عن جشعهم وسوء ذوقهم بسبب ضآلة المساحة المتروكة للطرق العامة والأزقة ، وهذه الأحياء التي لم تخضع للتنظيم البلدي تشمل على الكثير من صفات المنازل القروية وينتج عنها طراز هجين مما يسيء الى جمال المدينة ورونقها كمدينة مبنيّة بالحجر الأبيض .

ونظراً لعدم كفاية تدخل السلطات البلدية في هذه الأحياء العشوائية تقريباً فإن طرقها تظل فترة طويلة دون ما تعبيد . وليست أكثر الطرق الا سلسلة من برك موحلة بالشتاء ومصنع غبار في الصيف . كما أن نقص المجاري العامة يسيء الى الناحية الصحية عندما لا يكون هناك تمديدات للمياه النقية ، وتكون المراحيض بدائية تثير الروائح الكريهة . وتقع معظم هذه

الأحياء البائسة في جنوب وجنوب شرق البلدة ، والتي امتدت على حساب كروم الفستق والزيتون مثل حي كرم سري وامتداداته في الجنوب مثل حي ارض البلورة .

اما المساكن الشعبية التي اخذت البلدية على عاتقها بناءها وبيعها بالتقسيط لذوي الدخل المحدود من الموظفين وسواهم فهي مساكن حاوية على كل الشروط الصحية وتتمثل في ثلاثة مشاريع : في منطقة الفردوس ومنطقة السبيل وأرض العجور أو حي سليمان الحلبي . هذا وقد نشأت أحياء جديده منذ ١٩٦٥ تتمثل في حي بعيدين الى الشرق من عين التل وحي الشيخ مقصود الجديد في شمال المدينة والتي تمتد على ضفتي النهر حتى مشفى الكندي في المسلمية حيث تختلط المصانع بالمساكن .

والى الشرق ظهر حي الصاخور وقهوة الشعار والحيدرية ومدينة هنانو وكرم القاطرجي . وفي الجنوب برز حي الصالحين والشيخ سعيد والسكري والأنصاري والراموسة وصلاح الدين . اما من الغرب فهناك حي الخالدية والحمدانية وحي الشهداء ومساكن الزهراء ومساكن الجامعة وبلليرمون والأشرفية والسريان الجديدة (شكل ١٢) .

احياء السكن الراقية :

لقد اختارت البورجوازية الحلبية حتى أواخر القرن التاسع عشر حي الفرافرة والسياضة والجلوم في المدينة القديمة في الوقت الذي كانت الصليبة مقر البورجوازية المسيحية . وفي مطلع القرن العشرين ظهرت احياء حديثة ، أوروبية الطراز والتخطيط ذات أكشاك خشبية ، وطابقين ، تطل على الشوارع وبذلك نشأ حي العزيزية وجبل النهر والحميدية كي تقطنه الطوائف المسيحية الميسورة بينما راح المسلمون يفضلون حي الجميلية ومحطة بغداد ، أي أصبح الحلبيون يهجرون البيوت الفسيحة التي تطل على أزقة ضيقة كي يقطنون بيوتاً ضيقة تطل على شوارع عريضة مستقيمة .

وابتداءً من عام ١٩٣٥ أخذت هذه البيوت تفقد الكثير من رونقها لأن الأغنياء من سكانها رغبوا في سكنى الفيلات المستقلة في وسط حدائقها، وهي فيلات فردية أو مؤلفة من طابقين أو ثلاثة وتقع هذه الأحياء ، أو أحياء القصور ، في غرب السكة الحديدية .

أي نلاحظ أن الطبقة الموسرة قامت بقفزة ثانية في مدة تقل عن نصف قرن من الزمن في اتجاه الغرب ، الى منازل تحوي كل مكتسبات ورفاهية المدنية والفن العمراني الأوروبي وقد ساعد استعمال الاسمنت المسلح على هذا التطور المتسارع .

وقد كان حي العزيزية ، تاريخياً ، أول حي بني على النمط الأوروبي ، لأنه قام بتأثير فئة من أثرياء المسيحيين الذين كانوا ينشدون الرفاه والحياة المترفة والذين كانوا يستقبلون من كل ما تقدمه المدنية الأوروبية من مبتكرات . وقد كان هذا الحي حتى عهد قريب يضم بعض القنصليات الأجنبية ويمتد غرباً في اتجاه ضفاف نهر قويق على حساب بعض المقابر المسيحية واليهودية المهجورة ، ويتصل بحي السليمانية الذي يتصل شرقا بحي الجابرية الذي ظهر بينه وبين حي الشيخ أبي بكر الوفائي حي جديد منذ حوالي ٤٥ عاماً يدعى « أرض الكرم » وهو عبارة عن بوتقة عجيبة تنصهر وتختلط فيه فئات مختلفة من سكان حلب ومن القادمين من سائر أطراف سورية الشمالية وأخلاط متنوعة .

هذا ويقع بين ضفة قويق اليمنى وبين الخط الحديدي حي الجميلية وحي محط بغداد اللذين كانا مقر الأغنياء من رواد التجديد والذين أخذوا يتجهون لسكنى حي القصور الواقع غرب الخط الحديدي ، أي حي السبيل وحي المحافظة والعمران ولاسيما حي الشهباء وحي الجامعة ، وهي مناطق أكثر رفاهية على الصعيد الاجتماعي والتهوية المناخية .

وبعد أن كانت ، حتى عام ١٩٤٠ ، منطقة جبل الجوشن أو الشيخ محسّن مستراضاً لأهل حلب في أيام الربيع الدافئة تعرضت لزحف عمراني بعد أن قامت فئة من ملاّكي الأراضي بحملة دعائية ضخمة قبيل

حلب . مورفولوجية المسكن وأنماطه في ١٩٧٨

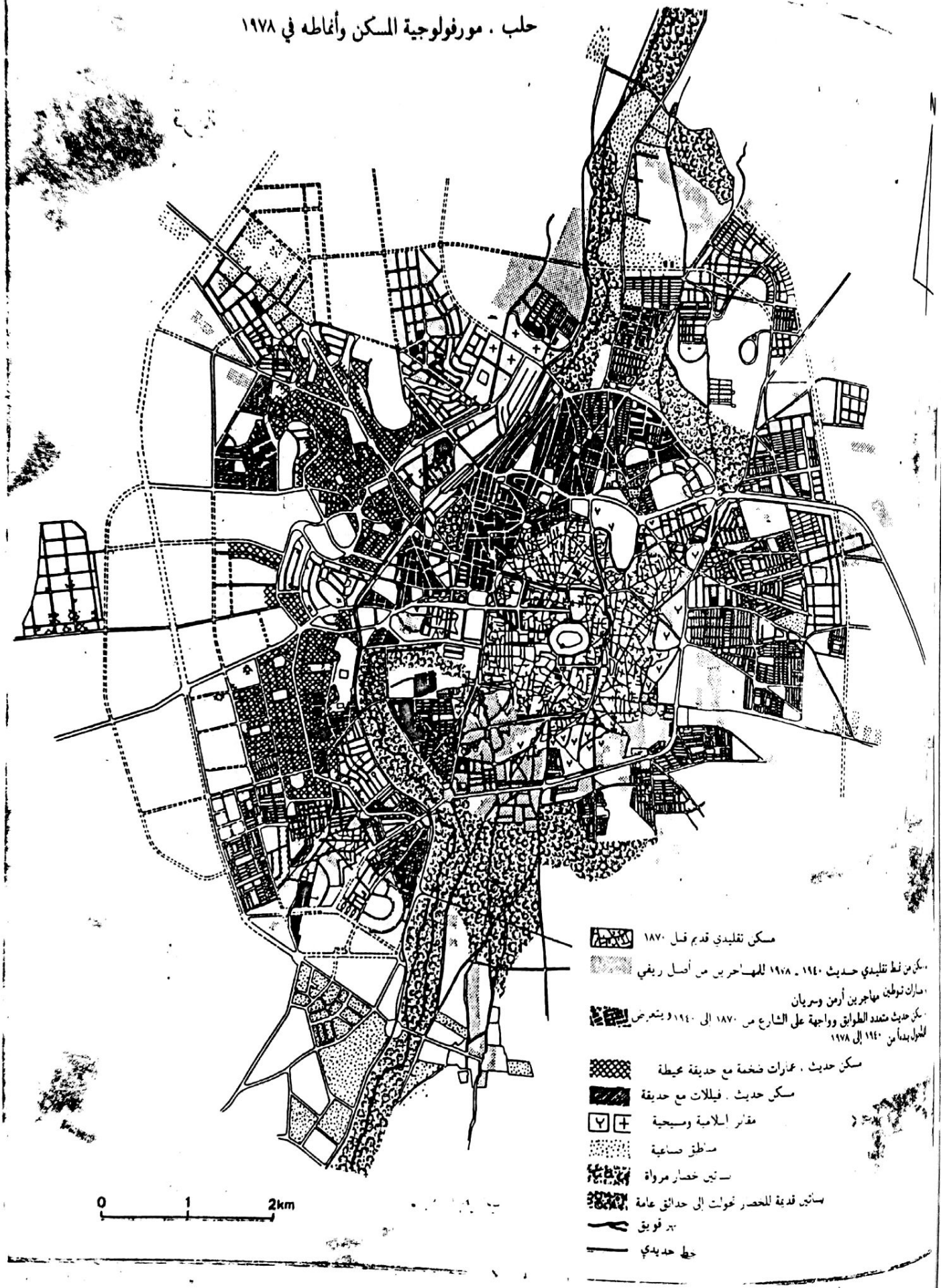

الحرب العالمية الثانية ، وازداد الاندفاع نحو هذه المنطقة بعد ظهور الباصات وكثرة السيارات الخاصة وسهولة المواصلات فابتلعت الأحياء السكنية من المستوى المتوسط قرية الانصاري مثلما اندمجت بحلب قرية بلليرمون من الشمال الغربي والشيخ سعيد من الجنوب والنيرب من الشرق وأصبحت قرية جبرين مهددة بالابتلاع الحضري .

وقد تم بناء معظم هذه الأحياء الراقية من أجل السكن الشخصي دون أي تقنين في وسائل الترف ، وهنا يظهر الفرز الاجتماعي بفعل تقارب السكان من حيث مستوى دخلهم وتعليمهم لا على أساس طائفي أو قومي كما كان في القرون الماضية ، فهنا يسكن المسيحي بجوار المسلم بلا تمييز طالما يتمتعان بسوية معاشية واحدة .

الضواحي الصناعية :

اذا كانت الصناعة الحديثة قد استوطنت الضواحي الخارجية كما في منطقة عين التل في شمال حلب وفي شمالها الغربي في حي بلليرمون وفي منطقة الشيخ سعد والمسلمية والراموسة فان المدينة القديمة لم تتنازل بعد عن دورها الصناعي الموروث عن ماض بعيد وهي صناعة خفيفة على العموم . ولكن لا يمكن الكلام عن أحياء صناعية في المدينة القديمة لأن هذه الصناعات قامت في أحياء ذات وظائف مختلطة ، أي انها أحياء سكن وعمل في آن واحد .

ففي الماضي كان صناع كل حرفة يجتمعون في حي واحد أو سوق واحد ، مثل سوق النحاسين قرب باب النصر ، أو قبو النجارين في حي البياضة ، وسوق السراجين ضمن « المدينة » ، وكانت مواقع هذه الأسواق تتحدد بعوامل مثل :

١ ـ جوار الأسواق : كالقيسيريات التي تضم صناعات معينة ، كقيسيرية الملقية في جوار باب النصر ، أو قرب أسواق الريفيين كالصناعات التي تقوم قرب أبواب المدينة القديمة والتي تعمل لزبائنها

الفلاحين كصناعة البراذع وصناعة الجرجر للدراس والمحارث الخشبية .

٢ ـ جوار الماء الجاري : كانتشار الطواحين على مجرى قويق أو الدباغة والشطافين .

٣ ـ الأمن : مثل سوق الصاغة الذي قام في قلب المدينة تحت ظلال الجامع الأموي الكبير .

٤ ـ الديانة : كصناعة النبيذ والعرق في الأحياء المسيحية الشمالية.

أما الصناعات الحديثة ، باستثناء بعض المطاحن الخاصة ، فقد قامت مبدئياً في خارج نطاق المدينة وذلك منذ عام ١٩٣١ كصناعة النسيج الآلي في منطقة الفيض وفي حي الميدان والغزل والنسيج القطني قرب عين التل في الشمال ، كما انتشرت معامل النسيج أيضا في منطقة العراقوب ، وأخيرا قام معمل للنسيج في منطقة بللبرمون ، هذا في حين آثرت المطاحن الحديثة التوطن في شرقي المدينة على أبواب السهب حيث تقع أهم سهول الحبوب السورية . والصناعة الثقيلة الوحيدة تقع في جنوبي حلب وفي شمالها ونقصد بها معمل اسمنت الشيخ سعيد ومعمل اسمنت المسلمية .

ولكن الصناعة بدأت تتحرر من المدينة نظراً لكهربة الريف على نطاق واسع وبذلك قامت صناعات في ريف حلب الشرقي مثل صناعة الجرارات من ماركة « فرات » مثلا قرب السفيرة .

★ ★ ★

حركة العمران في حلب وبلديتها

لمحة تاريخية عن المخطط :

ان نظرة خاطفة نلقيها عن خريطة حلب ، ذات المقياس الصغير ، تسمح لنا بتمييز مدينتين متباينتين ، تطوق احداهما الأخرى نتجتا عن حقبتين متعاقبتين ، هما المدينة القديمة ، أو ذات البيوت العربية ، وتبلغ مساحها ٤٠٠ هكتاراً تقريباً ، وتتصف بمخطط غير منتظم ، مماثل لسائر مدن الشرق الأوسط الاسلامي ، وكان عدد سكانها لا يتجاوز الربع مليون ، فكانت طرقها عبارة عن تيه تنتهي بدروب مغلقة ، أو تنفتح على ساحة صغيرة ، وذات أبنية متراصة ، لهدف أمني ودفاعي ، وقد نتج هذا المخطط وتطور ضمن ظروف سياسية واجتماعية معينة .

بيد انه يجدر بنا أن نميز فيها قسماً محصوراً ببعض بقايا السور القديم ومساحته ٢٥٠ هكتاراً يسمى « جوّا » أو الداخل وبين آخر يطيف بالقسم الأول بشكل غير تام ، على شكل أحياء خارجية ، هي الأرباض أو « الحاضر » تسمّى « برّا » فالقسم الأول وهو الموروث من مدينة برهيه الاغريقية لا يزال يحتفظ بعد ٢٣ قرناً ، في بعض أحيائه، ولاسيما في حي الجلوم ، ببقايا المخطط الهلليني ، ذي الشوارع المتقاطعة عمودياً ، رغم كل التعديلات الطارئة منذ ذلك الزمن البعيد .

ففي خلال تلك الحقبة كان تطور حلب العمراني خاضعاً لنظام ناتج عن مخطط مسبق تدعمه السلطة الحاكمة . وابتداءً من القرن الخامس الميلادي ، أي في عصر امبراطورية المشرق البيزنطية ، أصبح هذا المخطط عرضة لإهمال تدريجي فقامت أبنية عديدة بلا نظام ودون الخضوع لأي قانون اللهم إلاّ لتضاريس الأرض ذاتها .

ولما دخلت حلب تحت ظل الحكم العربي الاسلامي ، وحتى القرن الثالث عشر ، كان توسع المدينة دائماً منسقاً حسب متطلبات وجود سور مربع الشكل يقسر على ضغط المساحات المنيّة جهد المستطاع مع السماح أحياناً بتوسيعها على حساب المساحات المخصصة للاستعمال العـام .

أما سلطة المحتسب فلم تكن ، على ما يبدو ، رغم تعدد صلاحياته ، بكافية في بعض العصور ، على الأقل ، لإجبار المواطنين على احترام الحق العام وتأمين سلطة الشرطة البلدية . وقد سمح فقدان السلطة الوازعة، في أثناء فترات الاضطراب السياسي ، التي كثيراً ما توالت على هذه المدينة الواقعة على تخوم العالم الاسلامي ، بكثير من المخالفات لأبسط القواعد العمرانية مثل كثرة القناطر العريضة فوق الأزقة المخصصة والشرفات المسدودة « كشك » ، الخ .

واستمر هذا الوضع وتكرر في الأحياء الجديدة ، في خارج الأسوار ، التي راحت تظهر منذ مطلع القرن الثالث عشر .

أما في العصر العثماني فقد بلغت الفوضى العمرانية أقصاها بسبب قابلية الموظف الصغير للرشوة وفساد رؤسائه . وهكذا استطاع الوجهاء أن يوسّعوا أبنيتهم على حساب الطريق العام حسب نفوذهم . فأصبحت الطرق ضيقة جداً تتعاقب فيها الأزقة والقناطر ، مما يجعل سير الناس لا يقل صعوبة عن سير الجمال أو حيوانات النقل الأخرى التي تنقل المواد الثقيلة كالمواد التموينية والحجارة للبناء أو الحطب والفحم .

أما في الأسواق فان الاعتداء على الطريق لم يكن بأخفّ مما سبق لأنها أصبحت على درجة من الضيق التي لا تسمح لها بالتواؤم مع حياة تجارية ناشطة ، أضف الى ذلك أن الزلزال المريع الذي وقع عام ١٨٢٢ والذي أدّى لتصدّع أكثر الأبنية الأثرية ، كما نال خاصة أملاك الأوقاف المهملة ، وقد جلب معه الكثير من التشويه على المنظر الحزين البائس الذي كانت عليه حلب في أواسط القرن الماضي .

ثم جاءت اصلاحات عام ١٨٦٥ ، ولكن التنظيم البلدي لم ينل منها فوائد ذات بال ، وظل العمران من أكثر فروع الادارة العثمانية إهمالاً ، وكان يسود شئون عمران المدينة التساهل والتلاعب ، وكانت الأملاك العامة تسقط فريسة الطامعين من ذوي النفوذ والطامعين الأنانيين .

حقاً لقد منحت مدينة حلب بلدية حقيقية في عام ١٨٦٦(١) ولكن عمليات التجميل التي حدثت في أواخر سني الحكم العثماني لم تكن ناتجة عن تنظيم عمراني متين ، كما حدث في العصر الهلليني ، بل عن مبادهة بعض الولاة الأتراك النشيطين أو عن بعض الشخصيات المحلية المتأثرة بالمدنية الأوروبية .

وقد طرأت أولى التطورات على المخطط عندما ظهرت أحياء جديدة ذات شوارع متصالبة ، مستقيمة ، معدّة لسكن طبقة اجتماعية بورجوازية من المسيحيين في حي العزيزية عام ١٨٦٨ ، أو حي الجميلية ، عام ١٨٨٥ ، والذي قام الى الغرب من نهر قويق بفضل مساعي جميل باشا حاكم حلب وعلي محسن باشا قائد جيش ولاية حلب وكيليكية .

---

(١) لقد تاسست البلدية في السنة المذكورة برئاسة احمد بهاء الدين القدسي وخلفه راغب الجابري ، عبد القادر القدسي ، بكر صدقي ، بهاء الدين قدسي ، مصطفى آغا ، محمد حسام الدين القدسي ، عبد الرحمن الكواكبي ، مصطفى الافندي ، احمد مختار الشريف ، صادق الشريف ، بشير الاوبري ، اسماعيل صادق بك ، صالح كنخذا ، بشير الاوبري ، غالب ابراهيم باشا ، الاحسان الجابري ، غالب ابراهيم باشا ، عزت ابراهيم باشا . وفي عام ١٩٤٢ ترأس البلدية عبد اللطيف الشطي ثم احسان الشريف ، الأمير مصطفى الشهابي ، مجد الدين الجابري ، زكي جزماتي ، حسني البرازي ، خليل رفعت ، فؤاد الحلبي ، زكي حميد باشا ، احمد منير الوفائي ، هاني الريس ، سعيد بصمه‌جي ، بدري الجراح ، وحيد الغنام ، محمد طلس ، عمر عداس ، بدري الجراح ، بهجت المدرس ، سعيد السيد ، اسماعيل قولي ، محمد كيالي ، سليمان النسر ، صلاح برمدا ، محمد عادل ميري ، نعيم وفائي ، عبد الغني سعداوي ، شتيوي سيفو ، احمد اسماعيل ، محمد زكي غزال ، حسين بطاح ، محمد ناجي عطري ، مامون المدرس بدءا من شباط ١٩٨٧ ، هذا علما بان بعض رؤساء البلدية الواردة اسماؤهم بعد ١٩٤٠ كانوا محافظين في الوقت ذاته (والي) .

أما في داخل المدينة القديمة فقد تم فتح شارع مستقيم ، عام ١٨٨٢ ، على طول الضلع الشمالي من السور ، اسمه شارع الخندق ، اي فوق الخندي الذي كان يطيف بالسور المذكور والذي كان حينذاك عبارة عن بساتين صغيرة تستقي من مياه البالوعات أو من آبار محلية . وفي نفس العام وصل الى حلب المهندس المعماري الالماني يونغ ، وهو ثاني مهندس تستعين به بلدية حلب الناشئة بعد المهندس الفرنسي شارتيه الذي اشرف على بناء برج ساعة باب الفرج عام ١٨٩٨ ، فاوجد ، بناءً على طلب الحكومة ، نظاماً عمرانياً يرسم القواعد الواجب اتباعها لتنظيم أحياء سكنية جديدة للطبقة الموسرة مثل حي الاسماعيلية والجميلية . وقد اشرف على تنفيذ مخطط يونغ « معلم معمار » نيابة عن البلدية لفقدان المهندسين العرب أو الأتراك في ذلك العصر وفي تلك الفترة تم بناء عدد من المخافر المتماثلة الطراز في المدينة : في حي العزيزية ، باب النصر ، باب الحديد ، قسطل الحرامي . . .

وفي أواخر القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي توسعت حلب نحو الغرب ، ويفسّر ذلك بسهولة نظراً لرغبة الناس بالتمتع بالرياح اللطيفة النقية القادمة من الغرب صيفاً ، كما أن الحلبيين ساعدوا على توسع المدينة في كل من حي الجميلية والعزيزية والحميدية والجابرية بسبب رغبتهم في اقتناء مساكن حديثة ، وهرباً من الروائح الكريهة التي كانت تنطلق من منظومة الكهاريز البدائية في المدينة القديمة . .

وفي عام ١٩٠٢ وصل قطار خط رياق الى حلب ، فاتسعت المدينة باتجاه محطة الشام ومحطة بغداد ، ولم يعد نهر قويق ، الذي كان يشكل الحد الغربي للمدينة ، عقبة امام توسع المدينة التي بقيت محصورة منذ آلاف السنين على ضفة النهر اليسرى ، وعمل الوالي رؤوف باشا ، عام ١٩٠١ ، على فتح بضعة شوارع حديثة وعلى تهوية بعض الأحياء القديمة بعد أن امر بهدم بعض البيوت المتداعية ، كما تم الاستيلاء على بعض الأملاك من أجل تصحيح امتداد الشوارع الجديدة مثل النيال وبستان كل آب ، وبانقوسا وقصر البلدية سمالي القلعة الخ .

أولى المحاولات العمرانية والتنظيمية

لم يظهر التنظيم الحديث في الجهاز البلدي ، وبالتالي في النظام العمراني ، بكل معنى الكلمة ، الا مع العهد العربي الفيصلي وما بعد ، فقد أعيد تنظيم بلدية حلب في عهد رئيسها غالب ابراهيم باشا الذي كان عبد الحميد الجابري نائباً له وديزيريه حمصي أميناً عاماً لها ، وفي عام ١٩٢٥ ظهر قانون « التجميل العمراني » الذي منح بلدية حلب الأسس التنظيمية الحديثة واصبح على راس المصالح الفنية البلدية مهندس معمار مختص .

غير أن الافتقار لكادسترو حقيقي حال دون القيام بعمليات تحسينية وتنظيمية واسعة النطاق لأن تحسين كل منطقة عمرانية يتطلب مخططاً على حدة . وهكذا تم صع اول مخطط اجمالي للمدينة استناداً الى خرائط مفصلة في عام ١٩٣١ . وابتداء من ذلك التاريخ أخذ عمران البلدية شكلاً حديثاً حقاً ، ولكنه كان بطيئاً جداً ، وعهدت البلدية الى المهندس العمراني دانجيه بمهمة القيام بعمل مخطط للمدينة . وبعد عامين انجز تقريره المنون « مخطط تنظيم وتجميل وتوسيع حلب » .

ولما كان هذا المهندس متأثراً بعقلية وبمفاهيم مماثلة لمفاهيم المهندسين الفرنسيين الذين كانوا يشرفون على تخطيط مدن المغرب العربي الذي كان واقعاً حينذاك تحت هيمنة الاستعمار ، فقد راى « أن مدينة حلب القديمة هي مدينة جميلة للغاية لذا يجب المحافظة على سيمائها بحرص شديد » .

وكان ينحصر هدف مخططه في بذل كل الجهود الرامية لتنظيم المدينة الجديدة ، وان تترك ، ولو مؤقتاً على الاقل عمليات تحسين الأحياء الحديثة القائمة على الطرز الأوروبي ، وعدم القيام بأية عملية جراحية « في المدينة القديمة باستثناء » فتح طريقين ، ضروريتين ، تربطان المدينة الحديثة بالحي الاداري المجاور للقلعة ، ولكن بشرط أن يمنع قيام أي بناء حديث على جوانبهما ولا سيما العمارات التي تحمل

على واجهاتها الاعلانات الكهربائية الملونة ، اي المحافظة على معالم المدينة القديمة تماماً فيها ، واحتفاظها بطابع العصر الوسيط ، الذي يمنح حلب ضمن الأسوار جمالها .

والى جوار المدينة القديمة الشرقية الساحرة ستقوم مدينة حديثة جميلة ، الى الغرب منها ، جيدة التهوية بفصل شوارعها العريضة ، وساحاتها التي ستتوزع عنها وسائل المواصلات ، في حين تستخدم الساحات الأخرى للراحة بجوار العمارات الكبيرة والحدائق العديدة . وسيتم ارتباط المدينتين بوساطة ساحة باب الفرج التي ستكون المركز الحقيقي لمدينة حلب بجوار الزاوية الشمالية الغربية من السور ، وهو المشروع الذي تنوي بلدية حلب القيام به حالياً ، بحيث تكون باب الفرج « حبل السرة » الذي سيربط حلب الجديدة بحلب القديمة .

غير أن هذا المخطط الذي كان يؤلف في الثلاثينات برنامجاً ممتازاً لمستقبل حلب العمراني لم ينفذ الا جزئياً بعد حذف كل ما يمس مصالح العائلات الكبرى ، لان المخطط المذكور يخصص ارضا واسعة واقعة الى الغرب من محطة الشام ، كي تكون ميدان سباق وملعباً لكرة الراحة « تينس » ، ما لبث ان تحولت الى عمارات وقصور . كما ان هذا المشروع الجريء والذي كان يتطلب تطبيقه بحذافيره عمليات استملاك باهظة النفقات على خزينة البلدية لم ينل موافقة المجلس البلدي ابدا . وفي الوقت ذاته كان العالم الاثري جان سوفاجيه يقدم « تقويم الابنية والمواقع الاثرية » وهي دراسة لا غنى عنها قبل اية عملية تنظيم تستهدف المدينة القديمة .

وفي كانون الثاني من عام١٩٣٦ انشأت بلدية حلب الدائرة الفنية العمرانية وسمت لها لجنة مؤلفة من فنيين سوريين واجانب ابرزهم « دوملنار Demeulnaere » الفرنسي بغية القيام بمشروع جديد لعمران حلب . وبالفعل تم تحقيق هذا الغرض واقتبس المشروع الجديد خطوطه العامة من مخطط دانجيه Danger المذكور انفا وطرات لمساته الاخيرة

على يد المهندس العمراني نشـأت شـحادة بالتعـاون مـع المهندس « ايكوشار Ecochard »(١) وتمت الموافقة عليه في نهاية عام ١٩٣٨ . وكان يشتمل على عدة مخططات تفصيلية تتعلق بالمواقع الاثرية ، مع تنظيم اخراجها للعيان ومنحها قيمتها السياحية ، كما فرضت واجبات الالتزامات على الابنية المجاورة لها ، كما نص هذا المشروع على تنظيم الاحياء الواقعة الى الغرب من سكة الحديد بصورة تجعل مساحة الاراضي المخصصة لها ، كما تحدد الارتفاع الاقصى للابنية بثلاثة طوابق . وكان الهدف هو تحويل الاحياء الجديدة الى احياء بورجوازية سكنية بين الحدائق او مايسمى مدينة البساتين cité-jardin ، او Garden-City.

ومن جهة اخرى اهتـم المخطط بالتخصص الوظيفي لكل منطقـة Zoning ولاسيما فيما يختص بزراعـة البساتين وبالصناعات المضرة بالصحة او المزعجة لراحة الاهلين . كما نص المخطط على تحويل الاراضي الزراعية المستنقعية الواقعة على ضفاف فويق بين شركة الكهرباء وحي العزيزية والتي كان منها ملهى اللونابارك الصيفي الى حديقة عامـة كبيرة تقوم بوظيفة مستراض ومتنفس للمواطنين(٢) .

غير ان هذا المشروع تعرض ـ وياللاسف ـ لعدة تعديلات خلال الحقبة الطويلة التي ظل نافذا فيها اي بين ١٩٣٨ ـ ١٩٥٤ ، كمـا تساهلت البلدية في عدة مخالفات صارمة ادت في فترة قصيرة الى تشويه معالم هذا المخطط وجوهره ، ومع ذلك علينا ان نقر بانه لم يحدث اي توسع فوضوي وعفوي في الاحياء الخارجية في خلال تلك الحقبة ، اذ كانت كل الطرق الجديدة مستقيمة ومتقاطعة بزوايا قائمة .

---

(١) لقد استدعت الحكومة العربية السورية هذا الخبير عام ١٩٦٤ للمساهمة في تنظيم مدينة دمشق عمرانيا بالتعاون مع بنشويا الياباني .

(٢) لقد تم بالفعل انشاء هذه الحديقة الرائعة التي دعيت « الحديقة العامة » في عهد رئيس البلدية المرحوم مجد الدين الجابري وهي من مفاخر بلدية حلب .

واجمالا لقد كانت المشاريع الضرورية والقادرة على ادخال بعض التطوير على المدينة القديمة مصابة بالشلل تقريبا خلال فترة الانتداب بسبب عدة عوامل أهمها :

١ً – احتمال مقاومة الاهالي المتمسكين بحقوقهم الموروثة ، وبتراثهم الوطني والذين كانوا يرتابون بكل تحويل يأتي على يد الاجنبي، وقد يقاومونه بردود أفعال شعبية وبعاطفة جماعية .

٢ً – روح عدم التعاون والمقاومة الضارية من طرف الطبقة الغنية التي تملك العقارات المشمولة بالهدم ، وهي طبقة شديدة الحرص على مصالحها الخاصة وعلى امتيازاتها .

٣ً – رغبة المستشارين والهندسين الفرنسيين الذين عملوا في بلدية حلب في صرف النظر عن المدينة القديمة بين الاسوار وتركها ضمن اطارها التقليدي القديم لهدف سياحي ونقل كل الوظائف الهامة والفعاليات الاقتصادية الناشئة ، تدريجيا ، نحو المدينة الجديدة .

نهضة عمرانية ومخطط كوتون(١) :

في الوقت الذي كان الفعالية الاقتصادية تخطو خطوات جبارة خلال الحرب العالمية الثانية بسبب انقطاع الاستيراد ، كانت صناعة البناء ، وبالتالي أعمال التنظيم العمراني ، تتعرض لحقبة ركود حقيقي لفقدان المواد الاولية الضرورية للبناء كالزجاج والحديد والخشب الخ ... وابتداء من نهاية الحرب أصبح توسع المدينة في كل الاتجاهات تقريباً يثير مشاكل عويصة أمام البلدية ما عتمت أن غدت الشغل الشاغل للمسئولين فيها .

ومنذ ذلك الوقت تحالف المهندس البلدي مع عامل الهدم المسلح برافعته ومعوله ، واصبحا يقصان الشوارع الجديدة كما يقص الخياط

(١) آندريه كوتون Gutton : مهندس عمراني فرنسي . استاذ في المدرسة الوطنية العليا للفنون الجميلة وفي معهد عمران المدن في جامعة باريس « السوربون » .

القماش . ولكن عمليات الهدم لم تكتسح فقط الابنية الموروثة من الماضي المجيد ، دونما رحمة ، والتي تخص التراث القومي ، بل حاولت ابراز الابنية التاريخية وازاحة ما يطيف بها من ابنية تقليدية لا تحوي اي طابع فني يستحق الاهتمام . بيد أن أعمال الهدم لم تكن تتراجع أو تتردد أمام تقويص مزار أو قبر أحد الصالحين مثل قاضي الحاجات أمام زقاق الزهراوي ، وراء الجامع في سبيل المصلحة العامة ، وهو أمر يصعب تحقيقه في ظل حكم أجنبي . وهكذا أصبحت الشوارع المفتوحة في كتلة المدينة القديمة ووجائبها تحل محل الفوضى المعمارية التقليدية وصارت محفوفة بعمارات حديثة ذات ثلاثة طوابق أو أربعة تحجب بجدرانها المرتفعة البيوت العربية ذات الباحة التي لم يعد من الممكن الاستمتاع برؤية سحرها الشرقي الا بالصعود الى احدى المنائر أو الى القلعة .

كما أن ارتفاع البنايات الجانبية ، الذي يتناسب دوما مع عرض الشارع الذي تطل عليه ، لم يؤد في أغلب الاحيان الى الحاق الاذى بالبيوت القديمة من الناحية الصحية لان استقامة الشوارع الجديدة وعرضها يسمحان بمرور النور والريح بحرية لاسيما بعد حذف الكشوك الخشبية والقناطر التي كانت تحجب النور الى حد كبير .

لكن الانجازات في خارج المدينة القديمة لم تكن على مثل هذا المستوى ، مع الاسف ، اذ تأخر توسيع ساحة باب الفرج عن طريق هدم الحي الواقع الى الشرق منها برمته ، حتى اواسط الثمانينات ، وظهرت الى الشرق منه ست عمارات على شكل ابراج في قلب المدينة القديمة الى الشمال من ساحة السبع بحرات . أما الساحة الناشئة عن عمليات الهدم فلازالت تنتظر الانشاءات الجديدة والتنظيم كي تقوم بدور عقدة مواصلات ، أو بكلمة مختصرة محطة صغيرة حقيقية مهمتها توزيع اتجاهات المرور في المدينة .

كما أدى ظهور طبقات اجتماعية تزداد فروق تباينها تدريجيا ، في المدينة الحديثة ، الى فروق لا تظهر بنوعية المساكن فحسب بل في

المخطط ذاته لان الاختلاف الجوهري بين الطبقة البوورجوازية والطبقة الكادحة اخذ يظهر على الخارطة ذاتها . فالاحياء ذات المخطط النجمي أو الاشعاعي من مركز واحد مع حدائق منزلية هي أحياء الطبقة الميسورة ، بينما تكون الاحياء ذات المخطط الشطرنجي ، ولاسيما في شمال وفي شرق المدينة ، هي من نصيب الاناس العاملين أو « المستورين » .

هذا كما أن المعامل والمصانع التي كانت في الخمسينيات على هامش البلدة اصبحت اليوم محاطة بالمساكن الجديدة وهو وضع يستدعي اللجوء الى مخطط عمراني جديد . وقد أنجز هذا المخطط على يد الاستاذ آندريه كوتون في عام ١٩٥٣ بتكليف من رئاسة بلدية حلب وبدىء تنظيمه عام ١٩٥٥ . وقد كان هذا المخطط أكثر واقعية من المشاريع السابقة اذ تميز بسهولة تطبيقه وبقلة تكاليفه ، لكن مصير تنظيم البناء الذي نتج عنه لم يكن على مستوى الآمال ، اذ طرأت عليه عدة تعديلات ومشاريع جزئية سمح بها المجلس البلدي كما عمل خبيران على وضع بعض اللمسات على هذا المخطط هما بانشويا الياباني وجان كلود دافيد الجغرافي الفرنسي .

وعلى كل يظل مخطط كوتون اساس كل تعديل يطرأ على سيماء حلب العمراني ولا سيما ما يتعلق بالزونينغ zoning كما سيظل هذا المخطط صالحا حتى فترة لابأس بها لان الحدود العمرانية لحلب تتسع بموجبه لاستيعاب ٨٠٠٠٠٠ نسمة فوق ٢٥ كيلو متر مربع أو كان صالحا حتى عام ١٩٨٠ على الاقل وعلى كل أصبح لدى بلدية حلب عدد من الخبراء والمهندسين ما يغنيها عن الاستعانة بأية خبرة أجنبية وقد قيل « أهل مكة أدرى بشعابها » .

حركة البناء وتوسع حلب :

من المفيد الاشارة الى ان توسع حلب لم تعيقه تضاريس الارض كجبل قاسيون الذي يمنع توسع دمشق باتجاه الشمال ، لان الهضبة

المهيمنة على المدينة القديمة من الغرب قليلة الارتفاع ، في حين ان ضفة قويق اليسرى لا تؤلف أكثر من سهل متموج ، غير أن اتساع حلب لم يكن دائما على نفس القدر من السهولة في سائر الاتجاهات .

فقد ظل نهر قويق يؤلف عقبة جدية ، مدة طويلة ، أمام توسع حلب نحو الغرب . ولم تستطع المدينة ان تجتاز هذا النهر الضئيل ذي الفيضانات العشوائية باتجاه الغرب وذلك يعود جزئيا لوجودبساتين مرواة ثمينة جدا لحياة المدينة . أما في الجهات الاخرى ، ولاسميا في الجنوب الشرقي فقد كان مجاري الكهاريز المكشوفة حتى ١٩٥٠ تعيق توسع المدينة في هذا الاتجاه . ولكن يجب أن نضيف الى ذلك أن وجود جماهير من البؤساء والريفيين من ذوي البنية العشائرية ، والمتصفين بمزاج ميال للنزاعات الدامية ، جعل من جوارهم أمرا غير مرغوب فيه اطلاقا وكان تخريب شطر كبير من حي باب النيرب في أواخر السبعينيات أمنية غالية حققتها بلدية حلب في مطلع الثمانينات .

وبالواقع لقد ظلت حلب حتى القرن ١٣ محصورة ضمن اسوارها القديمة المحصنة وحيث لازالت بعض الاحياء الداخلية فيها شاهدة على ذلك ومحافظة على طابعها . وفي مطلع القرن ١٤ خرجت حلب من أسوارها فأصبحت ذات استطالات تمثل الضواحي الناتجة من تزايد فعالياتها التجارية ولاسيما في ايام المماليك . وكان نمو المدينة يتم بصورة رئيسة حسب اتجاهين : من الناحية الشمالية ومن الناحية الشمالية الغربية على حساب البساتين مثل حي الجديدة وحي الكتاب من الغرب الذي هو أول حي يقوم على الضفة اليمنى للنهر بعد حي المشارقة وظل حتى عام ١٩٣٠ تقريبا مقتصرا على بعض وجهاء المسيحيين والاجانب ، وقد زال كليا بالوقت الحاضر (انظر الشكل السابق ١٢) .

أما من الناحية الشرقية والجنوبية الشرقية والجنوبية فقد كان معظم الوافدين من أصل ريفي . وكان معظم هؤلاء من الفلاحين أو من أرباب الحرف الذين استقروا في الاحياء الجديدة التي كانت تتوسع أحيانا على حساب كروم الزيتون والفستق .

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان الاتجاه الغالب للحركة العمرانية على شكل اندفاع نحو الغرب والشمال الغربي ، لأن عمارات حي الجميلية الجديدة تجاوزت نهر قويق الذي أصبح دوره ، كما يبدو ، وذلك بسبب الجذب الذي كانت تمارسه محطتا الشام وبغداد ، وورشات سكة الحديد ، هو شطر المدينة الى قسمين بدلاً من أن يكون تخمها الغربي كما كان في الماضي ، وقد قطنت الأحياء الغربية جماعات موسرة أو أريستوقراطية ، فئات تركت المدينة القديمة بحثاً عن أحياء أجمل ، في المدينة الجديدة ، من الناحيتين الجمالية والاجتماعية . وقد سبق أن رأينا أن الوجهاء والموسرين المسيحيين اختاروا حي العزيزية في شمال غرب حلب .

وفي مطلع القرن العشرين ظهرت بحلب حركة عمرانية توسعية باتجاه الغرب بفعل قيام عدد من الوجهاء ببناء عمارات حديثة ، وفي الوقت نفسه كانت الأحياء الاسلامية المتطرفة في الجنوب الشرقي والشرقي تتسع أيضاً ، وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى اتسع كل من حي الجميلية والعزيزية بعد قيام العديد من الأبنية الكبيرة الجديدة المتعددة الطوابق .

وهذا التوسع الذي لم يعد أي عائق يقف في وجهه كان ناتجاً عن دوافع تفسر بأسباب اجتماعية وغالباً عن حب التقليد أو « الموضة » الذي كان يدفع الناس الراغبين في تسلق السلّم الاجتماعي الى سكنى هذه الأحياء الخاصة « بالمتمدّنين » أو بالأجانب الأوروبيين . وهكذا أصبحت حلب تدفع حدودها تدريجياً نحو مرتفعات جبل الجوشن .

غير أن امتداد المدينة أخذ شكلاً جديداً على أثر هجرة عشرات الالوف من الارمن الى حلب الذين تركوا مواطنهم في الأناضول وأرمينية بعد ان امرت قيادة جيش الشرق الألماني والتركي بإجلائهم ، وهكذا اوجدوا بمساعدة احدى لجان جمعية الامم عدة أحياء مثل الميدان وبستان الباشا وتراب الهلك وارض العجور والداوودية والأشرفية .

وبذلك استطاعوا أن يوجدوا « مدناً » صغيرة من العدم ، وكانت مؤلفة من بيوت الصفيح وقطع الأخشاب « البراكات » ثم وبالتدريج تحولت الى بيوت من « اللبن » وبعدئذ الى بيوت من الحجر .

هذا وقام حي من القصور ومن العمارات الأنيقة بين حديقة السبيل وبين محطة الشام في حين كان يتشكل حي شعبي في شرقي البلدة ونقصد به حي تربة لالا .

أما في المدينة القديمة فقد طرأت عليها تحسينات عديدة على أثر فتح الشوارع الجديدة (شكل ١٣) التي أصبحت تحف بها أبنية حديثة جداً كما ساعد ذلك على تسهيل وسائل المواصلات الحديثة . ولكن حركة البناء في فترة ما بعد الحرب الأخيرة كانت تتميز بالجنوح نحو سد الأراضي الشاغرة بين الأحياء أو البناء في مواقع المقابر الاسلامية واليهودية والمسيحية التي توقف الدفن فيها منذ نهاية الحرب العالمية الأولى مثل مقبرة العبارة بجوار المنشية والمقابر الواقعة بجوار حي الكتاب والى الغرب من مركز الاطفائية . ونظراً لغلاء سعر هذه الأراضي الواقعة بين أحياء حديثة فقد كانت كل الأبنية التي قامت فوقها على أحدث طراز ومتعددة الطبقات بغية استثمارها تجارياً للسكن وللتجارة . كما ساهم في توسع المدينة انتشار المصانع على بعض الطرق الخارجة من المدينة واخراج بعض الصناعات من المدينة القديمة نحو الأطراف .

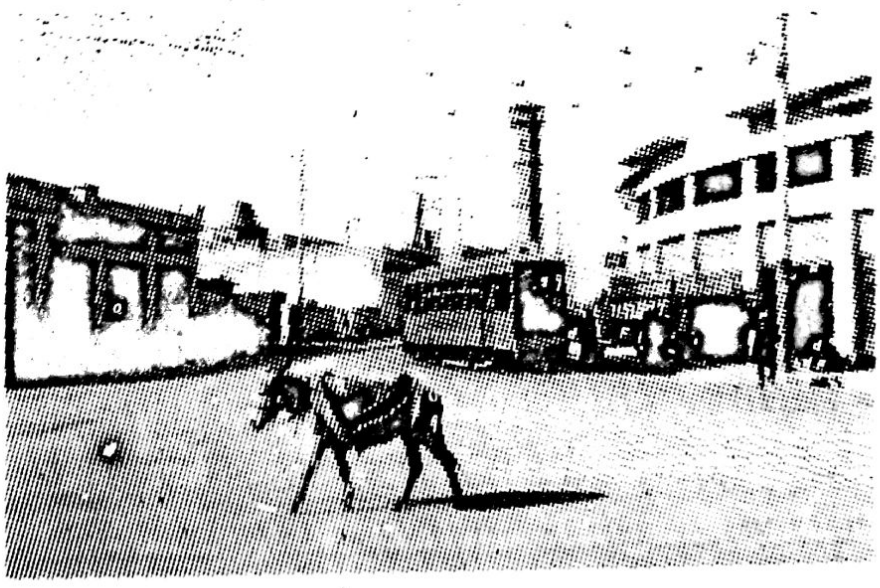

هذا وقد عمد بعض كبار الملاكين الى تنظيم أراضيهم المجاورة لحلب وفرزها ومن ثم بيعها كمقاسم للبناء . كما أن كثيراً من بيوت الكروم الملاصقة لحلب والتي كانت عبارة عن سكن موقت خلال الصيف والخريف والتي كان أصحابها يخلونها شتاءً ويعودون للبدة، بسبب قلة الامن ، شتاءً أخذت تتحول الى بيوت دائمة وتحول بعض الكروم الى أحياء صغيرة ، مثل حي كرم سري وأرض البلورة ، امتدت على طريق قرية عسان ، ولكنها أحياء تحتاج الى اهتمام كبير وتنظيم حثيث من جانب البلدية ولا سيما الاحياء التي ظهرت بجوار قرية جبرين .

وهكذا ابتلعت حلب وهضمت عدداً من القرى المجاورة مثل النيرب والأنصاري والشيخ سعيد وبلليرمون ويحيق تهديد الابتلاع بقرية جبرين والدويرينه الخ ...

وكانت الأوقاف الخيرية والأوقاف الذرية تقف عقبة كأداء أمام حركة عمران حلب . وقد أمكن تصفية قسم كبير من الأوقاف الخيرية وبيع المتداعي منها في ١٩٢٨ كما عمل مرسوم ١٩٤٩ على تصفية الأوقاف الذرية . والواقع أصبحت مديرية الأوقاف عصرية تماماً منذ الاستقلال وقامت بتصفية كثير من أملاكها المتهدمة والمتداعية ، وما بقي لديها الآن بحالة جيدة ، ومعظمها عبارة عن عقارات تجارية تعطي ايرادات لا بأس بها ، كما تعمد مديرية الأوقاف لبناء عمارات ضخمة جداً بقصد تجاري أو سكني مما ساهم في حل أزمة السكن بالمدينة ، ففي ١٩٧٥ كانت الكثافة في الغرفة الواحدة ٢٫٥ في حي الأشرفية و ٣٫٥ في حي باب النصر و ٥ أشخاص في أحياء الكروم الجنوبية وفي المغاير .

ولكن العامل الاجتماعي أو السيكولوجي هو الذي حث على بناء عدد عظيم من المساكن الصغيرة ، واقصد بذلك روح الفردية وحب الاستقلال لدى الأزواج الشبان الذين أخذوا يرجحون العيش بعيداً عن وصاية الآباء والأمهات ، هذا فضلاً عن الثورة الديموغرافية الوثابة الناتجة عن سقوط نسبة الوفيات ، ولا سيما وفيات الأطفال ، منذ

١٩٤٥ بعد انتشار مياه الشرب النقية وبعد ١٩٥٠ على اثر وصول الادوية المضادة للحيويات وخاصة البنسيلين الذي اكتشفه الدكتور فيلمنغ البريطاني .

وقد كان متوسط عدد رخص البناء الممنوحة سنوياً من قبل الدائرة الفنية في بلدية حلب يبلغ ٤٠٠ رخصة بين ١٩٢٢ و ١٩٣٧ ولكن ابتداءً من عام ١٩٤٠ هبطت حركة البناء الى حدّ كبير ، وعلى اثر انتهاء الحرب، ولا سيما بعد ١٩٤٦ طرأ بعض التحسّن ولكن ببطء شديد ، وابتداءً من عام ١٩٤٩ بدأت حركة البناء نشاطاً محموماً وخاصة من اجل السكن . وبعد أن كان عدد رخص البناء وسطياً لا يتجاوز ٢٠٠ خلال الحرب العالمية الثانية وصل الى ١١٨٠ رخصة في الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ وعام ١٩٥٦ وهبط بين ١٩٦٠ و ١٩٦٢ الى ٨٢٥ رخصة في العام . وفي ١٩٧٥ بلغ عدد رخص وحدات السكن ٥١٨٤ وعدد الغرف ١٦١٣٠ والمساحة الطابقية ٤٨٠٠٠٠ م٢ ، و ١٦١٨ وحدة تجارية و ٢٨ وحدة صناعية و ٧٣٣ رخصة صناعية في ١٩٨٧ . ولتكوين فكرة عن توسع مدينة حلب نذكر مساحتها بالهكتارات : الحقبة الهيللينية ٣٠ هـ ، السور الهيللييني ١٠٨ هـ ، بداية القرن ١٦ ، ٢٥٠ هـ ، بداية القرن ١٩ ٣٩٠ هـ ، ١٩٣٣ ، ٤٧٦ هـ وفي ١٩٥٣ ، ٧٦٤ هـ ، وفي ١٩٦٣ ، ١٧١٧ هـ وتقدر حالياً برقعة تمتد على ٢٥٠٠ هـ .

وتشير الأبحاث الحديثة أن سكان حلب كان عددهم ٥٧٠٠٠ نسمة في فترة ١٥٢٠ ـ ١٥٣٠ ، أي عند الفتح العثماني مقابل ٦٠٠٠٠ في دمشق وهبط الى ٤٦٠٠٠ بعد طاعون عام ١٥٥٥ ، وفي ١٨٧٠ ، ١٠٠٠٠٠ نسمة وفي ١٩٠٠ ، ١٤٠٠٠٠ ، وفي ١٩٢٥ كان ٢٠٠٠٠٠ منهم ٧٥٠٠٠ مهاجر أرمني لاجيء ويزيدون حالياً عن المليون ونصف . ولكن لا تزال حلب ، حتى كتابة هذه السطور ، تفتقر من الناحية الجمالية للعديد من المساحات الخضراء ، اذ يفترض حسب رأي الخبراء في تنظيم المدن أن يتمتع كل ١٠٠ مواطن بمساحة خضراء مقدارها ٤٠٠٠ م٢ ، أو ٤٠ م٢ لكل فرد، أو يجب أن يخصص عشر مساحة المدينة للحدائق على الأقل ،

اي ٧٥٠ هـ ولكن لا يجوز أن ننكر على مصلحة الحدائق في البلدية جهودها المشكورة في انشاء الحديقة العامة وحديقة السبيل وسواها كثير مثل حديقة سوق الأحد في الرمضانية وحديقة برية المسلخ وحديقة جب النور ويبلغ عدد الحدائق المسيّجة ٦٠ حديقة . وهي من المفاخر العمرانية . ولا بأس من اعطاء مثال عن رقعة الحدائق بالموازنة مع مساحات المدن فنجد أن حدائق لندن تؤلف ١٠٫٥ ٪ من المساحة العامة ، وفي شيكاغو ٥ ٪ ، وفي هلسنكي ٤٠ ٪ وفي هانوفر ٦٢ ٪ .

وربما كانت بلدية حلب معذورة بالماضي وحتى الآن بقلة المياه اللازمة لسقي المروج الخضراء والحدائق المزهرة ، ولكن كميات الأمطار كافية لزراعة غابات حقيقية من أشجار تتحمل الجفاف الصيفي كصنوبر حلب والسرو والزعرور والاوكاليبتوس الخ ...

ولا يخفى ما لمثل هـذه الحدائق من فائدة صحية واجتماعيـة ولا سيما بالنسبة للأطفال . ويجب على الانسان أن يعيش بحلب خلال شهر تموز أو آب كي يشعر بثقل وطأة الحر فيها ولا سيما عند سكون الريح ليلاً مما يجعل الانسان غارقاً في عرقه اللهم الاّ اذا كانت هناك مراوح كهربائيـة ، وخاصة بعـد أن ترد الجدران والسقوف حرارة الشمس التي تلقفتها خلال النهار مع الفائدة مما يثير أعصاب الانسان ، وهذا ما يفسر انتشار جماهير العائلات في الأحراش القائمة على جوانب الطرق الرئيسة .

أياد بيضاء لبلدية حلب بالأرقام :

الطرق : في خلال الفترة الواقعة بين عام ١٩٢١ و ١٩٣٧ استطاعت البلدية ان تقوم بتبليط وتزفيت ٧٦ كم من طرق مدينة حلب ، وفي ١٩٣٨ كان بحلب ١٥٠ كم من الطرق منها ٢٠ كم مزفتة و ٤٤ كم مبلطة .

وفي خلال ثماني سنوات ، اي بين ١٩٤٥ و ١٩٥٣ انجزت البلدية تعبيد ١٤٨ كم من الطرق المزفتة والمبلطة بالبازلت او بالحجر الكلسي ،

وفي ١٩٦٠ بلغ طول الطرق بالمدينة ٤٠٠ كم بين معبد بالبلاط أو مرفت ، أما في الوقت الحاضر فلا يكاد يقوم بناء حي جديد الاّ وتكون طرقه قد عبّدت على الفور تقريباً . وتتمتع حلب بطريق دائري وتنجز البلدية طريقاً آخر هو المحلّق الذي سيغلّف كل أحياء المدينة ، ويبلغ طول الشوارع المعبدة ٨٦٠ كم بين رئيسي وثانوي في ١٩٨٨ عدا الأسواق والأزقـة .

وبين ١٩٥٩ ـ ١٩٦٣ عملت البلدية على تغطيـة جزء من مجرى النهر في ساحة سعد الله الجابري أما الآن فلا يظهر مجرى قويق الاّ عند دخوله لحلب قرب المشتل الزراعي في الشمال وعند خروجه منها شرقي باب الجنان في الجنوب ، والواقع لم يعد مجرى قويق بعد تشييد سد الشهباء أكثر من ساقية من مياه مستعملة .

الكهاريز : كانت منظومة المجاري البدائية تؤلف مأساة مدينة حلب من الناحية الصحية . فحتى عام ١٩٣٠ كانت المجاري شبه مكشوفة أو مغطاة بحجارة غير متلاحمة مما يسمح بالروائح بالانتشار خلال فصل الصيف . وكان القادم للمدينة يشعر بهذه الروائح قبيل الدخول اليها بمسافة عدة مئات من الأمتار الى أن يصاب عصب الشم بالشلل داخل البلدة . وابتداءً من عـام ١٨٩٠ بدأت البلدية بتغطية كهاريز الأحياء الخارجية وبعد عامين قامت بردم الخندق الشمالي الذي كانت تصب فيه معظم مجاري المدينة القديمة . وفي سنة ١٩٠١ استطاعت البلديـة أن تبني مقـدار ٥٠٠ ذراع من الكهاريز في الأحياء الواقعـة في شمال السور ، وبالتوازي مع تعبيد الطرق منذ نهاية الحرب العالمية الأولى أصبح من الضروري بناء شبكـة الكهاريز الكتيمـة المبنية بالحجـارة والمتلاحمة بالاسمنت درءاً للروائح من ناحية وللحيلولة دون تلوث المياه الجوفية التي كان يعتمد عليها العديد من السكان من آبار منازلهم .

وهكذا كانت البلدية تبني مقدار نصف كم من الكهاريز وسطياً خلال فترة ١٩٢١ ـ ١٩٣٧ . وبلغ طول شبكة الكهاريز ٤٥ كم في عام

١٩٣٨ و حوالي عشر طول شبكة الطرق .... ، ولكن كان حوالي نصف بيوت المدينة ولا سيما في الأحياء الجديدة كالأنصاري والسبيل والاحياء الشعبية الشرقية بمعزل عن هذه الشبكة . وفي الحقيقة كان وضع بعض الأحياء الفقيرة مأساوياً من هذه الناحية ولا حاجة للتفصيل . وبعد الاستقلال زاد نشاط البلدية بشكل ملحوظ وتابعت تحسين الشروط الصحية بالمدينة بسرعة أكبر فأنجزت تمديد مقدار ٧٨ كم من الكهاريز بين ١٩٤٥ و ١٩٥٢ أي بمعدل ١١ كم بالسنة ، و ٢٧ كم بالسنة بين ١٩٦٠ و ١٩٦٢ حيث قارب طول شبكة المجاري طول شبكة الطرق والأزقة . ولكن سرعة نشوء الأحياء الجديدة الهامشية تجعل البلدية أحياناً عاجزة عن ملاحقة حركة الانشاء وبذلك تفتقر بعض الأحياء لمثل هذه المجاري ونذكر منها الواقعة بجوار قرية جبرين . وفي ١٩٨٨ بلغ طول شبكة المجاري ٩٥٠ كم .

التنظيفات :

لقد كان اهمال نظافه الطرق القاعدة الملحوظة خلال الحقبة العثمانية وكان البساتنة وأصحاب الأراضي الزراعية من سكان الأحياء الهامشية هم الذين يجمعون القمامات لتدميل مزارعهم . وكان الذي يجمع القمامة يدعى « سوادي » نسبة للسواد أي السماد ، ويمر صباح كل يوم من الأزقة مع حمار واحد أو اثنين ليحمله على ظهره في « السريجة » . والافتقار للنظافة وانعدام نظام المجاري هو الذي جعل حلب كسائر مدن العالم عرضة لجائحات الطاعون أو « الوبا » مرة كل ربع قرن تقريباً .

ومع بداية الحكم العربي الفيصلي تزايد الاهتمام بهذه الناحية الحيوية كما يدل على ذلك الجدول التالي :

السنة	عدد الكناسين	الشاحنات	عربات مجرورة	براميل بالشوارع	حمير
١٩٣٨	١٣٠	—	٢١	٤٥	١١
١٩٦٠	٦٥٠	١٠	٢٠	١٥٠	٣١

وفي ١٩٨٨ ارتفع عدد الكناسين الى ٩٩٠ اما الآليات فكانت : كانسات ٢٠ ، ضواغط ماك ٤٦ ، ضواغط تويوتا ٢٠ ، ضواغط انترناشيونال ١٠ ، قلابات ١٠ ، تراكسات ٣ ، بلدوزر ٣ ، تراكس صغير ٤ ، دنبر ٤ ، صهاريج ٣ .

الإطفاء : انشىء فوج الاطفاء في مدينة حلب عام ١٩٣٠ لخدمة مدينة حلب ذاتها في اخماد الحرائق والانقاذ وضواحيها وحتى المدن التابعة لها ، وبلغ عدد العاملين فيه عام ١٩٦٠ ، ٧٧ بين فني واطفائي فضلاً عن ١٣ سيارة للحريق والانقاذ والمواصلات وارتفع عددهم في عام ١٩٨٨ الى ١٦٤ عنصراً أما الآليات العاملة فبلغ ٤٧ تندرج تحت ٢٢ نوعاً .

وبعد أن كان هناك مركز واحد للإطفاء واقع في نقطة تلاقي شارع التلل والحميدية ، تم بناء ثلاثة مراكز جديدة بعد الغاء المركز القديم المذكور في ١٩٨٤ .

الاشراف على المسلخ :

ويتمثل بمعاينة حيوانات الذبح بكافة انواعها بمعرفة أطباء بيطريين . ولدى ادارة المسلخ عدد كاف من شاحنات الحيوانات المذبوحة تتوفر فيها كل الشروط الصحية المطلوبة ، ومما تجدر الاشارة اليه التغير الطارىء على أنواع الذبحيات ففي عام ١٩٦٢ تم ذبح ٢٩٤ رأس من الجاموس في مسلخ حلب و ٤١٠ رأس من الإبل أما في ١٩٨٨ فلم يرد ذكر أبدا لأي نوع من هذين النوعين من الماشية وإن كان قد طرأ ارتفاع على نسبة استهلاك لحوم العجول والثيران لتطور الأذواق من ناحية ولاندثار الجاموس بصورة شبه كاملة من الغاب بعد تجفيفه ولاهمال تربية الإبل عند البدو نظرا لشيوع استعمال السيارة في بادية الشام .

التنوير والمياه :

منحت الحكومة العثمانية امتيازا لرجل تركي يدعى عثمان بك من استانبول لتنوير مدينة حلب بالكهرباء مع إنشاء خط حافلات كهربائية

« ترامواي » ، ومدة الامتياز ٤٠ سنة ، ولم يقيض للمشروع التنفيذ ، فطرح بعد الحرب بالمناقصة فنالته شركة بلجيكية سنة ١٩١٩ ثم نكصت عنه . وفي سنة ١٩٢٤ نالت شركة المشاريع الفرنسية امتياز تنوير حلب وتسيير ترامواي وجلب المياه النقية اليها من ينابيع عين التل . وبدا التنوير المنزلي في ١٩٢٥ . وقد مددت خطين من الترامواي : الاول يقطع حلب من الغرب الى الشرق مرورا بجادة الخندق وباب الحديد كي ينتهي في برية المسلخ عند مدرسة الجنرال ويغان (اللاييك سابقا) ومن ثم مدرسة الفيوضات الابتدائية والآن ثانوية وتمدد في ١٩٥٠ حتى السرايا الجديدة ، وطوله ٥ كم تقريبا . أما الخط الثاني يقطع المدينة من الشمال للجنوب بدءا من الرمضانية وينتهي عند خان الحرير وراء الجامع وطوله ٣ر٥ كم وكان له فرع ينطلق في باب الجنان نحو باب انطاكية ولكنه لم يعمل . وقدالغيت الترامواي في عام ١٩٦٣ بعد ان ساد استعمال الاوتوبوسات العامة . وفي ١٩٥٦ كان طول خطوط التنوير العام أكثر من ٢٠ كم تؤمن النور لمقدار ٤١٣٥ مصباح منتشرة في الشوارع الرئيسة والمنعطفات الهامة ، وقد كلفت الانارة العامة البلدية في ١٩٦٢ مبلغا يزيد عن ٢٦٣ ألف ل.س ، وقد ارتفع عدد المصابيح العامة التي تنير الطرق في ١٧٩٠ الى ٩٣٩١ . وقد بلغت الطاقة الكهربائية المنتجة عام ١٩٧٠ ٢٦٠ مليون ك وس فضلا من ١٣٤٨ مليون ك وس مستجرة من الشبكة العامة ، وبلغت الطاقة المستهلكة في المدينة وريف حلب ١٣٢٥ مليون ك وس ، وعدد المشتركين ٤٢٤٤١٩ وعدد القرى المنارة في ١٩٨٧ ٨٠٣ بعد أن كان ١٤ في ١٩٧٠ و ١٣ في ١٩٦٣ و ٩ في ١٩٦٠ وهذه الارقام تغني عن أي شرح .

أما بالنسبة للمياه النقية فقد كانت بالنسبة لحلب قضية حياة أو موت بكل مافي الكلمة من معنى ، لأن المدينة كانت تعتمد على مياه قناة حيلان التي كانت تبعد ١٢ كم عن المدينة القديمة ، والتي كانت شبكتها تمتد على ٤٧ كم وتتألف من قنوات فخارية بقطر يعادل ١٠ سم ، وتقدم لحلب ٥٠٠٠ م٣ يوميا وتنتهي في ١٢ قسطل في عام ١٩٣٠ وفي صهاريج بعض البيوت . وكانت مياهها عذبة لكنها ملوثة شأن آبار المياه الجوفية التي كانت تترشح اليها مياه المجاري مما كان يساعد على انتشار التيفوئيد والزحار (الديزنتريا) التي كانت تصيب ٨٥٪ من

السكان قبل الحرب العالمية الثانية. وقد ابتدأت «شركة المياه والكهرباء» بجر المياه الى المدينة في ١٩٢٩ وتعهدت بتقديم ١٠٠٠٠ م٣/يوميا ولكنها عجزت عن ذلك في سنوات القحط التي تعاقبت بين ١٩٣٠ و ١٩٣٢ وعلى كل كانت احياء حلب مزودة في عام ١٩٣٨ بمقدار ١٣٥ حنفية عامة وأقامت أكثر من خزان في المدينة ولعل أكبرها هو الذي كان يقوم الى الجنوب من حي الشيخ أبوبكر .

السنة	عدد المشتركين	الاستهلاك بالامتار المكعبة
١٩٣١	٢٥٨	١٨١٤٤٠
١٩٣٥	٣٦٣٩	٤٩٣٩٠
١٩٤٥	٨٥٠٥	١٨٨٠٠٠٠
١٩٥١	١٥٢٠٠	٣١٧٥٥٠٠
١٩٥٥	٢٣٤٣٧	٥٧٣٧٧٣٢
١٩٥٧	٣٥٠٠٠	١٢٧٧٥٠٠٠

وفي ١٧٩٠ بلغ طول الشبكة المائية بالمدينة ٤٩٠ كم وارتفع عدد المستفيدين الى ٦٠٠٠٠٠ نسمة أو بمعدل ١٢٥ ليتر باليوم لكل مواطن بينما كان مواطن حلب لا ينال سوى ٤٠ ليترا في ١٩٤٧ مقابل ١٠٠ في دمشق أو بغداد و ٢١٠ في الاسكندرية في العام ذاته . وفي ١٩٦٠ كان المواطن في باريس ينال يوميا ٤٥٠ ل مقابل ١٠٦٠ ل في شيكاغو و ١٢٠٠ ل في لوس آنجلوس .

وقد وصلت مياه الفرات الى حلب في أيار ١٩٥٥ وجرت عدةمشاريع لزيادة الضخ الى أن بلغت كمية المياه المستجرة من الفرات في ١٩٨٧ ١٢٢٫٨ مليون متر مكعب وصعد عدد المشتركين الى ٨٦٨٨٨ . هذا ويوفر نهر الفرات المياه للمدن الصغرى الواقعة الى الشرق من حلب مثل الباب وتادف ومنبج أو ما يعادل ٤٫٥ م٣/ثا أو أكثر من نصف صبيب نهر بردى عند الربوة ، وبلغ الضخ اليومي وسطيا أكثر من ٢٢٠٠٠٠ م٣ يوميا .

مدن المناطق

يبدو تاريخ المدن في سورية الشمالية معقدا ، كثير التقلبات والمآسي . فمنذ فجر الازمنة التاريخية كانت هذه المنطقة عريقة بحياتها الحضرية ولاتزال ، الى اليوم ، تحمل آثار شبكة مدنها القديمة . وقد نتجت أهمية هذه المدن عن الدور الذي كانت تلعبه بحسبانها مدن مراحل ومراكز مناطق زراعية صغيرة ، كما كان يرتبط ازدهارها أو انحطاطها الى حد كبير ، بهذين العاملين .

فالعوامل الجغرافية التقليدية التى تحدد أحيانا مكان المدن أو موقعها كوجود الماء الغزير وجودة الموضع الخ ... لا تبدو هنا ضرورة ملحة وحاسمة في كثير من الاحيان لان موضع المدينة بالنسبة للطرق التجارية أو مدى اشعاعها الاقتصادي هما اللذان يسمحان لها بالبقاء رغم الحروب وتبدل الامبراطوريات والعهود الادارية والسياسية .

ومن جهة أخرى كانت مدن محافظة حلب خاضعة خلال أمد طويل للتأثير المهيمن والمباشر ، ولكن ليس بالتأثير المزدوج في آن واحد ، لكل من عاصمتي الشمال السوري ، ونقصد بهما حلب وانطاكية ، لان كل تبدل يطرأ على الوظيفة السياسية أو الادارية لهاتين المدينتين العريقتين كان ينعكس على الحياة الحضرية في هذه المدن الصغرى .

ولم تكن مدن المناطق التابعة لحلب ، حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، تختلف كثيرا عن القرى المحيطة بها في شيء اللهم الا في ضخامتها وفي عدد سكانها . فالمياه الجارية لم تكن معروفة وكذلك التنوير بالكهرباء ، كما أن مدارسها لم تكن تتجاوز المرحلة الابتدائية أبدا .

وكان جل اختصاصها هي انها كانت تضم دوائر حكومية معينة برئاسة القائمقام الى جانب عدد من قوات الدرك (الشـرطة) لحفظ الامن ، ودائرة بلدية صغيرة تهتم بتأمين التنوير بالفوانيس أو المصابيح المتوهجة، واعمال التنظيف ، والاشـراف على المذبح ، والبازار الـذي ينعقد في يوم معين .

ومهما كان المظهر الطبغرافي لهـذه المدن الصغرى ، باستثناء عفرين والسفيرة وجرابلس ، نظرا لحداثتها ، فلها مخططات متماثلة تقريبـا مع مخططات معظم المدن القديمة التقليدية في العالم الاسلامي بالشـرق الاوسط . فأول ما يلاحظ هو وجود منطقة قديمة ، تعود لفترة ماقبل ١٩٢٠ ، يتصف مخططها بعـدم استقامة الشـوارع وتفـوق المساكن المنخفضة الوحيدة الطابق ، تنبثق منهـا مئذنة أو اثنتان ، بمظهرهما الرشيق ، كأنها أصابع عملاقة تشهد على وحدانية الخلاق .

وعلى خلاف البيت الريفي تكون باحة هذه البيوت واسعة ومغلقـة باحكام تجاه أنظار المارة بوساطة جدران صماء ، لان النوافذ لا تنفتح الا على الباحة المذكورة ، ولا تكون الطرقات فيها اكثر من ممرات ضيقة ، ومتعرجة على شكل تيه ، لكنها تؤدي بالنهاية الى ساحة عامة أو الى السـوق .

ولم تعرف هذه المدن التنظيم البلدي ، بالمعنى المعروف ، الا خلال الربع الاول من القرن الحالي ، بعد أن أصبح التوسع العمراني العشوائي محظوراً ، اذ أخضع لتنظيم مستند على مخطط هندسي يوجه اتساع كل مدينة بموجب تراخيص ، ويوجه تحسين الأحياء القديمة وتعريض شوارعهـا ، وتعديل اعوجاجاتها . وهكذا أخـذ مظهر هـذه المـدن يتبدل تدريجياً .

وقد تشكلت عند عقدة الطرق الخارجة من هذه المدن أحياء جديدة تضم السرايا (دار الحكومـة) ودوائر الأمن ، والمدرسـة الثانوية ، والمشفى ، ومرائب ، ومراكز توزيع المحروقات السائلة . والى جانب هذه الأبنية المذكورة يقيم الأثرياء قصورهم المحاطة بحدائق صغيرة .

غير أن الحي القديم ، أو نواة المدينة ، مع بيوته المتكتلة حول الجامع الكبير ، السوق التقليدي ، والخانات ، يتعرض لبعض التعديلات العمرانية الضرورية من اجل التواؤم مع وسائل المواصلات الحديثة كفتح شارع رئيسي مستقيم يكفي لتهوية المدينة وتحسينها . ولكن المدينة القديمة تحرص دائماً على الاحتفاظ بوظيفتها التقليدية بعد أن تواءمت بعض الشيء مع متطلبات الحياة العصرية .

سكان هذه المدن : مهما كانت اهمية عدد سكان المدن ، أو مراكز المناطق ، فإن هؤلاء ريفيون من حيث الأصل في معظمهم كذلك من وجهة النظر الى فعالياتهم الرئيسة ، أو من حيث مصادر رزقهم ، لأن التجار وحتى الصناع ، القليلي العدد نسبياً ، يستمدون من الزراعة بعض مواردهم الاضافية . أما الحضريون الخلّص فلا يشكلون أكثر من ثلث السكان .

ووقوع هذه المدن في وسط مناطق ريفية مثقلة بسكانها يجتذب اليها بعض الأصناف من السكان القرويين كالأغنياء الباحثين عن نعومة العيش ، أو العمال الزراعيين الذين دفعتهم الآلة الزراعية نحو البطالة الكلية أو الجزئية . لكن سكان هذه المدن ، الذين لا زالوا يعيشون من خيرات الأرض بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، كمشاركة الفلاحين على زروعهم أو ماشيتهم ، لا يمكن أن يستمروا بالتزايد الى ما لا نهاية دون أن يؤدي ذلك الى اختلال في التوازن الاقتصادي بما يدفع بعض هؤلاء السكان الى الهجرة نحو المدن الكبرى وخاصة الى حلب أو الى مناطق تسير في طريق العمران والتحديث كوادي الفرات أو الجزيرة .

دور مدن المناطق : لا تكون مدينة المنطقة ، دائماً ، عبارة عن جسم طفيلي يستثمر الريف دون أن يعطي شيئاً بالمقابل ، لأن هذه المدن هي التي تحول أريافها ، وذلك بتوجيه اقتصادها وانتاجها وبتمويل مشاريعها فضلاً عن تحديثها بإدخال وسائل الاستثمار الحديثة . ففي البلدة تتوفر الآلات الزراعية ومالكيها مثلما نجد الوقود السائل وورشات التصليح الميكانيكي ومعاصر الزيتون .

أما فيما يتعلق بالوظيفة الصناعية فإن المدينة تشتمل على بعض الحرف من نجارة وحدادة وخياطة ، الخ .. أو نعثر فيها على فعالية صناعيـة ضامرة موروثة عـن الماضي ، أو محدثة مجـدداً ، كتحويل المحاصيل الزراعية كصناعة البرغل وجرش العدس . وعلى كل لا نجد في هذه المدن صناعة حديثة كبيرة تقوم على عاتق طبقة عاملة ، انما يسود فيها جو مدينة بيع وشراء وادارة .

ففي مركز المنطقة تخزن وتجمع البضائع أو المنتجات التي سترسل الى حلب بوساطة تجار الجملة الذين يمدّون مؤسّسات التصدير العامة أو المصانع المحلية ، أي إن كل مدينة اقليمية تلعب دور مركز تجميع وتوزيع . غير أن سهولة المواصلات مع حلب وتحسين الطرق عملا على انكماش دور المدن الاقليمية لأن البضاعة أو المنتجات الريفية كالسمن والصوف والجبن والكماة أصبحت تشحن رأساً الى حلب دون وساطة المدن الصغرى .

هذا ويمثل السوق الدائم والبازار الاسبوعي الوظيفة التوزيعية المحليـة . كما أن وجـود شبكة طرق تربط مختلف المناطق بحلب ، والخطوط المنتظمة التي تعمل عليها الشاحنات والباصات في تصريف المنتجـات الزراعيـة السريعـة العطب ممـا يساعـد على توسـيع الدور التجاري .

وبالاختصار تعتبر هذه المدن عبارة عن مراكز لتجميع المحاصيل ولتوزيعها على المدن السورية الكبرى ، ولذا فهي ترتبط بشكل وثيق بحلب وتشاطرها أوضاعها الاقتصادية من ازدهار أو ضائقة وكساد في سني القحط . ولكنّ الوظيفة الادارية لهذه المدن تجعل قسماً لا بأس به من سكانها عبارة عن موظفين ، بعضهم غرباء عن المدينة ، مما يساعد على وجود أوجه أخرى لنشاط اقتصادي وخدمات متنوعة .

اولاً ـ عفرين : وهي عبارة عن مرحلة « قناق » كان على طريق القوافل التي كانت تربط بين حلب وانطاكية وتبعد عن حلب ٦٠ كم .

ونواة المدينة الاولى خان قديم كان يقوم على الضفة اليمنى لنهر عفرين، على ارتفاع ٢٩٠ م . وكانت « قرية » عفرين القديمة تستغل موقع مخاضة أولاً ثم موقع جسر على النهر ابتداءً من عام ١٩٢٤ قبل أن تصبح بلدة ومركز « قضاء » جبل الأكراد في ١٩٢٥ ، وبذلك حلت مكان المعبطلي التي كانت مركز القضاء في العهد العثماني والتي خسرت وظيفتها .

ومن ثم سكنها مهاجرون أرمن قدموا اليها من كلس لحقت بهم جماعات من الأكراد المجاورين ، ولكن عدد سكانها لم يكن يتجاوز ٨٠٠ نسمة في ١٩٣٣ وكان ثلثهم من الأرمن . وبعدئذ انشئت بها دار حكومة ضمّت معظم المصالح الادارية ثم أضيفت اليها وظيفة تجارية تزداد أهمية يوماً بعد يوم لا سيما بعد أن قام بها بازار أسبوعي ينعقد كل يوم أربعاء . وبالتدريج أخذ يتوافد عليها أصحاب الحرف والتجار وأرباب المطاعم من المدن الأخرى ، ولا سيما من حلب ، وبذلك تشكلت سوقها الطويلة الممتدة على طريق الحمام . وازدادت أهمية سوق عفرين المحلية كثيراً بعد تحول أكراد الجبل عن المراكز السابقة التي الحقت بلواء اسكندرون مثل الحمام والريحانية وخاصة انطاكية .

ويتخذ مخططها البدائي شكلاً شطرنجياً مروحياً ويدل فقدان الأزقة والشوارع الملتوية في المدن الشرقية على حداثة هذه المدينة ويبدو معظم بيوت عفرين صغيرة وجميلة بشكل عام وتستمد مياهها النقية منذ ١٩٣٦ من ينابيع كفر جنة ومن آبار في اطراف البلدة .

وفي هذه المدينة التي يقارب عدد سكانها ٢٥٠٠٠ نسمة بعد أن كان ٤٥٠٠ في ١٩٥٧ و ٥٧٣٠ في ١٩٦٠ ، و ٦ معاصر حديثة للزيتون و ٣ مصانع لاستخلاص زيت العرجون « المطراف » ومصانع صغيرة للصابون والسجاد والمشروبات الغولية ومواد البناء ومهن اخرى صغيرة ، وفي ١٩٥٣ بدأ التنوير الكهربائي فيها . وتتبع عفرين ، ادارياً ، ٦ نواحٍ هي : شرّاب ، المعبطلي ، بلبل ، راجو ، جنديرس ، وشيخ الحديد و ٢٦٣ قرية و ١٠٠ مزرعة تقريباً .

ب ـ اعزاز : مدينة تؤلف مركز منطقة إعزاز ، تعلو عن سطح البحر ٥٥٠ م وتبعد عن مدينة حلب ٤٧ كم ، وتقع نواتها في سفح تل صناعي ترابي عظيم كان متوجاً بقلعة دمرتها زلزلة سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) ، وقد احتلتها الفرنجة الصليبيون عام ١١٥٢ م وسمّوها هازارت ، كي يؤمنوا الاتصال بين مملكة انطاكية وامارة الرها ورمّموا حصنها وجعلوها مخفراً أمامياً لهم ، واستردها منهم نور الدين زنكي سنة ٥٤٦ هـ (١١٧٦ م) واهداها لأخت الملك الصالح اسماعيل . وقد رمّمها الملك الظاهر غازي الأيوبي صاحب حلب وعمّرها وخربها المغول التتار سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) والتجأ من نجا من سكانها الى كلّس . وظلت اعزاز خلال مدة طويلة قرية تتعلق ادارياً بقضاء كلّس ولم تسترد بعض أهميتها الا في عام ١٩٢٠ وكثر سكانها ، وفي قرية دابق التابعة لها حدثت المعركة الحاسمة سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) بين قانصوه الغوري والسلطان سليم الاول . وفي عام ١٩٣٠ كانت تحوي حوالي ٥٠٠٠ نسمة كان ثلثهم من الأرمن اللاجئين من الأناضول ، وصعد سكانها الى ١٢٨٠٦ عام ١٩٦٠ وكان يزيد في ١٩٨٨ عن ١٨٠٠٠ نسمة . وتتبعها ٤ نواحٍ هي تل رفعت (آربادا) ، اخترين ، مارع ، نبّل وتتبع هذه النواحي ١٢٨ قرية و٧٤ مزرعة ويزيد عدد سكان منطقتها عن ١٥٠٠٠٠ نسمة .

يشتهر أهلها بصناعة الجبن ونظراً لخصوبة أراضيها الزراعية فتقوم فيها صناعات ميكانيكية كصناعة المقطورات واصلاح الجرارات والآلات الزراعية والسيارات ، هذا فضلاً عن صناعة عصر الزيتون الموسمية . ويقوم البازار فيها كل يوم ثلاثاء في ساحة البلدة . وتستمد اعزاز مياه الشرب من آبار تقع الى الشمال من تل رفعت ومن ٣ آبار جديدة تقع في قرية كفر كلبين . وفي البلدة مستوصف ، مركز ثقافي ، مؤسسة استهلاكية ، مخبز آلي . ومصرف زراعي وآخر للتسليف الشعبي ، ومدرسة ثانوية واخرى صناعية .

قال عنها ياقوت : « والعزاز الأرض الصلبة ، وهي بلدة فيها قلعة ولها رستاق ، شمالي حلب ، بينهما يوم واحد وهي طيبة الماء عذبة الهواء لا يوجد بها عقرب » .

حـ : **الباب** : ان شدة الطلب على الايدي العاملة الزراعية ، التي تستدعيها الزراعة المرواة الحثيثة ؛ هي التي تفسّر ، الى حدّ كبير ، شدة كثافة الاستيطان في وادي البطنان ، مع قيام تجمعات بشرية ضخمة تؤلف مدناً ثلاث متقاربة هي الباب وتادف وبزاعة لا تبعد عن بعضها بعضاً اكثر من ٣ كم .

وتعتبر الباب التي تبعد عن حلب ٣٧ كم الى الشمال الشرقي أهم هذه البلدان الثلاثة ، فهي تبتعد بمسافة ٤ كم عن بزاعة الواقعة الى شمالها الشرقي ، كما لا تبعد عن تادف اكثر من ٣ كم الواقعة الى جنوبها الشرقي . وتقع هذه المدن على أطراف منطقة بساتين متصلة كانت ترويها مياه نهر الذهب الذي كان يحمل بالقديم اسم داراداكس .

ولا يزال تاريخ « الباب » القديم غامضاً وضائعاً في غيابة التاريخ السحيقة . ولكن الباب أصبحت بعد الفتح العربي مدينة تخوم تجاور الحدود البيزنطية وعرفت في أوائل الحكم العربي بنسيجها القطني الذي كان يصدّر الى دمشق وحتى الى مصر .

وقد كان أعمار منطقتها قديماً بدلالة بقايا طريق مرصوفة تقع الى الشمال من المدينة تنسب للعهد الروماني ، وأقنية مائية أو سرابات ، مثل عين الست ، وهي كالفجارات المغربية ، وتل أثري في شمالها يدعى تل البطنان يحوي لقى فخارية تعود للعهدين الحثي والآرامي .

وقد تعرضت للاجتياح والنهب في المرة الأولى عام ٩٢٥ م وفي الثانية سنة ١١٣٨ م على يد الجيوش البيزنطية ولكنها أصيبت بضربة موجعة على يد جوسلين الثاني الصليبي ، أمير الرها ، ويذكر أبو الفداء في تقويم البلدان : « الباب بليدة صغيرة ذات سوق وحمام ومسجد جامع ولها بساتين كثيرة نزهة » .

ولكن الباب ظلت مدينة ضامرة ، قليلة الأهمية ، على هامش المعمورة ، طيلة الحكم العثماني تقريباً . وانتعشت على اثر اقامة فريق

البوليس البدوي فيها الى جانب ادارة اختصت بالاشراف على الاملاك الأميرية المنتزعة من سيطرة البدو . وفي ١٨٩٠ أصبحت مدينة عامرة ورممت كل خرائبها التي كانت تشوّه معالمها ، وارتفع عدد سكانها في ذلك العام الى ٥٧٢٠ نسمة منهم ٢٠٠ مسيحي وظل تكاثر سكانها بطيئاً رغم هجرة حوالي ١٠٠ اسرة ارمنية اليها في نهاية الحرب العالمية الاولى ، بحيث إن عدد سكانها لم يتجاوز ٩٠٠٠ نسمة في عام ١٩٣٠ .

وتقع المدينة على ارتفاع ٤٦٠ م في حضيض سفح جبل الشيخ عقيل (٥٣٤ م) الواقع الى الغرب منها ، وكان يجري الى الشرق منها نهر الذهب . ومنذ ١٩٣٤ اخذ عدد سكانها بالارتفاع بسبب توسع النطاق المروي من أراضيها بسبب تعزيل مجرى قناة « عين الست » الباطنية ، من ناحية ، وبسبب سهولة تصريف منتجات بساتينها الى حلب التي كانت تعاني من جفاف معظم بساتينها على أثر انقطاع مياه نهر قويق . وهكذا ارتفع عدد سكانها المسجلين رسمياً فيها الى ٢١٥٠٤ في عام ١٩٥٥ ، ٢٥٦٣٣ في ١٩٦٠ والى حوالي ٩٠٠٠٠ حالياً (٥٥٤٩٦ في ١٩٨٥) .

وقد وصفها المرحوم وصفي ذكريا عام ١٩٠٣ : « وفي غربيها انشئت دار حكومة حديثة جميلة ، وفي داخلها مدرسة ابتدائية حديثة ، و ١٠ جوامع ومساجد وحمامات وأسواق حافلة الحوانيت ، بعضها مسقوف بالحجر كأسواق حلب القديمة ، والحوانيت والمقاهي والمصانع والمعاصر » .

وقد اتسعت المدينة ، بسبب تزايد سكانها ، في سائر الجهات ما عدا الناحية الشرقية بسبب وجود المقابر والبساتين . ويذكرنا طراز بيوتها ، وبياضها الناصع ، المبنية بالحجر الكلسي ، الذي يتخذ مع الزمن لوناً مشرباً بالحمرة ، بمناظر مدينة حلب .

وقد اخضعت حركة البناء فيها لمخطط عمراني منذ عام ١٩٣٠ وسائر طرقاتها مبلطة بالحجر او مزفتة .

هذا كما ان اعمال التحسين الصحي لم تكن ابداً مهملة فيها ، فمنذ عام ١٩٣٢ اصبحت كل مجاري المياه المستعملة تنصرف نحو الكهريز العام ، كما دخلتها المياه النقية الجارية منذ ١٩٣٨ واصبحت مؤخراً تعتمد على مياه الفرات بعد نضوب المصادر المائية المحلية .

ويتبع الباب ٣ نواح هي تادف ودير حافر والراعي و ١٥٥ قرية و ١٢٧ مزرعة وبلغ عدد سكان منطقتها في ١٩٨٣ ١٣٤٧٤٧ ، ويتجاوزون حالياً ١٧٠٠٠٠ نسمة .

والواقع تعتبر الباب أكبر مركز تجاري في حلب الشرقي . فهي سوق لتجميع المحاصيل وتصريف حاصلاتها الخاصة كالعنب والرمان والزيتون . وكان في ١٩٥٨ بقايا من صناعاتها الحرفية القديمة التي كانت مزدهرة بالماضي اذ كان فيها ١٠ دكاكين لصناعة الأحذية التقليدية « صرماية » و ٣ أنوال لنسج العبي و ٤ أنوال لنسج البساط ، كما اختفت منها صناعة الحتال منذ ٥٠ سنة والتي كانت تؤمن معيشة حوالي ٦٠ عاملاً بعد أن اختفت زراعة القنب . وفيها مصنع نسيج حديث يضم أنوالاً ميكانيكية قام عام ١٩٥٣ فضلاً عن مناشر للخشب المحلي كالجوز والحور والمشمش ، وأكثر من مصنع لحلج القطن . ونظراً لعراقة سكان هذه المنطقة في زراعة البستنة والقطن ولتقاليدهم الموروثة فقد هاجرت أعداد كبيرة منهم الى وادي الفرات والخابور ولا سيما الى منطقة الرقة .

هذا وتبعد تادف عن الباب ٣ كم وكان عدد سكانها في ١٩٣٥ ١٢٠٥٠ نسمة وذكرها احمد قدامة في معجمه : « فيها أسواق وأحياء حافلة بالسكان وحولها بساتين ذات عنب ورمان ، هواؤها وماؤها جيدان » . « وكان فيها كنيس بداخله مغارة في داخلها مقام للعزير الذي أملى التوراة على بني اسرائيل بعد فقده على ما يقول اليهود ، ولذلك

كثيراً ما يأتونها ويصطافون فيها ويحتفلون فيها بعيد المظال احتفالاً عاماً »(١) .

د ـ منبج : مدينة عريقة تقع شمال شرق حلب على مسافة ٨١ كم وعن شاطىء الفرات ١٥ كم ، واقعة في ارض شبه منبسطة تنحدر نحو الفرات ونحو الساجور في الشمال ، وباتجاه نهر ابو قلقل في الجنوب ، وهما من روافد الفرات . ترتفع عن البحر ٤٧٥ م. وكان سكانها في ١٩٣١ ٣٨٠٠ نسمة منهم ١٨٠٠ شركسي و ١٠ ارمن والباقي من حلب والباب ، أما في ١٩٨٨ فقد تضاعف عدد سكانها عشر مرات تقريباً . وقد بني فيها في ١٩٣٠ دار حديثة جميلة للحكومة ومثلها للبلدية ومدرسة للبنين في أوائل العشرينيات . وكان فيها في ذلك الوقت سوق صغير يحتوي على حوانيت ومقاهي صغيرة ، وفي غربيها بحيرة صغيرة (غولة) كانت مياهها تأتي من رشح القنوات القديمة (سرابات) الكثيرة وكان يقام على شاطئها كل يوم جمعة سوق عام لبيع الدواب وشرائها .

وتقدم منبج مثلاً رائعاً عن انبعاث الحياة العمرانية في موقع معين ، تقوم بجواره منطقة زراعية غنية بالمياه ، تشابه منطقة الباب الى حدّ ما ، ولكن تخترقها شبكة من الجداول والأقنية الجوفية ، أكثر كثافة من اية منطقة اخرى في سورية .

غير ان مزايا موقعها لا تقل اهمية عن اهمية مواردها المائية ، لأن منبج تتصل بيسر مع نقاط عبور الفرات كسهولة اتصالها بحلب والأناضول والفرات . وقد جعلت هذه الميزات من منبج سوقاً ممتازة وبالتالي « ثغراً » حربياً مهمته اعتراض طريق الغزوات التقليدية القادمة من آسيا الصغرى ، ومن ما بين النهرين والمؤدية الى حلب وانطاكية .

ومنبج مدينة حثية وآرامية ، واسمها الحالي مشتق من كلمة مبّوغ الذي أطلق عليها منذ أقدم العصور. ولكن الملك الآشوري شلمنصر

---

(١) وصفي زكريا ، جولة اثرية .

حاول عبثاً تبديل اسمها من مابّيغو الى ليتا آشور . واصبحت فيما بعد مدينة مقدسة وعاصمة الآراميين الدينية ، واقاموا فيهـا هيكل إله العواصف حدد وآلهة المياه آتركاتيس . ولما جاء الاغريق السلوقيون سموها هيير ابوليس ، أو المدينة المقدسة لأنها كانت العاصمة لكل بلاد الآراميين . وقد أطنب المؤرخ لوسيان في وصف ما كان عليـه هيكل هييرابوليس من الفخامة والغنى ، وانه كان أعظم معابد الآراميين في بلاد الشام في تلك الأحقاب . وكان تمثال ربة المياه آتركاتيس يمثلها راكبة على متن مركبة تجرها الأسود وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها تاج . وفيما عدا المكانة الدينية فقد كان لمنبج قيمتها الحربية ، وصارت من أهم قواعد الجيش الروماني الذي كان يقصد فرضة السويدية مروراً بانطاكية ثم يأتي الى منبج ، ليتوزع منها ويساق للغارة على بلاد ما بين النهرين وفارس . وكانت منبج مدينة محصنة شاد فيها بوستنيانوس أسواراً منيعة عجز كيخسرو ، ملك الفرس ، عن اقتحامها لما جاء لمهاجمة مدن شمال بلاد الشام . ولما مـر القيصر يوليانوس في القـرن الرابع الميلادي بمنبج وجد هيكلها خراباً ولا يعلم سبب وزمان خرابه .

وتدل الأسوار البيزنطية ، التي لا تزال بعض آثارها باقية ، عن ماضي هذه المدينـة كموقع محصّن تعاورته أيدي الفرس والبيزنطيين والعرب أكثر من مرة . ولكن رغم كل التقلبات التي طرأت علىٰ هـذه المدينة فان عصرها الذهبي يقع في الحقبة السلوقية ـ الرومانية ، وفي الحقبة العربية ، الى أن دمّرها تيمورلنك .

ويذكر المؤرخ بلوتارك أن القائد كراسّوس الروماني الذي استخلص منبج من أيدي السلوقيين ، قد تصرّف في منبج كرجل نهب وسلب أكثر من رجل حرب مما اثار عليه حفيظة الجميع ، لأنه عوضاً عن استعراض قواته ، والمحافظة على شراستها الحربية بالتمارين والألعاب العسكرية ، أخذ يتلهّى ، خلال بضعة أيام في احصاء ضرائب المدن ، كما قام شخصياً بوزن الكنوز المنهوبة من هيكل هييرابوليس « منبج » ، كما كتب الى سكان المدينة والى سكان المدن المجاورة يطالبهم بتقديم الرجال لدعم جيشه ،

ثم راح يطلق سراحهم مقابل دفع مبلغ من المال ، وهذا السلوك جعله محتقراً حتى في أعين الذين تخلّصوا من الخدمة العسكرية .

ولما جاء المسلمون قدّم ابو عبيدة عياض بن غنم الى منبج ثم لحقه وقد صالح أهلها ، وصارت منبج في عهد الأمويين تابعة لجند قنسرين وحلب . واستأنفت منبج ، بعد الفتح العربي ، دورها القديم كنقطة انطلاق حربي « ثغر » خلال المبارزة الطويلة التي نشبت بين الاسلام والنصرانية والتي حصدت منطقة حلب من جرائها أشد الأهوال وأفدح الخطوب . وقد مرّ بها المأمون ، الخليفة العباسي ، لغزو الروم عام ٢١٥ (٨٣٠) ثم سار منها الى انطاكية ، ثم الى المصيصة وطرطوس ودخل منها الى بلاد الروم وغزا وعاد . ولكن هؤلاء احتلوا منبج عام ٣٥١ (٩٣٢) وأسروا أميرها الشاعر ابا فراس الحمداني وحملوه الى القسطنطينية ومكث في اسرهم ٤ سنوات الى أن تمّ افتكاكه . وعادوا كرة اخرى فأخذوها عام ١٠٧٠ أو ٤٦٢ هـ وكانت في حوزة محمود بن نصر بن مرداس وقتلوا أهلها ونهبوها وخربوا أسوارها ثم رحلوا عنها تحت ضغط الجوع. ثم سار اليها أمير انطاكية الصليبي سنة ١١١١ م (٥٠٤ هـ) واحتلها ، وهو تنكرد ، وملك الأثارب وردنا وقتل أهلها ، ثم سار الى منبج وبالس فوجدهما وقد أخلاهما أهلهما فعاد عنهما . وذكر مؤرخو الفرنج أن معركة هائلة نشبت حول أسوار منبج في سنة ١١٤٢ م بين جوسلين الافرنجي صاحب الرها وبين المسلمين والذي سقط أسيراً بأيدي قوات بلك بن بهرام بن آرتق صاحب حلب .

وفي سنة ٧٤٤ هـ وقعت بها زلزلة عظيمة خربت حلب وبلادها ولا سيما منبج جعلت ابن الوردي يقول فيها :

منبج أهلها حكوا دود قزّ عندهم تجعل البيوت قبورا
رب نعمهم فقد الفوا من شجر التوت جنة وحريرا

وهذا شاهد على انتشار شجر التوت وتربية دود القز فيها حينذاك ، ثمّ وقع فيها الطاعون عام ٧٤٩ هـ . كما وصف ابو محمد

الحسن بن حبيب الحلبي حالة اهل حلب بعد الزلزال المذكور وهرب اهلها منها :

يا فرقة فرقوا وعن حلب ناوا وتباعدوا لما راوا زلزالها
ما زلزلت شهباؤنا وتحركت الا لتخرج عامداً اثقالها

وفي ٨٠٤ هـ (١٤٠٠ م) كبسها تيمورلنك واجهز عليها بالكلية وجلا عنها من سلم من سكانها .

وفي عام ١٢٤١ م هاجمها بدو التركمان وخربوها وقتلوا معظم اهلها . وقد كانت هذه هي الضربة القاضية على صناعة تربية دود القز التي كانت تشتهر بها ثم بقيت هذه المدينة خراباً يباباً خلال خمسة قرون كاملة . ويذكر أحد الرحالة « الأجانب » : « انه كان يقطنها في مطلع القرن ١٩ بعض فقراء الأكراد من قبيلة البرازي ، الذين كانت تسرح أغنامهم فوق أسوارها المستورة بالأعشاب ، وكانوا يقطنون الخيام البالية المبعثرة بين أطلال معابدها ومساجدها ، وتدل هذه الخرائب على ما كانت عليه هذه المدينة أيام الاغريق والعرب وما آلت اليه حالها تحت الحكم العثماني » .

وقد وصفها ابن جبير عام ٥٧٩ هـ قال : « منبج بلدة فسيحة الارجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء » .

ولم تأخذ منبج بالنهوض تدريجياً من كبوتها الا في عام ١٨٧٨ او ١٢٩٥ هـ عندما اخذت تنوافد عليها جماعات من مسلمي القوقاز ، وهم الجراكسة ، وامر السلطان عبد الحميد بإعادة بناء جامعها فضلاً عن مدرسة تؤوي ابناء هؤلاء اللاجئين .

غير أن فقر المناطق المجاورة لها بحجر البناء الصلب دفع سكانها الجدد الى نقض حجارة اطلالها القديمة ثم الاسوار ذاتها بحيث لم يبق اليوم منها سوى بعض البقايا التافهة باستثناء الاعمدة والتيجان واحجار

منقوشة ومزخرفة ومكتوبة وتماثيل وغيرها مبعثرة في حديقتها العامة . وقد منحت الحكومة التركية عدداً من الضياع المغمورة في منطقة منبج الى هؤلاء المهاجرين ، فاستعانوا على استغلالها ببعض السكان المحليين من العرب والأكراد . واصبحت منبج في ١٨٩٠ مدينة صغيرة يسكنها ١٥٠٠ نسمة كلهم من الشراكسة وكان فيها ٢٦٧ منزلاً و ١٥ دكاناً وخان واحد . وارتفع عدد سكانها في ١٩٨٥ الى ٣١٢١٠ نسمة بعد أن كان عددهم ١٣٤٩٥ في ١٩٦٠ م .

وبدأت نهضة منبج الحقيقية في ١٩٢٤ وهو تاريخ البدء بأعمال كري وتعزيل الأقنية القديمة (السرابات) وخاصة تصريف مياه المستنقع الكبير فيها « الغولة » وتوسع الزراعات المروية بفضل جهود البساتنة الجدد ، الذين قدموا من الباب ، والذين يؤلفون شطراً كبيراً من المهاجرين الجدد الى منبج . وقد أدى حب التوظف المستفحل بين الجراكسة الى اهمال أراضيهم الشاسعة فأخذت تسقط تدريجياً من أيديهم ، وقد هاجر أكثر من ثلاثة أرباعهم الى حلب ودمشق ، كما برز بعضهم في المهن الحرة كالهندسة والطب والمحاماة :

لكن منبج لا تتوقف من التضخم بسبب قدوم الريفيين من ضواحيها ، عدا بعض العائلات الحلبية والبابية التي تؤلف أكثر عناصر سكانها نشاطاً ، وزادت اهمية منبج بحسبانها مركز تبادل تجاري كبير بين مدينة حلب من جهة والبادية ووادي الفرات وسهول حلب الشرقية ومنطقة عين العرب من جهة أخرى ، وخاصة بعد بناء جسر الجولان (قره قوزاق) على نهر الفرات ومنه الى بلدة عين عيسى في الجزيرة . هذا وادى توسع المدينة الى ازالة قسم كبير من بساتينها وجفاف معظم مياهها الجوفية ، حتى أن منبج أصبحت تعتمد على نهر الفرات من محطة معالجة قرب بلدة الخفسة ، وعلى سرب شبكة شنكان . وفي المدينة مركز ثقافي واندية رياضية وثقافية وملعب وحديقة عامة واسعة غرب المدينة ومكتبة عامة ومستوصف ومشفى .

ويستدل على أهمية فعاليتها التجارية من سوق مواشيها ، أي البازار ، الذي كان يستمر ثلاثة أيام متواليه ، وهي ظاهـرة غريبة لا مثيل لها في في سائر مدن سورية ، اذ كان يخصص يوم الأحد لسوق الخيل والبغال ، ويوم الاثنين لسوق الغنم والماعز ، ويوم الثلاثاء لسوق الأبقار والإبل .

وبعد أن كانت منبج من مراكز انتاج وتجميع القنب أصبحت مركز انتاج للقطن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ولكن التوسع اللا عقلاني في زراعة « الذهب الأبيض » واستنزاف معين أرض المنطقة من المياه وهو « احتياطي جيولوجي » لا تعوضه كميات الأمطار الحالية ، أدّى الى جفاف بساتينها وتقهقر أوضاع سكانها المادية . وأصبحت منبج ، التي كانت مدينة مستنقعات قبل نصف قرن مضى ، تشكو من الجفاف والعطش بعد أن غاضت مياه قنواتها الجوفية وبعـد أن كانت قاعـدة سورية الثالثة أو سورية الفراتية ، في عهد الرومانيين ، تجاه أفامية قاعدة ولاية سورية الطيبة Syris Salutsris أو سورية الثانية ، كمـا كانت انطاكية قاعدة سورية الأولى .

ويتبع اليوم منبج ٣ نواح و ٢٨٥ قرية و ٣٥١ مزرعة وبلغ عـدد سكان منطقتها عام ١٩٨٣ ، ١٥٥٠٢٦ نسمة .

هـ ـ جرابلس : على ارتفاع ٣٦٧ م فوق مصطبة على الضفـة اليمنى لنهر الفرات يطل عليها مرتفع ذو صخور كلسية يدعى جبـل علّي ، ٤٠٠ م ، وتطل من الجنوب على السهل الفيض للنهر أو الزور . تبعد عن حلب ١١٨ كم مثلما تفصلها عن منبج مسافة ٤٢ كم .

يشهد على قدم عمرانها وجـود بقايا أثرية ومدافن محفورة في منتصف السفح الشرقي للجبل المذكـور والعائدة للعصرين الروماني والبيزنطي .

وبعـد ان كانت جرابلس قرية متواضعة قابعـة بجوار خرائب كركميش الحثية الواقعة خلف الحدود ، في تركيا ، ارتفعت فجأة في

عام ١٩١١ الى مرتبة بلدة بسبب بناء محطة للخط الحديدي ، بجوارها، اي الخط الذي كان يدعى حينئذ بغداد باهن .

وازداد عدد سكانها بسرعة وقامت فيها ابنية كثيرة ونشطت تجارتها ، وخاصة حين اصبحت مقر القوات العسكرية الكبيره التي حشدتها السلطة الفرنسية لصد الاتراك في كيليكية والاناضول . ونظراً لوقوعها على الحدود السورية التركية فقد جعلت مركز قضاء كبير ، ثم كانت أكبر مركز لتجارة المواشي ، وحفل سوقها بمختلف البضائع ، ولكن كان ازدهاراً عابراً ، فأصيبت تجارتها بالخمود بسبب فصل قضاء عين العرب عن قضائها (منطقتها) ، وبسبب انكماش نشاط التهريب اليها ، وزوال التحشدات العسكرية منها . وقد ادى ذلك الى تأخر اقتصادياتها ، ثم عادت من جديد الى السير في طريق الانتعاش ، تدريجياً .

وكان سوقها الغني بالبضائع يتمتع بجاذبية كبيرة بالنسبة لأتراك ما وراء الحدود ، اذ كان يتردد يومياً على جرابلس حوالي ٣٠٠ شخص تركي بين تاجر ومشتر، وهذا في فترة ما بين الحربين ، ونتج عن هذه العوامل مجتمعة تناقص عدد سكانها فهبط من ٨٧٩٢ نسمة منهم ٣١٢٩ أرمني في ١٩٤٠ الى ٨٥٥٠ في عام ١٩٦٠ ولكنه صعد الى أكثر من ١٢٠٠٠ حالياً .

وقد توسعت المدينة بعد الحرب العالمية الثانية وساعد على ذلك بناء جسر على الفرات شمالي المدينة يربطها بالجزيرة ، وتقوم الفيلات على جوانب الشوارع الحديثة . وتستمد مياهها النقية من عدة آبار حول المدينة ومن قناة قديمة (سرب) .

وتحوي جرابلس وحدات ارشادية لصنع السجاد اليدوي . ويتبعها بصفتها مركز ناحية ٣٢ قرية و ٢٢ مزرعة وبصفتها مركز منطقة ٦٠ قرية و٥٧ مزرعة وارتفع عدد سكان منطقتها الى ٣٠٠٤٠ نسمة عام ١٩٨٣ .

و ـ السفيرة : وهي بلدة مركز منطقة ، تضم قرابة ٢٥٠٠٠ نسمة بعد ان كانوا ١٠٠٠٠ نسمة تقريباً عام ١٩٦٠ وحوالي ٤٠٠٠ نسمة سنة ١٩٣٠ . (الشكل ١٤) وتقع بجوار تل كان يضم مدينة حثية آشورية تعود للقرن الخامس عشر قبل الميلاد تسمى سبيري التي عثر في اطلالها عام ١٣٤٧ هـ على تمثال من البازلت محفوظ في متحف حلب .



وتقع البلدة في منسط من الأرض على ارتفاع ٣٦٠ م ، وتتبعها ٣ نواح هي : خناصر ، الحاجب ، بنان ، و ١٢٧ قرية و ٢١ مزرعة وبلغ عددسكان منطقتها ٦٨٢٠٩ نسمة سنة ١٩٨٣ .

وبعد أن كانت مياهها الجوفية غزيرة نضبت بسبب استفحال الري على أثر موجة زراعة القطن والخضار كما جرى اقتلاع الكثير من كرومها غير أن اتصالها بشبكة مياه الفرات الاروائية انعشها من جديد وعادت اليها زراعة الخضار والاشجار المثمرة والكرمة والرمان ، وتتوفر فيها كل خدمات المدن من كهرباء ومركز صحي وآخر ثقافي ومصنع للسجاد اليدوي ومركز تثقيفي شعبي .

ز ـ عين العرب : مدينة حدودية شأن جرابلس ، مركز منطقة تحمل اسمها ، تقع على ارتفاع ٥١٠ م ويسكنها حوالي ١٥٠٠٠ نسمة ، وتتبعها ناحيتان هما الشيوخ وصرّين و ٢١٢ قرية و ١٠٧ مزرعة .

وبلغ عدد سكان المنطقة في ١٩٨٣ تعـداداً يربو على ١٠٠٠٠٠ نسمة . وتبعد عن حلب ١٥٧ كم .

واذا كان اعمار المنطقة قديم يشهد عليه وجود ٤٠ مغارة كانت تستخدم كمدافن من العهد الروماني والبيزنطي تقع شمال غرب المدينة فإن المدينة حديثة العهد انشئت بعد الحرب العالمية الاولى ورسم الحدود السورية التركية ، وانتقال مركز المنطقة من مدينة سروج التركية الى عين العـرب . ويشهَد على حداثتها مخططها الشطرنجي واستقامـة شوارعهـا .

وبعد ان كانت بيوتها حجرية ذات سقوف خشبية وبعضها قبابية مبتورة اصبح معظمها حديثاً وتتالف من طابق او طابقـين او ثلاثة . وقد امتدت بسرعة منذ ١٥ سنة في اتجاه الغرب والجنوب حتى اتصلت مساكنها بقريتي عين مرشد وقرية مقتلة . لا يزال نشاط معظم سكانها ريفياً كالزراعة وتربية الماشية ، وفيها سوق بازار اسبوعي للحيوانات ومنتجاتها وآخر للخضار .

ومياهها من الآبار وترتبط بحلب بطريق جسر جرابلس او بجسر قرة قوزاق المؤدي الى منبج .

★ ★ ★

الفصل السادس

أوضاع الريف الحلبي

مقدمة تاريخية : تضم محافظة حلب ، بحدودها الحالية ، ١٤٤١ قرية و ١٢١٢ مزرعة فضلاً عن ٢٧ ناحية يغلب عليها الطابع الريفي ، وتضم جميعاً قرابة نصف سكان المحافظة . ولا يخامرنا شك في أن سكان الريف وتكاثفهم قد بلغ اليوم حداً لم يسبق أن بلغه في يوم من الأيام ، لأن العمران لم يمتد على كل القرى الدارسة فحسب بل تجاوزها الى مناطق لم يقطنها أحد قبلاً بصورة مستمرة أو خدش أرضها محراث ، أو امتدت اليها يد العمران ، كما يستدل من الدراسات الأثرية أو من الصور الجوية .

وهكذا بدأت تظهر أعراض الازدحام السكاني النسبي في معظم أنحاء المحافظة ، ذلك الازدحام الذي كان من جرائه تدفق الفائض سكان الريف نحو المدن الصغرى أو نحو حلب أو يضطرون لتأجير أيديهم للعمل في زور الفرات أو في سهول الجزيرة ، بل وحتى باتجاه دول الخليج العربي .

ولكن هذا الوضع لم يكن في الماضي على مثل ما هو عليه اليوم لأسباب عديدة :

فقد كانت فترة الحكم العثماني وبالاً على الحياة الريفية بصورة خاصة لان الرحالة فولني الذي زار ولاية حلب في أواخر القرن ١٨

يذكر معظم الأراضي الزراعية كانت بوراً ولا يكاد الانسان يلاحظ وجود المزروعات الا بجوار القرى الكبيرة والمدن .

والواقع هو ان مساوىء نظام الحكم العثماني القائم على ابتزاز الولاة لأموال الرعية وفرط التجنيد الالزامي الذي استدعته حروب الدولة العثمانية المستمرة قد جعلت معظم ولايات الامبراطورية شبه مقفرة . وقد تجرعت ولاية حلب ، بصورة خاصة ، غصص هذه المساوىء حتى الثمالة . فبينما كانت سجلات الضرائب القديمة لولاية حلب في القرن ١٦ تذكر وجود ٣٢٠٠ قرية هذا علماً أن مساحتها حينذاك كانت تعادل ثلاثة أمثال مساحتها الحالية ، لم يبق منها في ١٧٨٥ سوى ٤٠٠ قرية فقط أي حوالي ١٥٠ قرية في حدود محافظتنا الحالية .

ويذكر أحد المؤرخين كيف كانت القرى تقفر من ساكنيها ، فلا يرى المسافر سوى البيوت المتداعية ، وصهاريج مياه مردومة ، وحقولاً مهجورة . وكان الكثيرون يلجؤون للمدن التي لم تكن أسعد حالاً بكثير ، ولكنها تتميز على الأقل بأن الانسان يتخلص فيها من جشع الدركي التركي « اللاوند » الذي لم يكن أقل ميلاً للسلب والنهب من بدوي البادية .

وعلى كل اذا كان الفلاحون ، كسائر فئات السكان ، رعية السلطان لكن هذه العبارة لم تكن مرادفة لكلمة « عبيده » . والسلطان العثماني وان كان سيد الأملاك والأرواح ، غير انه لم يكن يبيع الناس ، ولم يكن يربطهم بمكان محدد . واذا كان يمنح الاقطاع الى أحد الكبراء فليس معنى ذلك انه يمنح ٥٠٠ فلاح أو ١٠٠٠ فلاح مع هذا الاقطاع الى صاحب الاقطاعية الجديد ، كما كان يحدث في روسيا القيصرية وبولونيا مثلاً ، أو بعبارة اخرى كان الفلاحون مرهقين من استبداد الدولة ، ولكنهم لم يكونوا مستعبدين ، اي ارقاء .

ولكن هؤلاء البؤساء كانوا يرتجفون فزعاً عند ظهور « اللاوند » او الدركي التركي لأنه كان قاطع طريق تحت زي عسكري . وعند دخوله

القرية كان يأمر وينهي كأنه السيد المطلق ويصرخ بهم بقوله : « ايها الأوباش ، آتوني بخبز وقهوة وتبغ ، وما احتاج اليه من شعير لحصاني ، ومن لحم » ، وما ان يرى بعض الطيور الداجنة من طير وبط ودجاج حتى ينقض عليها ويذبحها ، وقبل ان يغادر القرية ، بعد ان يضيف الاهانة الى التعسف ، يطالبهم بـ « كرى الضرس » او الرشوة العينية . وكان الفلاح يستنجد ويستجير من الظلم ولكن السيف المصلت عليه كان يفرض عليه الصمت ، كما ان المشتكى اليه بعيد ، صعب المنال ، وكثيراً ما تجلب الشكوى أسوأ النتائج على مقدمها ، وظل هذا الحال حتى بلوغ البلاد استقلالها إذ بدأ ابن الريف يرفع راسه .

ولنتصوّر الآن نتائج ذلك . لأن أول شيء حصل هو دمار القرى التي كانت تعجز عن دفع « الميري » فتلقى الضريبة على عاتق فلاحين آخرين مجاورين، أو يهجرها سكانها نهائياً فيلجأون للمدينة او يستأنفون حياة البداوة . وبما أن الميري محدود ويجب أن يجبى كلياً فإن الذي يعجز عن دفع حصته تضاف هذه على بقية أهل القرية ، والعبء الذي كان بالبداية محتملاً ، الى حدّ ما ، يصبح ثقيلاً جداً . وقد يحدث أن تصاب أراضي قرية ما بقحط بسبب انحباس المطر أو الجراد ، فيجلون عنها بحثاً عن مورد رزق آخر ، ولكن الضريبة المفروضة عليها تستوفى من القرى المجاورة ، أو يلجأ الفلاحون لأحد أصحاب النفوذ بحلب فيتنازلون له عن أراضيهم مقابل حمايتهم أو اقراضهم مبالغ من المال أو كميات من الحبوب وكانت هذه طريقة لتشكل الملكيات الواسعة شبه الاقطاعية .

وقد أدّت هذه الأساليب الوحشية اجمالاً الى انحطاط الريف ، وانكماش عدد سكانه هرباً الى المدن أو الى البادية ، وتناقص الجباية التي تصل الى الآستانة ، أي أن الدولة كانت تنهج سياسة « لحس المبرد » وتنتحر ، كي ترتمي بأحضان المصارف الأجنبية طالبة القروض مقابل الامتيازات والتنازل تدريجياً عن الاستقلال .

اما البدو فمصيبتهم كبيرة ايضاً لانهم في حالة النزاع مع الفلاحين كانوا ينهبون علناً ويتصرفون كأعداء . اما في حالة السلم فيلتهمون كل ما يجدونه أمامهم بصفتهم ضيوفاً ويقبضون « الخوّة » ، حتى أن حلب ذاتها لم تسلم من شرورهم كما حدث في ١٨٥٠ في « فتنة حلب » وحتى في ١٩١٨ . لهذا كان المثل الدارج في ريفنا المسكين هو : « ابتعد عن البدوي ان كان صديقاً أو عدوّاً » وكان البدو هم المسؤولين عن ندرة الأشجار المثمرة في سهب شرق حلب وحتى في وادي الفرات ، حيث لم تظهر زراعة الأشجار المثمرة والخضار الاّ في الخمسينات من القرن العشرين ، وذلك بسبب إدخال مواشيهم الى الحقول متى شاءوا .

وكان من أكبر المصائب التي كانت تنقض على رأس فلاحنا حينذاك هو الربا بالأضعاف المضاعفة ، لأن الفلاح الذي يحتاج الى سلفة لشراء البذار أو الماشية الخ ... كان عليه أن يبيع كل أو بعض محصوله المقبل بأبخس الأسعار وكان خطر إظهار المال يجعل يد الذي يملكه ممسكة جداً واذا بسطها فذلك على أمل ربح سريع وفاحش . وكانت أخفض نسبة للفائدة ١٢ ٪ والمألوف أن تكون بحدود ٢٠ ٪ ، ولكن قد تصعد في كثير من الحالات الى ٣٠ ٪ .

وتجاه كل هذه العوامل المذكورة كان الفلاح يعيش في جو من البؤس الحقيقي ، مادياً ونفسياً ، اذ كان يقتصر في غذائه على خبز الشعير أو « الخليطة » من الذرة والشعير والقمح ، الحاف ، مع البصل أو القليل من العدس المسلوق . أما الأيام التي كان يأكل فيها البرغل « بسامير الركب » المضاف اليه شيئاً من الزيت أو السمن أو اللبن فكانت نادرة . ولكيلا يفقد شيئاً من الحب كان يترك به كل الأجسام الغريبة ، وحتى الزيوان ، مما يسبب لآكله شيئاً من الدوار خلال عدة ساعات .

وكان الفلاح يضطر في المناطق المجاورة لحافة البادية أن يزرع ويحصد وبندقيته فوق كتفه ، وما ان تصفرّ سنابل القمح على سوقها حتى يعمد الى حصادها ودراسها ، على عجل ، ووضعها بالمطمورة ،

وهي عبارة عن صهريج مفروش بالتبن ، او في كهوف عادية . ولا يأخذ منها الا ما يكفي للبذار ، كما أن الأرض لا تبذر الاّ بما يكفي للتغذية ، اي أن عمل الفلاح كان يقتصر على تأمين حاجياته الأولية فقط ، أي أن الفلاح كان يعيش على شفير الاملاق ولكنه كان لا يسعى لإغناء المستبدّين، وهكـذا كان جشع الحاكمين ينال عقـابه بجريمتهم ذاتهـا ويحفرون قبرهم بمخالبهم .

نستنتج مما تقدم أن أوضاعاً كهذه لا يمكن أن تخلق من الفلاح ، الذي كان يشكل الأكثرية ، مواطناً صالحاً ، أو على الأقل ، رجلاً ، لأن هذا البؤس المادي والنفسي كان كافياً لجعله يتخـذ سلوكاً سردابياً ، متلوناً ، منافقاً ، يؤدي الى قتل كل سمات الرجولة فيه .

والواقع هناك الكثير من الأدلة على صدق المثل القائل : « لا ينبت العشب خلف حافر الحصان العثماني » وذلك بسبب استعمال الفسـاد وسائر أشكال الرشوة التي تجذّرت في سائر أنحاء امبراطورية بني عثمان خلال القرنين الأخيرين من حكمهم واتخذت شكلاً وبائياً يصعب شفاؤه . نعم هكذا كان وضع فلاحنا في زمن كانت الأمم الغربية تحاول فيه التحرر من الاقطاع وتتجه لتحقيق العدالة الاجتماعية كي تخرج من ظلمات الجهل والظلم الى نور المعرفة والكرامة الانسانية .

غير أن الحكومة العثمانية أخذت تفكر في أواخر أيامهـا بإنعاش الريف عن طريق احياء الأراضي الموات . فبدأ تحديد الأراضي وتمليكها اعتباراً من عام ١٨٦٨ وذلك بعد أن بدأت الدولة تفقد الكثير من ممتلكاتها في افريقيا وأوروبا وآسيا ، فأرادت تحسين استغلال ما تبقّى بيدها كي تؤمن نفقاتها ولا سيما تكاليف حروبها التي لا تكاد تهدأ . ثم جاء السلطان عبد الحميد وأنشأ ما يسمى بالجفتلك ، وهي ادارة الممتلكات التي تخصه ، وأنشأ حرساً خاصاً لتأمين فلاحيه ولتأديب البدو . كما عمل باشاوات حلب لوحدهم أو متحالفين مع باشاوات حماه ودير الزور على شن حملات تأديبية ضد القبائل التي كانت تنشر الفوضى

وتبث الذعر في الأرياف ، تماماً كما كان يفعل سيف الدولة قبل حوالي ١٠٠٠ عـام .

ولكن كل هذه التدابير جاءت متأخرة عن أوانها لأن الفتق كان أكبر من أن يرتق والوضع سائر نحو التدهور المتسارع ، ثم جاءت الحرب العالمية الاولى وفي أعقابها الانتداب الأجنبي البغيض الذي ناء بكلكلة على البلاد مـدة ربع قرن فلم تتغـير الأوضاع كثيراً عما كانت عليـه أيام العثمانيين اللهم الاّ خلاص الفلاحين من الخدمة العسكرية الاجبارية . وكما عمل الفرنسيون على « تلويث » المدن الكبرى بنعرات الطائفيـة والفئوية فقد عملوا بالريف والبادية على محاباة شيوخ البدو غالباً على حساب الفلاحين المنتجين ، وقد سبق أن ذكرنا كيف أن البدو ثابروا على جباية « الخوة » من سكان القرى حتى أسوار المدن ، ولم تبطل هذه العادة المقيتة الاّ مع فجر الاستقلال المجيد بجلاء الأجنبي .

ثمرات الاستقلال وتأثيراتها المباركة على الريف :

أولاً ـ تحرير الفلاح من الربا : وذلك عن طريق توسيع أعمـال المصرف الزراعي الذي تأسّس في عام ١٨٨٧ وذلك بزيادة رأسماله زيادة كبيرة فأصبح قادراً على توزيع القروض على الراغبين من الفلاحين في أعقاب الكوارث الطبيعية كالقحط وعلى إعانة المزارعين الراغبين في شراء البذار والأدوات الزراعية الحديثة كالجرارات والحصادات . وبعد أن كانت القروض رمزية أصبحت تصل إلى ٦٠ ٪ من قيمة الأرض البعلية و ٤٠ ٪ من قيمة الأراضي المشجرة ، وبعد أن كان عدد القروض في ١٩٤٤ مثلاً ١٠٣٤ ومبلغ ٨١٢٠٠٠ ل س ، صعد الى ٤٦٧٣٨ في ١٩٥٨ ومبلغها ١٩ مليون ل س .

وبعد هذا التاريخ أخذت الجمعيات الزراعية تلعب دوراً هاماً في التكافل الريفي وانكماش دور المرابين هذا اذا لم نقل زواله بصورة شبه كاملة ، بعد اكتساب الفلاح الوعي اللازم لمصلحته بفضل تعليمه وتوعيته .

ثانياً ـ في الميدان التعليمي : لقد كان التعليم منعدماً تماماً في الريف في العهود العثمانية ، التي استمرت اربعة قرون كاملة ، باستثناء المدن الصغرى حيث كانت الكتاتيب الملحقة بالمساجد توفر مبادىء القراءة والكتابة وترتيل القرآن الكريم لأعداد محدودة جداً من الصبيان . ولم تستطع دائرة المعارف التي تأسست في حلب عـام ١٣٢٣ هـ ، وكان مقرها دائرة البريد القديمة أو الواجهة الشمالية لساحة باب الفرج ، حتى لا تزال اللوحة الرخامية تحمل عبارة « معارف دائرة سي » حتى ايامنا هذه فوق « مديرية مرور حلب » ، اقول لم تستطع أيام الانتداب ان تنشىء أكثر من بضع عشرات المدارس الابتدائية والأولية في القرى الضخمة ومدن المناطق ، هذا في حين ظلت الأكثرية الساحقة من أبناء الريف تغط في جهل عميق ، الى أن حصلت البلاد على استقلالها فأصبح التعليم في متناول جميع الأطفال الذين هم في سن الدراسة وأصبحت نسبة أرباب المهن الحرة من أطباء ومهندسين من أبناء الفلاحين لا تقل كثيراً عن نسبتها بين أبناء المدن . ومن النادر أن نجد الآن قرية لا تحوي مدرسة كما أصبحت مراكز المناطـق تحوي ثانوياتهـا الكاملـة للذكور وللإناث .

ثالثاً ـ تأمين مياه الشرب النقية : قالت دورين ورّينر في كتابها : « الأرض والفقر في الشرق الأوسط » ما ترجمته : « لا نستطيع التحدث عن مستوى معيشة لدى فلاحي الشرق الأوسط طالما أن مياه الشرب النقية تعتبر عندهم من أنواع الترف»(الشكل١٥). والواقع تطرح مشكلة مياه الشرب مشكلة خطيرة في العديد من قرى محافظة حلب بسبب فقر المنطقة بالمياه الباطنية أو لعمقها الكبير ، أو لملوحتها ، أو لغناها بالأملاح الضارة مثل كبريتات الكلسيوم كما في المنطقة الجنوبية الشرقية . وقد عمدت السلطات المسؤولة لحفر آبار عميقة(١) قد تصل الى ٢٠٠ م كما

---

(١) وتدعى خطأ « الآبار الارتوازية » والأصح تسميتها « الآبار الأنبوبية » أما الآبـار الارتوازية فلهـا شروط جيولوجية خاصة وتندفع مياهها عادة على شكل نافورة بالبداية او على الاقل تصعد حتى قرب سطح الارض .



في غربي حلب والى اقل من ذلك في شرقها ، واصبحت أبراج خزانات المياه الاسمنتية من المناظر المألوفة في ريفنا ، وفي سنوات الجفاف تعمل الصهاريج الضخمة على توفير المياه للعديد من القرى ، مثلما استفاد الكثير من القرى من مياه الفرات ولا سيما الواقعة على مقربة من مسار القناة الرئيسة التي تقود المياه الى مدينة حلب .

رابعاً ـ تأمين التنوير الكهربائي : إن دعم وزارة الداخلية لمطالب سكان القرى الضخمة لإنشاء بلديات قد تساعد الى حد كبير على تأسيس مراكز توليد الكهرباء الحرارية اللازمة للتنوير والاستفادة من منجزات المدنية الحديثة كالمراوح والثلاجات والراديويات والتلفاز بدءاً من الستينيات . غير أن بناء السد الكبير على الفرات وكهربته وبناء سد البعث وسد تشرين ساعدا على كهربة قرى الريف بنسبة كبيرة وهكذا ارتفع عدد القرى المنارة من ٩ في ١٩٦٠ الى ١٣ في ١٩٦٣ والى ١٤ في

١٩٧٠ والى ٨٠٣ في ١٩٨٧ ، وهذا ما سيساعد على لامركزية الصناعة وبالتالي على الحد من تيار الهجرة الريفية .

خامساً ـ المواصلات : لقد ادت سهولة المواصلات الناتجة عن تمديد شبكة من الطرق المزفتة ، والمعبّدة ، والاقتصادية ، والاقتصادية المزفتة ، وذات التسوية الترابية ، والطبيعية ، اقول ادت الى سرعة اتصال حلب بسائر المدن والكثير من قرى مناطقها ، وبذلك انفتح العالم الريفي على الحضارة الحديثة وانفجر ذلك الاقتصاد المغلق التقليدي القديم على الانتاج لتأمين حياة الفلاح وأسرته وبيع فائض هزيل لتأمين حاجيات محدودة .

أما اليوم فقد أصبحت حلب كالعنكبوت في وسط شبكتها ، لأنها نقطة انطلاق لأربعة خطوط حديدية من المقياس الدولي ، أولهما : يذهب باتجاه الشمال الشرقي مروراً بأخترين والراعي (جوبان بك) وجرابلس كي يدخل الأراضي التركية حتى القامشلي حيث يعود للأراضي السورية حتى الموصل ، التي بلغها عام ١٩٤٠ ، وهو خط بغداد ، أو بغداد باهن كما كان يدعوه الالمان الذين اشرفوا على تنفيذه قبل الحرب العالمية الأولى . والثاني ينطلق باتجاه الشرق نحو دير الزور والقامشلي مع تفريعات لموقع السد ولحقول غاز الرميلان وغاز الجبسة وقد بدأ تشغيله عام ١٩٧٥ وبدأ تنفيذه عام ١٩٦٣ وطوله ٥٥١ كم : والثالث ويتجه نحو اللاذقية وقد بوشر بتنفيذه في ٢٢ / ٥ / ١٩٦٧ بطول ٢١٥ م منها ٦ر٤٨ كم هي انفاق و ١٢ قنطرة مع ركائز يرتفع بعضها الى ٧٩ م وقد بدأ تشغيله عام ١٩٧٥ ، والرابع وهو خط حمص دمشق بطول ٢٢٢ كم مع تفريقه باتجاه مناجم فوسفات خنيفيس وطولها ١١١ كم وقد ابتدأ تشغيل هذا الخط باتجاه دمشق عام ١٩٨٣ ومع حلب سنة ١٩٨٥ ، وبذلك بلغ طول الخطوط الحديدية مع التفريعات بسورية في عام ١٩٨٧ ، ٢٢٥٢ كم مقابل ٥٤٣ عام ١٩٦٣ . والأخير وهو الخامس ويتجه نحو ميدان اكبس ومنها الى تركيا فأوروبا وهو خط الشرق السريع .

ويعطي الجدول التالي فكرة عن تطور حركة نقل الركاب والبضائع في محطة حلب :

السنة	عدد المسافرين مليون مسافر	عدد المسافرين مليون مسافر/كم	كمية النقل بالطن	كمية النقل طن/كم
١٩٦٣	٠ر٦	٥ر٣٦	٠ر٤	٧٥
١٩٧٠	٠ر٥	٧ر٦٠	١ر٦	٩٤
١٩٨٠	١ر٣	٩ر٣٦٨	٢ر٤٤	٥٧٦ر٦٥
١٩٨٥	٣ر٤	٤ر٩٣٢	٣ر٠٧	٨٣٣ر٩
١٩٨٧	٣ر٧	٨ر١٠١٥	٥ر٦	١٥٠٧ر٣

أما الطرق المزفتة الرئيسة المنطلقة من حلب فهي أربعة :

١ً ـ طريق حلب وجرابلس مروراً بالباب ومنبج وطوله ١١٥ كم .

٢ً ـ طريق حلب دير الزور وطوله ضمن أراضي المحافظة ١٠٠ كم ويمر ببلدة دير حافر ومسكنة ومنها الى الرقة ودير الزور ويتفرع منه فرع يذهب جنوباً نحو الجبول .

٣ً ـ طريق حلب ميدان اكبس ويمر بعفرين وراجو وطوله ١١٠ كم ويتفرع منه فرع ابتداءً من عفرين باتجاه الحمام على تخوم لواء اسكندرون وفرع يذهب جنوباً نحو دير سمعان وديرة عزة .

٤ً ـ طريق حلب دمشق وطوله حتى حدود محافظة ادلب ٣٥ كم ويتفرع منه فرع ينطلق الى باب الهوا ومنه الى انطاكية واسكندرون .

وبذلك انتعشت الحياة الريفية اقتصادياً اذ أمكن تصريف المحاصيل الزراعية ولا سيما السريعة التلف ، والألبان ، بسرعة كبيرة كما أصبح من المستطاع نجدة الفلاحين في حالة المصائب الطبيعية كانحباس المطر ، والمجاعة ، والسيول ، والعطش ، أو لنشر الأمن الذي يعتبره فلاحنا « ملح الأرض » . كما ضاقت الشقة في العقلية بين ابناء

المدن وابناء الريف فاقتربا وتماثلا بعد ان كانت الريبة وسوء الظن متبادلين فيما بينهما .

سادساً ـ الاصلاح الزراعي : ولا نقصد بذلك قانون الاصلاح الزراعي الصادر في ايلول ١٩٥٨ والذي ساعد على تحرير الفلاح اجتماعياً من ربقة الملكية الكبيرة التي كانت لا تختلف عن الاقطاع المعروف في اوروبا قبل قرنين من الزمن إلا في ان الفلاحين كانوا احرارا اذ لم يكونوا اقناناً يباعون مع الأرض .

والواقع هو أن الاصلاح الزراعي الفعلي يعود الى بدء العمل بالتحديد والتحرير وتوضيح الملكية والحيلولة دون التعدّي على املاك الغير . ولكن المعضلة الكبرى التي كانت ولا تزال ، الى حدّ بعيد ، تقف سداً منيعاً يحول دون تطور الزراعة واستغلال الأرض عقلانياً ، وتحرير الفلاح من القيود الاجتماعية ، تكمن في نظام المشاع القائم على بعثرة الملكية وتحولها الى شكل أشرطة من الأرض متباعدة مما يبعثر جهود الفلاح فيزداد الوقت اللازم لحراثة أرضه بنسبة ٣٠ ٪ في حين تقدر نسبة البذار المهدور بلا جدوى بحوالي ١٠ ٪ .

والواقع هو أن أعمال التجميل لم تبدأ في محافظة حلب الاّ في عام ١٩٣٧ بحيث ان حصيلة أعمالها حتى ١٩٦٠ لم تتجاوز ٥٥ قرية وهو هزيل بالنسبة لعدد القرى التي يستفحل فيها المشاع ويعود ذلك لقلة مخصصات دائرة التجميل العقاري بالرغم من كثرة عدد المهندسين . ولكن النتائج الملحوظة كانت رائعة جداً ويكفي أن ينظر الانسان الى تحسّن قرية خان شيخون ، التي كانت تابعة لمحافظة حلب ، من الناحية العمرانية والاجتماعية والاقتصادية ، اذ تحرر الفلاح بكل ما في الكلمة من معنى وتخلص من التزاماته المرهقة تجاه قريته كلها كما تبعثرت المنازل في الحصص الجديدة وتطورت زراعة الأشجار المثمرة بشكل مدهش .

أما الاصلاح الزراعي الآخر فقد كان الاستعانة بالجرافات الحديثة لتنقيب الأرض ، أي اقتلاع القشرة الصحراوية « القزازة » التي تحد من زراعة الأشجار المثمرة وتجعل التربة رقيقة حصوية ، وذلك بمبادرة من الدولة أو من الأفراد وقد أدت لنتائج باهرة لأن القشرة تصفّح أكثر من ربع الأراضي الزراعية بالمحافظة مما سيزيد الانتاج شاقولياً ، كما ان اقتلاعها يساعد على تسرب مياه الأمطار نحو باطن الأرض عوضاً عن ضياعها عن طريق التبخر . .

الحياة الاقتصادية في الريف :

لا تزال الزراعة تؤلف العمود الفقري في محافظة حلب ، فهي التي تقدم المواد الأولية اللازمة للعديد من فروع الصناعة المحلية ، وهي التي يعيش منها ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، معظم سكان المحافظة . ويكفي أن نذكر أن جوده الموسم الزراعي أو رداءته تنعكس فوراً على حياة حلب الاقتصادية والنفسية والاجتماعية .

وقد درجت العادة ، حتى الآن ، على تصنيف الأراضي في سوريا عامة ، وفي محافظة حلب خاصة ، الى أراضي صالحة للزراعة وأخرى غير صالحة لها . ولكن هذا التصنيف يتداعى من أساسه لأنه قائم على تمييز الأراضي ذات التربة العميقة(١) الحمراء القابلة لزراعة القمح والخضار الصيفية عن الأراضي المحجرة أو الصخرية التي لا تصلح بأي حال من الأحوال لزراعة الحبوب والحراثة .

والحقيقة يمكن النظر للمناخ السائد على محافظة حلب كمناخ ذي أمطار كافية لزراعة « كل » مناطق هذه المحافظة حسب امكانيات وظروف كل منطقة على حدة . فالأراضي الصخرية تنجح فيها الزراعات الشجرية ، كالتين والزيتون والعنب والفستق أيما نجاح ولكن بعد تهيئة الحفر اللازمة . وقد عرف السكان في العصرين الروماني والبيزنطي

---

(١) وتدعى في منطقة محافظة حلب : كابر ، هبر ، داشت .

كيف يستغلون منطقة جبل سمعان الصخرية فزرعوا الشقوق الفاصلة بين جلاميد الصخور الملبئة بالتربة الحمراء بالزيتون والكرمة فكانت منطقة عامرة غنية تدل بقايا آثار معاصر الزيتون والخمور على غناها الغابر بينما تبدو اليوم كصحراء حجرية قمرية المظهر .

هذا كما زرع أهل خناصر القدامى سفوح جبل الأحصى وشبيث بالكرمة مثلما نجحت اليوم زراعتها في أراضي منبج وجرابلس البعلية ، والتي تبدو من أكثر المناطق جفافاً في محافظتنا . ولكن تطاول أمد الإهمال وهيمنة الحياة الرعوية البدوية في فترات معينة من التاريخ ادت لانجراف التربة وبروز الصخر السفلي عارياً .

هذا ولا تبدو امكانات التحريج والتشجير هزيلة او مشكوك فيها ابداً اذا أمكن انشاء غابات اصطناعية في مناطق عديدة وكذلك مؤخراً في منطقة الحزام الأخضر .

لكن هناك عوائق بشرية وتقاليد بدوية لا تزال تحول دون التوسع في التشجير واستغلال الأرض أفضل استغلال وتكمن هذه في روح البداوة المسيطرة على غالبية مناطق ريف حلب وخاصة بسبب وجود قطعان الماعز التي تخص بعض أرباب النفوذ والذين لا يتورع رعاتهم عن إدخالها في المزارع الشجرية لتقضم براعمها تحت أبصار أصحابها كي تساهم في « التصحير » .

والحقيقة إن إمكانات بلادنا الزراعية أكبر مما نتصور بكثير . فالأراضي التي لا تصلح للزراعة بالوقت الحاضر هي الأراضي المالحة بجوار السبخات ولا سيما الى الشرق من سبخة الجبول وجوار سبختي الخرايج ومراغة ، وبعض السفوح الصخرية حول هضبة الأحص ومساحتها محدودة بالنسبة لمجموع مساحة المحافظة .

والواقع ليس من المستحيل ابداً تحويل معظم اراضينا التي لا تصلح لزراعة الحبوب ، والفقيرة التربة ، الى غابات للزيتون كما صنع التونسيون في اواسط وجنوب بلادهم حيث جعلوها غابات حقيقية من

الزيتون او « الزياتين » جعلت تونس من اوائل الدول في حوض البحر المتوسط لتصدير زيت الزيتون لكثير من انحاء العالم ، كما يمكن التوسع بصورة لا محدودة في زراعة الكرمة وتصنيع عصير العنب في علب من الصفيح والذي يمكن ان يجد اسواقاً واسعة في دول الخليج العربي والتي تستورده الآن من النمسا وايطاليا واليونان .

المحاصيل الزراعية الشجرية :

يقسم الطريق الذاهب من حلب الى حماه محافظة حلب ، تقريباً ، الى منطقتين متباينتين ، فإلى الشرق يمتد السهب الأغبر الرتيب والذي تكثر فيها مشاهد السراب، صيفاً وزوابع الغبار ، ولا يتعرف على الخضرة الباسمة الا خلال ثلاثة أو اربعة شهور من العام قبل الحصاد ، والى الغرب من الطريق نجد هضبة متموجة هي عبارة عن منطقة باسمة ، متنوعة المشاهد ، ذات آفاق متبدلة .

وفضلاً عن الشروط الطبيعية الموائمة للغابة في المنطقة الغربية ، فإن هناك عوامل بشرية حاسمة ، تلعب دورها ، وأقصد بذلك السكان الذين عرفوا من عهود قديمة حياة ريفية مستقرة لا تقنع بحياة الرعي أو بزراعة سطحية تخضع لأهواء مقادير الأمطار السنوية .

فالفلاح الذي يزرع هنا التين والزيتون أو اللوز والكرمة انما يسقي أشجاره بعرق جبينه وساعديه ، وهذا ما يفسر لنا سبب بقاء الملكية المتوسطة والصغرى الغالبة ، رغم كل التقلبات ، لأن هذا النوع من ملكية الأرض هو الذي يسمح بتفجير طاقات الانسان المفيدة وأكبر مثل على ذلك هو زراعة الزيتون .

١ ـ **الزيتون** : وهو هنا في موطنه الأصلي لأن أشجار الزيتون الوحشي لا تزال موجودة في بعض الغابات الغربية . واذا كان زيتون محافظة حلب هو من زرع يد الانسان فان بعض مزارعة ، ولا سيما في جبل الكرد ، قد نتجت عن تطعيم الشجيرات البرية او عن تشذيبها وتخليصها من الأدغال المحيطة بها . والواقع لا نزال نجد لمعظم انواع

الزيتون الأهلي ما يقابلها في الغابة . وبما ان الزيتون هو من اشجار حوض البحر المتوسط فإن جودة ثماره وتألق اشجاره يقلّان كلما ابتعدنا عن سواحل البحر المذكور . كما ان البرد يضر بأشجاره ولا سيما عندما تهبط الحرارة الى ما دون ١٥ تحت الصفر فتموت الشجرة من فوق سطح الأرض .

وهكذا تتعرض أشجار الزيتون في محافظة حلب وادلب لكوارث دورية بسبب سني البرد الشديد كما حدث في عام ١٩١١ حيث تلف ما يقارب ٣٠٠٠٠٠ شجرة ، وفي عام ١٩٥٠ إذ قضى البرد على حوالي نصف أشجار زيتون المحافظة أو ما يقارب مليوني شجرة . ولكن أمثال هذه الكوارث لا تفت في عضد المزارع بل يستغل الأرومات الضخمة القديمة في توسيع مزارعه ، ويقال : « الزيتون أفضل شجرة لأردأ أرض » .

ولم تفشل زراعة الزيتون في أية منطقة من محافظة حلب ، غير أن توزعها يخضع لشروط تاريخية واجتماعية أكثر من خضوعها لظروف طبيعية معينة . وقد لعبت شجرة الزيتون في سوريا الشمالية دوراً هاماً في التاريخ لأن الامبراطورية التي أنشأتها روما جعلت كل قطر يختص بمحصول يقدمه « للسوق المشتركة » فأصبحت منطقة غرب حلب غابة زيتون حتى أن روما ذاتها بدأت تخشى من منافسة سوريا لأهم محصول من محاصيلها ، ذلك لأن الزيت والخمر ، وهما من المحاصيل التي لا تتلف بسرعة وتتحمل النقل البعيد ، كانا يصدّران الى انطاكية ومنها الى ايطاليا وبلاد الغال .

ولكي ينصرف فلاحو ذلك العصر الى هذا التخصص الضيق فقد كانوا يعتمدون على منطقتين مجاورتين لتأمين حاجتهم من اللحوم والخضار لعجز أراضيهم الصخرية عن تأمين انتاج هذه المواد بمقادير كافية ، فكانوا يأتون بالحبوب وبحيوانات الذبح من السهب الشرقي بينما كانوا يحصلون على الخشب الضروري لسقوف بيوتهم ، ذات النمط الاغريقي ، من جبال امانوس او من حور الغاب .

هذا وتلعب زراعة الزيتون دوراً اجتماعياً لا ينكر ، ذلك انها تتنافى مع الملكية الكبيرة شبه الاقطاعية . ويكفي أن يتجول الانسان في جبل ليلون وسمعان والمناطق المجاورة كي يلاحظ تناثر المساكن في مزارع الزيتون مما يدل على صغر الملكية ، أي أن البيئة الاجتماعية تكون هنا أقرب للمساواة والعدالة .

ومعظم المزارع انما قامت هنا نتيجة تعاون مالك الأرض والشريك الذي يزرع الأشجار ويعتني بها ، أو ما يشبه نظام « المغارسة » في البلاد التونسية ، لأن أشكال القسر الناتجة عن نظام اقطاعي لا محل لها في مملكة الشجرة . وهكذا كانت محافظة حلب تضم في ١٩٦٠ مساحة زياتين تمتد على ٢٢٠٠٠ هكتار تحوي ٢٫٥ مليون شجرة ، توسعت مؤخرا في زراعة هذه الشجرة المباركة حتى أن مديرية الزراعة والاصلاح الزراعي أنتجت في محطات إكثار الزيتون مقدار ١٥٠ ألف غرسة في ١٩٨٤ ولكن مقدار ٥٠٠٠٠٠ غرسة في ١٩٨٧ .

وتظل امكانات التوسع في زراعة الزيتون كبيرة جداً في منطقة حلب ، وعلى هذه الزراعة يعول في حل كثير من مشكلات تزايد السكان الريفيين والحد من هجرتهم نحو المدن ، وتنمية صناعة عصر الزيت وتعليبه وربما التصدير للخارج والتوسع في صناعة الصابون .

٢ ـ **الكرمة** : اذا كانت شجرة الزيتون تحتل مساحات شاسعة فإن بقية الزراعات الشجرية الأخرى كالكرمة ، والتين ، واللوز ، الخ.. لا تعرف الاتساع ذاته ، لأنها تبدو ، على الأكثر ، مختلطة مع الزيتون ، أو مع الفستق ريثما تدخل أشجار الفستق مرحلة الانتاج .

وقد كانت زراعة الكرمة شديدة الانتشار في شمال سوريا منذ أقدم العصور ويستدل على ذلك من ظهور عناقيد العنب في الكثير من الآثار الباقية ، وقد بلغت اتساعها الأقصى ، في غربي حلب ، خلال القرون الخمسة التي سبقت الاسلام . فهي لم تستفد من العوامل الطبيعية الموائمة جداً فحسب بل ان موقع المنطقة الجغرافي كان يسهل

تصريف الخمور حتى بلاد فرنسا الميروفنجية التي دخلت في النصرانية في ذلك العصر . والواقع تنجح الكرمة بسهولة في الأراضي التي لا توائم زراعة الحبوب ، وربما كانت ، على ما يظن ، كزراعة متخلخلة ضمن اطار زراعة الزيتون .

ولكن هـذا الازدهار الذي كان مرتبطـاً بشكل وثيق بالنظـام الاقتصادي والاجتماعي لامبراطورية كبـيرة ، والذي نتج عن الفتح الروماني ، لم يلبث أن تداعى بعد أن فقدت هذه الزراعة أسواق الخمور الخارجية ، لأن استهلاك الخمر أخذ ينكمش تدريجياً بنسبة تسارع دخول الناس في الدين الجديد أفواجاً .

وعلى كل تلعب الكرمة حالياً دوراً اقتصادياً وغذائياً لا ينكر . فلا تزال مصانع تقطير « العرق » والتي تسمى « كركة » تعمل في حلب وعفرين .ورغم أن انتاج العرق والنبيذ متساويين تقريباً فإنه لا يساعد على توسع زراعـة أنواع العنب الخاص بالتصنيع بشكل غير محدود لأن ضعف استهلاك الخمور سواء عند المسيحيين من المواطنين أو بين المسلمين الذين يحرم عليهم دينهم ذلك يعتبر حاجزاً أمامهـا في حين تتوسع زراعة أنواع عنب المائدة لقيمتها الغذائيـة وفي صنع الزبيب والدبس والخل .

هذا ويعمد الفـلاح الى تخفيف بعض العناقيد في أول الصيف فيقطفها على شكل حصرم يجد سوقاً له بحلب اذ يستعمل عصيره في طهي بعض أنواع الأطعمة كحامض أو كشراب منعش . أما العنب ذاته فلا يؤلف مادة ثانوية في غذاء الفلاح أو الحضري يتناوله بعد الطعام ، كما في أوروبا وأمريكا ، بل يشكل عنصراً جوهرياً في طعامه إذ يكتفي الفلاح أو عامل المدينة بتناول عنقود أو اثنين مع قطعة جبن صغيرة ورغيف أو اثنين من الخبز كوجبة غذاء أو عشاء .

أما صناعة الدبس فتكون إما على شكل عصير عنب مركز بالغلي أو التجفيف بالشمس أو الدبس الصناعي الحجري . وتنتشر زراعة الكرمة

في محافظة حلب في رقعة تزيد على ١٥٠٠٠ هكتار ، مثلما نجدها في كل المناطق لا سيما في منطقتي اعزاز وعفرين .

٣ ـ **التين** : تزرع شجرة التين في سائر انحاء المحافظة فوق الأراضي الفقيرة ، ولكنه يجود بصورة خاصة في مناطق الصخور الكلسية لأن جذور شجرته تذهب في اعماق الأرض بحثاً عن الغذاء والرطوبة . ولكن قلما تعمّر شجرة التين هنا أكثر من ٣٠ سنة حسب قول المثل المحلي : « عشر سنوات تعب ، وعشرة ذهب ، وعشر حطب » لذا تزرع بين صفوف الزيتون مع العنب لأنها تعطي ثمارها بسرعة ابتداءً من السنة الخامسة أو السادسة .

ولكن انتاج التين الذي يفوق طاقة الاستهلاك المحلية يترك فائضاً كبيراً يجفف ويرسل للمدن حيث يجد سوقاً لا بأس بها فيستهلك في فصل الشتاء ، ولكن دون تحضير متقن ودون الاهتمام كثيراً بنظافته مما لا يجعله قادراً على منافسة التين المجفف اليوناني أو التركي أو الايطالي في أسواق أوروبا الغربية حيث يدخل في صناعة بعض أنواع البسكويت .

٤ ـ **اللوز** : وتكون شجرته قنوعة جداً وتنجح في معظم الأراضي لأنها في موطنها الأصلي ، لأننا نجد اللوز البري في أكثر الغابات المتبقية ، لكن الصقيع الربيعي قد يفاجيء هذه الشجرة وهي في فترة إزهارها فيقضي على الثمار أو يتلف نسبة كبيرة منها كسائر اللوزيات .

وتتوسع زراعة هذه الشجرة بسرعة نظراً للتحسن المضطرد في مستوى المعيشة لأن ثمار اللوز تحتل مكانة ممتازة في صناعة السكاكر والحلويات وفي المطبخ المحلي . ولكن معظم ثمارها تستهلك وهي خضراء قبل نضجها في أوائل الربيع في فترة تكون الفواكه والثمار الأخرى مفقودة تماماً في الأسواق .

٥ ـ **الفستق** : وتعتبر زراعته من اختصاص حلب ولذا يدعى « الفستق الحلبي » تمييزاً عن « فستق العبيد » أو الفول السوداني ،

ولكن شجرته تنتشر على نطاق أكبر في عدة اقطار مجاورة مثل تركيا وشمالي العراق وايران والى حدّ ما في اليونان وجزيرة صقلية ومؤخراً في أقطار المغرب العربي الثلاثة وقد نقلت زراعته الى جنوب كاليفورنيا حيث يدعى النوع العاشوري هناك « الحلبي الأحمر » .

ويمكن الحصول على شجرة الفستق بتطعيم شجرة البطم التي تكثر في غابة جبل الأكراد . ولكن يبدو أن هذه الشجرة لا تعطي أجود ثمارها اذاتجاوزت الرطوبة الجوية أو الأمطار مستوىً معيناً ولذا لا تنجح الى الغرب من خط طول حلب .

غير أن هذه الشجرة التي لا تتطلب شروطاً طبيعية ممتازة لا تبدأ بالانتاج تماماً الاّ بعد فترة انتظار قد تصل الى ١٥ أو ٢٠ عاماً . وتقوم مديرية الزراعة بتقديم عشرات الآلاف من غراسه بأسعار رمزية والتي يزرعها الفلاحون في حفر يتراوح عمقها بين ٦٠ و ٧٠ سم الى جانب التين والعنب أحياناً .

وتبدو شجرة الفستق كثيرة العقد ، قليلة الأوراق وضعيفة الظل، ولكنها تعمّر عشرات ان لم نقل مئات السنين وتعطي بعض الأشجار الضخمة مقداراً يزيد عن ٣٠٠ كغ من الثمار أو ما يعادل ثمنها قرابة ١٥٠٠٠ ليرة سورية ومن هذا ندرك اهمية زراعة هذه الشجرة وكثرة ربحها . وتتعرض هذه الشجرة لمرض المن ، والى السوس وبفعل حشرة « القاطوع » وهي من غمديات الجناح من حجم الصرصر ولونها اسود منقط . ويختلف انتاج الفستق بمنطقة حلب بين ٢٠٠٠ و ٨٠٠٠ طن بالسنة ولكنه لا يكفي الاستهلاك المحلي مما يضطر البلاد لاستيراد كميات كبيرة من تركيا ومن ايران وباكستان .

وتتوسع زراعته حالياً في منطقة جرابلس والباب ومنبج وفي جنوب حلب وشرقها وفي القسم الشرقي من محافظة ادلب فوق الأراضي الفقيرة على الأرجح .

مشكلة زراعة الأشجار المثمرة : من المستطاع ان نضع اكبر الآمال في مستقبل زراعة الأشجار المثمرة في المناطق الغربية من محافظة حلب. فهذه المنطقة التي تغصّ بسكانها لا تستطيع ان تقدم للسوق مقادير تستحق الذكر من الحبوب او من المنتجات الحيوانية ، لأنها لا تنتج ما يفيض كثيراً عن حاجتها ، هذا في حين تتمكن من تقديم الكثير من حاصلات الزراعة الشجرية وحاصلات الزراعة الصناعية كالتبغ والسمسم والقطن والثمار ولا سيما الزيتون .

ومن جهة اخرى لا يمكن استغلال المساحات الصخرية «الكارستية» الاّ بغرسها بالأشجار المثمرة . غير أن فلاحنا لا يستطيع أحياناً أن يقوم، ضمن امكاناته الخاصة ، بتنظيف الأرض من الحجارة واخضاعها للزراعة ، لأنه يعيش « كل يوم بيومه » . هذا فضلاً عن أن زراعة الأشجار المثمرة بمحافظة حلب أخذت تتعرض ، منذ انتشار شبكة الطرق الحديثة ، وسهولة المواصلات ، لمنافسة فواكه وخضار منطقة الساحل وحتى منطقة انطاكية نفسها . وبالرغم من أن معظم الثمار الشجرية تستهلك محلياً ، في النطاق القروي ، فإنها مع ذلك تمنح الفلاح بعض الرخاء الذي يجهله عادة فلاح المناطق الشرقية المختصة غالباً بزراعة الحبوب .

الري والبساتنة والمزروعات المرواة :

ان اكثر الزراعات كثافة وأغناها تكون عادة في المناطق المرواة ، وتمارس هذه الزراعة الحثيثة في البساتين التي أمكن تأمين ريّها من مياه العيون او الأنهار الصغيرة . لهذا لا نجد اكثرية البساتين على أطراف الأنهار الكبيرة مثل الفرات او عفرين بل بجوار العيون والجداول المتواضعة التي استطاع الانسان بوسائله البسيطة أن يخضعها منذ القديم لمشيئته . وكانت الأرض تنال حصتها من الماء « العدّان » الذي يقاس بوحدات زمنية او قراريط تحت مراقبة ناظر تعيّنه الجماعة وتباع ارض كل بستان مع حصتها من المياه .

ويختلف تنظيم الري من منطقة لاخرى ، حسب صبيب العين ، وطبيعة التربة أو نوع المزروعات . ففي سهل الجومة تروي عين « غول بابير » قرب قرية تل سلور حوالي ٥ر٥ هكتاراً يستفيد كل هكتار منها بساعة وربع من المياه بالاسبوع .

غير أن استعمال المحركات والمضخات على نطاق واسع ادّى الى تلاشي العديد من الينابيع ، هذا مثلما أدى تموين القرى والمدن الصغرى بالمياه النقية الى حرمان الكثير من المزارع من المياه وهـذا ما حدث في وادي البطنان .

ويميز عادة بين البستنة الشجرية والبستنة الأرضية . فالأولى تهتم قبل كل شيء بزراعـة أشجار المشمش والتوت والجوز والرمان والبرقوق والخوخ ، الخ ... أما الثانية فتختلف مزروعاتها باختلاف الفصول . ففي الشتاء يزرع الملفوف والقرنبيط ، والسلق والسبانخ واللفت والفجل والبصل والثوم والجزر والشوندر ، وفي الربيع الخس والفول والخيار والحمص ، ثم تأتي الخضار الصيفية البحتة كالباذنجان والبندورة والبامية واليقطين والكوسا والفاصولياء واللوبياء .

ولكن في شرق حلب حيث تقل الينابيع تستخدم مياه الأنهار حسب أساليب لم تتبدل عما كانت عليه قبل مئات السنين . ويحصل على الماء بوساطة سدود يسمى كل منها « سكر » على نهر قويق أو « مقضاب » على نهر الساجور ووادي ابو قلقل . ومن المذهش أن تكون هذه السدود متينة وقوية كلما كان النهر هزيلاً ، وهكذا تبدو سدود الساجور بدائية لأنها مبنية من الحجر النشيم ومن أغصان متشابكة في حين أن سد نهر ابي قلقل مبني بالحجر المنحوت مع ملاط كلسي أو اسمنتي .

هـذا وقد عملت المضخات على تلاشي دور « السرابات » أو كما تسمى « الاقنية الرومانية » خطأً ، بعد أن غارت المياه ونظراً لصعوبة وارتفاع كلفة صيانتها شأن « عـين الست » قرب الباب والذي كانت قناتها تقدم ٤٧ ل/ثا وتمتد على ١٨٠٠ م . وبعد أن ظلت هذه السرابات

مهملة لفترات طويلة أخذت مصلحة الري عام ١٩٣٥ تتدخل وتساعد عمليات تعزيلها واصلاحها مثل سرب تل التوتون وسرب الخفسة ، ولكن بعد عام ١٩٥٠ جاءت المحركات على تسديد الضربة القاضية لهذا النوع من مصادر مياه الري .

مياه الآبار :

على خلاف وسائل الري السابقة التي تتطلب التعاون الجماعي أو التدخل الحكومي فإن الري بالآبار هو عمل شخصي فردي . وقد ظل الري حتى نهاية الحرب العالمية الثانية يمارس حسب طريقة « النصبة » على ضفاف الفرات ، أو الناعورة الخشبية أو المعدنية الى الغرب من النهر المذكور . ولكن هاتان الطريقتان اختفتا تماماً بعد ظهور المضخة والمحرك ولا سيما بعد ارتفاع أسعار القطن على أثر حرب كوريا . وفي ١٩٥٦ بلغ عدد المحركات الزراعية في محافظة حلب أكثر من ١٧٠٠ محركاً . ولكن التوسع في الري الآلي ، ودون أي تدخل من قبل مصلحة الري ، قد أدّى بسرعة لنضوب طبقات المياه الباطنية وهي عبارة عن احتياطي جيولوجي لا يتجدد بسهولة ، فأخذ مستوى المياه بالانخفاض، عاماً بعد عام ، الى أن جاء عام ١٩٥٤ فجفت مياه السربات ونضبت الينابيع واختفت المستنقعات وأصبحت المدن الشهيرة بكثرة مياهها مثل منبج والباب والسفيرة تشكو من العطش ، لا من أجل الري فحسب ، بل من أجل شرب الانسان والحيوان تماماً كما حدث في منطقة السلمية. وأخذ الكثيرون من أهل المشاريع الزراعية يبيعون مضخاتهم ومحركاتهم بأسعار بخسة الى مزارعي الفرات والجزيرة كما بيعت بعض الآلات بالوزن كحديد خردة . وجف نهر الذهب كلياً .

وكان من جراء ذلك أن يبست أشجار أكثر البساتين ، وحتى كروم العنب الشهيرة في قرى تل حاصل وتل عرن والسفيرة لأن جذور اشجارها كانت تمتص الرطوبة اللازمة من الغشاء المائي القريب من سطح الارض .

وفي الفترة ذاتها قامت الحكومة بتنفيذ مشروع ضخم نسبياً هو تجفيف مستنقعات المطخ التي كانت تستقبل مياه قويق ومجاري حلب وتغرق مساحة تتراوح بين ٣٠٠٠ و ١٦٠٠٠ هكتار من الأراضي الخصبة لأن فيضانات قويق في السنين المطيرة كانت تقذف قرابة ٥٠ م٣/ثا دون فائدة .

وقد بدأت أعمال التجفيف في ١٩٤٧ وانجزت في ١٩٥١ ، غير ان بناء سد الشهباء على قويق الى الشمال من السلمية قضم على هذه الفيضانات واختفى نهر قويق من الوجود .

المحاصيل الصناعية :

آ ـ القطن : لقد عرفت سوريا زراعة القطن منذ أقدم الأزمنة . ويروي المؤرخون الأرمن والأتراك ان زراعته كانت معروفة في منطقة حلب في عصور ما قبل المسيحية . وكانت زراعته معهودة في اراضي منطقة ادلب الخصبة ضمن الدورة الزراعية دونما ري . وعندما عمل الخديوي محمد علي باشا بنصيحة المهندس الزراعي الفرنسي جوميل كلف ولده ابراهيم باشا في عام ١٨٢١ باستدعاء عدد من فلاحي هذه المنطقة لتدريب فلاحي الدلتا على أساليب زراعة القطن وكانت مهمة كل واحد من هؤلاء تدريب فلاحي عدة قرى .

وفي سنة ١٨٩٠ أخذت زراعة القطن في محافظة حلب بالتدهور بسبب رداءة أنواعه وقصر أليافه ومزاحمة القطن المصري والأمريكي له ، وانتقال عدد من الفلاحين المهرة الى مصر . وكان القطن المزروع حتى ١٩٣٠ هو من النوع البلدي « يرلي » ذي الجوزات الصغيرة وشبه المغلقة ، وكان يستعمل من أجل تنجيد الأثاث المنزلي ولصنع قماش الخام في بلدة دير عزة ، ولكن قسماً كبيراً منه كان يصدّر الى الخارج(١).

---

(١) في عام ١٩٢٤ صدرت محافظة حلب عن طريق مرفأ اسكندرون ١١٨٩ طن من القطن منها ٤٢٩ طن الى ايطاليا و ٣١٢ طن الى بريطانيا و ١٢٢ طن الى فرنسا .

وابتداءً من عام ١٩٢٤ اخذت السلطة المنتدبة تبذل الجهود لتشجيع زراعة القطن في محافظة حلب من اجل تامين قسم من حاجة مصانعها من سوريا ، فكانت دوائر الزراعة توزع البذور المنتخبة ، وتنشىء مراكز تجريبية ، وتعفي الاراضي المزروعة قطناً من الضرائب .

وهكذا ادخل النوع المصري « سكلاريدس » وجرت تجربته في قرية قسطون في شمالي الغاب ، فاعطى نتائج باهرة اذ كانت كل شجيرة تحمل بين ٧٠ و ٨٠ جوزة قطن كبيرة . ثم دخل صنف آخر هو «لونستار» وأصله من « التكساس » وانتشر كثيراً في الاراضي المرواة . ويبدو أن هذا الصنف هو اكثر الانواع انتشاراً .

ويعود التوسع في زراعة القطن قبيل الحرب العالمية الثانية الى تحسّن وسائل الري واستعمال الاسمدة والمحاريث الحديثة ، فبعدما كان هكتار القطن البعلي لا يعطي سوى ٥٠٠ الى ٨٠٠ كغم من القطن ، اصبح الهكتار المروي يعطي من طون واحد الى طونين من القطن .

والابتداءً من عام ١٩٣٠ لم يعد قطن محافظة حلب يعتمد على الأسواق الخارجية فحسب ، لأن معمل طرابلس (عريضة) ومعمل حلب ، أو الشركة السورية للغزل والنسيج ، منذ عام ١٩٣٥ ، اخذ يتطلبان كميات متزايدة لسد حاجتهما . وهكذا ارتفع انتاج منطقة حلب حتى ٥٨٠٠ طن في عام ١٩٣٤ والى ١٢٨٣٥ طن عام ١٩٣٨ .

وبعد ان كان مركز ثقل زراعته واقعاً في غربي محافظة حلب ، اي محافظة ادلب الحالية ، ظهرت منافسة المناطق الشرقية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . وبعد أن كانت منطقة حوض نهر الذهب والساجور ومنبج متخصصة في زراعة القنب اخذت حقول القطن تحل محل هذه المادة ، كما اندحرت زراعة الرز ، وبلغت الحماسة لزراعة القطن درجة دفعت بالكثير لاقتلاع الكروم في منطقة السفيرة وقباسين بين الباب وحلب ، وحتى اشجار الجوز والمشمش في منطقة منبج .

وقد نتجت حمّى زراعة القطن بسبب مطالب معامل الغزل والنسيج السورية ولا سيما بسبب التصدير للبلاد الأجنبية(٢) وأدّى تحسين وسائل زراعته واستعمال الأسمدة الكيماوية ، والعضوية أحياناً ، الى ارتفاع المردود بالهكتار ، وأصبحت سورية ثالث قطر بالعالم من حيث انتاجية الهكتار : مصر ٥٥٠ كغم / هكتار ، البيرو ٥٠٠ ، سورية ٣٧٧ ، السودان ٣١٤ ، المكسيك ٣٠٩ ، الولايات المتحدة ٣٠٠ . هذا كما زادت المساحة وبالتالي الانتاج كما يبين الجدول التالي :

السنة	المساحة بالهكتار	الانتاج من القطن المحلوج / طن
١٩٣٨	٣٢٨٦٢	٨١٨٧
١٩٥١	٢١٧٠٠٠	٤٨٠٠٠
١٩٥٥	٢٣٥٣٣٨	٨٦٩٥٠

ويقارب الانتاج حالياً ، ضمن حدود محافظة حلب الحالية ، ٧٥٠٠٠ طن ، وقد انكمش الانتاج بعد بناء سد الفرات في محافظة حلب حيث غمرت بحيرة لأسد معظم حقوله السابقة في زور الفرات ، من ناحية ، وبسبب ارتفاع نسبة الملوحة في التربة في الوادي المذكور والنضوب المياه الجوفية ولكن التوسع في الري في منطقة غربي مسكنة من البحيرة المذكورة عوّض الى حدّ كبير هذا النقص في انتاج الذهب الأبيض .

ب ـ زراعة الحبوب : إن التوسع في الزراعات الشجرية على حساب الحقول العارية لا يؤثر كثيراً على انتاج الحبوب لأن هذه ، ولا سيما القمح ، تختص بأجود الأراضي ، ولأن الأشجار المثمرة لا تحب الأراضي الثقيلة جداً . هذا كما أن نظام المشاع في المناطق السهلية ووجود

(٢) لقد بلغت صادرات سورية من القطن عام ١٩٥٣ مقدار ٢٧٧٧٩ طن منها ١٠٠٠٠ طن الى فرنسا وقد ارتفعت مشتريات فرنسا من ٢٢٠٠٠ طن عام ١٩٥٤ الى ٣٧٠٠٠ طن عام ١٩٥٥ بحيث احتل القطن مكان الصدارة في قائمة الصادرات السورية .

« نظام الانتاج المغلق » العائلي في كثير من المناطق الفقيرة لا يساعد على اتساع مزارع الشجر الى الحد المرغوب ، ولكن زراعة القطن كان لها تأثيرها على انكماش رقعة القمح فضلاً عن زراعة الشمندر السكري في سهول غربي مسكنة .

غير أن انتاج القمح يتعرض ، في محافظة حلب ، كما يتعرض بالفعل في سائر سورية ، لنزوات الطقس كانحباس المطر والى مصائب أخرى قد تؤدي لخسائر جسيمة في بعض السنين . فالأمطار الغزيرة جداً في بعض السنين لا تكون كثيرة الفائدة في المناطق الغربية لأن التربة الحمراء الغضارية تحتفظ بمقادير كبيرة من الرطوبة وتؤدي لاختناق النباتات .

ولكن الصقيع المتأخر الذي قد يباغت حقول القمح في فترة تشكل السنابل فيكون أكثر ضرراً ، كما حدث في عام ١٩٤٠ و ١٩٥٦ حيث تعرض المحصول في بعض المناطق لأضرار كبيرة . واذا كان خطر الجراد قد انحسر بفضل التعاون الدولي وبخاصة المكافحة ، اذ لم يسجل وجوده بشكل خطير سوى في ١٩٣٢ و ١٩٤٤ وكان يخشى خطره في عام ١٩٨٩ ، فهناك خطر لا يزال جاثماً ويهدد زراعة القمح بأفدح الخسائر ، وهو السونة ، التي ظهرت لأول مرة في ضواحي معرة النعمان عام ١٨٨٠ ، وفي الفترة الواقعة بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ استطاعت هذه الحشرة اللعينة أن توقع خسائر جسيمة حتى أن بعض المناطق خسرت محصولها تماماً ، وظهرت أيضاً في ١٩٥٦ .

ومنذ اربعين عاماً ظهرت حشرة لم تكن معروفة من قبل ، وتسمى باللغة العلمية « سيرينغا بيوس تامباريللا » ولا تقل اخطارها عن السونة ، وهي دودة تلتهم المادة الكلوروفيلية (اليخضور) وتسبب في خسارة مزدوجة ، اي في الحبوب وفي التبن .

والقمح الذي يعتبر أساس النظام الغذائي الريفي والحضري هو أكثر الحبوب انتشاراً وأصالة ، والأنواع المزروعة حالياً تضم أصنافاً محلية وأصنافاً دخلت البلاد حديثاً وهي البياضية ، والحمارية وهما

نوعان محليان ، والقمح الايطالي الأبيض أو سينيور كابيللي ودخل البلاد من صقلية ، وقمح فلورنس أورور دخل حلب من المغرب عام ١٩٣٢ ، والقمح الاوسترالي الذي دخل البلاد مع قوات الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية ، ولكن تقوم مؤسسة « ايكاردا » ووزارة الزراعة بتقديم اجود أنواع البذار حالياً الى المزارعين .

وتنتج محافظة حلب حوالي ٢٠ ٪ من الانتاج السوري من القمح ولا يكفي انتاجها الاستهلاك المحلي ، لأن الفرد العربي يستهلك سنوياً ١٦٧ كغم من الحبوب مقابل ٤٠ كغم بالنسبة للفرد البريطاني ، ولهذا ونظراً لتزايد السكان المضطرد فقد أصبح استيراد الحبوب والدقيق من الخارج منذ ١٩٧٥ أمراً مألوفاً .

هذا ويزرع الشعير في الأراضي الفقيرة الشرقية المسماة « قراج » ويستهلك قسم منه لتغذية الماشية مثلما يعود قسم منه للخارج أو يدخل في صناعة « الجعة » محلياً ويعادل انتاجه انتاج القمح تقريباً .

وبعد أن كانت زراعة الرز معهودة في سهل الجومة على مساحة قاربت ١٠٠٠ هكتار وانتاج قارب ١٥٠٠٠ طن في ١٩٤٥ اختفت حالياً لأسباب صحية ولمنافسة القطن ولمزاحمة الرز المستورد ، مثلما انكمشت زراعة الذرة البيضاء لأنها كانت تقدم المادة الأولية لصناعة خبز «القرصة» في وادي الفرات ، كما لم تعد تخلط مع القمح والشعير في صنع الرغيف الريفي كما كان الحال قبل نصف قرن مضى . أما زراعة الذرة الصفراء (المصرية في سورية والشامية في مصر) فتتقدم زراعتها لتزايد استهلاك الذرة الصفراء مسلوقة ومشوية أو كحبوب محمّصة « بوشار » .

حـ ـ البقول : ويأتي العدس في طليعتها . وتدخل في دورة زراعية ثلاثية ، أي قمح ، بقوليات ، بور أو مزروعات صيفية . ولا يزرع العدس الاّ في الأراضي الطيبة . ونظراً للدور الذي يلعبه العدس والفول في التغذية الشعبية نجد زراعتهما تتوسع بصورة موازية لتكاثر السكان ،

كما أن تبن العدس يباع بسعر مرتفع ومرغوب عند المهتمين بتسمين الماشية ذات القرن . ويزرع الجلبان والبيقة لاستعمالهما كعلف او لتغذية الطيور الداجنة الى جانب الذرة البيضاء .

هذا وتشتمل مزروعات البور المحروث على قائمة متنوعة جداً من النباتات التي تخضع في زراعتها لقانون العرض والطلب مما يؤدي لتفاوت رقعتها من عام لآخر ، غير انه يجدر بنا أن نميز أولاً بين النباتات الخاصة بالتغذية البشرية المباشرة وبين المزروعات الصناعية ، فالمزروعات الصيفية البعلية الغذائية تشتمل على البطيخ الاحمر (الجبس)(١) والبطيخ الأصفر ، او الشمام ، والخيار والقثاء وأحياناً البندورة ، واللوبياء وتساهم هذه المحاصيل في انقاذ الفلاح ، مؤقتاً ، من رتابة وتشابه نظامه الغذائي ، كما تقدم له النقود التي يحتاج اليها اذا باع الفائض في السوق المحلي أو في المدينة القريبة .

ولا بأس من ذكر نبات يلعب دوراً ملحوظاً في الصناعة الحرفية وهو نبات المكنس الذي يشابه نبات الذرة ، ويقدم مادة أولية لصناعة المكانس في المدن الصغرى والتي اخذت تنافسها المكانس المصنوعة من مادة النايلون التي طردت صناعة القنب بعد دخولها صناعة الحبال . كما تلعب النباتات الزيتية دوراً كبيراً في الاقتصاد الريفي كالخروع وعباد الشمس الذي تستهلك بذوره بعد تحميصه وتمليحه مع سائر الموالح . غير أن السمسم يعتبر اهم هذه المزروعات ، وهو نبات لا يحتاج هنا للري كما في السودان أو مصر بل يكتفي ببعض الرطوبة الجوية وفي التربة لهذا تعتبر منطقة عفرين واعزاز وغربي جبل سمعان من اهم مناطق انتاجه . ومنذ عدة سنوات دخلت منطقة حلب زراعة فول الصويا الذي ينتظر له مستقبل باهر كمحصول لانتاج الزيت الى جانب زيت بذرة القطن .

---

(١) ويدعى الدبشي في دير الزور والرقي بالعراق والدلاع في اقطار المغرب والحبحب في الحجاز والجح في نجد والمحيسني في فلسطين .

تربية الماشية :

تعدّ تربية الماشية في محافظة حلب من أهم الفعاليات الاقتصادية ، ولكن على خلاف الزراعة التي حققت الكثير من النتائج الرائعة بفضل التكنيك الحديث فإن الأساليب المتبعة في تربية الماشية لم تستفد كثيراً من الطرائق المتبعة في الأقطار الراقية ولكن ينتظر تحسن ملموس بعد توفر العديد من الأطباء البيطريين .

ومن الطبيعي القول أن مناخنا واراضينا لا توفر أكثر من مراعٍ هزيلة لا توازن بمراعي الأقطار المعتدلة الرطبة التي يجري الحليب فيها انهاراً كسويسرا وهولندا والدانمارك ، ولهذا يتغذى الحيوان خلال ثلثي العام تقريباً بالتبن أو الأعشاب الجافة ، اي يتغذّى على السيللوز لوحده تقريباً خلال كل هذه الفترة ، وهذه التغذية التي يظهر فيها نقص البروتينات بشكل واضح لا يمكن ان تصون الحيوانات ذات القرن بشكل مقبول ، وهذا ما نلاحظه من مظاهر هزال القطيع ولا سيما في اواخر الخريف .

ويؤدي البرد وتكاثف الثلوج والقحط الى فناء قسم من الأغنام والماعز بشكل دوري أو اضطرار الفلاحين لبيع حيواناتهم بقصد الذبح . وهناك حظائر تخص القطاع العام والقطاع الخاص لتربية الأغنام وتسمينها للذبح . وتقدر أعداد الأغنام في محافظة حلب بحدود ٥ر١ مليون راس تقريباً في حين ان قطيع الماعز يقل عن ٢٠٠٠٠٠ راس ولا يتوقف عن التناقص .

غير أن بعض اصحاب المبادرات الفردية بالاضافة الى محطات تربية الأبقار يعمدون الى التربية الحديثة وذلك باللجوء لتحسين العروق المحلية بالمصالبة مع الأنواع الأوروبية الحلوبة ، أو بالاصطفاء ، وبحماية الحيوانات من البرد ضمن زرائب حديثة وتغذيتها بشكل منتظم بفضل المخزون من الأعلاف . وظهر نوع من التخصص في تربية البقر الحلوب

في المزارع الكبرى على اثر تحسن المواصلات بشكل مدهش مع مدينة حلب ، فقد اوجدت النهضة العمرانية على حافة السهب سوقاً لا يتوقف عن التضخم وزيادة الطلب على اللحوم . ويمكن أن نتصور دون صعوبة امكانات استهلاك مدينة كبيرة كحلب سواء بصفتها سوقاً استهلاكياً مباشراً أو التصدير بعد تسمين الحيوانات في أطرافها . وبالواقع تضاعف عدد الأغنام بالمحافظة بين ١٩٥٤ و ١٩٨٧ ، هذا في حين هبط عدد الأبقار من ٦٨٠٧ في ١٩٥٤ الى ٢٦٤٠٠ في ١٩٨١ ولكن مع تحسن الأنواع في الوقت ذاته .

وأهم أنواع الأغنام هي « العواس » المتصفة ببياض صوفها وبمقاومتها للعطش والثلج ، و « القرعة » وهي جمّاء وربما تعود لأصل أناضولي ، و « الشفال » أو « الموز » وتكون مرغوبة جداً في التربية للذبح ، و « هرّك » وتعرف بصوفها الحاوي على بقع سوداء أحياناً ، وهي مرغوبة من أجل لحمها .

وعلى كل تمتاز أغنامنا المحلية بمقاومتها وبقناعتها ، إذ تكتفي بأعشاب الحصيد الجافة وتتحمل الظروف الجوية القاسية أحياناً . وتتم تربية الماشية ، في معظمها ، حسب الطريقة التقليدية على أيدي أشباه البدو الذين ينتجعون للبادية في مطلع الربيع ، ويصل بعضهم حتى جوار تدمر والسخنة .

ولكن الدوائر المسؤولة لم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذا الوضع لأن تربية الماشية لا زالت أحد عناصر الانتاج المحلي . فقد أنشئت أول دائرة بيطرية بموجب المرسوم ١٠٠٤ في ٣٠ / ٨ / ١٩٢٤ وفي عام ١٩٢٩ تمّ انشاء مغطسين لمكافحة طفيليات الماشية في شرقي حلب .

هذا فضلاً عن حفر العديد من الآبار في مختلف مناطق انتجاع الرعاة بالحماد كما يملك البدو الآن صهاريج خاصة لنقل المياه عند اللزوم .

كما تبدو مصلحة الطب البيطري كافية لتأمين سلامة القطيع . ففي كل مركز منطقة يوجد موظف طبيب مختص وكفء بتشخيص امراض الماشية فضلاً عن الدائرة المركزية في حلب التي تملك عدداً من السيارات لنجدة القطعان عند اللزوم .

ولقد تراجعت تربية الأبقار بسبب استعمال التراكتورات والمحاريث الحديثة عوضاً عن المحراث البلدي الذي أصبح نادراً ، وكذلك الحصان الذي أصبح لا يربى الا لدى الهواة ، أو لجر بعض العربات .

اما الجمل الذي كان في الماضي عنصراً لا يستغنى عنه كحيوان ركوب لدى البدو ، في السلم وفي الغزو ، وحيوان نقل لا بد عنه في تجارة القوافل واساس الاقتصاد الرعوي ، فقد بسرعة مذهلة كل أهميته بعد ظهور القطار وخصوصاً سيارات الشحن وتلاشي تجارة القوافل .

ولم تعد قوافل الجمال المقطورة التي كانت تجتاز بخطواتها الوئيدة والوقورة الطرقات التي تربط حلب ببغداد واسكندرون وبقونية ودمشق اكثر من ذكرى في مخيلة الذين يشرفون الآن على الثمانين من اعمارهم ، كما أن دوره كحيوان جزارة قد تلاشى تماماً فلم يعد يذبح في المسلخ منذ اكثر من عشرة اعوام . وبعد أن كان عدد إبل محافظة حلب ١٣١٤٣ في عام ١٩٣٧ هبط في ١٩٥٤ الى ١٤٦٩ والآن لا يكاد يرى ضمن حدود محافظتنا .

وعوضاً عن ذلك نشطت تربية الأسماك في أحواض التربية ولا سيما في بحيرة الأسد التي اخذت توفر مقادير ضخمة من الأسماك لمدينة حلب رغم تلاشي دور حوض الغاب ، الذي كان يقدم مقادير ضخمة من أسماك السيللور والحنكليس قبل تجفيفه ، وبعد أن أصبحت تربية الأسماك فيه محصورة في أحواض .

الفصل السابع

التجـــارة

مقدمة : لقد كانت حلب ، على اختلاف الأزمنة التاريخية المتعاقبة عليها ، ومهما كانت الدول التي هيمنت عليها ، مدينة مبادلات تجارية وصناعة ، مما يفسر سبب ازدهارها الاقتصادي ، رغم ضعف دورها على الصعيد السياسي . وكانت وظيفتها الأساسية القيام بدور مركز كبير للمبادلات واقع في مفترق الطرق الطبيعية التي تربط بين مصر وايران وما بين النهرين والأناضول . وكان تجارها ، المتصفون دائماً بجرأتهم وبحسهم التجاري ، يحققون الارتباط بين المنتجين والمستهلكين في الأقطار الشرقية وفي أوروبا ، فلم تكن مخازن حلب وعنابرها تفرغ من البضائع والسلع القادمة من شتى أنحاء العالم إلاّ لتمتلىء من جديد .

وكان تجارها المهره يستوردون من كل الجهات منتجات الأرض والصناعة في الوقت ذاته الذي يرسلون فيه القوافل نحو سائر الأنحاء ، حتى البعيدة منها جداً ، كاليمن والهند وفارس ، الى أن تم اكتشاف رأس الرجاء الصالح فانهارت أهمية تجارة التوابل ، وتلاه ربط السويس بالاسكندرية بخط حديدي ، وشق طريق قناة السويس . ولكن الضربة الشديدة كانت ناتجة عن نظام الامتيازات الذي صار يتمتع به الافرنسيون منذ القرن السادس عشر ، وفي أعقابهم ، أكثر التجار الأوروبيين ، ذلك النظام الذي منح الكثير من المحاباة للتجار الأجانب على حساب التجار الوطنيين .

ومع ذلك كانت حلب تعتبر في مطلع القرن الفائت المركز الاول في التجارة العابرة ، الترانزيت ، بالنسبة لسائر انحاء السلطنة العثمانية ، إذ قصدتها قوافل من ديار بكر والموصل وبغداد والبصرة . فحملت الأولى والثانية حرير مناطق بلاد فارس الشمالية وغيرها فضلاً عن الأصبغة الحيوانية والنباتية واصواف الماعز « المرعز » أو ماعز انقرة ، من انتاج مناطق ديار بكر والموصل ، كما جاءت قوافل بغداد والبصرة بمنتجات اليمن والهند والشرق الاقصى كالقهوة والشاي والتوابل وانواع الأدوية والأصبغة . وكانت هذه المنتجات تباع للتجار الافرنج في حلب الذين شحنوها الى الاسكندرون او اللاذقية ، أو طرابلس ، لترسل بحراً الى بلدان أوروبا الغربية . وكان يتم البيع غالباً عن طريق مقايضة هذه البضائع بأقمشة صوفية اوروبية مع دفع الفروق بالنقد الفضي الأوروبي ، واعيد تصدير هذه الصوفيات الى المناطق الفارسية . وهكذا كان التجار السوريون يستفيدون من هذه الحركة كوسطاء ، كما انتفع عربان البادية من حمايتهم للقوافل وتأمين الجمال والحرس والأدلاّء . وقدّر دخل العربان سنوياً بأكثر من نصف مليون قطعة ذهبية بالعام .

ولكن على أثر شق قناة السويس غادر حلب معظم التجار الأوروبيين تاركين لتجار حلب دور السماسرة والوكلاء ، فتحولوا الى باعة للبضائع الأوروبية لأن صناعة حلب كانت بحالة انهيار بسبب منافسة المصنوعات الأوروبية من حيث النوعية والأسعار . كما ان الأوروبيين عزفوا منذ فتح قناة السويس عن الأدوية والعقاقير المستوردة من الشرق بالأدوية التركيبية الكيماوية .

ولكن ، ورغم جميع النكسات ، بقيت بحلب حركة تجارية نشيطة. فقد احتفظ تجار حلب بمركزهم وافتتحوا وكالات في مانشستر ومرسيليا والاسكندرية والقاهرة وفي مدن أوروبية اخرى كما سيطروا على تجارة الأناضول وارتفعت قيمة وارداتهم من ٢ر٦ ملايين فرنك عام ١٨٤٥ الى اكثر من ٢٠ مليون عام ١٨٧٢ كي تتضاعف في عام ١٨٨١ .

وكانت الاقمشة تؤلف اكثر من ٦٠ ٪ من الواردات وتلاها في الاهمية السكر والقهوة والأصبغة والادوية .

غير ان حلب لم تعد تقدم للأسواق الخارجية سوى بعض منسوجاتها التي كانت تتوزع في مطلع القرن الحالي على الشكل التالي : ٦٠ ٪ نحو آسيا الصغرى ، ٢٠ ٪ في حلب ومنطقتها ، و ١٠ ٪ باتجاه العراق و ١٠ ٪ في مصر وفلسطين . وكانت صادرات حلب في عام ١٨٨٩ عن طريق ميناء الاسكندرون تتألف من المواد التالية : الاقمشة ، شرانق الحرير ، قطن ، صوف ، عفص ، شمع العسل ، سمسم ، حبوب ، صابون ، تين مجفف ، تبغ ، فستق ، جوز ، زبيب ، جلود . وكان مجموع قيمتها يعادل ١٦٧٠١ ليرة ذهبية ، توجهت نحو الدول الآتية : الولايات المتحدة ، فرنسا ، بريطانيا ، ايطاليا ، النمسا ، اليونان .

وفي ١٩٣٠ لم تزد قائمة صادرات حلب التقليدية الا بنوى المشمش واللوز وحب الخروع وبزر الخردل والمصارين المملحة ، السمن والسوس والملح ..

هذا وكانت واردات حلب القادمة من ميناء اسكندرون عام ١٨٨٩ مؤلفة من السلع التالية : الأنسجة ، الأجواخ ، الحرير ، الاقمشة الحريرية ، السكر ، القهوة ، الرز ، المشروبات الغولية ، الجلد ، التوابل ، الورق ، النحاس ، التوتياء ، الرصاص ، الفولاذ ، الحديد والأوائل الحديدية ، النيلة ، البترول ، الزجاج بأنواعه ، الخزفيات والمجوهرات ، وبلغ قيمة مجموع هذه المستوردات ١٨٧٩٥٧٦ دينار ذهبي او ما يعادل ٧ر٥ مليار ليرة سورية بالنقد الحاضر ، اتت من انكلترا والاقطار العثمانية ، وفرنسا ، النمسا ، ايطاليا ، روسيا .

وفي ١٩٣٠ اضيف الى هذه الواردات المذكورة المستحضرات الطبية والادوية ، الكبريت ، النوفوتيه ، ورق السكائر ، ورق التغليف ، ورق الكتابة ، الفضة ، الصفيح ، خشب البناء ، الأطعمة المعلبة ، الشموع ، الادوات الكهربائية ، السيارات وقطع التبديل .

وقد نتج عن اتفاقية انقرة عام ١٩٢٣ ومعاهدة لوزان ، في أعقاب الحرب العالمية الأولى وانهيار الامبراطورية العثمانية ، أن انكمشت رقعة المنطقة التي تصرّف حاصلاتها عن طريق حلب بشكل شديد ؛ فهبطت صادرات حلب بنسبة ٦٠ وحتى ٧٠ ٪ مما كانت عليه بالماضي . كما هبطت البضائع المستوردة عن طريق حلب بنفس النسبة ، لأن هذه المدينة كانت تؤمن حاجة أسواق الأناضول وكردستان والعراق من البضائع الأجنبية ، اذ كان الأناضول يمتص ٦٠ ٪ من واردات حلب ، وكردستان والعراق ١٠ ٪ ، أي هبطت في عام ١٩٢٨ كمية المستوردات عن طريق حلب بنسبة ٧٠ ٪ .

وزاد الطين بلة سلخ لواء اسكندرون على يد السلطة المنتدبة ، وهو الرئة الطبيعية لتجارة حلب ، استرضاءً لتركيا قبيل الحرب العالمية الثانية . وهكذا اصبحت حلب ، عاصمة سوريا الشمالية ، محرومة من أي ميناء طبيعي ، باستثناء اللاذقية ، الذي كان عبارة عن مرسى هزيل ، مما دفع تجار حلب للاعتماد على ميناء بيروت في استيرادهم وتصديرهم ، وهو ميناء يبعد عن حلب عدة مئات الكيلو مترات ، الى أن تم إنجاز ميناء اللاذقية الحديث في عام ١٩٥٧ .

ولا تزال تستورد حلب زيت المطراف من لواء اسكندرون والصودا الكاوية لصناعة لصابون فضلاً عن زيت الغار .

طبيعة تجارة حلب وتوزعها :

١ً ـ **تجارة الجملة في الخانات** : تبدو الخانات الموجوده داخل السور القديم وكأنها شاهدة على ماضي حلب المجيد في ميدان التجارة الدولية مثل خان الوزير وخان الجمرك وخان الصابون وخان البنادقة الخ ... والتي لم يعد حاضرها قابلاً للموازنة مع تليدها . فلم تعد هناك تجارة قوافل واصبحت حلب تعمل لحساب منطقتها بشكل خاص وللقطر العربي السوري بشكل عام . واصبحت هذه الخانات تلعب دور

مستودعات أو تواءمت مع الصناعة وتنازلت عن دورها الدولي نتيجة التجزئة السياسية لأقطار المشرق العربي من ناحية ولسيطرة القطاع العام منذ ١٩٦٠ الذي يوجّه التجارة الكبرى تاركاً للتجار على الغالب دور التوزيع .

أما خانات المدينة الخارجية فلها باحات أكثر اتساعاً كانت كافية لاستقبال بضع عشرات من الإبل في الماضي ، أو بضع سيارات شحن مؤخراً . ونجد حول الباحة أروقة فسيحة كانت تستخدم لتخزين حاصلات الزراعة والماشية من صوف وسمن ، أو تكون أحياناً عبارة عن اسطبلات لتربية الماشية كالخانات الواقعة في شرقي المدينة .

٢ً ـ الأسواق العامة :

آ ـ سوق الجمعة : وهو سوق اسبوعي ، في الهواء الطلق ، ظل منذ القرن الخامس عشر حتى عام ١٩٤٨ ، (الشكل ١٦) ، يعقد فوق



الأرض الخلاء الواقعة تجاه باب القلعة . وقد أقيم بالأصل لتأمين حاجات جنود القلعة . وقد كان سوقاً شعبياً طريفاً يجد الانسان فيه كل ما يخطر على البال من سلع مستعملة ومأكولات ، يقصده القروي والبدوي وابن الأحياء المتطرفة ، ويساهم في معروضاته بائع الأواني

المنزلية ، وصانع المناخل ، والحداد ، والنحاس ، وبائع الموالح والسكاكر . وكان ابن الريف يقصده لبيع طيوره الداجنة وبيضها كما يجد فيه هواة تربية الحمام كل انواع الطيور الأليفة ، وقد انتقل حالياً الى شرقي البلدة .

اما سوق الأحد المماثل تقريباً والذي كان يعقد لخدمة الأحياء المسيحية الشمالية فقد تلاشى بدوره أيضاً ، مثلما اضمحل سوق الدجاج الذي كان يعقد في الهواء الطلق بين بانقوسا والثكنة التي كانت تدعى « القشلة » .

غير أن « سوق الدواب » اي سوق الماشية ، وهو الواقع الى الشرق من المدينة ، فلا زال ناشطاً .

٣ـ سوق الهال : وهو سوق قديم يعود للقرون الوسطى بجوار الباب المطل على البساتين المرواة من نهر قويق والتي كانت تؤمن حاجة حلب من الخضار . ولكن معظم هذه البساتين اندثرت منذ أكثر من قرن ، مثل بستان « كل آب » الواقع الى الغرب من باب الفرج ، وبقي السوق المذكور او سوق « باب الجنان » يؤدي وظيفته لبيع المواد الغذائية بالجملة ولا سيما زيت الزيتون وزيت السمسم والمواد الغذائية والخضار .

وقد شعرت بلدية حلب بمشكلة الزحام في هذا السوق بعد توسع المدينة وزيادة السكان الى أكثر من نصف مليون نسمة وظهور ضرورة تأسيس سوق هال يتناسب مع « معدتها » الهائلة فانشأت سوق الهال الحالي الواقع الى جنوب غرب باب الجنان وانتهى العمل به في ١٩٦٣ .

٤ـ تجارة المفرق « التجزئة » في الأسواق وفي الأحياء :

تقع تجارة حلب التقليدية ، في معظمها ، ضمن الأسواق المسقوفة « المدينة » التي تمتد على شبكة يزيد طولها عن ١٢ كم تقريباً . وتشكل

هذه الأسواق فتنة حلب وسحرهـا اللتين تنفرد بهما بين سائر مدن الشرق . وكان يسود طابـع التخصص على هـذه الأسواق كسوق القوافين ، وسوق السراجين ، وسوق الزرب ، وسوق العطارين ، ولكن تطور نمط الحياة بسرعة مذهلة خلال نصف القرن الأخير والأزياء قضى على هذا التخصص بنسبة كبيرة ، فلم يعد هناك سوق للسراجين الذي تحول لسوق للمصنوعات الجلدية كمحفظات الكتب ، كما فقد سوق الزرب وظيفته لندرة خيام البدو السوداء ، وهناك أسواق هامـة في خارج السور مثل سـوق باب النيرب ، وسوق الجديدة ، وسـوق بانقوسا ، وسوق قسطل الحرامي الخ .

أما تجارة المواد الغذائية فتنحصر بالأسواق المبعثرة في مختلف انحاء المدينة القديمة فضلاً عن مؤسسات القطاع العام التابعة لوزارة التموين والتي لا يكاد يخلو منها حي من أحياء المدينة بما في ذلك الأحياء الراقية التي كانت حتى عهد قريب عبارة عن أحياء « مهاجع » .

٥ـ المصارف : لقد كانت حلب تحوي العديد من البنوك الخاصة والأجنبية وقد تم تأميمها أو اضطرت لتصفية أعمالها على أثر تطبيق الأنظمة الاشتراكية بدءاً من عام ١٩٦٠ . وأصبح البنك التجاري بفروعه العديدة ، والبنك المركزي ، الى جانب مصرف التسليف الشعبي ، يأخذ على عاتقه كل مهام تجارة المال وتوقف دور الربا واستنزاف الأموال الوطنية بوساطة البنوك الأجنبية .

٦ـ واخيراً نذكر أن شارع بارون لا زال يستأثر بأهم مكاتب شركات النقل الجوي والبري .

★ ★ ★

الفصل الثامن

الصناعة

لا تزال حلب تتربع مكان الصدارة بين المدن الصناعية في العالم العربي ، من جهة تنوع صناعتها ، وتقاليدها الصناعية العريقة التي تعود لعصور موغلة في التاريخ ، حتى لقد أطلق عليها الأوروبيون في يوم من الأيام لقب « منشستر الشرق » ، وذلك رغم كل الظروف السيئة والعقبات المثبطة التي وقفت ، ولا تزال تقف ، في وجه اندفاع الصناعة ، كفقدان معظم أسواقها التقليدية بعد زوال الامبراطورية العثمانية ، وقيام حواجز جمركية بين الدويلات الجديدة ، وتأثير الأوضاع الداخلية والخارجية غالباً على هذه الصناعة .

ويجدر بنا أن نميز أولاً بين الصناعة الحرفية التقليدية السائرة في طريق الانطفاء والتي تلعب دوراً متواضعاً في اقتصاد حلب وبين الصناعة الحديثة بكل معنى الكلمة . ولا تزال تتبوأ المكانة الصناعية الأولية بين محافظات القطر لأن نسبة العاملين في الصناعة الحديثة والحرفية بلغت فيها عام ١٩٧٠ ، ٥ر٧١ ٪ مقابل ٥ر٦٩ ٪ في حمص و ٥ر٦٥ ٪ في اللاذقية و ٢ر٦٣ ٪ بدمشق ، و ٥ر٤٥ ٪ في ادلب ، و ٤٤ ٪ في حماه ، و ٦ر٣٩ ٪ في طرطوس :

هذا وقد ساعد على نمو الصناعة وتبعثرها توفر الطاقة الكهربائية الرخيصة بعد كهربة سد الفرات وسد البعث ، في السبعينات بالنسبة للأول ، وللثمانينات بالنسبة للثاني . وهكذا ارتفع انتاج الكهرباء في حلب من ٨ر١ مليون ك و س في ١٩٢٩ الى ١٣ مليون ك و س في ١٩٤٥

والى ٧٦٫٨٧٧ مليون في ١٩٦٠ والى ١٤٦ مليون في ١٩٧٠ و ١٦١٨٫٩ في ١٩٨٧ ، اي تضاعف انتاج الكهرباء الناتجة محلياً والمستجرة من الشبكة العامة ٨٩٣ مرة .

١ـ الصناعات الغذائية :

آ ـ صناعة الطحين : لقد ظل طحن الحبوب الصالحة لصنع الخبز، والضرورية لتأمين الغذاء المباشر لسكان محافظة حلب ، وحتى مطلع القرن الحالي ، من اختصاص الطواحين المائية المنتشرة على مجاري الأنهار الصغيرة المحلية مثل قويق والساجور ونهر الذهب والمطاحن المدنية أو « المدارات » . فكان في حلب ذاتها قرابة ٣٠ طاحوناً منتشرة على طول مجرى النهر وحوالي ٨٠ طاحوناً « مداراً » مبعثرة في سائر انحاء المدينة وكان بعضها يعمل في صناعة النشاء وتقشير القمح تمهيداً لصنع البرغل .

وفي ١٩٠٧ انشىء بحلب مطحنتان على البخار بلغت قوة محركيهما ١٠٣ أحصنة بخارية . وكانتا تنتجان ، فضلاً عن الطحين ، الجليد الضروري في الفصل الحار . وفي ١٩٢٢ كان بحلب ٣٨ مطحنة بخارية مقابل ١٠ مدارات ، وثلاثة طواحين مائية تستغل الفيضانات الشتوية على نهر قويق .

ولم تأخذ صناعة الطحين شكلاً صناعياً الا بعد دخول الكهرباء وإقامة معامل ذات اسطوانات من الفونت المخدّد لا تعمل لتأمين حاجة الأفران المحلية فحسب بل على تحويل مئات الآلاف من أطنان القمح التي ترد من الجزيرة السورية الى طحين يمكن تصديره بسهولة ويسر الى سائر انحاء سوريا والدول المجاورة كالأردن ولبنان . وفي ١٩٦٠ بلغ عدد المطاحن الكبرى ٢٤ مؤسسة كان يقع ٦ منها في ضاحية النيرب الصناعية وكان الباقي داخل المدينة وكان يعمل فيها في ذلك العام ٦٠٠ عامل وكانت طاقتها تبلغ ٦٠٠٠٠ طن سنوياً ، وفي ١٩٦٣ كانت مطاحن

حلب تنتج ٣١٠٠٠٠ طن أو ثلثي الانتاج السوري ، ويزيد حالياً عن نصف مليون طن .

ب ـ الزيوت النباتية : على اثر انفصال محافظة ادلب عن جسم محافظة حلب أصبح نصيب محافظتنا في مضمار صناعة عصر زيت الزيتون ضئيلاً نسبياً . فلا نجد هذه الصناعة الآن على نطاق واسع الا في منطقة عفرين حيث تنتشر المعاصر التقليدية التي تنتج زيت الطعام الفاخر « من الشجر الى الحجر » ، والتي يتناقص عددها لمصلحة المعاصر الحديثة . هذا كما قامت بضع معاصر حديثة في الجزء الغربي من قضاء جبل سمعان ، ولعل أهمها هي معاصر جنديرس في سهل الجومة . وترسل أكثر هذه المعاصر العرجوم الناتج فيها الى حلب حيث يعاد عصره لاستخراج زيت المطراف الذي يدخل في صناعة الصابون وللحصول على وقود رخيص هو البيرين وفي حلب قرابة عشر مؤسسات لانتاج هذا النوع من الزيت الصناعي .

هذا كما يستخرج زيت السمسم ، أو السيرج ، من قرابة ٢٠ مسصرة تصنع الطحينة والحلاوة . وقد أصبحت هذه المعاصر تعتمد المحركات الكهربائية عوضاً عن الحيوانات التي تحرك رحى المعصرة في الماضي . ولكن الصناعة الرئيسة في هذا المضمار هي صناعة استخراج زيت بذرة القطن التي قامت على اثر التوسع المدهش في زراعة القطن في الشمال السوري ابتداءً من عام ١٩٤٧ ، وخاصة على اثر الصقيع الذي قضى على أكثر أشجار الزيتون في شتاء ١٩٥٠ . وأول مصنع قام لانتاج الزيوت النباتية هو معمل شركة الزيوت النباتية التي تأسست عام ١٩٤٦ وبدأت الانتاج في ١٩٥٠ .

وفي حلب حالياً بضع مؤسسات تشتمل على مكابس تستطيع أن تنتج في اليوم أكثر من ٢٠٠ طن من الزيت المكرر . وقد انتجت في ١٩٦٠ مقدار ٨٩٠٠ طن او ما يعادل ٦٠ ٪ من مجموع انتاج سورية من هذه المادة الغذائية . وفي ١٩٦١ راحت شركة الزيوت النباتية بحلب تنتج

السمن النباتي من لزيوت المهدرجة « فيجيتامين » التي لا تدخنها اية مادة شحمية او غريبة وكانت تنتج باليوم حوالي ٢٠ طن من السمن المذكور . غير ان التكاثر السكاني جعل هذه الصناعة أعجز من أن تلبي حاجة الاستهلاك المحلي ، واصبح استيراد زيت فول الصويا دارجاً منذ أكثر من عقد من السنين ولا سيما من الولايات المتحدة وسنغافورة وزيت القطن والسمن النباتي من ماركتي « نباتين » و « زهور » من تركيا .

حـ ـ صناعة المشروبات الغولية : ان صناعة الخمر « النبيذ » الذي يحرم الاسلام تعاطيها على معتنقيه تظل بيد المسيحيين من أبناء البلاد الذين يمارسونها في مصانع صغيرة ذات طابع حرفي . كما يعمد هؤلاء ايضاً لتقطير وانتاج مشروب ترتفع فيه نسبة الغول « العرق » ويقابل « راكي » في اليونان و « آنيزيت » في فرنسا لدخول اليانسون في صنعه ،في الانبيق المسمى « كركه » . ويتراوح الانتاج السنوي في حلب من العرق ما بين ٤٠٠٠ و ١٠٠٠٠ هكتولتر مقابل ١٥٠٠٠ هكتوليتر وسطياً من النبيذ . وتحوي اعزاز وعفرين عدداً من الكركات ايضاً .

هذا وقد قامت مؤسسة هامة لانتاج بيرة ، الجعة ، من ماركة « الشرق » تنتج باليوم حوالي ٢٥٠٠٠ هيكتوليتر . وقد بدأت العمل في ١٩٥٧ في ضاحية حلب الشمالية ، كما تحوي حلب عدة مصانع لانتاج المياه الغازية والليموناده على الطريقة الأمريكية .

د ـ الصناعات الكيماوية : تعدّ الصناعات الكيماوية من الصناعات ذات المستوى الرفيع ، والتي تستدعي توفر رؤوس أموال ضخمة وكفايات تقنية ، وبحوثاً مخبرية مستمرة . ولا تزال سورية في أول الطريق من ناحية الصناعات الكيماوية، ولكنها خطت مع ذلك خطوات كبيرة في هذا المضمار بالنسبة لامكاناتها في السنوات الأخيرة . وتظل اهم هذه الصناعات هي صناعة الصابون والمنظفات السائلة . وصناعة الصابون قديمة جداً بحلب التي ورثت صناعة ادلب وصناعة سرمين التي ذكرها ابن جبير وابن بطوطة . وكانت تستعمل مواد اولية محلية وتتمتع باسواق واسعة فضلاً

عن شهرة وطيدة في الأناضول والعراق وايران . وكانت المادة الاولية تتألف من زيت الزيتون كما كانت تستمر الغسولات الصودية من حرق نبات الاشنان الصحراوي الحاوي على كربونات الصود والبوتاس والذي يضاف اليه الكلس وهو مادة رخيصة ومبذولة اما الغار العطري فكان يأتي من لواء اسكندرون . ونظراً لاقتصار هذه الصناعة على زيت الزيتون غالباً فقد كانت فصلية تعمل في الخريف والشتاء والربيع فقط .

ويصنع الصابون حالياً في أكثر من ٢٥ مؤسسة لانتاج الصابون البلدي يمكنها أن تنتج سنوياً ١٠٠٠٠ طون وقد انكمش ميدان التصدير الخارجي ان لم نقل قد توقف تماماً . وقد أخذت المصابن تعتمد على زيت المطراف المحلي والمستورد من اليونان وتركيا وزيت النخيل « بالم » المستورد من افريقيا الغربية نظر لعدم كفاية الزيت المحلي ، كما أصبحت الصودا الكاوية المستوردة هي المعتمد عليها بعد العزوف عن استعمال رماد الشنان منذ منتصف القرن الحالي .

وقد قام بحلب مصنع حديث عام ١٩٤٩ يصنع يومياً ٢٥ طناً من الصابون ولكن لا يزال الصابون التقليدي « الغار » هو المرغوب اكثر من سواه .

هـ ـ **الاسمنت** : وهو الصناعة الثقيلة الوحيدة في محافظة حلب وتتمثل في مصنعين ضخمين يقع أولهما في قرية الشيخ سعيد جنوبي مدينة حلب وقد ادركته الأحياء السكنية والثاني وهو الأحدث وقد قام في قرية المسلمية في شمال المدينة . وكان انتاج الاسمنت في حلب ١٠٧ آلاف طن في ١٩٥٥ صعد الى ٢٦٢ الف طن في ١٩٦٠ . وقد أنشىء المصنع الأول في ١٩٥٠ ، وبدأ المصنع الثاني بانتاج يقارب ٣٠٠٠ طن باليوم . وينتج المصنعان ثلث انتاج سوريا من هذه المادة .

و ـ **منتجات البلاستيك** : وتحوي حلب عدة مؤسسات لانتاج مصنوعات البلاستيك كالحقائب والمحافظ والخراطيم والأنابيب والحبال

والخيوط ومؤخراً الأكياس الصغيرة الشفافة المستعملة في البقاليات والمخابز ، كما ينتج بعضها الأحذية المطاطية ، كما قام مصنع لانتاج الأقلام الناشفة (ريم) ينتج ٢٠٠٠٠ قلم باليوم وسينتج أقلام (رائد) بطاقة ٥٠٠٠٠ قلم يومياً .

ز ـ صناعة الغزل والنسيج : غني عن البيان أن سوريا اشتهرت منذ أقدم العصور بصناعة النسيج بأنواعه ، غير أن الأنوال القديمة التي كانت تستعمل لهذا الغرض كانت أنوالاً يدوية محلية الصنع ، وفي فترة ما بين الحربين العالميتين ظهر « النول الجرّار » الذي حل مكان نول « الاجه » ولعب دوراً كبيراً في زيادة الانتاجية . وقد قامت بحلب أول صناعة للغزل والنسيج الآلي عام ١٩٣٣ تحت اسم « الشركة السورية للغزل والنسيج » التي بدأت انتاجها عام ١٩٣٧ ولاقت نجاحاً منقطع النظير بسبب قيام الحرب العالمية الثانية مما شجع على قيام مصنعين مماثلين في حلب ذاتها فور انتهاء الحرب وكذلك « الشركة الخماسية » بدمشق . وفي ١٩٥٩ كان عدد المغازل بحلب « بروش » ٥٢٢٠٠ مغزلاً أو ما يعادل نصف عدد المغازل في سوريا . ولم يكن انتاج الغزول في سوريا يتجاوز في معظمه نمرة ٢٠ مما كان يدفع لاستيراد الغزول الرفيعة لسد حاجات صناعة النسيج الرقيق والألبسة الداخلية والتريكو مما حدا لانشاء معمل الغزل الرفيع في حماه في الستينات بالتعاون مع الصين الشعبية ، وفي ١٩٦٦ مثلاً انتجت صناعة غزل حلب ٧٢٤٧ طن أو ٢٩ ٪ من الانتاج السوري .

واذا كان القطاع العام يسيطر على المصانع الكبرى للنسيج فإن هناك مصانع تابعة للقطاع الخاص تضم ما بين ٥ الى ١٠ أنوال ويقارب انتاج حلب من المنسوجات في العام قرابة ٢٠٠٠ طن .

م ـ صناعة السجاد اليدوي : تعود صناعة السجاد بحلب لعام ١٩٠٣ على اثر قيام مصنعين صغيرين بمبادرة من قائد درك حلب حينذاك الذي استقدم مدربين من الأناضول لتدريب الأيدي العاملة المحلية . وقد

نشطت هذه الصناعة في عـام ١٩١٩ على اثر قدوم عدد كبير من الارمن اللاجئين . وكان يتراوح الانتاج السنوي في الستينات بين ٩ و ١٥ الف م٢ على اثر قيام مؤسسات جديدة . وفي مطلع الثمانينات انشىء بحلب معمل للسجاد الصوفي بطاقـة انتاجية تبلـغ ٩٥٠٠٠ م٢ بالسنة ويعمل بـه ١٥٠ عاملاً .

ط ـ ومن اهم مشاريع الثمانينات في حلب كان مصنع الكابلات الذي تبلغ طاقته الانتاجية ٢٥٠٠ طن كابلات نحاس و ٤٠٠٠ طن كابلات المنيوم و ٢٠ مليون محوّل ، ويعمل به ١٠١٨ عاملاً .

كما قام مصنع لعلب البطاريات وطاقته الانتاجية اليومية ٩٠٠ وحدة او ١٥٠ الف علبة سنوياً ويعمل به ٦٠ عاملاً .

واخيراً قام بمحافظة حلب مصنع الجرارات « فرات » الذي يكاد يغطي حاجة الطلب المحلي .

ي ـ الطباعة : تفتخر حلب بانها اول مدينة في الشرق الادنى عرفت فن الطباعة الحديثة . فقد قامت فيها اول مطبعة جاءت من فالاشيا في عام ١٧٠٤ على يد المطران اثناسيوس دباس . وابتداءً من ذلك التاريخ ظهرت عدة كتب دينية وتاريخية في حلب منقولة الى العربية من اللغات الأجنبية. وفي ١٧٣٠ اسس آ. زاخر مطبعة صنع حروفها بنفسه وطبع عليها المزامير. ولكن تعتبر المطبعة المارونية التي تأسست في عام ١٨٥٧ بجهود المطران ج. مطر اول مطبعة حديثة بحلب .

وفي ١٩٢٣ كان عدد مطابع حلب ١٤ وارتفع الى ١٦ في سنة ١٩٣٨ والى ٣٨ عام ١٩٥٦ والى ٤٨ في ١٩٦٠ تؤمن الطباعة المحليـة والجرائد والقرطاسية وبعض المجلات مثل مجلة الضاد .

واخيراً نجمل بقية الصناعات في حلب كما يلي : خراطة المعادن ، صفائح وعلب التنك ، قوالب واكعاب الاحذية ، بلاط الموزاييك وقص الرخام ، المفروشات المعدنية ، السلاسل والمسامير .

وللتدليل على النشاط الصناعي في محافظة حلب نذكر تطور طلبات التراخيص والسجلات الصناعية منذ ١٩٧٢ ولغاية ١٩٨٧ : طلبات اقامة منشأة واستثمار ٨٤٣٨ ، طلبات تكبير حجم منشأة قائمة ١٣٧٤ ، السجلات المنظمة بناء على تراخيص اقامة منشأة ٥٤١٥ والسجلات المنظمة بناء على تراخيص تكبير منشأة ٧٩٩ . كما يبين الجدول التالي تطور عدد الرخص الصناعية الممنوحة بموافقة المكتب التنفيذي لمجلس محافظة حلب والخاضعة لأحكام القانون ٢١ لعام ١٩٥٨ وذلك منذ (١٩٧٥ ولغاية ١٩٨٧) : اقامة منشأة ٣٤٣ ، استثمار منشأة ٢١٥٦ ، تكبير حجم منشأة ٢٩٧ .

التعليم الصناعي : لقد ظلت مدرسة الصنائع والفنون ، التي تأسست بحلب عام ١٩٠٠ ، تجاه القلعة ، والتي تضم الآن بعض دوائر مديرية التربية ، اقول لقد ظلت مدة نصف قرن تقريباً المعهد الوحيد لتخريج عمال مختصين . ولكن ضيق بنائها ، وقلة تجهيزها ، لم يكن ليسمحا لها بقبول عدد كبير من الطلبة . ففي عام ١٩٢٣ لم يكن بها اكثر من ١٠٠ طالب يتعلمون خراطة المعادن والميكانيك والنجارة الحديثة .

وفي البدء كان منهاج المدرسة المذكورة يشتمل على ثلاث سنوات من الدراسة بعد الشهادة الابتدائية ، وكان الطلاب يستفيدون من منحة داخلية . وفي ١٩٣٠ كان الطلاب يدرسون بها التسوية ، الحدادة ، صهر المعادن ، الميكانيك ، نجارة الموبيليا وميكانيك السيارات ، ومنذ اكثر من ٤٠ سنة نقلت هذه المدرسة الى ابنية أوسع في جوار الفيض وتحولت الى مدرسة صناعية ثانوية بعد تمديد الدراسة فيها . وفي ١٩٥٠ انشأت وزارة المعارف بحلب مدرسة صناعية ثانوية لتلبية مطالب الصناعة المحلية الناشئة ، وفي ١٩٥٢ انشئت مدرسة مهنية للبنات ايضاً ، وفي ١٩٨٣ بلغ عدد المعاهد الصناعية في حلب ٤ والثانويات الصناعية ١٠ .

* * *

الفصل التاسع

الحياة الثقافية

مقدمة : لم يكن العثمانيون ، الذين حكموا بلادنا قرابة أربعة قرون ، من أنصار التعليم ، ولا غرابة في ذلك لأن التعليم لم يكن بأفضل من ذلك في بلادهم الأصلية ، وفي ١٨٣٠ كانت نسبة الأمية بين جنود شارل العاشر الذين هاجموا بلاد الجزائر أعلى مما كانت لدى الجزائريين . وكان التعليم الذي يعطى لأبناء الولايات مقتصراً في أغلب الأحيان على بعض الدروس في القراءة والكتابة فضلاً عن قراءة القرآن الكريم وتجويده . لكن كان لمدينة حلب ، مع ذلك ، في القرن الفائت مكانة رفيعة نسبياً في مضمار الثقافة ، اذا ما قورنت مع معظم المدن العثمانية . فقد كانت تعتبر بؤرة من بؤر الثقافة والفنون في الامبراطورية العثمانية بفضل معاهدها ومدارسها التبشيرية والتعليمية القائمة في الأحياء المسيحية بصورة خاصة .

فقد فتح الرهبان والراهبات الفرانسيسكان مدارسهم بحلب أمام الناشئة التي كانت تنهل من المعارف التي كان يضنّ بها عليهم الباب العالي من قبيل الإهمال وعدم الاكتراث أو خشية أن يؤدي انتشار الثقافة الى اليقظة والطموح والتطلع للحريات .

وفي ١٨٣٠ كانت حلب تبدو العاصمة الثقافية في سوريا حتى أن لامارتين الذي عاش فيها برهة من الزمن دعاها « اثينا الآسيوية » . بيد أن التعليم كان فيها من نصيب طبقة رقيقة تنتسب للبورجوازية الفنية ، و

منحصراً في الفئات الدينية . اما بين سواد الجماهير فقد كان التعليم شبه مفقود والأمية هي السائدة . ففي خلال النصف الثاني من القرن الماضي كانت المدارس التي تستحق هذا الاسم تعد على أصابع اليد . كما أن ندرة الكتب ودور النشر كانت من جملة عوامل هذا الفقر الثقافي ، مما حدا بأحد السواح الأجانب الذين زاروا سوريا على ١٨٣٧ الى القول : « إن حب المطالعة لدى السكان نادر جداً لدرجة لا تجد مكتبة عامة في دمشق أو في حلب » .

وأكبر دليل على استفحال الأمية بين عامة الشعب هو أن مشكلة المشاكل كانت قراءة الرسائل أو كتابتها ، إذ كان المتعلمون يتحملون دائماً عبئاً كبيراً في أحيائهم لأن عليهم يقع عبء تدبيج « المكاتيب » أي الرسائل وفك « ألغاز وطلاسم » الرسائل القادمة .

وقد أسس اسماعيل بك ، حكمدار حلب ، في أيام الحكم المصري مدرسة في عام ١٨٣٩ سماها « مدرسة الاسماعيلية » وأوقف عليها الأموال وجعل فيها مكتبة ،كما أضيفت مدرسة في الوقت نفسه لجامع القرناصية. كما بنى الروم الأرثوذكس مدرستين وروضة أطفال ، وأقامت طوائف الكاثوليك والسريان والموارنة والرهبان الفرانسيسكان مدارس طائفية . كما شرعت حكومة الولاية منذ عهد ابراهيم باشا بالعناية بنشر التعليم إذ أسس ابراهيم باشا في حلب مدرسة داخلية . وضمت مدرسة حلب ٤٠٠ طالباً لبسوا زياً رسمياً وتلقوا تدريباً عسكرياً .

وتأخر افتتاح أول مدرسة عثمانية حتى عام ١٨٥٤ حينما تأسس المكتب الرشدي ، وتلاه مكتب آخر بعد سبع سنوات . كما افتتح مكتب صناعة في عام ١٨٦٨(١) . وتشكلت أول دائرة للمعارف بحلب عام ١٣٢٣هـ (١٨٨٢) في الطرف الشمالي من ساحة باب الفرج وفوقها حتى اليوم

(١) في السنة المذكورة دخلت البندورة الى منطقة حلب وكانت تدعى « فرنجي » وتؤكل خضراء ، مثلما بدأ استعمال زيت الكيروسين « الكاز » في التنوير بعد الشموع والسراج .

لوحة رخامية « معارف دائرة نمي » . وافتتحت بعد عام من تشكيلها ١٣ مكتباً فيها قرابة ٧٥٠ تلميذاً . وبلغ عدد مدارس حلب في ١٨٨٢ خمس وثلاثين مدرسة للذكور و ٧ مدارس للإناث ، وكان يقوم على التعليم فيها ٧٦ معلماً و ١٨ معلمة و ١٧٥٥ تلميذاً و ٨١٠ من التلميذات ، مما يدل على هذه المدارس كانت ذات معلمين اثنين او ثلاثة او اقرب للكتاتيب .

وارتفع عدد المدارس بعد ٤ سنوات أي في ١٨٨٦ ، ليصبح كما يلي : مدرسة رشدية (٢) ، مدارس اسلامية ٩٠ ، عدد التلاميذ ٢٧٣٠ ، مدارس طائفية ٣٩ وعدد تلاميذها ٢٢٧٠ والمجموع ٥١٧٢ تلميذ في كل مدينة حلب .

ولم يتحسن الحال كثيراً أيام الانتداب الفرنسي بالنسبة لما كان عليه أيام العثمانيين ، اذ لم يتوسع اطار التعليم الا من ناحية ازدياد عدد المدارس الاجنبية وتوسعها ولاسيما التبشيرية منها مثل كلية حلب الأميركية البروتستانتية ، ومعهد الفرير ، ومعهد الفرانسيسكان الذي يعود لعام ١٩٠٧ ، والمدرسة العلمانية الفرنسية ، لان السياسة الفرنسية في سوريا لم تكن تختلف كثيرا عن سياستها في بقية مستعمراتها السابقة .

أما في مدن المحافظة والقرى فكانت المدارس، على ندرتها، لا تتعدى المرحلة الابتدائية. ويكفي أن نذكر أن كل الطلاب المتقدمين لامتحان الشهادة الابتدائية في محافظة حلب كانت تتسع لهم ، حتى قبيل الحرب العالمية الثانية ، بضع قاعات من التجهيز الاولى « السلطاني » او ثانوية المأمون حاليا ، في حي الجميلية وفي ١٩٤٥ لم يتجاوز عدد الذين حصلوا على الشهادة الثانوية في محافظة حلب عن ٥٠ طالبا .

وما أن بزغ نجم الاستقلال المجيد حتى أخذت الجمهورية الفتية تخطو الخطوات الرائعات في ميدان التعليم وراحت تخصص جزءا كبيرا من ميزانيتها للتوسع في ميدان نشر الثقافة والتعليم ، كما انفردت حلب

بمشروع القرش او ضريبة المدارس التي كان تستوفي على ايدي جباة البلدية ، او عن طريق ضريبة اضافية على تذاكر دور السينما والملاهي، بحيث انها اصبحت تحوي على مدارس ابتدائية وثانوية نموذجية من حيث اتساعها وتوفر الشروط الصحية فيها وجمال بنائها .

وهكذا أصبحت حلب ثاني مدينة ثقافية في سورية فضلا عن كونها العاصمة الاقتصادية ومركز اشعاع ونهضة يمتد نفوذه على كل الشمال السوري .

ـ تطور التعليم الابتدائي والثانوي :

تعود أول مدرسة ثانوية حكومية وهي « السلطانية ، أو التجهيز الاولى » بحلب لعام ١٨٩١ ولكن ونظرا لعدم كفاية عدد حملة الشهادة الابتدائية حينذاك لم يتجاوز عدد طلابها في ١٨٩٤ ٨٥ طالبا . وفي سنة ١٩١٤ تأسست أول مدرسة ثانوية للبنات الحقت بها دار للمعلمات فيما بعد ، وهي دار الوالي سابقا ، بمحلة الجميلية ، وفي ١٩١٦ تأسست أول دار للمعلمين في بناء التجهيز الاولى « السلطانية » او ثانوية المأمون اليوم.

وظل الامر على نفس المنوال طيلة فترة الانتداب ، التي استمرت قرابة ربع قرن من الزمن ، اذ لم تقم خلالها أية مدرسة ثانوية وطنية ثانية ، عدا مدرسة اعدادية في عام ١٩٣٨ في دار عتيقة في محلة الفرافرة. وما ان حصلت البلاد على استقلالها حتى ازداد عدد المدارس الثانوية ، على اثر قيام المدارس الجديدة ، كما ارتفع عدد اساتذتها وطلابها ارتفاعا شديدا وانشأت « وزارة المعارف » في كل مراكز المناطق « الاقضية » التابعة لحلب مدارس ثانوية او على الاقل مدارس اعدادية .

وفي ١٩٥٦ كان بمدينة حلب وحدها ٥ ثانويات للبنين تضم ٣٥١٩ طالبا وعلى ٣ ثانويات للبنات فيها ١٥٧٢ طالبة . وارتفع عدد مدارس المرحلة الثانوية فيها الى ٢٧٧ ، كما كان في دار المعلمين ٢٥٧ مقابل ١٧٧ طالبة في دار المعلمات .

وفضلا عن ذلك كانت هناك مؤسسات تعليمية تخص بعض الطوائف الدينية المختلفة ، أو أجنبية كالمدرسة العلمانية التي ظلت تعمل من عام ١٩٢٨ الى ١٩٥٦ وكلية حلب الأمريكية ، وكلية الأخوة المريميين ، والفرانسيسكان ، ومعهد الارض المقدسة ، ومعهد جان دارك للبنات التي كانت تشرف عليه راهبات القديس يوسف ، والذي تأسس عام ١٩٠٧ الخ ..

وفي الستينات جرى تأميم كل المدارس الاجنبية والخاصةوأصبحت تحت اشراف وادارة وزارة التربية مباشرة .

هذا وقد تضاعف عدد الطلاب والطالبات في محافظة حلب بين عام ١١٩٧٠ و ١٩٨٢ فارتفع من ٢٠٠٠٠٠ الى ٤٠٣٠٠٠٠ في ١٩٨٢ ويزيد حاليا عن نصف مليون أو أن خمس سكان محافظة حلب يتلقون التعليم في كل المراحل التعليمية . واستنادا الى احصائيات ١٩٨٢ كان في مدينة حلب ١٧٦ الف تلميذ وتلميذة في المرحلة الابتدائية مقابل ١٤٢ ألف في ريفها . أما في المرحلة الاعدادية والثانوية فقد كان في مركز المحافظة ٥٥ ألف طالب وطالبة مقابل ٢٦ ألف في المناطق التابعة لها .

هذا وتوجهت العناية للتعليم الفني. ففي ١٩٨٠ تم افتتاح ٧ مدارس فنية جديدة بالاضافة للمدارس الفنية السابقة وقد وزعت الثانويات الصناعية الجديدة على المناطق التالية : منبج ، اعزاز ، الباب ، عفرين، الاثارب كما افتتحت ثانويتان تجاريتان في المدينة الاولى للذكور والثانية للاناث .

وفي ١٩٨١ كان عدد الثانويات الفنية والمعاهد على الشكل التالي : معاهد صناعية ٤ ، المعهد التجاري المصرفي ١ ، الثانويات الصناعية ١٠، الثانويات التجارية ٤ ، الفنون النسوية . وكان توجه البنات نحو التعليم الصناعي والتجاري والمهني ملحوظا فارتفع عدد الطالبات من ١٨١ في ١٩٧٠ الى ١٨٠٠ طالبة في ١٩٨١ .

وكان تدعيم وظيفة حلب الثقافية متوجا باصدار مرسوم احداث كلية الهندسة في عام ١٩٤٦ وترتبط بالجامعة السورية بدمشق . وكانت هذه الكلية النواة الاولى التي قامت عليها جامعة حلب في ١٩٥٨ . وتضم جامعة حلب الكليات التالية : كلية الآداب والعلوم الانسانية ، كلية الاقتصاد والتجارة ، معهد التراث العلمي العربي ، كلية الهندسة ، كلية الزراعة ، كلية الطب ، كلية العلوم ، وكلية الطب البيطري .

وقد بلغ عدد طلاب وطالبات جامعة حلب في العام الدراسي ٦٣/٦٠٢ ٣٢٥٥ ، وارتفع في عام ٧٠/٦٩ الى ٧٩٤٨ ، والى ٣٣٣٠٨ في عام ٧٩/٧٨ بزيادة قدرها ٣٦٢٩ طالبا وطالبة عن عام ٧٨/٧٧ وبزيادة قدرها ٢٥٦٢ طالبا وطالبة عن العام الدراسي ٧١/٧٠ أي أن العدد تضاعف أكثر من ٤ مرات خلال عشر سنوات وبلغ عدد طلاب وطالبات الجامعة في العام الدراسي ٨٨/٨٧ ٤٧٤٥٧ .

ومما يستحق الذكر انشاء معهد التراث العلمي العربي عام ١٩٧٦ بهدف الكشف عن التراث العلمي العربي ووضع الدراسات والبحوث عنه واعداد الباحثين . ومن مشروعاته : اعداد موسوعة لتاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، اعداد موسوعة لتاريخ الثقافة والعلوم عند العرب ، اعداد موسوعة الحرف والصناعات التقليدية ، ومشروع مسح المنشأت المائية في سورية .

المطابع والنشر والصحافة :

لقد سبق أن رأينا تاريخ صناعة الطباعة في حلب ويكفي أن نذكر هنا فقط ان عدد المطابع ارتفع من ١٤ عام ١٩٢٣ الى ١٦ في ١٩٣٠ والى ٣٨ في ١٩٥٦ والى قرابة الخمسين في الستينات .

وتعمل هذه المطابع على طباعة القرطاسيات وأوراق التغليف وأوراق النعوات أو الكتب الثقافية والعلمية والتقاويم السنوية « الروزنامات » والمفكرات بيد أن التمركز الثقافي والاداري في العاصمة السورية لم يترك

لحلب اكثر من دور هزيل في مضمار النشر اذ لا تحوي حلب سوى دار نشر واحدة تستحق الذكر هي مكتبة عبد السميع عفش ، في حين كان فيها في الستينات اكثر من ثلاث دور للنشر وان كان نشاطها متواضعا . وتأخذ جامعة حلب على عاتقها طباعة الكتب الجامعية المقررة المعتمدة باللغة العربية أو الانكليزية والفرنسية . غير أن حلب تملك ما يربو على خمسين مكتبة تهتم ببيع القرطاسية والمطبوعات السورية أو اللبنانية والمصرية فضلا عن الدوريات الاميركية والفرنسية والانكليزية والروسية والصينية .

أما الصحافة المحلية فقد كانت دائما موقتة ، قصيرة العمر ، وذلك ليس لاسباب سياسية أو مالية فحسب بل بسبب منافسة صحافة العاصمة ، ولا سيما صحافة ومجلات الأقطار العربية الأخرى من كويتية وسعودية ولبنانية ومصرية .

وأول صحيفة يومية صدرت بحلب كانت جريدة الفرات الاسبوعية الرسمية وقد أسسها في عام ١٨٦٧ مكتوبي الولاية ، حالت بك ، وكان يرأس تحريرها ، وصدرت باللغتين التركية والعربية أولا ، ثم صدر العدد ٥٠ باللغات العربية والتركية والارمنية ، ثم حذفت اللغة الاخيرة اعتبارا من العدد ١٠١ وكان يصدر لها في بعض الاحيان ملحق تحت عنوان « علاوة فرات ، أو غدير فرات » .

وكان الغرض منها نشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة واعلاناتها ، واستمرت رئاسة تحريرها منوطة بمكتوبي الولاية الذين يتناولون رواتبهم الشهرية من ريع المطبعة . وأول محرر لها كان أحمد حمدي زوين الذي كان يترجم لها من التركية الى العربية ، وهو أديب وشاعر . وبعد أن هاجر الى الحجاز خلفه في عام ١٨٧٢ في مهمة الترجمة عبد القادر تقي الدين ، ثم أسندت مهمة الترجمة والتحرير فيها للمناضل الوطني عبد الرحمن الكواكبي ، وفي عام ١٨٨٢ عهد بهذه الوظيفة للمؤرخ الشيخ كامل الغزي ، ثم أسندت في ١٩٠٢ الى الشيخ محمد خير الدين حنيفي

الذي ظل فيها الى ان الغيت عـام ١٩١٦ وكان آخر أعدادهـا يحمل الرقم ٢٤٢٠ .

وفي ١٠/٥/١٨٧٧ صدرت بحلب جريدة الشهباء الأسبوعية لصاحبها هاشم العطـار المعروف بالخراط وكان يتولى تحريرهـا عبد الرحمن الكواكبي بمساعدة جماعة من أدباء حلب مثل ميخائيل بن أنطون الصقال، ولكن الجريدة لم تعمر أكثر من أيام قليلة إذ ألغاها والي حلب كامل باشا، المعروف بمقته للصحافة ، وذلك بعد صدور العدد الثاني .

وبعد عامين صدرت جريدة الاعتدال بتاريخ ٥ تموز ١٨٧٩ التي كانت تصدر بالعربية والتركية وكان يملكها هاشم العطار ذاته. ويشرف على تحريرها عبد الرحمن الكواكبي وسعيد شريف ، ولم يكن عمر هذه الجريدة أطول من سابقتها ، إذ أمر جميل باشا بإغلاقها بعد أن تصدّى الكواكبي للكشف عن مساوىء الموظفين وعرض حاجات البلد وتوسيع دائرة المعارف .

وفي عام ١٩٠٨ وقبيل خلع السلطان عبد الحميد الثاني بقليل صدر بحلب ، بترخيص من نظارة المعارف ، أربع صحف تحمل الأسماء التالية : الشهباء ، صدى الشهباء ، الشعب ، التقدم . ولكنها لم تعمر طويلاً إذ تمّ إغلاقها بعد قليل .

وعلى أثر دخول القوات العربية الى حلب عام ١٩١٨ صدرت جريدة « العرب » على يد فئة من الشبيبة العربيـة ، وكان المناضل الوطني سامي السراج مديراً لها أيام الحكم الفيصلي وأغلقت في ٢٦ / ٢ / ١٩١٩ لأنها نشرت مقالة تهاجم فيها الصهيونية ، ولا سيما بعد ان كتب مديرها مقالة يدعم بها مقالة كتبها اسكندر عمون من أعـداء الانتداب ، وكان السراج ممقوتاً من ضابطي المخابرات الانكليزية والفرنسية .

وفي سنة ١٩١٩ صدرت جريدة حلب بأمر من الوالي شكري باشا الأيوبي بصفحتين وكان يتولى تحريرها محمد منير المدوّر ، البيروتي ،

واستمرت بالصدور حتى اوائل سني الانتداب الفرنسي . وكان يصدر الى جانب جريدة حلب والعرب ، جريدة التقدم لصاحبها شكري كنيدر ، وجريدة النهضة وجريدة « حقوق البشر » ، وبتاريخ ٢٣ / ١ / ١٩١٩ ظهرت بحلب جريدة باللغة الفرنسية اسمها النهضة العربيـة ، مثلما ظهرت في اوائل عام ١٩١٩ جريدة ارمنية اسمها هاي ترين .

وفي خـلال فترة الانتداب الفرنسي كانت تصدر بحلب الصحف التالية : الجهاد لصاحبها محمد فهمي الحفار وعبد القادر الحمار المتوفي في عام ١٩٨٨ ، والشباب لصاحبها محمد طلس وكان يدعمها الحزب الوطني ، والميثاق لصاحبها شرف الدين الفاروقي ، والاتحاد لصاحبها محمود وهبي ، والأهالي لصاحبها شاكر نعمت الشعباني وكان يكتب فيها احياناً العلامة الشيخ بدر الدين النعساني ، والنذير لرئيس تحريرها احمد قنبر وكانت تنطق بإسم حزب الشعب ، والتقدم لصاحبها شكري كنيدر ، والوقت ، والحوادث لصاحبها حسين الشعباني . وكان اطول الجرائد الفرنسية عمراً بحلب هي برق الشمال التي تحولت الى اللغة العربية بعد جلاء الأجنبي ، وكان يملكها نقولا جانجي . ثم ظهرت صحف جديدة بعد حصول البـلاد على استقلالها نذكر منهـا جريدة الميزان لصاحبها حسن عبد العال ورئيس تحريرها عدنان محي الدين ، والوطن لصاحبها عبد الرحمن ابو قوس ، وجريدة التربية التي كانت تهتم أيضاً بالرياضة البدنية وكان يشرف عليهـا عبد السلام الكاملي ، وجريدة الصباح . والنهضة ، الأمل ، المرأة ، رسالة العمال .

وفي سنة ١٩٦١ كان يصدر بحلب الصحف التالية : آخر دقيقة ، برق الشمال ، التربية ، الحوادث ، الشباب ، الميزان ، الوطن ، نداء العروبة ، وجريدة الشرق وسورية الأرمنيتين .. ولكن صحافة حلب كانت تعاني دائماً من قلـة البيع ، لأن السحب في اية جريدة لم يكن يتجاوز ٣٠٠٠ نسخة مطلقاً مما كان يدفعها للاعتماد على الاعلانات ، او وضع نفسها تحت تصرف الاحزاب السياسية ومحترفي السياسة .

وبعد الحركة التصحيحية اخذت جريدة الجماهير على عاتقها النهوض بتغطية كل ما يتعلق بمحافظة حلب من اخبار واعلانات ومختلف الأنشطة فيها لأن الاعتماد في الشؤون العامة والدولية يقع على عاتق صحف العاصمة الثلاث وهي تشرين والثورة والبعث .

وقد صدر بحلب عدة مجلات في النصف الأول من القرن الحالي نذكر منها : الحديث ، وهي مجلة أدبية اجتماعية كان يراس تحريرها أديب الشهباء سامي الكيالي ، والقربان ، وكان يشرف عليها الاب آغناطيوس سعد الماروني وكانت تعالج المشكلات الأخلاقية والتاريخية والاقتصادية والاجتماعية وكانت واسعة الانتشار بالمهجر ، والسنابل ، والشهباء ، والضاد لصاحبها عبد الله يوركي حلاق ولا تزال مستمرة حتى اليوم ، والكلمة التي اسسها الأب قوشاقجي وتراس تحريرها فتح الله الصقال ، واليقظة والجامعة الاسلامية لصاحبها الأستاذ كحالة، واللواء التي صدرت عام ١٩٤٩ لصاحبها فكتور كالوس . ونذكر من اهم مراسلي الصحف الحلبية : ساطع الهبراوي ، ومن كتابها اللامعين مروان الجابري ، وفاتح جزماتي ، وأشرف الكاتب وزهدي الجاسر .

المكتبات العامة :

كانت حلب ولا زالت تشتمل على مكتبات غنية . فمنذ القرنين الماضيين كانت فيها مكتبات هامة مثل مكتبة المدرسة الأحمدية . وكان فيها ٣٠٠٠ مجلد ومخطوط ، والمدرسة الرضائية ، ومكتبة الجامع الأموي ، ومكتبة الخسروية وكان فيها ٢٠٠٠ مجلد ، ومكتبة أسعد الجلبي ، وفيها ٢٠٠٠ مجلد ، هذا كما عني مسيحيو حلب بالمكتبات فكانت لهم المكتبة المارونية التي انشأها المطران العالم جرمانوس فرحات سنة ١٧٢٥ وضمت ٧٣٥ مخطوطاً ، والمكتبة السريانية ، ومكتبة جبرائيل الدلال .

واهم المكتبات الحالية ، فيما عدا مكتبة جامعة حلب ، هي المكتبة الوطنية في ساحة باب الفرج والتي شيدت في ايام المحافظ الأمير مصطفى

الشهابي قبيل الحرب العالمية الثانية ، بعد أن ظلت مدة طويلة في موقع متواضع وصغير في مكان عمارة العبارة حالياً ، وعلى التحديد في مكان مكتبة عبد السميع عفش الحالية. غير أن هذه المكتبة أصبحت لا تتناسب إطلاقاً مع مدينة تضم أكثر من مليون نسمة لأنها تبدو صغيرة إذ تعجز قاعة المطالعة فيها عن استيعاب الراغبين بالمطالعة فضلاً عن وقوعها في أكثر مناطق المدينة ضجيجاً وحركة .

وقد جاء انشاء المركز الثقافي الى القرب من المنشية ليلعب دور رديف للمكتبة المذكورة من حيث الدور الثقافي من مطالعة ومحاضرات ، ولكن تظل قاعة المحاضرات في المكتبة الوطنية أفضل قاعة بالمدينة للمحاضرات العامة ، وقد ضمت المدينة في ١٩٨٧ ثلاثة مراكز ثقافية ، المركز الرئيس هو الواقع في حي العزيزية ، والثاني في حي الفردوس ، والثالث في حي الصاخور .

الحياة الأدبية والعلمية في حلب :

لا يتسع إطار هذا الكتيّب لاستيعاب كل ما يجب قوله عن الحياة الأدبية والعلمية في حلب بل سنقتصر على ذكر بعض أعلام الفكر الذين انجبتهم أرض حلب الطيبة .

١ ـ انطون الصقال : ١٨٢٤ ـ ١٨٨٥ وهو شاعر حلبي ، واسع الثقافة ، عمل ترجماناً للجيش البريطاني في حرب القرم .

٢ ـ رزق الله حسون : ١٨٢٥ ـ ١٨٨٩ وينحدر من أسرة حلبية أرمنية ، ايرانية الأصل ، عمل والده بالتجارة ، كما عمل ترجماناً لدى بعض القناصل الافرنج ، زار رزق الله لندن وباريس والقاهرة وأصدر جريدة مرآة الأحوال وكان صحفياً وشاعراً هجّاءً .

٣ ـ عبد الرحمن الكواكبي : ١٨٤٧ ـ ١٩٠٢ بدأ حياته مأمور إجراء بحلب ومحرراً في جريدة الولاية ثم أصبح رئيساً لبلدية حلب

سنة ١٨٩٢ ثم رئيساً لغرفة التجارة فيها ، فرئيساً لمجلس ادارة المصرف الزراعي بحلب . حرر في صحف الفرات والاعتدال والشهباء وأخيراً هاجر الى مصر سنة ١٨٩٤ ، واشتهر الكواكبي بكتابي طبائع الاستبداد وأم القرى ، وكلاهما مطبوع .

٤ ـ آل مراش :

آ ـ فرنسيس مراش : وينتمي لعائلة حلبية ، سافر مع أبيه الى أوروبا سنة ١٨٥٠ وزار بيروت . وبدأ دراسة الطب في باريس ولكنه لم يواصل الدراسة بسبب انحراف صحته فعاد الى حلب كفيفاً ، وأقام فيها زمناً ثم استقر في بيروت . ونشرت له ٩ مؤلفات من بينها « المرآة الصيفية في المبادىء الطبيعية » ، الذي صدر بحلب سنة ١٨٦١ و « رحلة الى باريس » وطبع في بيروت سنة ١٨٦٧ ، ومشهد الأحوال ، وديوان مرثاة الحسناء ، وشهادة الطبيعة وقد طبعت كلها في بيروت حوالي العام ١٨٨٣ . ولكن اشهر كتبه كلها هو « غاية الحق » الذي صور آراءه في الحكم ، ونشره في بيروت ، وفي القاهرة عام ١٨٨١ .

ب ـ مريانا مراش : وكانت اديبة وشاعرة توفت سنة ١٩١٩ ولها مقالات متعددة في الصحف العربية .

حـ ـ عبد الله مراش : مارس التجارة في انكلترا بين ١٨٦١ ر ٦٩ ثم انتقل الى باريس بعد نشوب حرب عام ١٨٧٠ كي يعود الى انكلترا ليشارك في تحرير « مرآة الأحوال » التي أصدرها رزق الله حسون هناك. وعاد الى باريس ثم توجه للقاهرة حيث اشترك مع أديب اسحق في تحرير جريدة مصر الحقوق ، ومع ميخائيل العورا في اصدار جريدة الحقوق وكوكب الشرق في باريس . ونشرت له صحف البيان والضياء المصريتان بعض المقالات . ومات عبد الله في باريس سنة ١٩٠٠ .

ه ـ الشيخ كامل الغزي : وقد عمل في تحرير جريدة الفرات كما ذكرت آنفاً ، وكتاب نهر الذهب في تاريخ حلب في ثلاثة أجزاء ، ومطبوع

بالمطبعة المارونية بحلب ، وسيطبع من جديد بإشراف الأديب محمد كمال وتشجيع من معهد التراث بجامعة حلب .

٦ ـ اميل كوسا : وهو من الأسماء التي لمعت في الأدب الأجنبي الى جانب الأدب العربي ، وقد توفي في سن الثلاثين عام ١٩٢٣ بعد ان انهى دراسة الطب ، وكان مثقفاً رقيقاً حساساً ، ومن هؤلاء السيدة زوبه الحمصي الغضبان الأديبة الشاعرة ، واسعد محفل ، ورزق الله سالم الأديب الواسع الاطلاع .

٧ ـ ادمون رباط : محام لامع ، مجاز في الآداب ، ودكتور في الحقوق ودبلوم من معهد العلوم السياسية .

٨ ـ الشيخ راغب الطباخ : وهو مؤرخ كبير له كتاب « اعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء » والذي أعيدت طباعته بجهود السيد محمد كمال.

٩ ـ الشيخ نجيب سراج : فقيه كبير ، وكانت حلقات دروسه في الجامع الأموي الكبير ، مقصد الكثيرين من المتعطشين للتعمق في المعارف الاسلامية .

١٠ ـ الأب مناشه : وكان عالماً عارفاً بأنساب العائلات الحلبية .

١١ ـ الشيخ بدر الدين النعسالي : وكان عالماً كبيراً وأديباً شهيراً وشاعراً مقلاً اشرف على جريدة أم القرى في المدينة المنورة خلال الحرب العالمية الأولى ودرّس في التجهيز الاولي « السلطانية » وكانت مقالاته ذات قيمة كبيرة في جريدة الاهالي .

وختاما نذكر بعض الأدباء المعاصرين امثال السادة : المرحوم سامي الكيالي صاحب مجلة الحديث ، الشاعر شارل خوري ، عبد الله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد ، المرحوم خليل هنداوي الأديب المشهور ، والمرحوم جورج سالم ، والدكتور صباح محي الدين المتوفي بالكويت عام ١٩٦٢ ، والكاتب الروائي فاضل السباعي .

هذا كما أنجبت حلب عددا من الاساتذة لكل من جامعتي دمشق وحلب والجامعات العربية والاجنبية نذكر منهم الدكاترة : معروف الدواليبي ، مصطفى الزرقا ، رزق الله انطاكي ، أنور حاتم ، عبد الوهاب حومد ، محمود عابدين رستم ، محمد مكي ، فارس عيسى ، تقي الدين رفاعي(١) ، صبحي مظلوم ، هدى الصابوني ، صالح وعبد الكريم الاشتر بدر الدين قوجة(٢) ، عبد الرحمن الشيخ أمين(٣) ، ظافر ترمانيتي ، ظافر وفائي(٤) ، محمود فيصل الرفاعي ، الدكتور عبد السلام ترماينني والدكتور منذر مكانسي(٥) وغيره كثيرين ممن لا يتسع المجال لتعدادهم .

الحيـاة الفنيـة :

١ ـ المسرح : أسست الجالية الاجنبية ، في حلب ، في القرن الثامن عشر مسرحا على الطريقـة الايطاليـة للتمثيـل والأوبرا . كمـا أنجز الفرنسيون بتاريخ ١١ شعبان ١٢١٥ هـ مسرح الأزبكية « وهو المعروف عندهم بالكوميدي ، وهو مكان يجتمعون فيه كل ١٠ ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلي مقدار ٤ ساعات من الليـل وذلك بلغتهم ولا يدخـل أحـد الا بورقة معلومـة وهيئـة مخصوصة » .

ولكن هذا النوع من التمثيل لم يعمر طويلا لأن المسرح الذي أقامه الافرنج في خان الجمرك بحلب سرعـان ما توقف عن العمل . واكتفى الافرنج فيما بعد باقامة المساخر والكرنفالات وسماع الموسيقى ولم تعرف

---

(١) يعيش في باريس منذ ١٩٥٦ وهو خريج مدرسة السنترال والبوليتيكنيك ودكتوراه من معهد المناجم ويعمل في شركة البترول الفرنسية .

(٢) استاذ سابق في كلية الهندسة نشرت لـه دار ماسّون الباريسية مؤلفا في الفيزياء .

(٣) من مشاهير جراحة أورام الدماغ في الولايات المتحدة (شيكاغو) .

(٤) جراح عيون في جامعة هارفارد سابقا ويعمل حاليا في مستشفى الملك خالد في الرياض .

(٥) كبير مهندسي شركة دوبون نومور للكيماويات والمنسوجات التركيبية في تينيسي بالولايات المتحدة الامريكية .

حلب العود الى ان ادخله اليها سعيد الشامي سنة ١٨٧٦ . اما رقص السماح الذي اشتهرت به حلب فقد كان متصلا الى حدّ ما ببعض الطرق المذهبية اذ علّمه الشيخ احمد عقيل الحلبي وتتلمذ عليه الكثيرون مثل احمد ابو خليل القباني الدمشقي .

وقد قامت فيما بعد عدة اندية متعاقبة للتمثيل تضم بعض الهواة الشبان الذين كانوا يقومون بتمثيل روايات وطنية او هزلية ، ولكنها كانت تنهار بسرعة لافتقارها للدعم المادي ، ولا سيما في عهد الانتداب ، ولكن كانت مع هذا تظهر بعض الروايات الهزلية القصيرة جدا والمندمجة في برامج المسارح الصيفية التي كان يختلط فيها الرقص المصري مع الغناء ، والمونولوج ، والموسيقى الالية .

٢ً ـ النحت والرسم : لقد عرفت حلب فن النحت على يد شاب عصامي اختطفته يد المنون وهو في ريعان شبابه ، وهو فتحي قبيوه وقد صنع عدة تماثيل لعلّ أشهرها هو تمثال أبي العلاء المعري الذين يزدان به مدخل المكتبة الوطنية ، وظهر شاب لمع في فن النحت هو عبد الرحمن الموقت وله نصب تذكاري للشهداء في ساحة سعد الله الجابري .

ولكن كان لفن الرسم النصيب الاوفى اذ نبغ فيه عدد من الرسامين المرموقين الذين استقبلت لوحاتهم في المعارض المحلية واحيانا الدولية ونخص بالذكر منهم الأساتذة : وهبي الحريري ، المهندس ، غالب سالم ، نديم بخاش ، نوبار صباغ ، لؤي الكيالي ونبغ فاتح المدرس الذي نال العديد من الجوائز الدولية والاستاذ في كلية الفنون الجميلة بجامعة دمشق وقد اشترك في العديد من المعارض الدولية .

ج ـ الموسيقى والغناء : الموسيقى تجري في عروق ابناء الشمال السوري سواء في المدن او في الريف . ففي حفلات الاعراس الريفية . يستطيع الانسان ان يبتهج برؤية الرقصات « الدبكة » التي يشترك فيها الشباب والشابات في الثياب الزاهية الوطنية، الفولكلورية، التي تتباين

بتباين المناطق ، وذلك على انغام الطبل والمزمار ، كما يسمع الانسان في المناسبات الانغام الصادرة عن الدربكة والناي والربابة والطبل وهي من ادوات الطرب التقليدية .

اما في المدن، ولا سيما في حلب، فقد ظهر فيها، رغم كل الظروف ، عدد من الهواة والمحترفين في الموسيقى والغناء مثل المطرب أحمد الفقش والياس الدهان اللذين اشتهرا بمواويلهما السباعية ، وأحمد الأوبري الملحن ، وجميل الجوخدار وفاتح العقيلي الذين عملوا في نشر الموسيقى وتعليمها وتحبيبها الى شبيبة المدارس الرسمية ، وأنطون ظابيطا الذي عمل مدة في اذاعة حلب كعازف على الكمان ، والزرنجي والدرويش الشهيرين بالعزف على الناي ، ومحمد النصار كمطرب في الحفلات الدينية والاعراس ، غير ان المطرب الذي تجاوزت شهرته حلب والقطر العربي السوري فهو بلاريب صباح فخري « ابو قوس » الذي اعطى « القدود الحلبية » زخما لم تعرفه من قبل وقد اعجبت به الجماهير في افريقيا العربية كما لاحظ كاتب هذه السطور ذلك شخصيا في تونس .

* * *

الفصل العاشر

الحياة الاجتماعية

أولا ـ الجمعيات والاندية : لما كان وجود الجمعيات والاندية المتنوعة الانشطة من سمات الحكم الديموقراطي الشعبي والحياة الدستورية ، نلاحظ أن هذه التشكيلات الاجتماعية لم يكن لها وجود يستحق الذكر تقريبا في العهد التركي ، شأنها في ذلك أيام الانتداب الفرنسي ، اذ لم تكن الأندية والجمعيات تمارس نشاطها الا اذا كانت بعيدة كل البعد عن كل مايمس مصالح الحاكمين اويذكي في نفوس المواطنين حب الحرية والانفلات من النير الاجنبي .

وهكذا كانت الاندية حينذاك تقتصر في نشاطها على العاب التسلية أو الميسر ، أو الرقص ، أو الرياضة والموسيقى ، ونادرا كحلقات دراسية تضم مختلف العناصر الشعبية . وأهم الاندية التي كانت قائمة في عام ١٩٣٠ هي : نادي حلب ، نادي العائلات السوري ، نادري الشبيبة الكاثوليكية ، نادي الشبيبة الارمنية ، نادي الفنون ، اتحاد حلب الرياضي ، نادي الهومنتمن (النادي الارمني للتربية البدنية) . وأهم الجمعيات كانت : جمعية سائقي السيارات في سورية الشمالية ، جمعية طلاب الارض المقدسة السابقين ، جميعية المحاربين القدماء ، الجمعية الخيرية الاسلامية الخ .

وفي ١٩٦١ كان في حلب الاندية التالية : الاستقلال السوري ، الاهلي الرياضي ، حلب ، السعد ، السوري الرياضي ، السياحة البوري ، الشبيبة السورية ، الشرق ، الشهباء ، الرياضي ، العربي

الرياضي ، العمران ، الفاسبوراكان الفني ، الكاثوليكي ، اللواء العائلي ، المشعل الرياضي ، النسر الرياضي ، هيئة التعليم الابتدائي ، هيئة التعليم الثانوي ، الوحدة العربية للتمثيل .

كما كان في العام ذاته عدد كبير من الجمعيات المرخصة نذكر منها : أخوة التعليم المسيحي الكاثوليكية ، الاعمار والاسكان ، التعاونية الاستهلاكية ، التعاونية لبناء المساكن والخدمات الاجتماعية ، التعاونية للسكن ، الثقافية بكاريان ، حماية الاحداث ، الخيرية الارمنية ، الخيرية الاسلامية ، الخيرية لمواساة الفقراء ، رفع لمستوى الصحي ، السورية لمكافحة السل ، الشهباء التعاونية لبناء المساكن ، القديس منصور الخيرية ، متقاعدي الدرك ، المتقاعدين السوريين والمحاربين القدماء ، المرأة العربية ،مشاريع الكلمة ، المقاصد الخيرية ، النهضة الاسلامية ، هذا فضلا عن جمعيات أخرى نشأت بعد ذلك التاريخ ، مثلما تلاشت جميعيات اخرى .

ثانيا ـ المياتم : لعل أهم المؤسسات الاجتماعية الخيرية التي لعبت دورا كبيرا في التعفيف من حدة آلام الأيتام هي تلك الدور المختلفة التي تخص طوائف حلب الدينية ، والتي احتضنت اولئك الاطفال الذين حرمتهم الاقدار من عطف آبائهم وهم في أشد الاوقات حاجة للحنان وللرعاية . وقدتخرج من هذه المياتم ، رغم قلة امكانياتها المادية والمكانية، عدد كبيرمن الشبان الذين شقوا طريقهم في الحياة بنجاح سواء في ميدان التعليم أو في مجال المهن كنجارة الموبيليا والخياطة وصناعة الاحذية الخ.

وتضم حلب فضلا عن الميتم الارمني الذي يعود تاريخه لعام ١٩١٨ والذي انشىء لايواء بعض اطفال اللاجئين الارمن ، اربعة مياتم اثنان منها لابناء المسلمين وا ثنان لابناء الطوائف المسيحية وهي : دار الايتام الاسلامية ، الميتم الاسلامي (دار الصناعة) ، ميتم الروم الكاثوليك ، ميتم السيدة فاطمة لبنات الروم الكاثوليك .

ثالثا ـ المقاهي ودور السينما ودور اللهو :

١ ـ المقاهي : هناك عوامل متعددة تجعل عدد المقاهي العامة في مدينة حلب مرتفعا والاقبال عليها شديدا نوعا ما . ولكن علينا ان نميز بين المقاهي العائلية ، والمقاهي العادية التقليدية التي لا يرتادها سوى الرجال . فالمقاهي العائلية قليلة جدا نسبيا وحديثة اذ لا تعود لاكثر من نصف قرن مضى ، وتكاد تنحصر في احياء معينة لاتتعداها واهمها مقهى ومطعم السبيل ، مقاهي محطة بغداد وتكون هذه المقاهي صيفية غالبا وقد امتدت الان حتى منطقة المسلمية شمالا .

ولمقاهي حلب الصيفية سحرها الخاص نظرا لجفاف جو حلب في الفصل القائظ مما يجعل روادها يشعرون براحة ومتعة قل ان يجد الانسان لهامثلا في المدن السورية الاخرى ، وذلك لان البيوت الحجرية والاسمنتية التي نالت قسطا وافرا من حرارة الشمس المتوهجة خلال النهار ترد هذه السخونة ليلا مع الفائدة ، مما يجعل الاقامة داخل البيوت ليلا ثقيلة جدا الا في حالة وجود المراوح الكهربائية والمكيفات ، أو الذين لايجدون صعوبة في « السباحة في عرقهم » . وتقدم المقاهي الصيفيةغالباوجباتالعشاء الى جانب المرطبات او المشروبات الغولية . اما المقاهي التقليدية المسقوفة فهي التي يرتادها هواة لعب الطاولة ، او الورق ، أو الدومينو وتقتصر المشروبات فيها على الشاي والقهوة والزهورات « الأخلامور » والمياه الغازية وكان من اشهر مقاهي حلب « كوستي » و « طبخ نفخ » في شارع القوتلي .

وفي ١٩٦٠ كان في حلب ٢١٧ مقهى عاما بحلب أو مقهى واحد لكل ٢٣٠٠ نسمة تقريبا،غير ان عددها تناقص كثيرا والمقاهي الباقية اكبر بكثير من القديمة ومتباعدة نسبيا . ومرد ذلك الانكماش الى انتشار اجهزة التلفاز في كل المنازل تقريبا ماساعد على تقوية الروابط العائلية وتحسين البيئة الاجتماعية وان كان ضرر ذلك على الابناء والبنات الذين هم في سن الدراسة مؤكدا لاسيما اذا اضيفت اليه اجهزة الفيديو وافلامها المشبوهة .

هذا كما تختفي المقاهي العائلية تماما من مدن المناطق ولكنها تحوي على عدد كان من المقاهي العادية . كما يندر ان نجد المقاهي العامة في القرى لان « قوضة » المختار او الشيخ تحل محلها في كثير من الاوجه .

٢ ــ دور السينما : تعتبر دور السينما في حلب أهم وسائل التسلية، نوعا ما ، بالنسبة للأهلين ، ولا سيما بالنسبة للشبان وللغرباء وذلك نظرا لفقدان المسارح التي تعرض روايات مسرحية بصورة مستمرة ، أو دار للاوبرا ، أو قاعات الموسيقى « الموزيكهول » .

وقد ارتفع عدد دور السينما مع تزايد عدد السكان وارتفاع سوية المعيشة ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية ، اذ لم يكن سوى ثماني دور للسينما وارتفع عددها الى ٢٠ في ١٩٦٣ من التي تعتبر دورا فخمة اذا ما قورنت مع دور السينما في اوروبا لأن قسما عظيما من دور السينما هناك يعتبر من الطراز العتيق ، وصغيرة ، وغير حاوية على وسائل تكييف الهواء . وفي تلك الفترة كانت دار للسينما مقابل ٢٣٠٠٠ نسمة من سكان حلب مقابل صالة واحدة لكل ١١٥٠٠ نسمة في الولايات المتحدة ، أي كان عدد دور السينما بالنسبة لعدد الاهلين يعادل نصف نسبته في الولايات المتحدة الامريكية ، غير ان عدد دور السينما هبط في ١٩٨٧ الى ١٣ رغم تضاعف عدد سكان المدينة اكثر من مرة في تلك الفترة، وهذا دليل على دور التلفاز والفيديو في هبوط عدد روادها .

واهم دور السينما حاليا هي : العباسية (الشرقي الناطق سابقا)، حلب (الرويال سابقا) ، سينما اوبرا ، راميتا (روكسي سابقا) ، اوغاريت ، الكندي ، الحمراء (ديانا سابقا) ، وقد اغلقت سينما فؤاد (الأمبير سابقا) .

٢ ــ **الملاهي** : وتكون هذه عبارة عن كاباريهات او مسارح صيفية وكان عددها ١١ في الستينات ، وتحمل جميعا عند العوام تسمية «تياترو» مع أنها أبعد ما تكون عن هذه التسمية ، لانها بالاصح عبارة عن أمكنة رقص وغناء أو مسارح للتمثيليات الخفيفة ، لان الحفلات الفنية الراقية

نادرة جدا . وقد تصل الى حلب بعض الفرق المسرحية من فترةلاخرى، ولكن حفلاتكهذه لا يقبل عليها سواد الجمهور كثيرا ولا سيما اذا كانت تستعمل اللغة الاجنبية .

غير أن هناك بعض عروض الفرق المحلية أو التي تاتي من الاقطار المجاورة تقوم ببعض التمثيليات من نوع الدراما او الكوميديا ولكن التهريج أو التمثيل الهزلي الساخر يحظى باكبر اهتمام لدى عامة الجمهور . وهذا ما يفسر سرالنجاح الذي لاقاه ، بالماضي ، الفنان عبد الحميد رشدي أو « كشكش » على مسارح حلب قبيل الحرب العالمية الثانية . وفي برامج هذه الحفلات ذاتها تظهر راقصات سوريات او لبنانيات أو مصريات يرقصن على انغام الموسيقى او الغناء الرقصة الافريقية الاصل المسماة « رقصة البطن » .

وقد اشتهرت بعض المراقص والملاهي في فترة مابين الحربين مثل الباريزيانا (مكان سينما الاوبرا حاليا) وملهى الكيت كات ، وحاليالايزال ملهى الشهبندر سابقا (النخيل حاليا) يقوم بدوره السابق التقليدي بعد زوال ملهى اللونا بارك (زاوية الحديقة العامة الجنوبية الشرقية) ويندر ان تتردد الفرق الاوروبية على المسارح الصيفية التي يرتادها بعض العمال والعوام أو الريفيون السذج من الذين سحرتهم فتنة حلب واضوائها حيث يصرفون في سهرات مبتذلة ، حول موائد الخمرة ، ما جمعوه بعرق جبينهم من العمل الشاق خلال اشهر طويلة .

٣ ـ **الوظيفة السياحية** : ان سيماء المدينة ، والناحية الجمالية المحلية ، والقلعة ، والاسواق ، ومناطق حلب ، والمحتف والحمامات ، والفنادق الفخمة ، والمطبخ الحلبي ، وكرم الحلبيين وحبهم للغريب ، كلها عوامل تتضافر جميعا لتجعل من مدينة حلب مدينة يباركها السواح ويقصدونها .

فقد بنى الانسان كثيرا في سورية الشمالية ، وفي كل مرة نحفر في الأرض نعثر على أطلال وخرائب ، وكلما تعمقنا فيها كلما تعرفنا على

تاريخ الحضارات الأقدم . ومن جهة النظر هذه يمكن اعتبار محافظة حلب مصدرا لا ينضب بالنسبة للعالم الآثاري ، ومنطقة تكثر فيها المراكز التي تثير فضول السائح ، فهنا يكون علم الآثار حيا باستمرار . ففي كل عام يعثر الباحثون على آثار خلفتها لنا الأمم الغابرة ، كما لو كانت هذه المدنيات تحيا وتتطور تحت أبصارنا . وتتوزع أهم الآثار في غربي حلب وشرقيها . فباتجاه البادية والفرات نعثر على الآثار الحثية والآشورية والكلدانية ، والى الغرب منها ، وباتجاه العاصي والساحل ، نقف أمام العاديات الاغريقية والرومانية والبيزنطية والفرنجية والصليبية .

ويتجه الطريق من حلب شرقا نحو الفرات والصحراء وبغداد حيث يصل المسافر الى مسكنة ، اذ يكون الفرات في أقرب نقطة بالنسبة للبحر الابيض المتوسط . وتعتبر مسكنة او بالس ، أو باربالیوس عند الاغريق ، أحد أقدم الموانىء النهرية في سوريا . ويجد السائح في وسط المدينة التي نقلت من مكانها بسبب غمر بحيرة الأسد ، المئذنة المثمنة الأضلاع ، والعجيبة ، التي تنبثق من الجامع الكبير الذي لا يزال سليما تقريبا كما يجد الانسان الى جانبه قسما من آثار تعود لأيام الامبراطور جوستينيان .

واذا سلك السائح الطريق المتجهة من حلب نحو الشمال الشرقي فانه سيمر بالباب ، الحاوية جلى اطلال قلعة اثرية ترى بقاياها من بعيد ، والتي تملك حدائق بهيجة تمتد في وادي البطنان .

ومن بعدها يصل الى منبج ، التي كانت تسمى مابوج عند الآشور وهيرابوليس عند الرومان ، والتي كان معبدها مخصصا لتمجيد الربة آستار غاتيس . وعند قرية تل أحمر الواقعة قرب ممر قديم على نهر الفرات يجد السائح بقايا قصر آشوري يعود للقرن الثامن ق.م ، مثلما يجد قلعة النجم على الوادي ذاته والتي تعود للعصر الاموي والتي تقدم صورة مصغرة عن قلعة حلب .

وبعدئذ يبلغ جرابلس ، أو كركميش القديمة التي تعبر عن عواصم مملكة الحثيين الأخيرة ، وقلعة مقاومتهم ضد الفتوحات

الآشورية ، والتي يشتمل الاكروبول فيها على نقوش وتماثيل رائعة . واذا عبر السائح نهر الفرات يصل الى ارسلان طاش التي تشتهر عند علماء الآثار بأسديها الحجريين اللذين كانا يحرسان مدخل أحد القصور الآشورية .

أما اذا اتجه غربا في اتجاه انطاكية فيمر اولا بباب الهوا الذي يعتبر أحد أقواس النصر التي شيدت في القرن السادس الميلادي على الطريق المؤدية الى قلعة القديس سمعان العمودي . والواقع يجد الانسان بجوار حلب ، وخاصة في منطقة جبل سمعان ، اكثر الكنائس المسيحية التي تعتبر كنوزا أثرية في سورية . فقد كانت هذه الكنائس محاطة بمدن كبيرة ، مشيدة بعناية أقل ، والتي اعترتها أشد عوامل الخراب بفعل الزلازل ، بينما بقيت الكنائس سليمة نوعاما ، ويعود أقدمها لاواخر القرن الرابع الميلادي ، وأحدثها يعود لحقبة ما قبل الفتح العربي الاسلامي مباشرة .

وأشهر هذه الاوابد هي بلا ريب تلك الكنيسة التي شيدت في اواخر القرن الخامس حول عمود القديس سمعان . ولما كان هذا الرجل الصالح الزاهد يبحث عن العيش منعزلا عن الناس ، فقد بنى لنفسه أعمدة تتزايد في ارتفاعها حتى بلغ ارتفاع آخرها ١٢ م والذي ظل يقيم فوقه الى أن وافته المنية .

ومنذ أيام القديس كانت مواكب الزوار تأتي اليه ولا تنفك عن التزايد مع الزمن ، وعن الحماسة لزيارة مقامة . وهكذا شيدت كنيسة ضخمة بفضل تبرعات المؤمنين ، وتعتبر أكبر كنيسة مسيحية بالعالم قبل بناء كنيسة القديسة صوفيا في استانبول . ويعتبر مخططها ، الذي يتخذ شكل صليب ، الوحيد من نوعه في تاريخ الفن المسيحي .

والى الجنوب الشرقي من حلب يعثر السائح على مواقع أثرية هامة مثل النيرب والسفيرة ذات الآثار الحثية ، وخناصر ، والراهب ، ورويهب بقربها التي تحوي على آثار تعود لحصون مسيحية كانت قائمة على سيف الصحراء ويسكنها رهبان محاربون .

أما حلب فتملك الكثير من عناصر اغراء السائح ، ولا سيما جمال بنائها ، وبيوتها المبنية بحجارة بديعة ، منحوتة ، مصقولة كأنها المعدن ، تتراوح ألوانها بين الأصفر والأبيض والوردي والأسود ، كما تتباين ألوانها حسب ساعات النهار ، وبأزقتها الساحرة الملتوية أحيانا والضيقة ، في المدينة القديمة ، والتي تظللها الشرفات الحجرية التي تمتطيها « الأكشاك » الخشبية ، والقناطر التي تتعاقب ، أو تنسد أحيانا بوجه هذا السائح فلا يرى أمامه سوى أبوابا ثقيلة مزدانه بمسامير غليظة وكأنها أبواب القلاع .

ويلمح السائح بين آونة وأخرى منظر مئذنة رشيقة ودقيقة تسمو من فوق سوية اسطحة المنازل كأنها سبابة هائلة تشهد على وحدانية الله أو يرى منظر نقوش في الحجر الصلد تعود لسبعة أو ثمانية قرون خلت ، ولكن ربما يستشف من خلف باب نصف مفتوح ، وهو لا يملك أنفاسه من الدهشة ، منظر باحة جامع بديعة ، تظللها أوراق شجر النارنج القائمة تتراقص الى جانبها مياه نافورة في وسط بركة تنشر حولها جواً منعشاً ورطيباً .

وعندما ينطلق السائح من سوق الزرب ينطلق فجأة من الأسواق شبه المظلمة الى نور يبهر الأبصار ، ولكنه يجد نفسه أمام قلعة وليست كسائر القلاع ، تذهله بكتلتها الجسيمة وبسفوحها المبلطة ، والتي تؤلف قاعدة ترتكز فوقها الأسوار الهائلة الشاهدة على روعة الفن العمراني الاسلامي ، تلك الاسوار التي تهيمن على المدينة .

ومن المؤكد أن القلعة هي مركز حلب القديمة وهي المحور الثاني الذي تدور حولهحركة المرور بعد ساحة باب الفرج وساحة سعد الله الجابري ، ولكن هذه الحركة تتحاشاها رغم أنها تطيف بها ، لأنالقلعة التي شيدت لإخضاع المدينة أو الدفاع عنها أو لحمايتها ،فقدت وظيفتها في اليوم الذي قرر فيه الولاة أن يهجروها ويقيموا في مكان آخر ، وهكذا تحولت القلعة الى ثكنة عسكرية ، وابتداء من عام ١٩٤٦ الى

مكان سيا حي او متحف قائم بحد ذاته اذا شئنا . اذن علينا أن نبحث عن حياة حلب في مكان آخر ، اي في الأسواق .

اسواق حلب : وتؤلف بامتدادها وبفتنتها ، وبطراز عمرانها الفريد من نوعه في مدن الاسلام والشرق ، ودورها ، واهميتها الحالية كسوق كبيرة، عامرة دائماً، اقول تؤلف إحدى اهم عناصر جاذبية المدينة. وتؤلف القناطر العالية البيضوية اطاراً لهذه الانفاق ، هذا في حين تترك الحوانيت الصغيرة ، القابعة في حجرات على طرفي هذه الانفاق ، فيما بينهاممرات ضيقة لايزيد عرضها عن بضعة امتار . وتتابع هذه الانفاق على مسافة آلاف الامتار ، بينما تمدها نوافذ مفتوحة في الاعلى بالنور الساطع على شكل حزم نور كانه منطلق من مصابيح كشافة . وهكذا يتعايش الظل والشمس دون أن يتداخلا مما يمنح هذه الأسواق جواً رطيباًمكيفاً تكييفاً طبيعياً خلال الفصل القائظ .

وتؤلف هذه الأسواق التي تمتد على اكثر من ١٥ كم مدينة تجارية قائمة بذاتها في قلب حلب ومركز الحياة التجارية التقليدية فيها .

اما متحف حلب الذي تاسس في عام ١٩٢٩ من قبل دائرة الآثار الناشئة فيعتبر منأغنى متاحفالشرق،كما ان تنظيمه ناجح جداً لأنالقطع الفنية القديمة والتماثيل معروضة فيه بشكل علميدقيق . ويعود تاريخ اغلب المعروضات الى ٢٠٠٠ حتى ١٠٠٠ قبل السيد المسيح عليه السلام . ونظراً لضيق هذا المتحف وعجزه عن استيعاب كل الآثار التي تكتشف في سوريا الشمالية من ان الآخر عمدت مديرية الآثار والمتاحف لبناء متحف جديد في موقع المتحف القديم ذاته ولكن على مساحة اكبر بعدة مرات وتم افتتاحه في اواخر الستينات .

وعلى كل يستطيع الزائر ان يرى فيه تماثيل من العاج اتت من حفريات تل حلف التي تمت بين ١٩١١ و ١٩١٣ وبين ١٩٢٨ و ١٩٣٠ على يد البارون اوبنهايم ، والرسوم الآشورية التي جلبت من ارسلان طاش ، ومن حفريات تل احمر ، وتماثيل وجدت في ماري ، والنيرب

وتل رفعت (آربادا) والسفيرة ومنبج . وكل هذه الآثار ذات قيمة لا تقدر بثمن يتباهى بها متحف حلب تجاه الكثير من المتاحف العالمية .

ويجتذب كل من المتحف والقلعة ومتحف التقاليد الشعبية في حي الصليبة عدداً من الزوار لا يزال يرتفع مع الزمن ، فبعد أن كان عدد زوار القلعة ٣٩٥١ في ١٩٣٦ ارتفع الى ٢٦٧٣٢ سنة ١٩٥٠ مثلما قفز عدد زوار المتحف من ٢١٣٦ عام ١٩٣٦ الى أكثر من ثلاث مرات في ١٩٥٥ فبلغ ٥٦٩٩ .

هذا وتتميز حلب بحماماتها التي كان يناهز عددها الاربعين في ١٩٦٠ وتبدو في معظمها واطئة بالنسبة للشوارع المجاورة لها ويعود ذلك الى أن زمن بنائها يعود لبضعة قرون من الزمن . ولا تتصف هذه الحمامات بفخامتها فحسب بل بنظافتها التي تمنحها طابعاً خاصاً ومن أجملها حمام برهم في حي الجديدة ، قرب متحف التقاليد الشعبية ، والحمام الجديدة في العقبة أو حمام « القَقاس » ومن الحمامات التي خربت أو فقدت وظيفتها حمام برسين في باب النيرب وحمام الذهب تجاه القلعة (الشكل ١٧) قرب حي جنينة الفريق في ١٩٣٥

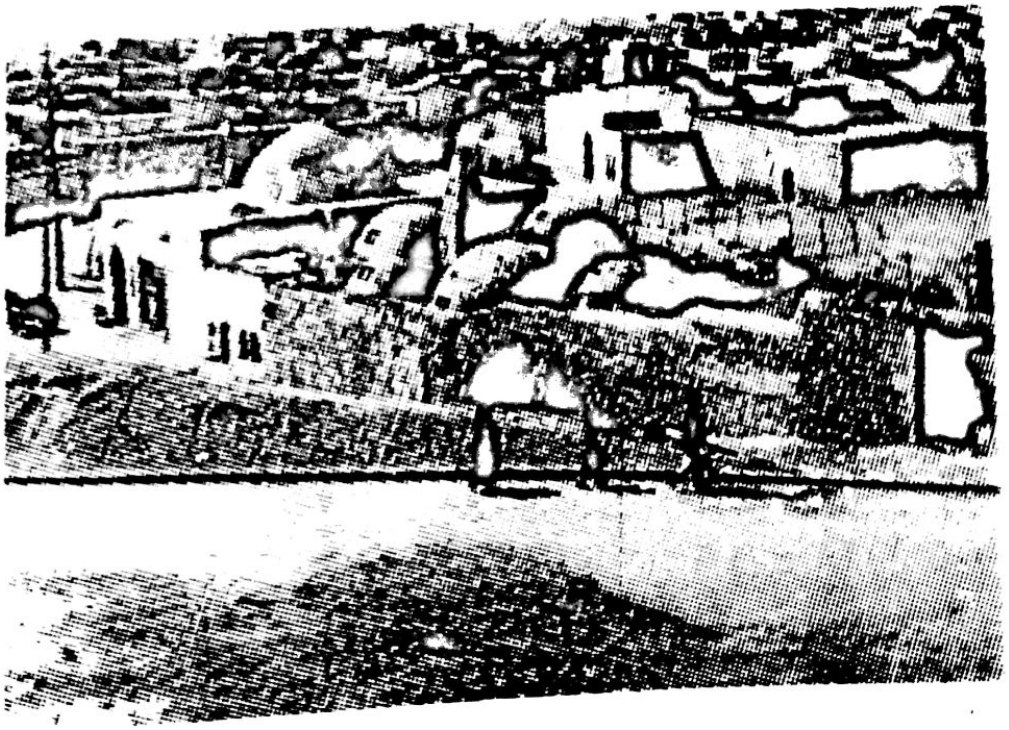

فضلا عن العديد منها نظراً لتقلص عدد زبائنها . وكانت تفتح هذه الحمامات صباحاً للرجال ، وللنساء بعد الظهر ، مع عدد من المستخدمين من « مكّيسين » و « مفلسين » و « اتباع » ، من رجال ونساء . وحرصاً من مديرية الآثار على إبقاء هذا التراث المهدد بالاندثار فقد رممت حمام يلبغا الأثرية تجاه برج قانصوه الغوري وقرب القصر العدلي ، واصبحت مقصد الهواة والسواح ولإقامة الحفلات كعقود الزواج ، وللاستحمام لمن يرغب من عشاق التراث والماضي المجيد .

ولكن السائح الذي يملك معدة مدّللة وذوقاً رفيعاً في فن تذوق الاطعمة اللذيذة يجد في حلب غاية أربه وأقصى أمانيه ، لأن حلب تتفرّد بألوان من الأطعمة الفاخرة لا تضاهى ولا يجد لها مثيلا في مدن الشرق الأخرى ، كالكباب الحلبي ، والكبّة بأنواعها ، واللحم بالكرز في الربيع ، وصفائح اللحم بعجين الشفافة أو عش البلبل .

هذا ولا تكاد تبارى حلب في حلوياتها العربية في حي الجديدة ولا في الكباب في بستان كل آب أو السقطية أما الذين يميلون الى المطبخ الأوروبي فسيجدون أكثر من عشرة مطاعم حديثة تقف على قدم المساواة مع اهم المطاعم الأوروبية . أما بقية المطاعم ويناهز عددها المائة فلا تقدم سوى اطعمة شرقية بحتة .

وقد ارتفع مستوى الفنادق في حلب من حيث تأمين الراحة والرفاهية كما ازداد عددها استعداداً لاستقبال المزيد من السياح والمسافرين . فبعد ان كان عدد فنادقها لا يتجاوز الأربعة عام ١٨٩٠ ، ارتفع الى ٣٠ عام ١٩٥٦ مقسمة الى اربع درجات منها ١١ فندقاً من الدرجة الاولى تحوي على ٣٥٧ غرفة ذات سرير واحد أو سريرين . وكانت هذه الفنادق متوائمة تماماً مع ما يرغبه السائح الأوروبي أو الأمريكي من وسائل الرفاهية كالتدفئة المركزية والحمامات والمصاعد الكهربائية وقد أضيف اليها أربعة فنادق مجدداً ، بعد الحركة التصحيحية ، وهي الفندق السياحي المطل على ساحة سعد الله الجابري ، وفندق بولمان في حي المحافظة وأمير في باب الجنان وشهباء شام (ميريديان) الى الغرب

من الملعب البلدي ، وهي فنادق ذات ٤ نجوم . وأهم الفنادق الفخمة سابقاً هو أوتيل بارون الذي أنشىء عام ١٩١١ أما بقية الفنادق فتتواءم مع الزبائن الشرقيين أو من أبناء أرياف حلب لأنها تشتمل على غرف تحوي على سريرين أو أكثر ولا تقدم الطعام والافطار لزبائنها .

ولكن أحد الجوانب الرئيسية التي تشد الغريب أو الاجنبي الى حلب والتي تجعله يقدر الإقامة فيها حق قدرها هو حسن ضيافة سكانها التي تذهب مضرب الأمثال وترحيبهم .

وقد قال ابن جبير عن حلب « قدرها خطير ، وذكرها في كل زمان يطير ، خطابها من الملوك كثير ، ومحلها من النفوس أثير ، فكم هاجت من كفاح ، وسل عليها من بيض الصفاح .. هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبر كان ، ونسخت صرف الزمان بالمكان ، انت اسمها فتحلت بحلية الغوان ، مراتب بالعذر فيمن دان ، وانجلست عروساً بعد سيف دولتها ابن حمدان ، هيهات سيهرم شبابها ، ويعدم خطابها ، ويسرع فيها ، بعد حين ، خرابها » .

وقالت الرحالة جرترود بل عن حلب في مطلع هذا القرن : « لا أعرف حتى الآن مدينة تعتبر بوابة للدخول الى آسيا ، أفضل من مدينة حلب ذلك أن هذه المدينة تتميز برجولة مواطنيها ، وبعظيم فنونها المعمارية ، وبمحافظتها على روح وذوق التراث العربي ، مما جعلها تحظى بتقدير خاص دون سائر المدن السورية الأخرى » .

والواقع يفتخر سكان حلب بكرمهم ، وهم على حق على الغالب ، ذلك انهم يستقبلون بقلب مفتوح ويحاولون بشتى الاشكال والتصرفات اللبقة والكياسة ان يستحوذوا على اعجاب ضيوفهم ، وبهذا الاسلوب يجلبون المسرة لنفوسهم المشبعة بالطباع العربية والشرقية . وقد كتب جون دافيد في كتابه « الكون العجيب » في عام ١٨٤٨ م : « على عكس ما يحسه الأجنبي في أية ناحية من نواحي الامبراطورية العثمانية فإنه لا يشعر بحلب بأنه متكدر أبداً » .

وهكذا تقدم هذه المدينة الموغلة في القدم أمام السياحة إمكاناتها الضخمة اذ لا يجد السائح في بعض احيائها حياة شرقية نقية لم تشوّه معالمها المدنية الأوروبية بعد فحسب بل سيجد فيها عدا ذلك بقايا تاريخية واوابد لا مثيل لها بالعالم الى جانب كل المكتسبات والمنجزات العصرية المتعلقة برفاه الانسان .

وبذلك يمكن النظر الى حلب كمركز سياحي كبير ، وقد انفتحت على البحر المتوسط بفضل ميناء اللاذقية وتمديد الخط الحديدي بين المدينتين . والواقع أن حلب ، بالرغم من كل ما تملكه من نواح جمالية وروعتها ، لا تزال بعيدة عن التيارات السياحية العريضة لان عدد الأجانب الذين يقصدونها للسياحة لا يزال دون ما تستحقه ، اذ لا يتجاوز الخمسين الفاً بالعام ، ذلك أن عشرات الآلاف من الزوار الاوروبين الذين يأتون على شكل قوافل ضخمة في عيد الميلاد ورأس السنة يرجحون التجول على ضفاف النيل المشمسة او على سواحل البحر الابيض المتوسط الدافىء عوضاً عن أن يتوغلوا في سورية الداخلية ويمروا بحلب التي تكون غالباً معرّضة في تلك الأوقات للبرد القارس او لعواصف الامطار وربما للثلوج .

الوظيفة السياسية والادارية لحلب :

ان اهمية محافظة حلب الاقتصادية والسياسية والستراتيجية ، وموقعها الجغرافي المتميز ، ودورها كعاصمة اقليمية كبيرة جعل من مدينة حلب منذ القرن السابع عشر مقراً لعدد من القنصليات الاجنبية التي لا ينفك عددها عن التزايد مع الزمن مما يبرهن على اهمية هذه المدينة من الوجهة الدولية . فقد بلغ عدد القنصليات القائمة بحلب في ١٩٦٠ ، ١٦ قنصلية تخص الدول الاوروبية وتركيا والعراق .

كما أن دور حلب منذ القديم كعاصمة منطقة كبيرة ، رغم تقلب الظروف السياسية ، يجعلها مقر كل فروع الجهاز الاداري والمالي وبالتالي تضم عدداً ضخماً من الموظفين ومستخدمي الحكومة .

والواقع تمثل الوظيفة بالنسبة للكثير من الشبان والشابات مهربا من البطالة الحقيقية التي تصيب افواج المتعلمين الناقصي الاختصاص كما أن البطالة المقنعة ونقص الاستخدام العام يدفع بالكثيرين لقبول وظائف وخدمات رسمية تتصف ، على الأقل ، بمواردها المنظمة ، وان كانت متواضعة شأن معظم دول العالم الثالث التي تعاني من ضغوط التفجر السكاني وعجز التنمية عن اللحاق بالنمو الديموغرافي الوثاب .

والتعليم المحروم تقريباً من كل توجيه وتخطيط ٧ يقدم اكثر من « كادرات » ناقصة الخبرة بالنسبة للوظائف العامة ، لان مدارسنا ومعاهدنا لا زالت في معظمها ـ ويا للاسف ـ معملا لتقديم رجال ادارة وليس لتقديم مواطنين منتجين مبدعين يستطيعون ان يلعبوا دور الريادة وأن يكسبوا رزقهم من عرق جبينهم ويزيدوا في انتاجية وطنهم ، كما أن النفقات الديموغرافية من غذاء وتعليم أولى ومصحات يحول دون توظيف الأموال الكافية في ميدان العليم التكنولوجي والتصنيع .

ولا غرابة في ذلك فهذه هي مأساة معظم الامم المتخلفة التي سبق لها أن اكتوت بنار الاستعمار وعانت من رضوضه ، فهي تغص بالمثقفين النظريين والفلاسفة والشعراء وأرباب الكلام ولكنها تفتقر بصورة مزمنة للخبراء واصحاب المبادرات ، مثلما تعاني من هجرة أدمغتها أي من أبنائها اللامعين الذين يستطيعون أن يرفعوا من مستوى أمتهم صحيا وماديا ، والذين يحولون الرمال الى ذهب والبوادي القفراء الى جنات خضراء .

ومن أجل صالح مستقبل سورية الاقتصادي والاجتماعي والسياسي علينا توجيه ناشئتنا أكثر فأكثر نحو التكوين المهني التقني : فبلادنا لا ينقصها ولن ينقصها ابدا الخطباء والمحامون والسياسيون والاداريون والشعراء ، بل ما تفتقر اليه أشد الحاجة فهم التقنيون والاخصائيون في كل فروع الصناعة والى مزارعين مطلعين على كل الاساليب العلمية لا يأنفون من العمل تحت الشمس وفي البرد ، والى مدربين وحتى الى عمال مختصين يعرفون مهنتهم حق المعرفة ، ولكن قبل كل شيء نحن بحاجة ماسة للحد من وسائل الترف والتخلص من « مفعول التظاهر » وأن نعيش بما يتناسب مع دخلنا الوسطي المتواضع الذي يقل عن نصف عشر دخل الفرد الياباني ، تلك الدولة الشرقية ، بل من الشرق الاقصى.

الامثال والحكم الشعبية

لا شيء يقدم للقارىء فكرة عن عقلية الفرد الحلبي خاصة ، وابن سوريا الشمالية ، عامة ، مثل التعرف على الامثال الدارجة المحلية ، التي هي عصارة تجارب قرون عديدة من الزمن ، بحلوها ومرّها ، وهي التي تعطي صورة عن مقومات الشخصية المتوسطة الحلبية بالماضي ، تلك الشخصية التي أخذت تتخلى ، تدريجياً ، عن الكثير من المفاهيم الخاطئة الموروثة عن عصور الاستبداد والذل وتستبدلها بمفاهيم الرجولة والشهامة والاستقامة التي تزدهر عادة مع حقب الاستقلال والديموقراطية الشعبية ومع التعرف على حقيقة مقومات الشخصية العربية المستندة على العزة الفردية والقومية .

١ ـ الثقة بالله :

الله حبلة طول : اي أن الله يمهل طويلا قبل أن يأخذ المذنب اخذ عزيز مقتدر .

الله يمهل ولا يهمل : يشابه المثل السابق في المعنى .

الله ما بترك حمل واقع عالارض : اي أن الله لا يترك الاعباء على عاتق أصحابها لمدة طويلة بل يعينهم على تحملها .

الله ما بنسى الدود في الحجر الجلمود : لا ينسى الله مخلوقاته وعبيده مهما كانوا منعزلين .

رب بكرا بدبر بكرا : رب الغد يساعد على حل مشكلات الغد .

خود الدوا من ايد العبد وسلم امرك للرب : خذ الدواء من الطبيب واترك امر الشفاء للرب .

تجوّز فقير والله بيعطي كتير : تزوّج ولو كنت فقيراً لأن الله يتعهد بالرزق .

الجيجة تشرب وتطلع للسما : يجب على الانسان أن يخشى الله لأن الحيوانات تخشاه شأن الدجاجة .

الله اذا اعطى ادهش واذا اخذ فتش : مثل يفيد بأن الله اذا رزق رزق بغزارة واذا امسك الرزق عن عبده حرمه ابسط الأشياء .

ويماثله قول ابي العلاء المعري :

ياتي الشتاء وفيه .. فقير معرّى او امير مدوّج

وقد يُرزق المجدود اقوات امة ويحرم منها واحد وهو احوج

٢ ـ القضاء والقدر والحظ :

المكتوب ما منه مهروب : لا محيد عن قضاء الله

البس بابوج السعيد بتصير سعيد

رافق السيد تسعد ورافق الشقي تشقى

مثلان بمعنى واحد ومغزاهما واضح

السعادة تلمع مثل الشرارة وترجع مثل الطنجرة : فترة السعادة قصيرة جدا سرعان ما تعقبها الايام السوداء .

إن غرق المركب زيده رفسه : اذا اخذت احوالك بالتداعي فلابأس من تعجيل ذلك الانهيار .

ابشع من القرد ما مسخ الله : مثل يقال عند توقع المصائب .

الزمان يوم إلك ويوم عليك : الزمان يتناوب بين التوفيق وبين الفشل .

عمر عطيني وبالجب ارميني : اذا كان الاجل طويل الامد فلا خوف من المخاطر .

ما بيقطع الرأس الا الذي ركبه : العمر محدود والجبن من قلة العقل .

ذنب السعادة أملس : السعادة تأتي بسرعة خاطفة مما يجعل من العسير الامساك بها .

الله بطعم النجاص للتي ماله ضراس : قد يرزق الله اناسا يبدو أنهم لا يستحقون ذلك .

لو تركض ركض الوحوش غير رزقك ما بتحوش : لا فائدة من كثرة السعي لأن الرزق محدود .

الرزق ما بيجي بالركض لأنه مافي حدا بركض متل الكلب : الرزق لا يأتي عن طريق ارهاق النفس والتخبط خبط عشواء .

٣ ـ الجهد الشخصي :

اعرج حلب وصل للهند : الحلبي لا يكف عن بذل الجهد في تحصيل الرزق .

أحسن مني ، الله خلقه ، أشطر مني دمّا فلقه : الجمال من الله أما الشطارة فالشخص هو الملوم في تقاعسه .

الكسل ما بطعمي عسل : لا يحصل الانسان بالكسل على ما تصبو اليه نفسه .

يا عبدي قوم حتى أقوم معك : الله يساعد الذين يساعدون انفسهم .

أصلك فعلك ياسفرجل : أهمية الانسان بأفعاله وليس بأجداده ويماثل هذا المثل الانكليزي الذي يقول : مثل الذين يفتخرون بأجدادهم كالبطاطا أهم ما فيها مدفون بالتراب .

اللي بتطبخ منه بتاكل منه : ما يقدمه الانسان لنفسه من عمله يجده أمامه .

حلال عالشاطر : مثل رديء يبرر كل نجاح رخيص يحققه الماهر أو المحتال في حياته والاعجاب بالسلوك الثعلبي .

٤ ـ الحياة العملية والتبصر :

كل لسان بإنسان : كل لغة يتقنها الفرد تضاعف من قيمته العلمية.

المتعلم التنبل متل الغيمة بلا مطر : من لا يضع علمه في خدمة الآخرين هو كالسحاب غير الممطر .

الرجال الرخو متل حبل الفسيل : الانسان العديم الشخصية مطية للآخرين من الطامعين به .

الطماع متل القبر ما بردّ مينت : الجشع لا يتردد أمام أي كسب مهما كان الاسلوب دنيئا .

الرمد خير من العمى : يجب أن يقنع الانسان بمصيبته لأن هناك ماهو أسوأ منها .

اذا كان حبيبك عسل ما تلحسه كله : لا تفرط في استغلال الصداقة وطيب الكرام .

يوم ديك ولا سنة جيجه : يوم واحد بالعز متل الديك ولا سنة بالذل كالدجاجة وهو يماثل المثل القائل : لأن تكون ذنب سبع أحسن ما تكون راس كلب .

خير ما منه دخانه يعمي : مثل يضرب لمن لا ترجى منه فائدة ولكنه كثير المشاكل .

انا اول من طاع وآخر من عصي : مثل موروث من عهود الاستكانة والظلم .

مائة أم تبكي ولا امي تبكي

مائة كلمة جبان ولا الله يرحمه

مثلان يدلان على الانانية المفرطة والتخاذل

الدّبين بعرف دقن بياع الدبس : الذباب ، او اصحاب الحاجة يعرفون جيدا من يقضي لهم حوائجهم .

المصري جوابه بتمّه والشامي بكمّه والحلبي حتى يشاور امّه : يدل على سرعة جواب وبديهة المصري والدمشقي وبطء تفكير الحلبي .

ان شفت الاعمى طبّه مانك اشفق عليه من ربّه : اذا رأيت أحدا بمأزق تسعفه فقد يكون مستحقا له .

كلمة نضيفة أحسن من جريدة وسخة : أي خير الكلام ما قل ودل .

حتى يصل الترياق من العراق يكون المريض فارق : مثل يقال لمن يطلب نجدة قد لا تصل بالوقت المناسب .

كتر الدلال بكرّه العشاق .

كلّه عند العرب صابون : والعرب يقصد بها البدو الذين لا يميزون بين السلع الجيدة والرديئة .

اللي بدّو يصير جمّال لازم يعلّي باب داره : من يتصدى لشيء يجب ان يثبت أهليته له .

اللي بدلّي زنبيله كل الناس بتعبّيله : من لا يحافظ على كرامته يتعرض لتعدّي اكثر الناس .

الفرس من خيّالها : المراة تتصرف خيرا أو شرا حسب شخصية زوجها .

العرض لله وللسلطان : الاعراض مقدسة لا يحق لأحد النيل منها .

عديم ووقع بسلة تين : متل يضرب لمن توصل لخير وفير بعد

حرمان طويل وتماثله الحكمة القائلة : اتقوا صولة اللئيم اذا شبع والكريم اذا جـاع .

الله لا يرزق الشحادة قعادة : مثل كالسابق .

دلال الشحاذين ليقه : دلال الشحاذين لابنائهم لزج جدا : ويقصد به حديثي النعمة أو « النفاريش » أو الاغنياء الجدد ومفردها نفروش ومأخوذة من الفرنسية نوفو ريش .

الله يحميك من الحفيان اذا صار له قبقاب .

إن غاب عنك أصله بدلك فعله .

لاقيلي ولا تطعميني: الترحاب خير من الاكرام المادي ويقول الشاعر:

وما الخصب للأضياف ان يكثر القرى

ولكنهمـــا وجـــه الكريـم خصيـب

ضرب الحبيب زبيب : الاذى من المحبوب حلو ومقبول .

كول فول وامشي عالاصول : وفيه دعوة للاستقامة .

إقعد اعوج وأحكي سيوي : ليكن كلامك مستقيما .

ان ردت تستريح اش ما شفت قول مليح : وفيه تخاذل ونفاق .

الشيطان ما بياكل الا من كيسه : مصير المحتال رديء وسينكشف أمـره .

ربنا ما خلق محتال متل التعلب لكن جلده معلق في كل الاسواق : متل يضرب لمستقبل المحتال الخبيث .

الدنيا مع القايم : ومثله قول الشاعر :

والناس مـن يلـق خـيرا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهَبل

فلان متل ميزر الحمال من عورة واحد لعورة واحد : مثل للمنافق الانتهازي الذي يقبل أعتاب كل ذي جاه وسلطه .

فلان مثل زرازير المعرة كل من مات (تغوط) فوق قبره :مثل للغدار الذي يفتك بكل من زلت به قدمه وهبطت مكانته بعد عز .

ارنبه وعضاضه : الضعيف الذي يريد ان يمثل دور القوى دون كفاءه

كلام مثل حبة البركة كل ميّه على رغيف : اي كلام قليل الاهمية على الرغم من كثرته . حبة البركة وتدعى حبة سوداء او الشونيز .

اربعين عصفور ما بعبوا مقلاية : اي اشياء كثيرة وتافهة بالوقت ذاتـه .

الرغيف خيال وهو يركض وراه : مثل عن الفقر المدفع الذي يتطلب جهدا هائلا لبلوغ الرمق .

كل حنطة مسوسة ولها كيال اعور : اي مهما كانت المـراة رديئة ستجد من يتزوجها .

لولا عميان القلوب ما نفقت السلع : وفي العالم الكثير من المغفلين الذين يشترون كل البضائع السيئة .

لو كان بالبوم خير ما فاته الصياد : اي لولا العيوب الخفية لكان هناك الكثير من الراغبين .

الرجال جنا والمرا بنا : الرجل مهمته جني المال والمراة هي التي تهدم او تبني بيت الزوجية حسب تصرفاتها .

اللي بتحطه بالدست بطلع بالمغرفة : يلقى الانسان نتائج عملـه خيراً فخير او شراً فشر .

اللي بتطبخ منه بتاكل منه : أو « ليس للانسان الاّ ما سعى » .

اللي طالع الجحش عالماذنه لازم ينزّله منهـا : مـن أساء التصرف عليه تقع تبعة تلافي الحطأ والمسؤولية .

ما دام طباخنا جعيص شبعنا مرق : مثل يقال عند تفويض شخص غير كفء بمهمة جليلة .

الهزيمة تلتين المراجل : الهزيمة في وقتها شجاعة إذا كانت بقصد إعادة الكرّة ، وإلاّ فالمثل رديء جداً .

خود الأصيل ونام عالحصير : تزوج من بنات الأصل المعروف ولو كنتما فقيرين .

اللي بياخذ القرد على ماله المال بروح والقرد بضل على حاله : مثل لا يحبذ زواج المصلحة من أجل المال ، لأن المال الى زوال . وفي الحديث الشريف : « من تزوج امرأة لمالها أذهبَ اللهُ مالهُ ومالها » .

زيوان حلب ولا حنطة جلب : مثل يدل على اعتزاز الحلبي ببنات بلده أو بمنتجاتها .

لبيس ما له ودكته بأربتعش : مثل الى من يملك الأشياء التافهة ويفتقر للأساسيات . ولبيس تعني سروال والدكّة هي الحزام .

من برا خام ومن جوّا سخّام : ويقابله عند الأوروبيين : « ثوب من المخمل وبطن من نخالة » .

الحمّامي فتح والأقرع عبَر : ويقال لمن يتصدر في المجالس ومكانته دون ذلك بكثير .

الأقرع اذا حكّا والأعور اذا جكّا : أي كل ذي عاهة جبار .

حليب أمه على تمّه : مثل يضرب للشخص الغرير القليل الخبرة بشؤون الحياة ومعاشرة الناس ، وبدمشق يقال : « دبساته مراق » .

الكف لمن سطره : أي النصر لمن يضرب أول ضربة .

ان ردت تسرق انشل حرير وان ردت تضرب أضرب أمير : مثل يضرب للابتعاد عن صغائر الأمور في الخير والشر .

الأرض الواطية تشرب ماءها وماء غيرها : التواضع يجلب لصاحبه الكثير من المكاسب .

الأرض مدرّكة بالشبر : تختلف خصوبة التربة وجودتها من مكان لآخر .

الكلب ما بعض دنبه : الوغد أو الشرير لا يؤذي أقرانه ويقول المثل الأوروبي : الذئاب لا تأكل بعضها بعضاً .

فلان متل البرد ما يدخل الاّ في قلب الضعيف : مثل يدل على الظالم الذي لا يتعدّى الاّ على الضعفاء .

كترة الأيادي تنزع الطعمات : كثرة المشورات والآراء تقود لتعقيد الأمور وفسادها .

لو بالشركة خير كان كل اتنين تشاركوا على مره : لو كان بالتشارك خير وبركة لاشترك رجلان بزوجة واحدة .

الله رزق العميان ولد قلعوا عيونه من التلميس أو من اللحمسة : قد يؤدي شدة فرح الانسان بشيء حصل عليه فجأة الى تلفه .

القرد بعين أمه غزال : كل شيء عزيز جداً على صاحبه .

اللي بياكل خبز السلطان بضرب بسيفه : الناس يخلصون لمن يوفر لهم أسباب العيش .

أسلمت سارة لا كتّرت الاسلام ولا قللت النصارى : مثل يضرب عن الشخص التافه الذي لا وزن له .

فلان متل الدب الطاير : مثل عن الشخص الغليظ الذي يريد أن يظهر خفة الدم .

اقلب الجرّة على تمنا البنت بتطلع لإمنا : البنت تكون صورة أمينة عن أمها في الخير والشر .

لا تجور عالندل بتعلمه المراجل : لا تظلم الخسيس فقد يقاتل بضراوة وشراسة .

٥ ـ الفصول والأنواء :

الشتا شدّة ولو كان رخا : الشتاء شدة على الانسان ولو كان في بحبوحة .

الصيف بساطه وسيع : يدل على سهولة العيش خلال الصيف لعدم الحاجة للكثير من اللباس وللتدفئة .

الدروة خير من الفروة : المكان المحمي من الرياح الباردة أفضل من الفراء .

إن أقبلت آدار وراها وإن أمحلت آدار رواها : يظل القول الفصل في الموسم الزراعي لشهر آذار بأمطاره .

ما بين تشرين وتشرين صيف تاني : الخريف يظل امتداداً للصيف .

تموز الهاوي وآب الشاوي : حر تموز محتمل بسبب الرياح المجففة للعرق وآب ثقيل اذا كانت الرياح منعدمة .

ايلول دنبه مبلول : من النادر أن يخلو شهر ايلول من الأمطار .

خلّوا الجمرات الكبار لقرصات آدار : لا تخلو أواخر آذار من موجات البرد القارسة .

مطر آدار يحيي اللي بار والمابار واللّي أكله الحمار : مطر آذار يحيي البذار المتأخر والناجح الذي قضمته الماشية .

الثلج خميرة الأرض : الثلج دليل على خصب الموسم الزراعي لضعف الحريان والتبخر .

٦ ـ الطعام :

أيام البطيخ ما في طبيخ : أي في موسم البطيخ لا حاجة للطبخ .

البيضة بتبيّض الوجّ : أي تكفي البيضة لتأمين وجبة للضيف فلا يستحي صاحب البيت من فقره .

الخبز الحاف بعرّض الكتاف : الخبز لوحده يكفي كوجبة غذاء ، بل ويمنح الصحة ، مثل شاهد على الفقر .

عضّ على راس حيّة ولا تعض على خيارة تشرينية : مثل ينصح بعدم تناول خيار الخريف ؟

المعلاق حتى يحرق واللحم حتى يعرق : اي يجب شيّ لحم الاحشاء جيداً في حين يكفي شيّ خفيف من أجل اللحم الاحمر .

البرغل بسامير الركب : أكل البرغل يمنح القوة للساقين .

كول أكل الجمال وقوم قبل الرجال : في الولائم كل بنهم شديد ولكن بسرعة ، لأن العادة إذا نهض أحد الجلوس وجب على الباقين النهوض ، وهي عادة غير مستحبة .

٧ ـ الصحة والسعادة والتعامل :

الف ليلة بالكدر ولا ليلة تحت الحجر : الحياة على مرارتها خير من الممات .

الموت بقطف الزهرات وبخلّي الوسخات : قد تختطف المنون أرواح الأفاضل وتمهل الأشرار ومثل ذلك المثل : « عمر الشقي بقي » .

الزنكيل عيونه سود والفقير عيوبه سود : الغنى ستار لكل المساوىء والفقر يفضحها .

الزنكيل حتى يفقر بدّو أربعين والفقير حتى يتزنكل بدّو أربعين : الغني يحتفظ بكبريائه وترفّعه ولو بعد أربعين سنة بعد إفلاسه والفقير الحديث الغنى يظل فقير النفس مدة أربعين سنة بعد غناه وهو النفروش.

اللّي عنده مال بخطب بنت السلطان : من يملك المال يستطيع أن يتقدم لخطبة بنات النبلاء .

قال له : ايش أطيب من العسل ؟ قال : الخل ببلاش : كل شيء بالمجان مرغوب .

اللي بشتغل بالعسل إله حق يلحس اصابيعه : من يعمل ويجد يحق له أن يستمتع بأطايب الحياة .

ان كنت غشيم ادفع نص التمن : مثل يدعو للمساومة خوفا من الغبن .

ميت قلبة ولا غلبة : خير للانسان ان ينكص مائة مرة ولا ينخدع مرة واحدة .

الشركة دركة : التشارك مع الآخرين لا يخلو من المخاطر .

دست الشركة ما بغلي : لا ينجح العمل الذي يتشارك فيه عدة أشخاص .

وحدك وحدك لو جار الزمان عليك : عليك بالوحدة في العمل والابتعاد عن التشارك مع الآخرين .

سألوا الأعمى منين بتعرف الطيب من العاطل ؟ قال : من تمنه : الثمن يميز الرديء عن الجيد .

شعرة من الخنزير مكسب : تحصيل المال من الخسيس فلاحو مهارة .

اللي ما بدّو يعير حبله بقول ناشر عليه حنطة : يتذرع من لا يريد خدمة الآخرين بأوهى الأسباب والمعاذير .

العين ما بتحب الأعلى منها : الغيرة من طبع الانسان .

طعمي التم بتستحي العين : الكرم يخفف من وقاحة الآخرين .

عليك بالدروب ولو دارت وبالمدن ولو جارت وبالبنت وان بارت : مثل موروث من عهود قلة الأمن .

الايد اللي ما بتقدر تعضها بوسها وادعي عليهابالقطع : مثل رديء يحث على النفاق وهو مقتبس بعد تحريفه من ديوان سعدي الشيرازي في

« غولستان » الذي يقول : « قبل اليد التي لا تستطيع أن تعضها ريثما تسنح لك الفرصة وتسلخ جلد صاحبها وهو حيا » .

يا حيف عاللحمة يا فول : مثل يضرب عند ضياع التعب من اجل نتيجة زهيدة .

العنزة الجربا ما بتشرب الا من راس النبعه : يدل على تطلع الانسان لما لا يستحقه .

من غاب عن العين غاب عن القلب : ومثله باللغات الاجنبية : « بعيد عن العين بعيد عن القلب » .

درب الكلب عالقصاب : لا بد للمتمرد الجاحد من أن يحتاج لاصحاب الفضل .

العصاية ما هي ضايعة بالكلب : العقاب والقصاص فيه فائدة للمذنب .

جبستين مابنشالو بيد واحدة : من الصعب القيام بمهمتين بآن واحد ، والجبس يعني البطيخ الاحمر .

جدي بدو يلعب بعقل تيس : محاولة الساذج خداع الذكي المجرب .

طحان ما بغبر على كلاس : لا فائدة من محاولة الخداع .

الخط الاعوج من التور الكبير : قد تأتي المخالفات الكبيرة من كبار القوم .

الغلبان بياكل مع صاحب مزته : مثل دنيء جدا يبرر مجاملة الظالم رغم لؤمه .

ان ردت تطعمي اشبيع وان ردت تضرب أوجيع : الكرم يجب أن يكون كما يجب والعقاب رادعا .

اللي بياكل العصي مومتل اللي بعدّا : من ينال ضرب العصي ليس كمن يحسبها

قالوا يامرا اطبخي طيب قالت يارجال كلف : الطعام الجيد يستدعي الكثير من اللحم والمواد الممتازة .

يا مسترخص اللحم عند المرق تندم : يندم حتما من يتزوج من امراة دنيئة الاصل وفي الحديث الشريف : اياكم وخضراء الدمن

علمناه الشحادة سبقنا عالبواب : مثل يضرب لمن يناقش سيده

كل شي بتزرعه بتقلعه الا ابن آدم يتزرعه يقلعك : قد يكون الغدر ونكران الجميل من شيمة بعض الناس ومن ذلك الحديث الشريف :

« ابت النفس الخبيثة ان تخرج من الدنيا ما لم تسيء الى من احسن اليها » .

ركبناه ورانا مدّ ايده عالخرج : قد يصنع الانسان معروفا فيحصد الشر والاذى .

خود من اللي كان له ولا تأخذ من اللي صار له : تزوج من بنات النعمة ولو افتقرن ولا تقارب الحديثي الغنى « النفاريش » .

الغني كان له والفقير منلّه (من أين له) ؟ : قد يستغرب الناس اذا ظهر الثراء على المعروف بفقره .

كل ديك على مزبلته صيّاح : الانسان عزيز بين قومه .

مال الخسيس ما بروح الا فطيس : مال البخيل لا يكون من نصيبه بل يذهب هباء .

فلان مثل الشوحة ما بهدّي الا على الفطايس : الدنيء لا يقصد الا امثاله .

الحاق البوم بدلك عالخراب : اذا صاحب الانسان الادنياء فالنتيجة منتظرة .

تجوّزوا يا فقرا كي تكثروا الشحاذين : مثل ساخر بالنسبة للفقراء الذين لا يكترثون بكثرة نسلهم الذي يتركونه للحرمان ولتربية الشوارع ومثله بالفرنسية : الاغنياء يصنعون المال والفقراء ينتجون الأطفال .

اللي بيستحي من بنت عمه ما بجيه أولاد : أي من يستحي من زوجته سيبقى دون نسل ، مثل يحث على عدم الخجل عند المطالبة بالحقوق المشروعة . ويعطي هذا المثل على شيوع زواج أبناء العمومة أو التزاوج الداخلي ، حتى ان الزوج يقول عند الكلام عن زوجته : « بنت عمي » .

انتهى

* * *

الفهرس

مقدمة		٥
الفصل الاول :	لمحة تاريخية	٧
الفصل الثاني :	الأهمية الآثارية لمحافظة حلب	٦٣
الفصل الثالث :	الجغرافية الطبيعية	٧٥
الفصل الرابع :	الادارة والسكان والأوضاع الاجتماعية	١٢١
لفصل الخامس :	المدن	١٦١
	حركة العمران في حلب وبلديتها	١٨٥
	مدن المناطق	٢٠٧
الفصل السادس :	أوضاع الريف الحلبي	٢٢٥
الفصل السابع :	التجارة	٢٥٧
الفصل الثامن :	الصناعة	٢٦٥
الفصل التاسع :	الحياة الثقافية	٢٧٣
الفصل العاشر :	الحياة الاجتماعية	٢٨٩
	الامثال والحكم الشعبية	٣٠٣

الطبعة الثانية / ٢٠٠٦

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

سعر النسخة داخل القطر ١٧٠ ل.س

مطابع وزارة الثقافة
٢٠٠٦

في الأقطار العربية مايعادل ٣٤٠ ل.س